مُنْيَةُ الطَّالبينَ

في

تفسيرِ القرآنِ المُبينِ

تفسير علمي أدبي يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتأريخية وروائية

المجلد السادس عشر

الفقيهِ المُحقّقِ

الشيخ جعفر السُّبحاني

دار جواد الأئمة

الفهرس

منية الطالبين في تفسير القرآن المبين الجزء السادس عشر: النحل، والإسراء
تفسير علمي، أدبي، يحتوي على أبحاث كلامية وعقائدية وتاريخية وروائية
تأليف: الفقيه المحقّق: جعفر السبحاني
نشر: مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام)
(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَ قُرْآنٍ مُبِينٍ) الحجر: ١.

مقدّمة المؤلّف

نحمده سبحانه ونشكره ـ ونصلّي على خاتم رسله وخلفائه ـ ونشكره على تحرير الجزء السادس عشر من موسوعة «منية الطالبين في تفسير القرآن المبين» وتقديمه للقرّاء الكرام والجزء يحتوي على تفسير سورتي «النحل» و «الإسراء» والسورة الثانية تحكي لنا معجزة كبرى للنبيّ الخاتم ألا وهي معجزة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى والعروج منه إلى السماوات العلى ثم إلى سدرة المنتهى، ولا أعجاز كونّي أفضل وأعلى منه. نعم هذه المعجزة ليست المعجزة الوحيدة للنبيّ الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم) ، بل صدرت منه (صلى الله عليه وآله وسلم)معاجز كثيرة احتفلت ببيانها كتب السيرة حتّى قام غير واحد من علماء الفريقين على جمع معاجزه وكراماته، وأخصّ هنا بالذكر كتابين قيّمين جميلين: أحدهما لعالم شيعي والآخر لعالم سنّي:

١. «إثبات الهداة بالنصوص والمعجزات»: تأليف العالم النحرير والمحدّث القدير محمد بن حسن الحر العاملي (المتوفّى سنة ١١٠٤ هـ) فقد خصّ الباب الثامن لمعجزات نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم)حيث أورد فيه ٧٢٠ حديثاً من كتب الفريقين في معجزاته في سبع وخمسين فصلاً ثم ذكر في الفصل الثامن والخمسين أشعاراً تتضمّن بيان معاجزه بالنظم.

٢. «حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين»: للشيخ يوسف بن إسماعيل النبهاني رئيس محكمة الحقوق في بيروت. جزاهما الله خير الجزاء. ثم إنّ قساوسة العصر يبذلون جهوداً لينكروا أي إعجاز للنبيّ غير القرآن الكريم حتّى أن القسّيس فندر الألماني يقول: من شرائط النبوة ظهور المعجزة ولم يكن لمحمد أي معجزة. ثم يستدلّ على ذلك ببعض الآيات.(لاحظ: أنيس الاعلام: ٥ / ٣٤٩؛ وميزان الحق: ٢٢٧.) نعم استدلّ بما ورد في سورة الأنعام من الآية ٩٠ ـ ٩٣ وقد أوضحنا حالها في ما مضى، كما استدلّ بما ورد في سورة الإسراء من الآية ٨٩ ـ ٩٣ فقد أوضحنا حالها في هذا الجزء وأنّها لا صلة لها بما يتبنّونه.

ثم إنّ القرآن الكريم يدلّ على بعض معاجزه الكونية :

١. شق القمر: (اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ)(القمر: ١ ـ ٢.) وقد أوضحنا دلالة الآيات في محلها على أن شقّ القمر ناظر إلى حياة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)لا إلى يوم القيامة.

٢. إسراء النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى والّذي ستقرأ تفصيله في هذا الجزء.

٣. المباهلة مع المسيحيّين: فقد دعا النبيّ الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)كبار نصارى نجران للمباهلة فقال: (تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ)(آل عمران: ٦١ .) غير أنّ القوم امتنعوا عن قبول المباهلة. لما علموا أنّ فيها هلاكهم ثم إنّ قسماً من الآيات يحكي عن مشاهدة المنكرين بعض معجزات النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)قال سبحانه: (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ * وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ)(الصافات: ١٤ ـ ١٥ .)، ثم إنّا قد بسطنا الكلام حول الموضوع في موسوعتنا «مفاهيم القرآن» الجزء الرابع. ومن أراد التفصيل فليرجع إليه. وصلّى الله على نبينا محمد وآله الطاهرين.

جعفر السبحاني :قم المقدّسة ـ مؤسسة الإمام الصادق (عليه السلام) ٢٣ من صفر المظفر ـ ١٤٣٩ هـ

١٦سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤)
وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ
إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ
شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)
وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ
مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا
وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ
اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠)
أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢)
لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤)
لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ
بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي
أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ
مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩) وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ
دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ
الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ
رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا
بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ
فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ
مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا
أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ

يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى
تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ
(٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا
يُؤْمَرُونَ (٥٠) وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا
أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ
مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ
لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا
وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ
الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)
وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا
فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ
الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) وَاللَّهُ
خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى
بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ
مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ
(٧٢) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا
هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ
أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ
السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ
إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ
أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا
شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ

وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ
نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ
إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا
صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤) وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ
أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ
مُشْرِكُونَ (١٠٠) وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ
مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ
إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥) مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ
مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي
الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)
يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً
يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ
مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ
(١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥)
وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ
(١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩) إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ
السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا
بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا
يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

تسمية السورة

سُمّيت السورة في المصاحف بسورة «النحل» لورود لفظه في هذه السورة فقط، وربّما تُسمّى بسورة النِّعم، لما عدّد الله فيها من النِّعم على عباده.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

عدد آياتها مئة وثمان وعشرون آية ليس فيه خلاف. والرّاجح أن قسماً من آياتها مكّيّ وآخر مدنيّ. ولا شكّ في أنّ الآيات في صدر السورة مكّية، ولعلّها نزلت قبيل الهجرة، إلى قوله سبحانه:(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)(النحل:٤٠). كما أنّ قوله تعالى:(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ)(النحل: ٤١)... إلى آخر السورة، يشبه أن يكون مدنيّاً، نزل بعد الهجرة بزمن يسير.

ومع ذلك ففي ثنايا القسم الثاني ما يرجّح أن يكون مكيّاً مثل قوله: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ)(النحل:٥٨)، ومثله قوله تعالى:(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ)(النحل:٧٣).

وعلى كلّ تقدير، فالسورة مؤلّفة من آيات مكيّة ومدنيّة يجمعها قرب زمان النزول، أي قبيل الهجرة وما بعدها بقليل.

أغراض السورة

تركّز السورة على المحاور الثلاثة التي تشكّل الأُسس الرئيسة للإيمان، وهي: التوحيد، والوحي، والبعث والنشور. وقد أكّدت على المحور الأوّل (التوحيد) من خلال الحثّ على التأمّل في النِّعم التي تفضّل الله سبحانه بها على عباده والتي بها قوام حياتهم، إذ بالتأمُّل في ذلك، يقرّ الإنسان بأنّه لا معبود سواه، فإنّ العبادة نوع شكر للمنعم، والمفروض أنّه لا منعم سواه، فينتج أنّه لا معبود سواه.

وتناولت السورة المحور الثاني، أعني: الوحي، الذي كان يكذّب به المشركون، وفنّدت ما كانوا يزعمونه من أنّ بعض البشر كان يعلّم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وينسب ما يتعلّمه منه إلى الله زوراً.

وأمّا المحور الثالث (البعث والنشور)، فعالجته السورة في جملة من آياتها من خلال الحديث عن يوم القيامة، وبيان القدرة الإلهية على إعادة الخلق من جديد، ومن خلال عرض بعض مشاهد القيامة، حيث يلاقي الجميع جزاءهم، كلٌّ بما كسب.

الآيتان:١-٢(أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ... أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ).

الآيتان: الأُولى والثانية

(أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ).

المفردات

أتى: فعل ماض ربّما يستعمل في القرب والدنوّ، يقال: أتى الأمير وهو بعدُ لم يأت، ولكنْ قرُب مجيئه.

أمر الله: ما أمر به سبحانه. وسيوافيك توضيحه في التفسير.

بالروح: أُريد به هنا الوحي، فشُبّه بالروح كما يشبّه العلم بالحياة، والجهل بالموت، قال سبحانه:(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)(الأنعام:١٢٢)، وسيوافيك أنّ في الوحي حياة القلوب والعقول ومن ثمّ المجتمع.

من أمره: الظاهر أنّ «من» بمعنى الباء أي بأمره، كقوله سبحانه:(يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ)(الرعد:١١) أي بأمر الله.

التفسير

١. (أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ):

في الآية أُمور بحاجة إلى بيان :

١. قوله:(أَتَى). لماذا عبّر بصيغة الماضي ولم يقل«يأتي»؟

٢. قوله:(أَمْرُ اللهِ). ما هو المقصود من الأمر المضاف إلى الله؟

٣. ما هو مرجع الضمير في قوله:(فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ)؟

٤. ما هي الصلة بين الفقرة المتقدّمة وقوله: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)؟

ومن خلال توضيح هذه الأُمور الأربعة يتبيّن ما هو المقصود من الآية.

أمّا الأوّل، فقد أتى بلفظ الماضي لكونه محقّق الوقوع، كما هو دأب القرآن الكريم في هذه المواضع. ويمكن أن يقال: بأنّه لمّا دنا أمر الله وقرُب، عبّر عنه بالماضي، كما إذا قرُب مجيء الأمير يقولون: جاء الأمير.

وأمّا الثاني، فإنّ صياغة الكلام ـ أعني: (أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ)ـ يعرب عن أنّ المأتيّ شيء فيه وعيد وإنذار، وهنا احتمالان:

١. أنّ النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يوعدهم بنزول العذاب، وهم كانوا يستعجلونه، كما يدلّ عليه قوله تعالى: (أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ * أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلاْنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ)(يونس:٥٠ـ ٥١.) فإنّ المتبادر من قوله: (بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا) هو العذاب الدنيويّ المعبّر عنه بعذاب الاستئصال، وعلى هذا فيكون المأتيّ هو الاستئصال الذي عمَّ صناديد قريش ومترَفيهم ومعانديهم في غزوة بدر الكبرى.

٢. المراد هو العذاب الأُخرويّ الذي كان المشركون يستعجلونه، ويدلّ عليه قوله سبحانه:(وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(يس:٤٨.)، فيكون المراد: قرُبت الساعة.

ولكن الأوفق لمضامين السورة هو الاحتمال الثاني.

وهناك احتمال ثالث دون الاحتمالين المتقدّمين، وهو انتشار الإسلام في ربوع الحجاز ونجد، اللّذين كانا معقلين للوثنية كما يشير إليه قوله: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)(التوبة:٣٣.).

وأمّا الثالث، فالضمير في قوله: (فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ)يرجع إلى أمر الله، والمراد: لا تطلبوا حصوله قبل حضور الوقت.

وأمّا الرابع: أعني ما هي الصلة بين الفقرة السابقة وقوله:(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)؟ فيحتمل أنّه ردّ لما يلوكه بعض المشركين من أنّه إذا نزل العذاب لَلَجأنا إلى أصنامنا فهي تشفع لنا، وعندها نتخلّص من العذاب بسبب شفاعة هذه الأصنام، فالله تعالى يردّ على هذه الفكرة بقوله: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)إذ ليس له شريك في أمر الشفاعة والحُكم والتدبير، فالحكم كلّه بيده.

٢. (يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ):

وهذه الآية الثانية نظير الأُولى، فيها نقاط تحتاج إلى التبيين:

١. قوله:(يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ) لأيّ شيء يُنزّلهم سبحانه؟ وما هي الغاية من تنزيلهم؟

٢. ما هو المراد من الملائكة؟ هل المراد هو جبريل(عليه السلام) أو جمع منهم؟

٣. ما هو المراد من الرُّوح؟

٤. ما هو المقصود من قوله: (مِنْ أَمْرِهِ)؟

٥. ماذا أراد من قوله:(عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)؟

٦. بماذا يتعلق قوله:(أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا) ؟

وببيان هذه الجهات يتبيّن معنى الآية:

أمّا الأُولى، فالغاية من التنزيل هي الإنذار كما قال:(أَنْ أَنْذِرُوا)والتقدير: ينزّل الملائكة للإنذار.

وأمّا الثانية، فيحتمل أنّ المراد بالملائكة الواحد منهم، وهو جبرئيل(عليه السلام)، لأنّه هو حامل الوحي من الله سبحانه إلى رسله أو إلى خصوص النبيّ الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم) كما قال:(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)(الشعراء: ١٩٣ـ ١٩٤.) أو أنّ المراد جبرئيل مع جمع من الملائكة لصيانة الوحي من أن يلتبس بباطل في نزوله على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وفي تلقّيه وإبلاغه إلى الناس، كما يدلّ عليه قوله في سورة الجنّ:(إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُول فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا). (الجنّ: ٢٧.)

وأمّا الثالثة، أعني الروح، فأُريد به الوحي وهو هنا القرآن الكريم، بقرينة إنزال الملائكة، وقد أُطلق الرُّوح على الوحي في مواضع أُخرى، قال سبحانه: (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)(غافر:١٥.)، وقوله سبحانه:(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ)(الشورى:٥٢.).

وأمّا تفسيره بالروح الإنسانية وغير ذلك، فيردّه ظاهر السياق .

وأمّا الرابعة، أي قوله: (مِنْ أَمْرِهِ) فالظاهر أنّ «مِنْ» بمعنى الباء أي بأمره.

وعلى هذا فالباء للسببية، نظير قوله:(يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ)(الرعد:١١.) أي بأمر الله، ومن ثمّ تدلّ الآية على أنّ نزول الملائكة تابع لأمر الله سبحانه.

وأمّا الخامسة، أي المراد من قوله:(عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) فلعلّ الفقرة ردٌّ على بعض اقتراحات الوثنيّين من لزوم كون النبي رجلاً ثريّاً عظيم الجاه الدنيويّ، كما يدلّ عليه قوله حاكياً عنهم:(لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُل مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم)(الزخرف:٣١.)، أو قوله: (مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ)(الفرقان:٧.)، والله سبحانه يردّ عليهم بأنّه ينزّل الوحي (عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) لا على من تشاءُون، وفي آية أُخرى:(اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)(الأنعام:١٢٤.).

ثمّ إنّ قوله سبحانه: (عَلَى مَنْ يَشَاءُ) لا يدلّ على أنّ اختيار الرسول والنبيّ فاقد لأيّ ضابطة، بل الآية بصدد الردّ على ما زعموه من الضابطة، وأمّا أنّ مشيئة الله فاقدة للضابطة فليست الآية بصدد بيانها. ومن المعلوم أنّ كلّ إنسان لا يصلح لتحمّل الوحي ورؤية الملائكة وإبلاغه للناس والمصابرة في طريق إبلاغه، إلاّ من اجتمعت فيه المواهب الإلهية، والاستعداد التام لتلقّي الوحي وإبلاغه.

وأمّا السادسة، أعني قوله:(أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا) فهو متعلّق بقوله:(يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ) فيكون بياناً لما يُنذر به، والتقدير: أنذِروا بأنّه (لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ)، وهذه الفقرة شاملة لمحتوى الرسالة الخاتمة، فقوله:(لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا)إشارة إلى جانب العقائد، وقوله: (فَاتَّقُونِ) إشارة إلى جانب العمل بالأحكام.

بقي كلام في إطلاق الروح على الوحي، وهو أمر و اضح لا يحتاج إلى بيان زائد، وذلك لأنّ حياة الشيء إنّما هي بروحه، فلو فَقَدَ الرُّوحَ صار جماداً ميّتاً، وعلى هذا فالوحي المتضمّن لبيان العقائد والسلوكيات، يُعدّ روحاً للفرد والمجتمع، ولو فقد ذلك النظام لأصبح متوحّشاً يفترس بعضه بعضاً، ويتّخذ من دون الله أرباباً شتّى، ولذلك نرى أنّه سبحانه يطلق الروح على الوحي كما في الآيات التي مرّ بيانها.

قال الشريف الرضيّ حول الآية: وهذه إستعارة لأنّ المراد بالروح هاهنا الوحي الذي يتضمّن إحياء الخلق، والبيان عن الحقّ، ومثل ذلك قوله سبحانه:(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا)(الشورى:٥٢.)، ومثله قوله تعالى في المسيح(عليه السلام):(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)(النساء:١٧١.) فسمّاه الله تعالى روحاً على هذا المعنى، لأنّ به حياة أُمّته وبقاء شريعته.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٩٠.)

الآيات:٣-٩ (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ... وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ).

الآيات: الثالثة إلى التاسعة

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ).

المفردات

بالحق: الباء للملابسة، أي مصحوباً بالحقّ وبعيداً عن الباطل.

نطفة: النطفة: الماء الصافي، وأُريد به هنا مادة التلقيح.

خصيم: منطيق مجادل عن نفسه.

الأنعام: جمع نَعَم، وهي الإبل والبقر والغنم والمعز.

دفء: الدِّفء خلاف البرد، وأُريد به هنا ما يُستدفَأ به من الألبسة والخيام.

جمال: زينة في أعين الناس وعظمة لديهم.

تُريحون: الإراحة ردّ الماشية بالعشيّ من مراعيها إلى مَباركها، والمكان الذي تُراح فيه (مُراح).

تَسرحون: السُّروح خروج الماشية إلى المرعى في الغداة.

أثقالكم: الأثقال: جمع الثِّقْل وهو المتاع الذي يثقل حمله.

بِشِقّ الأنفس: الكلفة والمشقّة التي تلحق الإنسان عند حمل المتاع الثقيل، وربّما يقال: إنّ الشِّقّ معناه الشَّطر والنِّصف، فيكون المراد: إلاّ أن يذهب شطر قوّتكم، أي نصف قوّة الأنفس.(مجمع البيان:٦/١٦١.)

قصد السبيل: سلوك الطريق الحقّ.

جائر: مائل عن طريق الحقّ.

التفسير

٣. (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ):

شرع سبحانه ببيان النِّعم التي تشهد بوحدانيّته وطلاقة قدرته فبدأ بذكر أنّه: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ) لا عبثاً، قال سبحانه:(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ)(المؤمنون:١١٥.)، فقوله: (بِالحَقّ): أي مصحوباً بالحقّ ومُبرّأً من العبث. وهذه الفقرة من الآية تشمل صحيفة الكون المادّي الزاخرة بالعجائب وتشمل ما بينهما، فإذا كان هو الخالق فهو إذاً المدبِّر، ومن ثم هو الإله الذي يجب أن يُعبَد، فصحّ أن يُعظَّم هو سبحانه ويُنزَّه عن كلّ شريك (تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ): أي تقدّس مقامه عمّا يشركون به من أجسام خالية من الرُّوح تعجز عن خلق بعوضة أو ما دونها.

وممّا يثير العجب أنّهم يوحّدون الله في الخلق ولكن يعتقدون بشركاء له في التدبير، مع أنّ التدبير في صحيفة الكون لا ينفكّ عن خلقه.

٤. (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ):

إنّ قوله سبحانه:(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ) وإنْ كان يشمل خلق الإنسان وما دونه، ولكن لأجل تبيين النِّعم بشكل تفصيلي،

ذكر عدداً منها، وأوّلها خلق الإنسان، فبدأ ببيان أنّ الإنسان خُلق من نطفة وهي شيء دنيّ خسيس، ولكنّها برعاية الله تعالى وتقديره تصير إنساناً منطيقاً مدافعاً عن نفسه، فأين هذا الموجود من النطفة القذرة؟! كما يقول سبحانه: (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا) وقد جاء بإذا الدالّة على المفاجأة لأنّه لم يُترقَّب من ذلك الماء الدنيّ المَهين أن يصل إلى درجة يصير فيها كائناً مفكّراً منطيقاً مجادلاً عن نفسه، كما يقول سبحانه:(فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)، والخصيم وإن يُستعمل فيمن يخاصم ويعاند، كما في قوله سبحانه: (أَوَ لَمْ يَرَ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ)(يس:٧٧.): أي مجادل بالباطل، ظاهر الخصومة، لكنّ هذا المعنى لا يناسب المقام، إذ هو بصدد بيان عَظَمة الخلقة، فيصار إلى أنّه صار خصيماً متكلماً بليغاً.

ولقد أنصف الجرّاح وعالم الأحياء الفرنسيّ ألكسيس كاريل(المتوفّى ١٩٤٤م) حين سمّى كتابه «الإنسان ذلك المجهول»، فإنّ الجهود لم تزل تُبذل منذ بدء الخلقة إلى يومنا هذا لمعرفة الإنسان من جوانب شتى، ومع ذلك فقسم من وجوده بقي مجهولاً، وركْبُ العلم ما زال سائراً.

قد عرفت أنّ السورة سُمّيت أيضاً بسورة النّعم والغاية من ذكرها هو الاحتجاج على الوثنية التي تقول بالتوحيد في الخالقية وأنّه لا خالق في صحيفة الكون إلاّ الله سبحانه، لكنّها تقول بالشرك في الربوبية وأنّ تدبير كلّ جزء من أجزاء العالم فُوّض إلى إله مخلوق لله، يدبِّر ما فُوّض إليه تدبيره، ولذلك استنكروا دعوة الرسول الأعظم إلى الإله الواحد قائلين: (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ).(ص:٥.)

***

هذا بالنظر إلى مجموع هذه الآيات، وأمّا بالنظر إلى قسم منها فإنّ الله عزّ وجلّ أقام براهين ثلاثة ـ من قوله: (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ) إلى قوله: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) ـ (النحل:٦ـ ١٣.) تدلّ على توحيده في مجال الخلق والتدبير والعبادة وغير ذلك.

فالبرهان الأوّل يدور حول التأمُّل في خلق الأنعام والدوابّ ونزول الماء من السماء الذي يكون منه شراب الإنسان وحياة النبات والحيوان، ويُتمّ بيانه بقوله: (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)(النحل:١١.).

وأمّا البرهان الثاني، فيدور حول تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم لخدمة الإنسان، وأتمّها بقوله:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).(النحل:١٢.)

وأمّا البرهان الثالث فيدور حول وحدة مادة العالم مع أنّه ينتج ألواناً مختلفة من النِّعم، وختمها بقوله:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).(النحل:١٣.)

ولنبدأ ببيان هذه البراهين من خلال تفسير آياتها:

البرهان الأوّل

٥. (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ):

الأنعام ومنافعها الخمسة

لمّا أشار سبحانه إلى النعمة الكبرى وهي التي تعمّ صحيفة الوجود، أعني: خلق السماوات والأرض، وإلى نعمة صيرورة الإنسان منطيقاً مجادلاً، أخذ في عرض بعض النّعم التي ينتفع بها الإنسان في حياته الأرضية، ومنها الأنعام وتشمل الإبل والبقر والمعز والغنم، وذكر لها في هذه الآية منافع ثلاثة:

الأُولى:(وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ) الدِّفء ـ بكسر الدال ـ ما يُتدفّأ به، وذلك باستخدام جلودها وأصوافها وأوبارها في صنع

الملابس والأغطية التي تحمي الإنسان من البرد.

الثانية: (وَمَنَافِعُ)، وهي من عطف العام على الخاص. وللأنعام منافع كثيرة، فالأغنام مثلاً، توفّر ـ في العصر الحاضر ـ الخامات الأوّلية للعديد من المنتجات الثانوية، مثل الغِراء، والدهن، والشحم، والصابون، ومواد التجميل، وغير ذلك.(انظر: الموسوعة العربية العالمية:٢/٣٢٧.)

الثالثة:(وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) خصّ الأكل بالذكر لأنّ قوام الحياة بأكل اللحوم. وقد أخّر ذكرها لاحتمال رعاية فواصل الآيات.(تتجلّى أهمية أحد أصناف الأنعام التي تمدّ الإنسان بالغذاء والكساء، أعني: الأغنام، حين نقف على عدد رؤوس الأغنام في أهمّ الدول المنتجة لها عام (٢٠١٤م): الصين (١٨٧مليون)، الهند(٧٥مليون)، أستراليا(٧٤/٧مليون)، السودان(٥٢/٥مليون)، إيران(٤٨/٧٥مليون). موقع منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة(فاو).)

٦. (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ):

كانت الآية السابقة تركّز على منافع الأنعام من الجانب المادي، وأمّا هذه الآية فتشير إلى منفعة رابعة ناظرة إلى المنافع النفسية والمعنوية فإنّ في حركة الأنعام الجماعية حين تسرح إلى مراعيها وتعود إلى مُراحها جمالاً وزينة تورث الانشراح في نفس مالكها، وهذا الأمر يحسّ به من مارس تربية الأنعام، فكأنّ مالكها مَلِك وهؤلاء جيشه، يسرحون ويمرحون.

والآية إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على أنّ الدين الإسلامي يولي أهمية للجمال وما يُدخل الفرح والسرور على روح الإنسان المسلم، ولذلك يقول:

(وَلَكُمْ فِيهَا): أي وراء ما فيها من دفء ومنافع وأكل (جَمَالٌ): أي زينة وبهجة (حِينَ تُرِيحُونَ)ولعلّ تقديم الإراحة على التسريح لأجل أنّ الارتياح عندها أكثر وأقوى من الثانية، لأنّ الأنعام تعود إلى مُراحها وكروشها مليئة، بخلاف الحالة الأُخرى وهي (وَحِينَ تَسْرَحُونَ) فعند السروح تكون الضروع خالية من اللبن، والبطون فارغة من العلف.

٧. (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ):

الآية تشير إلى فائدة خامسة وهي خاصّة للإبل (والبقر أحياناً) من الأنعام، وهي حمل الأثقال من بلد إلى بلد، وقد كانت لأهل مكة رحلتان تجاريتان: إلى الشام في الصيف، وإلى اليمن في الشتاء، والذي كان يحمل أثقالهم من بلدهم إلى البلاد النائية وبالعكس، هو سفن الصحراء التي هي الإبل، كما يقول:(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ): أي تحمل الأنعام أثقالكم (إِلَى بَلَدٍ) ناء (لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ) لولا الأنعام (إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ): أي بمشقّة بالغة وبكلفة تلحق أنفسكم. وربما يقال بأنّ المراد هو: إلاّ بذهاب شطر قوتكم من التعب، أي نصف قوة الأنفس. والأفضل هو المعنى الأوّل.

ثمّ عقّب ذكر هذه الفوائد بقوله:(إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ) ولعلّ هذه الفقرة تعليل لخلق الأنعام، ويدلّ على أنّ خَلقها نابع عن رأفة الربّ ورحمته بعباده، إذ هو يعلم بحاجاتهم، وأنّها لا تُقضى إلاّ بوجود هذه الأنعام التي ينتفعون بها.

إنّ الحضارة الحديثة مع أنّها أوجدت وسائل نقل سريعة إلاّ أنّ هناك الملايين من الناس في آسيا وأفريقيا لا يزالون يعتمدون على الجمال في قضاء معظم حاجاتهم اليومية، ومنها حمل الغِلال للأسواق، ونقل الأطعمة والملابس، وغيرها.

٨ . (وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ):

الدوابّ ومنافعها

قوله:(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ) منصوب لأنّه معطوف على الأنعام، أي: خلق الخيل والبغال والحمير، وذكر لها منفعتان:

١. (لِتَرْكَبُوهَا): أي خلقها الله سبحانه للركوب والانتقال من بلد إلى بلد.

٢. (وَزِينَةً): أي زينة وجمالاً، يبعث الارتياح في النفوس، فإنّ لها أثراً على ظاهر الحياة الاجتماعية.
وما زال الكثير من الناس يستخدمون الخيل للترويح والرياضة بالرغم من أنّها لم تعُد وسيلة نقل مهمّة في الوقت الراهن. وممّا يثير البهجة في نفوسهم عروض الخيل في الاحتفالات الكبيرة وغيرها.
وحاصل الكلام: إنّه سبحانه خلق الخيل، وما عطف عليها، تقطع المسافات أوّلاً، وثانيها أنّ وجود الخيل مورث للنشاط والارتياح.
فهذه الآية أيضاً دليل على أنّ الإسلام لم يهمل ما يُعد نعمة للنفس والروح حيث إنّها تلتذّ بمشاهدة الخيل والبغال والحمير إذا كانت مجتمعة، راجعة إلى معاطنها، أو خروجها منها إلى المراعي أو مقاصد السفر.
ثمّ إنّه سبحانه لم يذكر الأكل في المقام، مع أنّه ذكره في الأنعام، وذلك لكراهة أكل هذه الأصناف الثلاثة، فهي لم تُعدّ للأكل. كما أنّه تعالى قد عطف على هذه المخلوقات قوله:(وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)فلو كان الخطاب مختصّاً بمشركي مكة وما حولها، فيكون المراد من خلق ما لا يعلمون هو ما خلقه سبحانه في البلاد النائية والقارات البعيدة من المخلوقات التي تخلو منها الجزيرة العربية، إذ كانت مجهولة للناس في وقت نزول القرآن، غير أنّ المعاصرين من المفسّرين زعموا أنّ قوله سبحانه: (وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)إشارة إلى المخترعات الحديثة كالسيارة والطيارة، ونسبة خلقها إلى الله سبحانه باعتبار خلق موادّها، وخلق الإنسان الذي اخترعها، حيث إنّه مخلوق لله تعالى، ولو أُريد هذا المعنى فيكون من الأخبار الغيبية للقرآن،... ويؤيّده قوله:(يَخْلُقُ) بصيغة المضارع فيصلح أن يكون إشارة إلى المراكب التي أحدثتها الحضارة في القرون الأخيرة ولم يكن لها أثر حين نزول الآية، فالله سبحانه هو الذي ألهم الإنسان كيفية إيجاد هذه المخترعات.
٩. (وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ):

النّعمة المعنوية

انتقل البيان القرآني من ذكر النّعم المادية والجسمانية إلى نعمة معنوية، وهي بيان السبيل الموصل إلى السعادة والمقاصد الروحانية، وذلك بإعطاء الإنسان العقل الحصيف والفطرة السليمة وبعث الأنبياء بكتبهم وبياناتهم التي تُرشد إلى السبيل الموصل إلى السعادة، وهذا أمر فرضه سبحانه على نفسه لأنّه خلق كلّ شيء لغاية خاصّة فاقتضت الحكمة أن يزوّده بما يتوقّف عليه، قال سبحانه: (الذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)(طه:٥٠)، وقال: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ)(الروم:٣٠)، وقال هنا:(وَعَلَى اللهِ) كما اقتضت حكمته تعالى (قَصْدُ السَّبِيلِ): أي السبيل القاصد، فالمصدر بمعنى الفاعل أُضيف إلى موصوفه، والمعنى: وعلى الله سبحانه تبيين السبيل القاصد والمستقيم الذي يوصل الإنسان إلى مقاصده، لكن ليس كلّ سبيل سبيلاً قاصداً مستقيماً، فإنّ بعضها مائل عن الحقّ، حائد عن الاستقامة، كما يقول:(وَمِنْهَا جَائِرٌ) فلا يوصل إلى المقصود، قال تعالى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(الأنعام:١٥٣).
ولمّا كانت هنا مظنّة سؤال، وهو أنّه سبحانه بيّن السبيل المستقيم والطريق الهادي إلى السعادة ولكن نرى الكثير من الناس لم يسلكوه، وبذلك صار سبحانه مغلوباً على تدبيره وربوبيته، فأجاب عنه بقوله:(وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ): أي إنّ عدم اهتداء الجميع ليس لعجز منه سبحانه أو غلبة لهم على مراده، وإلاّ لو شاء لم تسعهم المخالفة ويكون الجميع مهتدين، ولكنّه سبحانه لم يجبرهم على سلوك هذا الطريق، لأنّ الطريق المسلوك جبراً لا قيمة له، والإيمان الذي يختاره المؤمن عن ضرورة زمانية لا يُكال بصاع، وإنّما القيمة للإيمان النابع عن اختيار الإنسان.
وهنا نكتة، وهي أنّ الله سبحانه نسب قصد السبيل إلى نفسه عزّ وجلّ، ولكنّه لما وصل الكلام إلى السبل الجائرة غيّر أسلوب

الكلام، وقال:(وَمِنْهَا جَائِرٌ) دون أن يقول: وعليها جائرها، والسبب في ذلك ـ كما ذكر الزمخشريّ ـ ليعلم ما يجوز اضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز، ولو كان الأمر كما زعم المجبّرة، لقيل: وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرها.(تفسير الكشّاف:٢/١٩٩.)

وربما يقال بأنّ الطريق المجعول هو الطريق القاصد، وأمّا الطريق الجائر فليس بسبيل حقيقة؛ بل حقيقته عدم سلوك سبيل الهدى، كما أنّ الضلال عدم الهدى، فليس مثل هذا الطريق بأمر موجود حتى ينسب خلقه وإيجاده إليه تعالى، وإنّما ينسب الضلال إليه تعالى فيما ينسب بمعنى عدم هدايته الضالّ، أي عدم إيجاده الهدى في نفسه.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٢١٤.)

ولا يخفى أنّ ما ذكره خلاف ظاهر سائر الآيات، وقد مرّ أنّه سبحانه يقول:(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ)(الأنعام:١٥٣.).

نعم، الفرق بين السبيلين أنّ السبيل الأوّل مجعول لله سبحانه مباشرة، وقد بيّن تعالى هذا السبيل بياناً تكوينياً بإرشاد العقل والفطرة وبيان الأنبياء، وأمّا سائر السبل المعوجّة وغير الموصلة فكلّها مجعولة بجعل العباد الضالّين والمضلّين، ونسبته إلى الله لا تُجاوز نسبة أعمالهم إلى الله سبحانه، فكما أنّ نسبة ما في الكون إلى الله سبحانه ونسبة أفعال العباد إليه تعالى لاتورث الجبر، فهكذا نسبة السبيل الجائر إليه سبحانه، فإنّ الجميع من باب واحد.

ثمّ إنّ في قوله سبحانه:(وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) دليل على ما يقوله العدلية من المتكلّمين من أنّه يجب على الله تعالى كذا وكذا من اللطف، وعندئذ يثور عليهم الأشاعرة من أنّ عباد الله أقلّ من أن يكلّفوا الله سبحانه، إذ أين التراب وربّ الأرباب؟

غير أنّ هؤلاء غفلوا عن أنّ المراد من الإيجاب على الله تعالى، هو كشفه من خلال صفاته سبحانه وكلماته، فإنّ الذي خلق كلّ موجود لغاية وحكمة، تقتضي حكمته أن يرشده إلى أسباب الهداية، وهذا ليس من مقولة حكم العبد على الله سبحانه، بل يأتي في إطار كشف حكمه من خلال صفاته.

الآيات:١٠-١٣ (هُوَ الذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً....مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ).

الآيات: العاشرة إلى الثالثة عشرة

(هُوَ الذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ).

المفردات

تُسيمون: ترعَون، يقال: أسأم الماشية وسوّمها جعلها ترعى.

زرع: قال ابن منظور: قد غلب على البرّ والشعير، وجمعه زروع، وقيل: الزرع نبات كلّ شيء يحرث.(لسان العرب:٨/١٤١، مادة «زرع».)

ذَرَأ: خَلَق.

ألوانه: أصنافه.

التفسير

١٠. (هُوَ الذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ):

عَصَب الحياة

لمّا فرغ سبحانه من بيان بعض النّعم الأرضية انتقل لبيان نعمة سماوية، وهي الماء النازل من السماء، أعني: المطر الذي هو المبدأ لوجود النباتات المختلفة التي بها تقوم حياة الإنسان والحيوان، ولولا المطر لصار وجه الأرض جدباً لا ينبت فيه شيء، ولذلك يقول

سبحانه: (هُوَ الذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ)قسم (مِنْهُ شَرَابٌ) للإنسان والحيوان، ويشمل أيضاً ما يُشرب منه بواسطة العيون والآبار، لأنّ قسماً من ماء المطر يتسرّب في داخل الأرض ليصبح جزءاً من المياه الجوفية، قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ)(المؤمنون:١٨.)، وقال: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ).(الزُّمر:٢١.)

والقسم الثاني من المياه النازلة، ما يجعله الله سبحانه لتكوين النبات كما يقول:(وَمِنْهُ شَجَرٌ): أي ومن ماء المطر يحصل شجر(فِيهِ تُسِيمُونَ): أي ترعَون فيه أنعامكم، فإنّ الأنعام ترعى أوراق الأشجار. ويحتمل أن يراد من الشجر مطلق الكلأ والعشب، وعن الزجّاج: كلّ ما نبت على الأرض فهو شجر، وأنشد:

نُطعمها اللّحم إذا عزّ الشجر[٣]

[٣]تمام البيت:

نطعمها اللحم إذا عزّ الشجر والخيل في إطعامها اللحم عسر

والبيت للشاعر النمر بن تولب العكي ضمن قصيدة في مدح الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) عند وفوده عليه مسلماً. راجع: الاستيعاب: ٤ / ١٥٣١ برقم ٢٦٦٣ ؛ والأغاني: ٢٢ / ٤٥٨ .يريد من اللحم اللّبَن، أي أنّهم يسقون الخيل اللّبَن إذا أجدبت الأرض من النبات.(لاحظ : تفسير الرازي: ٩ / ٢٣٣ .)

وحمل الشجر على مطلق ما ينبت على الأرض أفضل، لوجهين:

١. الأنعام ترعى الكلأ والحشيش أكثر من رعيها أوراق الأشجار، فحملها على الأعمّ أفضل.

٢. أنّ الآية التالية تبيّن غذاء الإنسان، فلابدّ من حمل آيتنا هذه على مطلق ما ترعاه الأنعام.

١١. (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ):

الآية تشير إلى فائدة ثالثة لماء السماء وراء الفائدتين المتقدّمتين: الشراب منه، وإنبات الشجر، وهي أنّه تَنبت به الأُمور التالية:

١. (الزَّرْعَ) وأُريد به الحبوب.

٢. الفواكه، ومنها (الزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ) فالأوّل فاكهة من وجه وأدام من وجه آخر، وفيه منافع أُخرى (وَالنَّخِيلَ) جمع نخلة، وهي شجرة التمر، (وَالأَعْنَابَ) جمع العنبة، يطلق على الشجرة نفسها وعلى الثمرة.

ولمّا كانت الفواكه وصفاتها ومنافعها كثيرة جدّاً غير ما أشير إليه، قال سبحانه:(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ)وهو متعلّق بقوله: (يُنْبِتُ لَكُمْ) في صدر الآية، أي: ينبت من كلّ الثمرات.

ولمّا كان الغرض النهائي هو إرشاد الإنسان إلى التوحيد، وتحرير الوثنيين من عبادة الأوثان إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده، أمر بالتفكّر فيما سبق ذكره، وقال: (إِنَّ فِي ذَلِكَ): أي في خلق الأنعام والدوابّ وما يترتّب على نزول ماء السماء (لآيَةً) على توحيده سبحانه(لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)، والذي يجمع هذه الأُمور الثلاثة كون الجميع في خدمة الإنسان، فالتفكّر في عظيم الخلقة وآثارها يدلّ على أنّ الجميع أثر الإله الذي هو الخالق، ومن ثم هو المدبِّر والمعبود.

إلى هنا تمّ البرهان الأوّل الذي يدور حول التأمّل في خلق الأنعام والدوابّ ونزول الماء من السماء الذي منه شرب الإنسان والحيوان وإنبات الزرع والنخيل والأعناب وسائر الثمرات.

وسنشير بعون الله ومشيئته إلى بعض ما في الزيتون والنخيل والأعناب من فوائد عند تفسير الآيتين:(١٩ و٢٠) من سورة «المؤمنون»، فانتظر.

ولله درّ القائل في موشّحته (من مناظر الجمال):

حول الحقول الزّاهراتْ *** وحول أزهار النباتْ
فتّش تجدْ سرَّ الجما *** لِ يشعُّ فوق الكائناتْ
***
وَسْطَ الحقول وفي الرُّبى *** وعلى ضفافِ الجدولِ
وعلى الغصونِ المائسا *** تِ وفي مهبِّ الشَّمألِ
وعلى الثغور الباسما *** تِ وفي غناء البُلبلِ
وعلى الفضاء، على السَّما *** ءِ وفي النجومِ الزاهياتْ
جلّتْ يدٌ هي صوّرَتْ *** فينا جمالَ الكائناتْ[1]

[1] للأديب الشاعر الشيخ عبد الحميد الخاقاني، الشهير بالصغير. شعراء الغري:٥/٣٥٠.

***

١٢. (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ):

البرهان الثاني

لمّا تمّ البرهان الأوّل على توحيده في الربوبية الذي هو مورد إنكار الوثنيين، بدأ ببيان برهان ثان على توحيده في الربوبية وأنّه ليس لصحيفة الوجود إلاّ ربٌّ واحد يدبّر أمرها، وهذا البرهان يدور على التّفكُّر في أُمور ثلاثة:

١. تسخير الليل والنهار، كما قال:(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) فإنّ تسخيرهما أفضل دليل على دقّة الصنع وسعة العلم، حيث امتنّ على الإنسان بهاتين الظاهرتين، التي لكلٍّ منهما دور في حياة الإنسان، وقد أشار الذكر الحكيم في غير واحدة من الآيات إلى وجه انتفاع الإنسان بهما وقال: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)(النبأ:١٠ـ١١.)، وقال تعالى:(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا)(النمل:٨٦.).

ومن مِنَنه سبحانه أنّه جعلهما خِلفة، أي يأتي كلٌّ خلف الآخر، كما يقول:(وَهُوَ الذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ)(الفرقان:٦٢.).

ومن المعلوم أنّه لو دامت إحدى الظاهرتين (الليل والنهار) لَمَا وُجد على صحيفة الكون أثر للحياة، إمّا للبرودة الشديدة أو الحرارة الحارقة.

٢.تسخير الشمس والقمر، كما قال: (وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) عطفهما على الليل والنهار لوجود المشابهة التامّة بين المعطوف والمعطوف عليه، وهي أنّ التسخير في هذه الأُمور الأربعة واضح لكلّ من فتح عينيه على الأرض والسماء، فإنّ شروق الشمس من المشرق وغروبها في المغرب على نمط خاص أفضل دليل على أنّها مسخَّرة لقدرة عالية تقودها، وهكذا القمر حيث يبدو هلالاً ثمّ ينزل في منازل، وهي ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل كلّ يوم وليلة منزلة منها، لا يختلف حاله في ذلك إلى أن ينهي السَّير في آخر الشهر، حيث يصير كالعرجون القديم (عِذْقِ النخلة) في دقّته وتقوّسه.(انظر: الآية ٣٩ من سورة «يس».)

وأيّ دليل أوضح من كونه مسخَّراً عبر عصور لا يعلم مداها إلاّ الله سبحانه.

٣. تسخير النجوم، كما قال: (وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ) فصل سبحانه تسخير النجوم عمّا قبلها دون أن يعطف، ولذلك يُقرأ بالرفع. وقد خصّها بالذّكر؛ لأنّ تسخير النجوم أمر خفيّ يقف عليه من يرقب النجوم وحركاتها، ولا يُعنى بذلك إلاّ القليل، بخلاف الأوّلَين(الشمس والقمر أو الليل والنهار).

وذكر في ختام الآية أنّ في تسخير هذه الموجودات السماوية دليلاً على ربوبيّته لمن عقلَه، كما قال:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

وسيوافيك وجه جمع «الآيات»هنا، على خلاف الآية السابقة واللاّحقة.

١٣.(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ):

البرهان الثالث

لما أتمّ سبحانه الكلام في البرهان الثاني الذي كان يدور على الأُمور السماوية، بدأ ببيان البرهان الثالث وهو ابتداع ما ذرأه سبحانه في الأرض من اختلاف ألوان النباتات والفواكه بل اختلاف ألوان المعادن وسائر المركبات العنصرية التي ينتفع بها الإنسان في معاشه، مع أنّ المادة الأُولى واحدة، ولكن انتهت إلى أنواع مختلفة في عالم النباتات والمعادن. ولعلّ الآية تشير إلى ما ذكره سبحانه في سورة الرّعد، قال سبحانه:(وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)(الرعد:٤.)فترى في كلّ حقل وبستان أنواعاً من الأزهار والنباتات وأصنافاً من الفواكه والخضروات مع أنّ التراب واحد والماء واحد، وضوء الشمس واحد، والهواء واحد، فمن أين هذا الاختلاف؟ لا شكّ في أنّ لهذا الاختلاف أسباباً في نفس الطبيعة من حيث تركيب العناصر وذرّاتها وجزئيّات المركّبات، إلاّ أنّ الكلام هو في مَن أوجد هذا النَّظم في صميم الطبيعة حتى ظهرت بصورة جنائن غنّاء وزروع ذات بهجة، ولذلك يقول سبحانه:(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ) الظاهر أنّ الموصول عطف على الليل والنهار، والعامل في الجميع واحد، أي وسخّر لكم(مَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ)وخلق لكم فيها (مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ)منصوب على الحالية (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ).

إلى هنا تمّت البراهين الثلاثة الدالّة على التوحيد في الربوبيّة، الذي هو محلّ النزاع بين الرسول والمشركين.

بقي هنا سؤالان :

السؤال الأوّل: جعل الأمر الأوّل آية لقوم يتفكّرون، والثاني لقوم يعقلون، والثالث لقوم يذّكّرون، فما هو الوجه في هذا الاختلاف من التعبير؟

ذكر السيد الطباطبائي ما يمكن أن يكون وجهاً لهذا الاختلاف، وقال: إنّ الحجّة الأولى مؤلّفة من مقدّمات ساذجة يكفي في إنتاجها مطلق التفكّر، والثانية مؤلّفة من مقدّمات علمية لا يتيسّر فهمها إلاّ لمن غار في أوضاع الأجرام العُلوية والسُّفلية وعقل آثار حركاتها وانتقالاتها، والثالثة مؤلّفة من مقدّمات كلّية فلسفية، إنّما ينالها الإنسان بتذكّر ما للوجود من الأحكام العامة الكلّية كاحتياج هذه النشأة المتغيّرة إلى المادّة، وكون المادّة العامّة واحدة متشابهة الأمر، ووجوب انتهاء هذه الاختلافات الخفيّة إلى أمر آخر وراء المادة الواحدة المتشابهة.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٢١٦.)

السؤال الثاني: ما هووجه إفراد لفظ «آية» في البرهانين الأوّل والثالث، وجمعه «آيات» في البرهان الثاني؟ حكي عن الرازي أنّه قال: بأن ما ذُكر في البرهان الأوّل والثالث يرجع إلى ما نجم من الأرض، وجميعه آية واحدة تابعة لخلق الأرض وما تحتويه، وأمّا ما ذُكر في البرهان الثاني فإنّه راجع إلى اختلاف أحوال الشمس والقمر والكواكب، وفي كلّ واحد منها نظام يخصّه ودلائل تخالف دلائل غيره، فكان ما ذُكر في ذلك مجموع آيات.(حكاه ابن عاشور عن «درّة التنزيل» للرّازيّ. لاحظ : التحرير والتنوير:١٣/٩٣.)

الآيات:١٤-١٦ (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا... وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ).

الآيات: الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ).

المفردات

طريّاً: غضّاً جديداً، من الطراء والطراوة.

مواخر: جمع ماخرة، يقال: مخرت السفينة البحر إذا شقّته بجؤجئها مستقبلة له.

رواسي: جمع راسية، يقال: رسا الشيء، أي ثبت، والمراد بها الجبال.

تميد: تتحرّك وتضطرب.

علامات: جمع علامة، والعلم هو الأثر الذي يُعلم به الشيء، كعلم الطريق. وعلى هذا فالعلامة هي ما يُعلم به الشيء.

النَّجم: يطلق ويراد به النجوم أحياناً.

التفسير

يشير سبحانه في هذه الآيات إلى عدد من النّعم الإلهية التي تفضّل بها الله سبحانه على الإنسان، والكلام هنا يدور على محاور :

١. البحر وما فيه من منافع.

٢. الجبال الراسيات التي تصون الأرض عن الاضطراب.

٣. الأنهار الطبيعية أو الصناعية التي تسقي الزرع والأشجار. وذكر الأنهار بعد الجبال لأجل أنّ مبدأها هو الجبال.

٤. وجود السُّبل في المناطق الجبلية، وقلّما يتّفق جبل يقطع الطريق بين الطرفين.

٥. علامات ومميّزات شاخصة تستهدي بها المارّة.

٦. النجوم يهتدي بها المسافر ليلاً، وهي الوسيلة الوحيدة للقوافل في الصحاري وركّاب السُّفن. وإليك تفسير الآيات.

١٤. (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ):

البحر ومنافعه

ركّز سبحانه في هذه الآية على تسخير البحر للإنسان لأجل الانتفاع به بوجوه عديدة، أمّا تسخيره فقد خلق الماء على نحو: تسير فيه الفلك وتطفو على وجهه دون أن ترسب في الماء وتنزل إلى قعره. وأمّا المنافع التي ينتفع بها الإنسان فهي عبارة عن الأُمور التالية:

١. تسخير البحر لغاية الانتفاع من لحوم أسماكه حيث إنّ الصائدين يتمكّنون من صيدها بسهولة لغاية أكلها، كما يقول: (لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا): أي غضّاً جديداً. والآية تدلّ على أنّ أفضل صور الانتفاع من اللحوم هو في حالة كونها طرية جديدة، غير متأخّرة ولا قديمة، نحو القَديد، وهو اللَّحم المجفَّف.

يُذكر أنّ العلماء قاموا بتسمية ووصف (٢٢) ألف نوع من الأسماك، ولا زالوا كلّ عام يكتشفون أنواعاً جديدة!!(لاحظ : الموسوعة العربية العالمية: ٢/٨١ .) فما أعظم هذه المنّة على البشر!

٢. استخراج ما يُتزيّن به ويُتجمّل من البحر، مثل اللؤلؤ والمرجان، كما قال :(وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)، والعرب تستعمل اللبس في الانتفاع بها، فيقال: لبس الخاتم أو لبس القلنسوة.

نعم، المستفيد من حِلية البحر غالباً هنّ النساء، وقليل من الرّجال.

٣. شقّ السفن البحار، كما يقول:(وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ): أي في البحر، وقوله:(تَرى) خطاب عام لا يراد به صنف دون صنف، وأُريد هنا به التعجيب. والآية تعطف نظر الإنسان إلى أمر عجيب وهو شقّ السفن بصدورها أمواج البحر، وهو نعمة عظيمة منّ بها سبحانه على عباده، حيث تحمل البضائع وينتقل بها الإنسان مع أثقاله وحمولته من نقطة إلى نقطة بعيدة، ومع أنّ الحضارة

أحدثت وسائل جديدة للنقل والانتقال لكنّ السفن بقيت على حالتها الأُولى من أنّها الوسيلة الكبرى لنقل الأمتعة والركّاب إلى نقاط نائية.

قوله:(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) عطف على قوله:(وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً)وصدّر بلام التعليل لأجل وجود جملة معترضة وهي:(وَتَرى الْفُلْكَ) بينها وبين المعطوف عليه.

والمراد من ابتغاء الفضل هو التجارة، قال سبحانه:(فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ).(الجمعة:١٠.)

ثمّ إنّ الغاية من جعل هذه المواهب والنّعم تحت يد الإنسان هو معرفة الباري وشكره على ما أنعم به عليه وعلى ما سخّره له، ولذلك يقول:(وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) لأنّ شكر المنعم أمر يستقلّ به العقل إذ هو يكشف عن كمال عقل المنعَم عليه، حيث عرف المنعِم وشكره، وصار عمله هذا سبباً لزيادة النّعم، لأنّ المعروف على قدر المعرفة.

١٥. (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ):

١. الجبال ومنافعها

انتقل البيان القرآني من ذكر الامتنان بالبحر وما فيه إلى بيان ما على سطح الأرض من الجبال والأنهار والسُّبُل، وقال: (وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ): أي جبالاً،كراهة (أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ) أو لئلاّ تميد وتضطرب بكم، وهذا النوع من التعبير في القرآن رائج كما في قوله تعالى: (يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْء عَلِيمٌ)(النساء:١٤٦.).

ثمّ إنّه سبحانه أشار إلى دور الجبال في حفظ الأرض من الاضطراب في غير واحدة من السور والآيات، قال سبحانه:(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّة)(لقمان:١٠.)، إلى غير ذلك من الآيات.

وأمّا ما هو دور الجبال في حفظ الأرض من الاضطراب، فيمكن بيانه بوجوه:

١. إنّ الغازات الكامنة في باطن الأرض تهدّد كلّ لحظة بالخروج وعند ذاك تفكّك أجزاء الأرض كالقنبلة التي إذا انفجرت تفكّك كل ما قرب منها، لكنّ الجبال الراسيات التي لها جذور تحت الأرض تمنعها من الخروج.

ولذلك أثبت العلم أنّ مركز الزلزال كلّما كان بعيداً عن سطح الأرض يكون تخريبه أقلّ، بخلاف ما لو كان مركزه أقرب إلى سطح الأرض فيكون خرابه أكثر.

٢. إنّ جاذبية القمر تسبب مدّ القشرة الأرضية كما هو الحال في البحار، غير أنّ الجبال تقلّل من أثرها إلى حدٍّ كبير.

٣. إنّ الرياح العاتية لا يقف بوجهها إلاّ الجبال، ولولاها لصار سطح الأرض عرضة لها. وسنتعرّض لهذا الموضوع عند تفسير الآيات التي تتضمّن ذكر الرواسي.(مثل الآية (٣١) من سورة الأنبياء، والآية (١٠) من سورة لقمان، وغيرهما.)

٢. الأنهار وفوائدها

قوله تعالى:(وَأَنْهَارًا) ولعلّ الآية تشير إلى الأنهار الطبيعية الكبيرة، وذكرها بعد ذكر الجبال هو للإشارة إلى الثلوج التي تتجمّع على الجبال ثم تذوب وتتجمّع في الوديان وتشكّل الأنهار، كما هو الحال في دجلة والفرات والنيل وسيحان وجيحان وغيرها.

وفي بعض الآيات إشارة إلى علاقة الجبال بالأنهار كما في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَات وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا)(المرسلات:٢٧.)، فإنّ ذكر (أَسْقَيْنَاكُمْ)بعد «الرواسي» إشارة إلى أنّ الجبال هي المبدأ لوجود الماء الفرات.

٣. السُّبل

جاء قوله تعالى: (وَسُبُلاً) بعد ذكر الرواسي، لدفع توهّم أنّ الجبال قد تقطع الطرق وتكون حاجزاً بين المنطقتين، وأشار إلى أنّ وجودها لا يوجِد مانعاً من وجود الطرق الملتوية التي تربط بين المنطقتين.

قوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) تعليل لوجود السُّبل. وهل الفقرة إشارة إلى الاهتداء بالسُّبل إلى المقاصد الحيوية من الأسفار؟ أو هي إشارة للاهتداء إلى الدين الحقّ وهو دين التوحيد؟

الظاهر هو الأوّل لأنّه سبحانه في مقام بيان مِنَنه على العباد، وأمّا ما هو مقتضى هذه المنن، فيأتي بيانه في الآية الثانية والعشرين، أعني قوله: (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ).

١٦. (وَعَلاَمَات وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ):

قوله: (وَعَلاَمَات) منصوب لكونه عطفاً على قوله:(وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً): أي جعل في الأرض علامات يهتدون بها. وأمّا ما هي العلامات؟ فمنها ما هو طبيعي كالجبال والسُّبل واختلاف ألوان الأرض، ومنها ما هو صناعي يوضع في الطرق لبيان المسافات والمسالك.

قال الوزير المغربيّ في تفسيره: (وَعَلاَمَات) كالرّوابي والثنايا وألوان الأرض وألوان الحصى والحجارة.(المصابيح في تفسير القرآن:٦٣٧.)

قوله تعالى: (وَبِالنَّجْمِ) فصل النجم عمّا سبق، أي(وَعَلاَمَات)، لعلّه لأجل اختصاص الاهتداء بها بالليل بخلاف ما تقدّم من قوله:(وَعَلاَمَات)فهي وسيلة الاهتداء بالنّهار. والمراد من النَّجم جنسه.

قوله تعالى:(هُمْ يَهْتَدُونَ) يتعلّق به كلّ من العلامات والنّجم، أي يهتدون بالعلامات وبالنّجم. وكان العرب في عصر الرسالة ينتفعون بالنجوم في أسفارهم برّاً وبحراً. ولا زالت النجوم تساعد صانعي الخرائط والطيّارين والبحّارة في تحديد الاتّجاهات والمواقع، فالنجم الشمالي مثلاً، يستخدم موجّهاً للاتّجاه الشمالي، لأنّه يظهر دائماً في المكان نفسه فوق القطب الشمالي. ويقيس الطيّارون والملاّحون مواقعهم بالملاحة الفلكية. وهذه الطريقة تقوم على فكرة أنّ النّجم يكون تماماً فوق موقع أرضيّ عند وقت معيّن.(الموسوعة العربية العالمية:٢٥/٢٣٢.)

ثمّ إنّ الاهتداء في قوله سبحانه:(هُمْ يَهْتَدُونَ): أي بالعلامات والنَّجم غير الاهتداء الوارد في قوله سبحانه:(وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) (النحل:٩.) وذلك لأنّه أُريد من الاهتداء الأوّل الهداية التكوينية، أي ما يرجع إلى حياة الإنسان في الدنيا من ضروريات حياته أو كمالاتها، وأمّا الاهتداء في المورد الثاني فينظر إلى الهداية التشريعية إلى العقائد الحقّة والمُثل العليا في الأخلاق والتكاليف الشرعية، وهذا يدلّ على أنّ للإسلام عناية بكلتا الهدايتين الدنيوية والأُخروية، المادية والمعنوية.

هذا، ويلاحظ أنّه سبحانه عدل عن الخطاب في الآية (١٥)، أعني قوله:(لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)إلى الغائب في الآية (١٦) وقال:(لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ)، وربّما يكون السبب هو للتحرّز من التكرار.

إلى هنا تمّ ما ذكره سبحانه من المِنَن التي منحها لعباده، وبقي ما هو المراد من سرد هذه المنن؟ وهذا هو الذي يستعرضه القرآن الكريم في الآيات التالية.

الآيات:١٧-٢١ (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ.... أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ).

الآيات: السابعة عشرة إلى الحادية والعشرين

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ).

التفسير

اللائق للعبادة من تجتمع فيه صفات أربع

بعد أن ذكر سبحانه السماوات والأرض وما فيهما من مشاهد تتجلّى فيها طاقة القدرة وجلالة النِّعم المفاضة على الإنسان، حان وقت الاستنتاج من ذكر ذلك، وهو ليس إلاّ التركيز على التوحيد في الربوبية الذي يلازمه التوحيد في العبادة، وذلك لأنّ اللائق

بالعبادة تشترط فيه أُمور أربعة:

١. أن يكون خالقاً للعابد وموجداً له، من دون استعانة.

٢. أن يكون مدبّراً لحياته، وإن كان تدبيره أيضاً في الحقيقة نوع خلق بعد خلق.

٣. أن يكون عالماً بما خلق وما دبّر، وإلاّ تكون العبادة واللاّعبادة أمامه سواء.

٤. أن يكون عالماً بنوايا العابد وما يُكنّ ضميره.

وهذه الأُمور الأربعة هي التي تتكفّل ببيانها الآيات التالية:

١٧. (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ):

أي لا يستوي من يخلق ذلك الخلق كلّه مع من لا يخلق شيئاً.

والاستفهام إنكاري، فبطل جعل الأصنام شركاء لله سبحانه مع وجود الفارق الشاسع بينهما، إذ لا يستطيعون خلق بعوضة، أو قلامة ظفر.ثمّ عقّب سبحانه على ذلك بقوله: (أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ) لتنبيه العقول التي أصابتها الغفلة، فإنّ مجرّد التذكّر يذهب تلك الغفلة، ومن ثمّ تعرفون فساد عقيدتكم، وترعوون عن جهلكم.

١٨. (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ):

هذه الآية عطف على الآية السابقة وكأنّها كالتكملة لما قبلها، وهي تدلّ على أنّ ما ذُكر من النّعم في الآيات السابقة شيء جزئي من نعم الله سبحانه، وإنّ الإنسان مهما بلغ من العلم والمعرفة لا يستطيع إحصاء آلاء الله، كما يقول:(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا) إذ العالم كلّه نعمة، إمّا مباشرة للإنسان أو للنظام الكلّي الذي هو في خدمة الإنسان، وبهذا يظهر عدم إمكان إحصائها لأنّ نِعَم الله هي كلمات الله التي يصفها الذكر الحكيم بقوله:(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَة أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُر مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)(لقمان:٢٧).

فإذا لم يتمكّن الإنسان من عدّ النّعم، فأولى أن لا يتمكّن من أداء شكرها، ولذلك يقول سبحانه:(إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة ولا يقطعها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها.

ثمّ إنّ مضمون هذه الآية جاء في سورة إبراهيم، قال تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(إبراهيم:٣٤)، والفرق بين الآيتين في ختام الفواصل.

وجه الاختلاف أنّ سياق الآيات في سورتنا هذه هو في مقام بيان النّعم والدعوة إلى الشكر والتوحيد فيناسب السياق الاسمين وهما «الغفور الرحيم»، وأمّا في سورة إبراهيم فالسياق هو التوعّد والتهديد، فناسب تغليظ التهديد بقوله: (إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ).

١٩. (وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ):

لمّا أشار سبحانه في الآيات السابقة إلى الرُّكنين الرَّكينين لاستحقاق الشكر والعبادة، وهما أنّه يخلق وغيره لا يخلق، وأنّه هو الذي امتنّ على الإنسان بالنّعم الوافرة فهو المدبِّر له عبر حياته، أشار في هذه الآية إلى الركنين الآخرين:

الأوّل: أنّه عالم بما في الكون، فلا تكون العبادة و اللاّعبادة عنده تعالى سواء.

الثاني: أنّه عالم بالسرّ والعلَن، بالجوارح والجوانح ونوايا الإنسان وما في ضميره، فاستحقّ الشكر والعبادة بذلك.

٢٠. (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ):

الآلهة المكذوبة فاقدة لملاكات العبادة

كانت الآيات السابقة تهتمّ بالجانب الإيجابيّ وهو إثبات خالقيته وربوبيته، وقد قلنا إنّ الخالقية لا تنفكّ عن الربوبية، ولكنّ العناية في هذه الآية وما بعدها مركّزة على الجانب السلبيّ وهو أنّ الأصنام التي يعبدونها من دون الله تفقد ما يُعدّ شرطاً للعبادة والشكر، وذلك:

أوّلاً: أنّهم مخلوقون غير خالقين، ومقتضى ذلك قيامهم بشكر خالقهم وعبادته، ولا معنى لتوجيه العبادة لهم، وقد مرّ أنّ أساس العبادة والشكر كون المعبود خالقاً ومدبِّراً، وهؤلاء يفقدون هذين الرُّكنين .

وثانياً:

٢١. (أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ):

أي كون الأصنام أمواتاً غير أحياء يسبّب فقدان الرُّكن الثالث والرابع، لأنّ الموت يلازم الجهل وعدم العلم، فتكون العبادة وعدم العبادة بالنسبة إليهم سواء، وإليه يشير بقوله:(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء).

وأمّا قوله:(وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) ففيه احتمالات ثلاثة:

١. أنّ ضمير الفعل في (يَشْعُرُونَ) يعود إلى المشركين الذين عكفوا على عبادتهم.

ويكون المعنى: لا تدري الأصنام متى يبعث عبّادهم، حتى يُعينوهم ويجازوهم. وهذا هو الظاهر من الآية.

٢. أنّ الضميرين عائدان إلى الكفّار، والمقصود من نفي شعورهم بالبعث، تهديدهم بأنّ البعث الذي أنكروه واقع بهم لا محالة، وأنّهم لا يدرون متى يقع.

يلاحظ عليه: بأنّ المضمون وإن كان صحيحاً، ولكن لا صلة له بسياق الآيات لأنّها بصدد حصر الربوبية بالله تعالى ونفيها عن الأصنام، وأمّا أنّ الكفّار لا يعلمون متى يُبعثون، وإن كان صحيحاً ولكنّه غريب عن سياق الآيات.

٣. أنّ الضميرين عائدان إلى الأصنام، يعني أنّ الأصنام غير عالمة بوقت بعثها.

وهذا القول بعيد جدّاً، لأنّ العلم بالبعث مختصٌّ بالله سبحانه، ولا يختصّ الجهل به بالأصنام.

الآيات:٢٢- ٢٥ (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ... يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ).

الآيات: الثانية والعشرون إلى الخامسة والعشرين

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ *وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ).

المفردات

منكرة: جاحدة للحقّ.

لاجَرَم: اختلفت كلمة المفسّرين في تركيبها وتفسيرها، والذي يحصل من كلماتهم: إنّها بمعنى «لا محالة» أو «لابدّ»، ثمّ يجيء بعدها «إنّ» الاسمية مع اسمها وخبرها، ويقدّر قبل الاسم لفظ من، أي: لا جرم من، ولابدّ من.

وربّما تعامل معاملة القسم، يقال: لا جرم لأَفعلنّ. هذه هي النتيجة، وأمّا كيفية التركيب فقد ذكرها الطبرسي في تفسيره.(لاحظ: مجمع البيان:٥/٢٨١ و ٢٨٥، ولاحظ: التحرير والتنوير:١١/٢٣٣.)

مستكبرون: غير خاضعين ولا منقادين للحقّ. والاستكبار طلب الترفّع بترك الإذعان للحقّ.

أساطير: جمع أسطورة، مأخوذ من سطر الكتاب، وربّما يقال: أساطير جمع لا واحد له. وأُريد به هنا أحاديث الأوّلين التي كانوا يسطرونها ولا حقيقة لها.

أوزارهم: الأوزار جمع وِزر، وهو الثّقل. وأُريد بها هنا ذنوبهم .

يزرون: يحملون من الآثام.

التفسير

صفات المشركين الّتي تمنعهم من الإيمان

تفترق هذه المجموعة عن سابقتها بأنّ محور البحث هناك هو بيان عقائد المشركين وآرائهم في أمر التدبير، بينما المحور في هذه المجموعة هو صفاتهم كاستكبارهم على الله واستهزائهم بآياته الذي سبّب جحدهم الحقائق الناصعة، ولذلك بدأ في هذه المجموعة بأوضح الأُمور وأنصع الحقائق وهو توحيد الإله الذي أنكروه بسبب استكبارهم . وتعبّر الآية عن المشركين ببعض أوصافهم وهي إنكار البعث والآخرة، وتقول:

٢٢. (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ):

قوله:(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) خطاب للمشركين، بمعنى أنّ البراهين السابقة أثبتت تلك الحقيقة الناصعة، ففي قاموس الإنصاف أن تُرفض الآلهة المكذوبة ويعبدوا إلهاً واحداً، ولكنّهم ـ يا للأسف ـ لم يعدلوا عمّا كانوا عليه من الشِّرك، إذن فما هو السبب؟ الفقرة التالية تذكر السبب، وتقول: (فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ) عبّر عن الموضوع ـ أي المشركين ـ بوصفهم وهو عدم إيمانهم بالآخرة، نظير قوله سبحانه:(وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ)(الفرقان:٢١)، ولعلّ عدم إيمانهم بالآخرة جرّهم إلى ردّ دعوة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ولذلك وصفهم بهذا الوصف، فهؤلاء (قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ)جاحدة للحقّ، فصار الإنكار سجيّة لهم(وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ): أي أصحاب استعلاء على الحقّ، ومن المعلوم أنّ الكبْر يحول بين أصحابه وبين الحقيقة، حيث يتصوّرون أنّهم أعلى من أن يُصغوا إلى هذه الحقيقة التي كان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)يدعوهم إليها، وصار هذا سبباً لرفضهم الإذعان لها والبقاء على الشرك، وقد أُشير في غير واحدة من الروايات إلى كون الكبر مانعاً عن درك الحقيقة، وهذا هو الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام)يصف إبليس بأنّه سلَف المستكبرين،(نهج البلاغة:الخطبة١٩٢(تسمّى القاصعة).)لأنّه وضع حجر الأساس للاستكبار وزعم أنّه أعلى مقاماً من آدم(عليه السلام).

وعلى هذا فكلّ مَن رفض هذه الحقيقة، أعني: التوحيد، فهو مستكبر من غير فرق بين الغنيّ والفقير، وإن كان الاستكبار والترفّع عن قبول الحقّ في الأغنياء أكثر لكون الغنى أحد أسبابه، يقول سبحانه: (إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى).(العلق:٦ـ٧.)

٢٣.(لاَ جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ):

تقدّم مضمون الآية في قوله سبحانه:(وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ)(النحل:١٩.) ولكن الغاية هنا نفي ربوبية الأصنام، فإنّ الربّ هو الذي يعرف المربوب وحاجاته والله سبحانه يعلم السرّ والعلن، وأمّا المقام فالغاية هنا تهديد المشركين بعلمه الوسيع قائلاً:(لاَ جَرَمَ): أي لا محالة ولابدّ من (أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ): أي ما يُظهرون من الأعمال وما يُخفونه، ومن أعمالهم الإخفائية هو استكبارهم وعدم خضوعهم للحقّ. وهذه الفقرة، أي قوله:(لاَ جَرَمَ) جملة معترضة بين قوله:(قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ)وقوله: (إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ)، ومن آيات استكبارهم ما يذكره في الآية التالية:

٢٤. (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ):

تصوّر لنا الآية كيفية استكبارهم وعدم خضوعهم للحقّ، وذلك بالبيان التالي: وهو أنّ السائل من المشركين يسأل آخرين بفرض

أنّهم مسلمون، ويقول لهم:(مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ)وفي هذا إيحاء بأنّ مستوى تفكيره أرق ممّا أنزل الله، وأنّ ربّه غير ربّ هؤلاء، ثم يجيبه الآخرون بقولهم: (قَالُوا): أي أجابوا بأنّه أُنزل (أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ): أي أكاذيب خرافية قالها الأوّلون وتركوها لمن خلفهم، وهذا النبيّ صاغها في قوالب جديدة وعبارات جميلة ليموّه على الآخرين ويُخيّل إليهم أنّها أمر جديد. وفي الإجابة أيضاً إيحاء باستكبارهم، حيث يصفون القرآن الكريم بأنّه أساطير الأوّلين، وأنّه ليس فيه شيء جديد.

ما ذكرنا من التفسير هو ما يتبادر من ظاهر الآية، وأمّا بالنظر لما ورد في بعض الأحاديث فيكون للآية معنى آخر، روى السيوطي، قال: أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي قال: اجتمعت قريش فقالوا: إنّ محمّداً رجل حلو اللسان إذا كلّمه الرجل ذهب بعقله فانظروا أُناساً من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم فابعثوهم في كلّ طريق من طرق مكّة على رأس كلّ ليلة أو ليلتين، فمن جاء يُريده فردّوه عنه.

فخرج ناس منهم في كلّ طريق فكان إذا أقبل الرجل وافداً لقومه ينظر ما يقول محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)فينزل بهم قالوا له: أنا فلان بن فلان، فيعرّفه بنسبه ويقول: أنا أُخبرك عن محمد، فلا يريد أن يعني إليه، هو رجل كذّاب لم يتبعه على أمره إلاّ السفهاء والعبيد ومن لا خير فيه، وأمّا شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له، فيرجع أحدهم.(الدر المنثور:٥/١٢٥.) ولو صحّت الرواية فكأنّ السائل يتحرّى الحقيقة، فلو أضاف الربّ إلى المخاطب:(مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ)فبتصوّر أنّه من أصحاب محمد(صلى الله عليه وآله وسلم). نعم، المخاطب يخون ويكذب عندما يقول:(قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ).

التاريخ يعيد نفسه

نرى أنّ التاريخ أعاد نفسه في القرن العشرين وأنّ المادّيين وهم المستكبرون الذين لم يدرسوا أدلّة الإلهيّين على أنّ للدين جذوراً في فطرة الإنسان، أخذوا يفسّرون الظاهرة الدينية بأنّها أثر جهل الإنسان بالعلل الطبيعية، ولذلك أكّدوا على علّة واحدة قائمة مكان العلل الطبيعية، ولو كانوا واقفين على علل الآثار الطبيعية لما أنكروا ما وراء الطبيعة.

وربّما فسّروا اعتقاد الإنسان بالإله الواجب الوجود بوجه آخر، وهو الخوف من شرور الطبيعة وأضرارها كالرَّعد والبرق والسَّيل والطوفان، فالتزموا بوجود الإله حتى يلتجئوا إليه عند ظهور البلايا والمصائب.

إلى غير ذلك من الفروض الباطلة الخاوية من الاستدلال، والبرهنة القاصرة عن تفسير ذلك الاعتقاد الضارب في أعماق التاريخ، وكأنّهم تصوّروا أنّ البشر قبل القرن العشرين كانوا ضاربين في الجهل غير عارفين بالعلل الطبيعية، ولذلك صاروا معتقدين بالعلّة الواحدة القائمة مكان العلل الطبيعية.

ومثلها النظرية الثانية، وهي الخوف من أضرار الطبيعة وتبعاتها.

وكأنّهم زعموا أنّ مَن عاشوا في القرون الماضية كانوا أُناساً مجرّدين عن العلم والفكر، أو كانوا متخلّفين علمياً وعقلياً، مع أنّ بينهم قادة العلم والفلسفة وكشّافي العلوم وقواعدها، فهل يصحّ توصيفهم بأنّهم اعتقدوا بما وراء الطبيعة خوفاً من شر الطبيعة؟!

٢٥. (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ):

تأثير القادة في الأتباع هداية وضلالاً

إنّ لرأي الرؤساء والقادة أثراً في الأتباع، فهو ضالّون وفي نفس الوقت مضلّون، أي يُضلّون الأتباع، ولذلك استحقّ هؤلاء عقابين:

الأوّل: عقاب على ضلالهم وكفرهم وتمرّدهم على الحقّ.

الثاني: عقاب على إضلالهم، فيكون لهم مثل عقاب الأتباع لضلالتهم، وإلى ذلك يشير ما روي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال:«أيّ داع دعا إلى الهدى فاتُّبع، كان له مثل أجر مَن اتّبعه لا ينقص من أُجورهم شيء، وأيّما داع دعا إلى ضلالة فاتُّبع، كان

عليه مثل وزر مَن اتَّبعه لا ينقص من آثامهم شيء».(مسند أحمد:٢/٥٢٠).

والرواية صريحة في أنّ القائد يتحمّل، وراء العقاب على ضلاله، مثل عقاب مَن يضلّه، لا عقابه، لقوله سبحانه:(أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)(النجم:٣٨.)، فتكون النتيجة أنّ من سنّ سنّة سيئة فله عقابان: عقاب التسنين، وعقاب الإضلال، لا بمعنى أنّه يحمل عمّن أضلّه عقابَه وإنّما يُحكَم عليه بمثل عقابه.

وبذلك يظهر أنّ اللاّم في قوله سبحانه: (لِيَحْمِلُوا) هي لام العاقبة، لأنّهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير الأوّلين لحمل الأوزار، بل ترتّب عليه وصار سبباً لذلك وعاقبة له، وهي مثل اللاّم في قوله سبحانه:(رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ)(يونس:٨٨.).

قوله:(أَوْزَارَهُمْ): أي أوزار قادة الضلال أنفسهم (كَامِلَةً): أي لا يخفّف من عذابهم شيئاً (يَوْمَ الْقِيَامَةِ)، مضافاً إلى عقاب آخر يشير إليه بقوله:(وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ) الظاهر أنّ (مِنْ)للتبيين، أي ليحملوا من جنس أوزار الأتباع، الذين عطّلوا عقولهم، واتّبعوا رؤساءهم (بِغَيْرِ عِلْم)فضلّوا باتّباعهم تقليداً، ومن دون تأمّل منهم ولا نظر. ويُحتمل أنّ قوله: (بِغَيْرِ عِلْم) يعود إلى المضلِّين،

والمعنى: أنّ ما يدعوا إليه هؤلاء المضلُّون ويُضَلّ به الآخرون، لا يستند إلى علم، ولا يقوم على دليل وبرهان.

ثمّ إنّه سبحانه يصف ذلك الحمل ويقول: (أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ): أي بئس شيئاً يَزرونه ويحملونه، فعلُهم هذا.

وقد أُشير إلى تلك الحقيقة، أي سنّة التسنين هداية أو ضلالة في بعض الآيات، قال سبحانه:(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَان أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْء كُلُّ امْرِئ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ)(الطور:٢١.)، ومورد الآية من سنّ سنة حسنة. وحاصل الآية: إنّه سبحانه يمنّ على المؤمنين بأنّه يلحق بهم أولادهم إذا كانوا مؤمنين ـ ولو بدرجة سافلة ـ ولكن لا يوجب النقص في جانب الآباء لكونه على خلاف الامتنان، فمعنى قوله: (أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ)الضميران يرجعان إلى الآباء وأُريد من الإلحاق الإثابة الكاملة مثل إثابة الآباء، دون أن ينقص من ثواب الآباء شيء.

الآيات:٢٦-٢٩ (قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ...لَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ).

الآيات: السادسة والعشرون إلى التاسعة والعشرين

(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ *ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوء بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ).

المفردات

فأتى الله بُنيانَهم: أهلكه وأفناه، يقال: أتى عليه الدهر.

القواعد: الدعائم والعُمُد، واحدها قاعدة.

خرّ: سقط.

يُخزيهم: الخِزْي: الهَوان الذي يُستحيا منه، خوفاً من الفضيحة.

تُشاقّون: أي تُخاصمون وتُنازعون. وأُطلق الشّقّ على التخاصم لأنّ أحد المتخاصمين من حيث الفكر والنظر في شِقّ، والآخر في شِقّ آخر.

السُّوء: العذاب الذي يسوء الجاحدين لنِعَم الله.

فألقوا السلم: استسلموا للحقّ وانقادوا.

مَثوى: منزل، مُقام.

التفسير

٢٦.(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ):

مكر القادة بأتباعهم ونتيجته

إذا كان معنى المكر هو إلحاق الضَّرر بالغير بصورة النُّصح، فقادة المشركين مكروا بأتباعهم، حيث موّهوا عليهم بأنّ ما يلقون إليهم هو الحقّ الصُّراح، ولذلك وصفهم سبحانه بالمكر معرباً بأنّ هذه السيرة، أي سيرة مكر الرؤساء بالمرؤوسين كانت سائدة في القرون السابقة أيضاً، والله سبحانه دمّر بنيانهم من القواعد، كما قال:(قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ): أي قبل كفّار قريش (فَأَتَى اللهُ)كناية عن إتيان العذاب (بُنْيَانَهُمْ) والبنيان مصدر بمعنى المبنى، فهَدْم البناء تارة يبدأ من السقف على رؤوس الساكنين فيه، وأُخرى هَدْمه (مِنَ الْقَوَاعِدِ): أي من الأُسس والأساطين التي يكون السقف مبنيّاً عليها، فبينما يكون الساكن ناظراً إلى السقف حتى لا يقع على رأسه، فالله سبحانه يستأصل المبنى من الأساس دون أن ينتبه إليه القاطن فيه، ولذلك يقول:(فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ)الذي بنَوه من جانب قواعده فهدمها (فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ)، وأكّده بقوله: (وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ)حيث كانوا يتوقّعون العذاب يأتي من فوق رؤوسهم، لكن أتاهم العذاب من تحت المبنى ومن ثمّ انهدم السقف وهم غافلون.

هذا هو تفسير الآية بلفظها، وفيها نكتتان:

١. أنّ تهديم المبنى من القواعد يحتمل وجهين:

الأوّل: الحمل على المعنى اللُّغَوي كما عليه المفسّرون، فعن ابن عباس: أنّه سبحانه يعني نمرود بن كنعان، بنى صرحاً طويلاً ورامَ منه الصعود إلى السماء ليقاتل أهلها بزعمه، فأرسل الله ريحاً فألقت رأس الصَّرح في البحر، وخرّ عليهم الباقي.(مجمع البيان:٦/١٧٣.)

الثاني: أنّ الآية كناية عن إبطال كيدهم وإفساد مكرهم من حيث لا يشعرون، كحال من يقطن بيتاً فينهدم عليه السقف لا بهادم يهدمه من فوقه، بل بانهدام القواعد، فصارت النتيجة: إنّ الله سبحانه بدّد شملهم وقلع جذور تجمعاتهم وأحزابهم، فاستأصلهم من حيث لا يشعرون.

قال الشريف الرضيّ حول هذه الفقرة:(فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ):

وهذه استعارة، لأنّ الإتيان هاهنا ليس يُراد به الحضور عن غيبة، والقرب بعد تباعد مسافة، وإنّما ذلك كقول القائل: أُتيتُ من جهة فلان، أي جاءني المكروه من قِبَله، وأُتي فلان من مأمنه، أي ورد عليه الخوف من طريق الأمن، والضُّرّ من مكان النَّفع.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٢٣.)

وقد أرشدَنا التاريخ إلى أقوام طغاة جمعوا العُدّة والعدد لمعاندة الحقّ، فشتّت الله عزّ وجلّ جمعهم وحزبهم وعادوا خائبين. وفي الآية تهديد لقريش أنّه قد تشملهم سنّة الله في حقّ الماكرين، فعليهم أن يعتبروا بأصحاب الفيل، الذين حشدوا قواهم وجمعوا جيشهم لتهديم بناء التوحيد(الكعبة المشرّفة)، فعندما وصلوا إلى مشارف مكّة، أتى الله سبحانه بنيانهم من القواعد، فخرّوا على الأرض وتبدّدت أشلاؤهم في البقاع، ولم يبق منهم أثر.

هذا هو عقاب المكر في الدنيا، وأمّا في الآخرة فتتحدّث عنه الآية التالية.

٢٧.(ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ):

قوله:(ثُمَّ) لبيان الترتيب، أي ثمّ يأتي (يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ) وأُريد بالضمير هنا المشركون الذين تحدَّث عنهم سبحانه في الآيات

السابقة، وأُريد من خزي الآخرة إهانتهم بالنحو التالي:(وَيَقُولُ)سبحانه لهم (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ): أي تُخاصمون وتُنازعون فيهم أنبيائي ورسلي، إذ ظهر لهم أن مشاقّتهم في الخصومة كانت على شفا جرف هار.. استحوذ عليهم الشيطان فزعموا السراب ماءً، فلم يكن نصيبهم إلاّ الخزي، ولهذا عادت طبقة مؤمنة عالمة مجيبة لسؤال الله سبحانه، كما يقول: (قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) لا مجرّد العلم بل العلم المقرون بالإيمان، قال سبحانه: (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ)(الروم:٥٦.)، فهؤلاء هم الذين رُزقوا علماً جمّاً ووقفوا على حقيقة الأمر، وأنّه لا ربَّ إلاّ هو، وعلى رأسهم الأنبياء والأئمة والأولياء والمؤمنون، فيقومون بالتنديد بالمشركين والحكم عليهم بقولهم:(إِنَّ الْخِزْيَ) الهَوان والذلّة (وَالسُّوءَ)العذاب الأليم (عَلَى الْكَافِرِينَ). وفي تفسير علي بن إبراهيم:(الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ): «الأئمة(عليهم السلام)يقولون لأعدائهم: أين شركاؤكم ومن أطعتموهم في الدنيا».(تفسير نور الثقلين: ٣/٥٠، والتفسير من باب تطبيق الآية على أحد مصاديقها.)

٢٨. (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوء بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

إنكار المجرمين أعمالهم الإجرامية يوم القيامة

لم يُذكر في الآية السابقة جواب المشركين عندما يُسألون عن الشركاء، ولكن يظهر من قولهم في هذه الآية: (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوء) أنّهم أجابوا بالتبرّؤ من الشّرك وكلّ عمل إجرامي، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على صلافتهم ووقاحتهم. وليس هذا أوّل مورد ينكر فيه المشركون شركهم لمّا رأوا العذاب، فقد حكى سبحانه عنهم ذلك الإنكار في موضع آخر:(وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ).(الأنعام:٢٢ـ٢٣.) إذا تبيّن هذا فلنفسّر الآية.

يقول سبحانه: (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ) الموصول وصلته خبر لمبتدأ محذوف، أي هم الذين تتوفّاهم الملائكة، والجملة وصف للكافرين المذكورين في الآية السابقة. ونسبة التوفّي إلى الملائكة لا ينافي نسبته إلى الله سبحانه، قال تعالى:(اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا)،(الزمر:٤٢.) وذلك لأنّ الملائكة جند من جنود الله سبحانه، فيصحّ نسبة الفعل إلى الآمر والمأمور، ولذلك نظائر كثيرة في القرآن الكريم.

نعم، الملائكة يقبضون أرواحهم في حالة كونهم:(ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ)وأيّ ظلم للنفس أشدّ من الكفر، الذي صار سبباً لحرمانهم من الجنّة واستحقاقهم النار؟! ثمّ إنّ هؤلاء لمّا رأوا العذاب استسلموا وانقادوا، كما يقول: (فَأَلْقَوُا السَّلَمَ): أي خضعوا للحقّ. ولمّا خُيِّل إليهم أنّ إنكارهم لأعمالهم الإجرامية يخفّفهم من عذاب الله، أخذوا يخاطبون الملائكة بقول كذب: (مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوء) فتجيبهم الملائكة بقولهم:(بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وبما أنّه عالم بشركهم فتكذيبهم كذب آخر وراء الكذب الذي كانوا يمارسونه في الحياة الدنيا.

قال الشريف الرضيّ حول هذه الجملة:(فَأَلْقَوُا السَّلَمَ): و هذه استعارة، وليس هناك شيء يُلقى على الحقيقة وإنّما المراد بذلك طلب المسالمة عن ذلّ واستكانة والتماس وشفاعة؛ لأنّ من كلامهم أن يقول القائل: ألقى إليّ فلان بيده، أي خضع لي وسلّم لأمري. وقد يجوز أيضاً أن يكون معنى(فَأَلْقَوُا السَّلَمَ): أي استسلموا وسلّموا، فكانوا كمن طرح آلة المقارعة ونزع شِكّة المحاربة، وفي معنى ذلك قوله سبحانه:(وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ): أي لا تستسلموا لها وتُوقِعوا نفوسكم فيها.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٢٣ـ١٢٤.)

٢٩. (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ):

لمّا علم الملائكة أنّ تكذيبهم خال عن الحقيقة، أمروهم بقولهم: (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ): أي كلٌّ من باب يناسب عمله وموقفه

من الكفر، لا أن يدخل كلّ واحد منهم جميع الأبواب. والشاهد على ما ذكرنا قوله تعالى:(لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ)(الحجر:٤٤). (خَالِدِينَ فِيهَا)الجملة حالية يفسّرها قوله سبحانه: (لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا)(فاطر:٣٦). (فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ): أي بئس المُقام، دار الذل والهوان لمن كان متكبّراً عن اتّباع الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) والاهتداء بهديه.

الآيات:٣٠- ٣٢ (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا... سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

الآيات: الثلاثون إلى الثانية والثلاثين

(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ).

المفردات

عَدْن: استقرار وثبات، يقال: عَدَن بمكان كذا أي استقرّ، ومنه المعدِن لمستقرّ الجواهر.

طيِّبين: قال الراغب: الطيِّب من الإنسان: مَن تعرّى من نجاسة الجهل والفسق، وقبائح الأعمال، وتحلّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال.(المفردات للراغب: ٤٣١، مادة «طيب».)

ويؤيّد ذلك أنّه يقابل الظالمين في الآية المتقدّمة، حيث قال:(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ).(النحل:٢٨.)

التفسير

هذه المجموعة من الآيات تبحث عن رأي المتّقين فيما أُنزل وما يترتّب عليه من الآثار في الدنيا والآخرة، وهي تقابل المجموعة السابقة التي تتحدّث عن الظالمين ورأيهم فيما أُنزل وما يترتّب عليه من الخزي والسوء، فالمجموعتان تختلفان موضوعاً ومحمولاً وآثاراً وعاقبة. وسيأتي شرح التقابل بعد الفراغ من التفسير.

٣٠. (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ):

رأي المتّقين فيما أُنزل إليهم

افتُتحت المجموعة بقوله: (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) ولا شكّ في أنّه أُريد من المتّقين الذين تلبّسوا بالتقوى واستقاموا عليها عبر حياتهم بشهادة ذكر المتّقين مرّتين في هذه الآية والآية التالية، إنّما الكلام فيما هو الوجه في افتتاح المجموعة السابقة بجملة شرطية، أعني قوله: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ) دون المَقام.

ويمكن أن يكون الوجه أنّ قولهم: (أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) لمّا كان كذباً اختلقوه، كانت هناك مظنّة أن يرجع عنه قائله، ويعتقد بالحقّ، ولذلك قُرن بأداة الشرط للدلالة على التكرار، ووجود احتمال أن يكون الجواب في بعض الصور غيره في غيرها، بخلاف المَقام، فإنّهم لمّا كانوا متلبّسين بالتقوى ملتزمين بها حقّ الالتزام، يكون الجواب عندهم مطلقاً أمراً واحداً لا يختلف مهما تكرّر السؤال.

وعلى أيّ حال، فإذا سئل المتّقون: (مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ) في القرآن الكريم (قَالُوا): أي أجابوا (خَيْرًا): أي أنزل خيراً، ولم يقل: «خير» بالرفع خبراً للمبتدأ أي هو خير، وفي الكشّاف، قال: فصلاً بين جواب المقرّ وجواب الجاحد، يعني أنّ هؤلاء لمّا سُئلوا لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السؤال بيّناً مكشوفاً مفعولاً للإنزال فقالوا: (خَيْرًا) أي: أنزل خيراً، وأُولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأوّلين، وليس من الإنزال شيء.(تفسير الكشّاف:٢/٢٠٢.)

وحاصله: إنّهم لو قالوا: «خير» بالرفع لم يصرّحوا بالإنزال بل كانت غاية كلامهم أنّه خيرٌ لنا في حياتنا، وأمّا أنّه منزل من الله سبحانه فلا يستفاد من قولهم: خير، وهذا بخلاف قولهم: (خَيْرًا): أي أنزل خيراً، إذ هو صريح أنّ الخير منزل من الله سبحانه.

الآية تشرح الخير الوارد فيها

إلى هنا تمّ جواب المتّقين. ثمّ إنّه سبحانه يشرح هذا الخير بقوله:(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا): أي عملوا بما أنزل الله إليهم في كتابه، فيُجزَون في الدنيا والآخرة، أمّا الدنيا فلهم (فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ) مكافأة في الدنيا لإحسانهم، وأمّا ما هي الحسنة في هذه الدنيا فيحتمل أن يكون المراد أنّ العاملين بالقرآن يقيمون مجتمعاً يغمره العدل والإحسان وينعم أهله بالعيشة الطيبة، وأمّا جزاؤهم في الآخرة كما يقول: (وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ) لأنّ جزاء الدنيا نعمة يلحقها الفناء، وأمّا جزاء الآخرة فهو نعمة دائمة لا تفنى.

ثمّ إنّه سبحانه يمدح دار الآخرة بقوله: (وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ) إذ كيف لا تكون نعم الدار، وقد وصفها سبحانه في الآية التالية ما يوضح ذلك.

٣١. (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ):

قوله:(جَنَّاتُ عَدْنٍ) خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي(جَنَّاتُ عَدْنٍ) بها إقامة دائمة (يَدْخُلُونَهَا): أي المتّقون(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ): أي من تحت قصورها (لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ) من النّعم وغيرها (كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ): أي كهذا الجزاء الكريم يجزي الله المتّقين دائماً.

٣٢. (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

التقابل بين الظالمين والمتّقين في استقبال الملائكة يوم القيامة

الآية بصدد بيان التقابل بين الظالمين والمتّقين يوم القيامة في استقبال الملائكة، فالظالمون يُستقبلون بقول الملائكة لهم: (فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ)كما مرّ، وأمّا المتقون فيُستقبلون بكلمة طيّبة لقوم طيّبين، كما يقول:(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ)حال كونهم (طَيِّبِينَ): أي منزّهين من الشرك، مقابل الظالمين الذين تمادَوا في الشرك وبذلك ظلموا أنفسهم. وعبّر سبحانه عن صفاء فكرتهم وعدم اختلاطها بشيء من الشرك بكلمة الطيِّب التي تشير إلى خلوص الشيء ومُحوضته، والذي لم يخلط بشيء يكدّره (يَقُولُونَ): أي الملائكة لهم (سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وهذا النوع من السلام سلام تكريم حين اللِّقاء بهم، وقولهم:(بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) دليل على أنّ دخول الجنة لأجل عملهم: العمل في سبيل الخير طاعةً لله تعالى، كما أنّ دخول الآخرين جهنم بسبب أعمالهم القبيحة كذلك، كما يقول:(إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ).(النحل:٢٨ـ٢٩)

إلى هنا فرغنا من تفسير المجموعة، بقي الكلام في بيان الجهات المختلفة من المقابلة في المجموعتين، وإليك البيان:

التقابل بين المجموعتين

يمكن تصوير التقابل في هذه الآيات بالنحو التالي:

الموضوع	المجموعة الأُولى	المجموعة الثانية
المسؤول	(وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)(النحل:٢٢)	(وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا)(النحل:٣٠)
السؤال	(مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ)(النحل:٢٤)	(مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ)(النحل:٣٠)
الجواب	(أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)(النحل:٢٤)	أنزل (خَيْرًا)(النحل:٣٠)
الآثار	(لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ)(النحل:٢٥)	(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ)(النحل:٣٠)
جزاء الأعمال	(أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ). (النحل:٢٥)	(كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ)(النحل:٣١)

حالهم حين قبض أرواحهم	(ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ)(النحل:٢٨.)	(طَيِّبِينَ)(النحل:٣٢.)
كيفية استقبال الملائكة لهم	(فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ)(النحل:٢٩.)	(سَلاَمٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ)(النحل:٣٢.)
المأوى	(جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا)(النحل:٢٩.)	(جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا)(النحل:٣١.)

إنّ هذا التقابل الرائع في هذه الموارد الثمانية أدلّ دليل على أنّ القرآن الكريم هو وحي نازل من السماء على قلب سيد المرسلين، فإنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يقرأ ولم يكتب ولم يحضر للدرس عند أحد، وقد بلّغ هذه الآيات دون أن يفكّر أو يتدبّر في نظمها وتركيبها وتقابلها، بل تلاها عقب تلاوة الروح الأمين عليه.

الآيتان:٣٣- ٣٤ (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ... وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

الآيتان: الثالثة والثلاثون والرابعة والثلاثون

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

المفردات

ينظرون: ينتظرون.

أمر ربّك: كناية عن عذاب الاستئصال.

حاق بهم: أحاط بهم، ويستعمل كثيراً في إحاطة الشرّ.

التفسير

هاتان الآيتان تشتملان على بيان جديد لحال المستكبرين الذين أعرضوا عن دعوة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وجعلوا أنفسهم في موقع أرقى ممّا دعاهم إليه، فصاروا في مظنّة أنّهم ينتظرون أحد أمرين، كما في الآية التالية:

٣٣. (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ):

انتظار أحد الأمرين

أشار سبحانه إلى أنّهم ينتظرون ـ حسب اقتضاء حالهم ـ أحد أمرين كما يقول:(هَلْ يَنْظُرُونَ): أي ينتظرون، والاستفهام هنا للإنكار (إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلاَئِكَةُ) لقبض أرواحهم، بشهادة ما تقدّم من قوله تعالى:(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ)(النحل:٢٨.)، (أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ): أي عذاب الاستئصال بشهادة قوله فيما تقدّم: (فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ)(النحل:٢٦.)، فكلّ من الأمرين إذا واجهوه، فيه عذاب أليم.

وربّما يقال: إنّ المراد بإتيان الملائكة هو نزولهم لعذاب الاستئصال، وينطبق على مثل قوله: (مَا نُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ)(الحجر:٨.)، والمراد بإتيان أمر الربّ قيام الساعة وفصل القضاء والانتقام الإلهي منهم، وإضافة الربّ إلى النبيّ في قوله:(أَمْرُ رَبِّكَ) ولم يقل أمر الله أو أمر ربّهم، ليدلّ به على أنّ فيه انتصاراً له (صلى الله عليه وآله وسلم)وقضاء له عليهم.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٢٣٧.)

ثمّ إنّه سبحانه يشير إلى أنّ معاندة الحقّ لا تختصّ بمشركي عصر الرسالة، كما قال: (كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ): أي سلكوا مسلك هؤلاء في الكفر وفي نسبته إلى الله تعالى، ولكنّهم بعملهم هذا الذي استحقّوا به العقاب قد ظلموا أنفسهم، كما قال: (وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)، وأيّ ظلم أوضح من هذا الظلم للنفس، حيث صار عنادهم وتمرّدهم على الحقّ الذي

دعا إليه الرّسل سبباً للبعد عن رحمة الله؟

٣٤. (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ):

لمّا تقدّم في الآية السابقة أنّهم ظلموا أنفسهم، جاء البيان القرآني لبيان نتيجة ظلمهم على أنفسهم، كما قال: (فَأَصَابَهُمْ) جزاء (سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ): أي أحاط (بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ)بسببه (يَسْتَهْزِئُونَ).

ويمكن أن يقال: إنّ الفقرة الأخيرة من أدلّة تجسّم الأعمال، فهي تصرّح بأنّه يحيط بالمشركين يوم القيامة ما يستهزئون به، ومعنى ذلك أنّ الاستهزاء بالأنبياء وبما ينذرون به، والذي يتمثّل في السبّ والشتم والأذى وغير ذلك، يتجسّم في الآخرة بلباس آخر ويحيط بالمشركين إحاطة عذاب، وعلى هذا فلا حاجة لتقدير لفظة «جزاء».

الآيات:٣٥- ٣٧ (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ... وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ).

الآيات: الخامسة والثلاثين إلى السابعة والثلاثين

(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ).

المفردات

الطاغوت: قال الراغب: الطاغوت عبارة عن كلّ مُتَعدٍّ وكلّ معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع.(المفردات في غريب القرآن:٣٠٤، مادّة «طغى».) ويظهر من قوله سبحانه:(فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ)(البقرة:٢٥٦.) أنّ الطاغوت هو الذي يطغى ويتزعّم ويعبده الناس ويطيعونه من دون الله تعالى. وقد ورد الطاغوت في القرآن بمعنى المعبودين أو المطاعين من دون الله تعالى، أو من دون أنبيائه وأوصيائه(عليهم السلام).

حقّت: وجبت وثبتت.

التفسير

لمّا كان الصادع بالحقّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ينهى المشركين عن عبادة الطاغوت (الأصنام والأوثان)، ويكذّبهم فيما ينسبون إلى الله سبحانه من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما من الأشياء التي جاء ذكرها في قوله تعالى:(مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)(المائدة:١٠٣.) حاول هؤلاء المشركون مخاصمة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وإفحامه بأنّك تقول إنّ الله يعلم ما نسرّ وما نعلن، فلو شاء الله أن لا نعبد من دونه شيئاً ما عبدناه ولما تمكنّا من عبادته، ولا حرّمنا ما حرّمنا.

٣٥. (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ):

اتّخاذ كلٍّ من المجبّرة والمفوّضة الآية سنداً لعقيدتهما

اتّخذ كلٌّ من المجبّرة والمفوّضة من هذه الآية (وكذلك من الآيتين اللّتين بعدها) دليلاً على منهجهم، فصاحب الكشّاف اتّخذها سنداً لبطلان الجبر، أمّا الرازي فخرّجها بشكل ينسجم مع منهجه في الجبر، وسيوافيك كلامهما، وسترى أنّ الآيات بعيدة عن موقف كلا المدرستين، فلنُشر إلى خصوصيات آيتنا هذه، قال سبحانه:(وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا) صرّح باسم أصحاب الشبهة، وقال:(الَّذِينَ أَشْرَكُوا)،

ولم يقل«قالوا» حتى يكون تلميحاً لصاحب الشبهة، وأمّا ما هي الشبهة؟ فهي قوله سبحانه:(لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)قوله:(شَاءَ اللهُ) فعلٌ حُذف مفعوله، والتقدير:]لو شاء الله أن نعبد من دونه شيئاً[(مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ).

ثمّ إنّ لفظة (مِنْ) في قوله: (مِنْ دُونِهِ) للابتداء، أمّا في قوله:(مِنْ شَيْءٍ)فزائدة لتأكيد الجنس، كما أنّ (وَلاَ آبَاؤُنَا) في قوله: (نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا)عطف على الضمير في قوله:(مَا عَبَدْنَا)، وجيء بضمير الفصل (نَحْنُ)لتصحيح العطف على ضمير الرفع المتّصل.

إذا تبيّنت هذه الأُمور، فنقول:

أصل الشبهة لمنكري النبوّة، حيث إنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يأمرهم بقوله: لا تشركوا بالله ولا تعبدوا غير الله ولا تحرّموا ما أحلّ الله، ردّ المشركون على النواهي بقولهم:

(لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ).

وحقيقة الشبهة هي أنّه لم تتعلّق مشيئته على أن لا نعبد غيره، وألاّ نحرّم ما حرّمنا، ولو تعلّقت بترك ما عبدناه أو تحريم ما حرّمناه، لَمَا عبدناه ولا حرّمناه.

وبما أنّك عرفت أنّ النبيّ كان يخاطبهم بأن لا تشركوا ولا تحرّموا، صاروا بصدد الردّ على كلامه بأنّ مشيئته لم تتعلّق بـ«ألاّ تشركوا ولا تحرّموا».

ثمّ إنّه ربّما أُشكل على ذلك بأنّ العدم لا يحتاج إلى المشيئة كما يُنبِئ عنه قوله(صلى الله عليه وآله وسلم):«ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن» حيث لم يقل(صلى الله عليه وآله وسلم): ما شاء تعالى كان وما شاء عدم كونه لم يكن، بل يكفي فيه عدم مشيئة الوجود، وهو معنى قولهم: علّة العدم عدم علّة الوجود.(روح المعاني:١٤/١٣٥.)

صحّة تعلّق المشيئة بالأمر العدمي

وأجاب عن ذلك السيد الطباطبائي قائلاً: بأنّ ما ذكره حقّ بالنظر إلى حقيقة الأمر، إلاّ أنّ العنايات اللفظية والتوسّعات الكلامية، لا تدور دائماً مدار الحقائق الكونية والأنظار الفلسفية، وأنّ الأفهام البسيطة ـ ولم تكن أفهام أُولئك الوثنيين بأرقى منها ـ كما تجيز ترتّب الفعل الوجودي على المشيّة،

تجيز تعلّق عدمه لها، وفي كلامه(صلى الله عليه وآله وسلم) جرياً على هذه العناية الظاهرية:«اللّهُمَّ إن شئت أن لا تُعبَد لم تُعبَد».(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٢٣٨.)

وبما ذكرنا ظهر أنّ مصبّ ادّعاء المشركين، هو عدم تعلّق مشيئته بترك عبادة الأصنام أو ترك تحريم ما حرّموا، ولا يظهر منهم أنّهم ادّعوا تعلّق مشيئته بعبادة الأصنام وتحريم ما حرّموا، لِما عرفت من أنّ مفعول قوله: (شاءَ) هو: «أن لا نعبد من دونه شيئاً، أو ألاّ نحرّم ممّا حرّمناه شيئاً»، ومع هذا كيف يمكن أن يستفاد من الآية كونهم مدّعين بتعلّق مشيئته بعبادة الأصنام وتحريم ما حرّموا؟

وحاصل كلامهم: إنّ إرادته التكوينية الملجئة إلى ترك عبادة الأصنام وتحريم ما حرّموا لم تتحقّق، وإلاّ لَمَا كان في استطاعتهم عبادة غيره وتحريم ما حرّموا. وأين ذلك من تعلّق مشيئته بعبادة الأصنام وتحريم ما حرّموا؟

وبذلك يُعلم وجود الخلل في كلام كلّ من صاحب الكشّاف وصاحب التفسير الكبير، حيث زعما أنّ متعلّق المشيئة هو عبادة الأصنام، ففرّع عليه صاحب الكشّاف قوله: فهل على الرُّسل إلاّ أن يبلّغوا الحقّ وأنّ الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان، ويطّلعوا على بطلان الشرك وقبحه وبراءة الله تعالى من أفعال العباد وأنّهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم، والله تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له، وزاجرهم عن قبيحها ومُوعدهم عليه، ولقد أمدّ الله إبطال قدر السوء ومشيئة الشرّ بأنّه ما من

أُمّة إلاّ وقد بعث فيهم رسولاً يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة الله، وباجتناب الشرّ الذي هو طاعة الطاغوت.(تفسير الكشّاف:٢/٢٠٣.)

يلاحظ عليه: بأنّ المشركين في قولهم هذا كانوا بصدد بيان سبب تركهم قول النبيّ: ألاّ تشركوا ولا تحرّموا مدّعين بأنّه لم يتعلّق أمره بترك عبادة غيره، دون أن يدّعوا تعلّق مشيئة الله بعبادة الأصنام وتحريم ما حرّموا، حتى يحكم عليهم بالقول بالجبر، ويكون سنداً لبطلانه.

أضف إلى ذلك: أنّ المشركين كانوا بصدد مدح منهجهم وأنّهم على الهدى والحق، فلو علّلوا منهجهم بالجبر والإلجاء، يكون اعترافاً منهم على بطلان عملهم واعتذاراً منهم على اعتقادهم. ويشهد لما ذكرنا قولهم:(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّة وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ).(الزخرف:٢٢.)

ثمّ إنّ الرازي لمّا فسّر الآية بأنّ المشركين بصدد بيان كونهم مُلجَئين إلى عبادة الغير من جانب الله سبحانه وأنّ مشيئته تعلّقت بعبادتهم، أجاب عن الشبهة بأنّ هذا القول جار مجرى طلب العلّة في أحكام الله تعالى وأفعاله، وذلك باطل، بل لله تعالى أن يحكم في ملكه وملكوته ما يشاء ويفعل ما يريد، ولا يجوز أن يقال له: لِمَ فعلتَ هذا ولِمَ لم تفعل ذلك.(تفسير الرازي:٢/٤٥.)

وحاصل كلامه: إنّ لله سبحانه أن يفعل في ملكه مطلقاً، سواء أكان على وفق العدل أم لا، وسواء أكان التكليف على قدر الطاعة أم لا، وليس للمشركين أن يعتذروا بهذا العذر.

نقد كلام الرازي القائل بالجبر

وهذا الكلام، كلام مَن أنكر الفطرة، وقضاء العدل، والآيات الكثيرة على أنّ التكليف فرع الاختيار.

إذا عرفت ذلك، فلنرجع إلى تفسير بقية الآية التي فيها الإجابة عن شبهتهم، قال سبحانه:(كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ): أي سلكوا مسلك مشركي قريش، فعبدوا غير الله وحرّموا ما لم يحرّم الله، ولكن (فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) وأنت يا رسول الله قمت بهذه الوظيفة، وبلّغت رسالة الله بلاغاً مبيناً رافعاً للشكّ والشبهة.

وهنا يثار سؤال، وهو: كيف صارت الفقرة الأخيرة ردّاً لشبهتهم؟

والجواب: إنّ ارادته التشريعية تعلّقت بترك عبادة الآلهة المكذوبة وترك ما حرّموا، فكيف تقولون: لم تتعلّق مشيئته بترك عبادة غيره، مع أنّ الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)كان ينادي كلّ يوم على رؤوس الأشهاد:(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)(الأنعام:١٥١.)؟ وعليه فقد بلّغ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)ما أراده سبحانه بلاغاً مبيناً.

وأمّا إرادته التكوينية فلم تتعلّق بترك عبادة غيره، إذ لو تعلّقت تكون عبادتهم أمراً ممتنعاً خارجاً عن اختيار الإنسان، وعندئذ لا يُعدّ ترك الشرك والإنابة إلى التوحيد فضيلةً، لافتراض امتناع الشّقّ الآخر.

التفريق بين الإرادتين التكوينية والتشريعية

وحاصل الجواب: إنّهم خلطوا بين الإرادة التشريعية وقد تعلّقت به ولكن لا توجب الإلزام، ولا تجعل الإنسان مكتوف اليدين في اختيار أحد الطرفين، وأمّا الإرادة التكوينية فلم تتعلّق به، لأنّها تخالف ما هو الشرط الأصيل في التكليف، إذ يخرج عندئذ الإنسان عن كونه مختاراً بين الفعل والترك، ويصبح مُلجَأً إلى الترك.

٣٦. (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّة رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ):

بعث الرُّسل في الأُمم السابقة جميعاً

هذه الآية توضيح للجواب السابق قائلة بأنّ بعث الرسل سنّة إلهية قد جرَت في الأُمم السابقة، وأنّ محمداً(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن بِدْعاً من الرُّسل، كما قال: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً) وهذه الفقرة تدلّ على وجود الرُّسل في عامّة الأُمم على اختلاف أجناسها والأقطار التي كانت تسكنها، ولا ينافي ذلك أنّ المنطقة التي بُعث فيها الرُّسل والأنبياء الوارد ذكرهم في القرآن الكريم، تشكّل الآن معظم بلدان ما سُمّي بالشرق الأوسط، ولا تشمل سائر المناطق في كوكب الأرض، لأنّ القرآن الكريم لم يذكر لنا من أسماء الرُّسل إلاّ عدداً قليلاً، وهناك آيات تؤكّد على بعث رسل لم يشأ سبحانه أن يذكر قصصهم وأسماءهم، مثل قوله سبحانه: (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ)(النساء:١٦٤.)، وقوله: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ)(غافر:٧٨.). هذا، وليس هناك ما يمنع من أن يكون الرجال العظام الذين تُنسب إليهم الشرائع والأديان والكتب المتنوّعة التي فيها أحكام وتعاليم ووصايا اجتماعية وأخلاقية في بلاد الهند والصين وجاوا والفرس واليابان وغيرها منهم أيضاً.(التفسير الحديث:٤/٤٠٠.)

ومهما يكن، فإنّ إرسال الرُّسل نعمة من الله وسبب لبلوغ الإنسان الغاية التي خُلق لها، فلو كان للإنسان الغابر استعداد لبلوغ الكمال لكان على الله سبحانه بعث الرُّسل لإيصاله إلى تلك الغاية، وقد نبّه سبحانه ـ كما قلنا ـ على وجود رسل لم تذكر أسماؤهم في القرآن الكريم.

ثمّ إنّ منطق الجميع قوله سبحانه:(أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)ومعناه أنّه سبحانه أظهر مشيئته على ترك طاعة الطاغوت وعبادته، فإنّ الطاغوت عبارة عن كلّ متعدّ يُعبد.

نعم، إنّ وظيفة الرسل هي الإرشاد وإبلاغ رسالات الله للجميع، غاية الأمر أنّ الناس أمام هذه الهداية العامّة على صنفين:

١. (فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ).

٢. (وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ).

عبّر سبحانه عن حال الطائفة الأُولى بقوله: (هَدَى اللهُ)، وعن الطائفة الثانية بقوله:(مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ) ولم يقل: ومنهم من أضلّ الله، ووجه ذلك أنّ الهداية العامّة تشمل المهتدي والضالّ، فإنّ أسبابها هي الفطرة والعقل الحصيف، ودعوة الأنبياء والأوصياء، والعلماء، وهذا يشترك فيه المهتدي والضالّ.

وإنّما نسب الهداية إلى نفسه لأنّ الهداية من الله سبحانه ولا تنسب إلى أحد من دونه إلاّ بالتّبع، كما قال:(إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)(القصص:٥٦.).

نعم حصر الهداية بالله سبحانه لا يلازم كون الهداية أمراً اضطرارياً لِما عرفت من أنّ للإنسان دوراً في الاستضاءة بهداية الله تعالى.

وأمّا الفقرة الثانية، فالله سبحانه لم يقل:«ومنهم مَن أضلّ الله» على خلاف الفقرة الأُولى، وما ذلك إلاّ لأنّ إضلاله سبحانه مسبوق بما تصبو إليه نفس العبد، ولذلك عُلّق إضلال الله سبحانه في غير واحدة من الآيات، على أفعال العباد، قال سبحانه: (وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ)(إبراهيم:٢٧.) ،وقال: (وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ)(البقرة:٢٦.)، وقال:(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ)(الصف:٥.)، إلى غير ذلك من الآيات التي تعلّق إضلال الله بصدور أفعال أو وجود حالات تحول بينه وبين هداية الله، وبذلك يظهر أنّ لله سبحانه هدايتين: عامّة (غير مشروطة بشرط) وهداية خاصة مشروطة بشروط، أهمّها عدم حيلولة أفعال العبد وصفاته بينها وبين العبد. ومن حال بينه وبين هدايتها، يُحرم من فيض الهداية الثانية، الذي يعبّر عنه في بعض الآيات بالإضلال.

وبما أنّه سبحانه أخبر عن سنّة إلهية عامّة، وأنّ الناس أمام الهداية على صنفين، حثّ على الاعتبار بالأُمم الغابرة، بالنظر إلى النهاية

التي انتهى إليها أمرهم بسبب تكذيبهم بآيات الله ورسالاته، كما قال: (فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ): أي مَن حقّت عليهم الضلالة، فإنّ الله تعالى تركهم صرعى معفّرة أُنوفهم.

٣٧. (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ):

حرص الرسول على هداية قومه جميعاً

كان النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) حريصاً على هداية قومه ومن أُرسل إليهم، جاداً في إرشادهم إلى سواء السبيل، وقد تجلّى ذلك فيما وصفه تعالى به:(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)(التوبة:١٢٨.)، فخاطبه سبحانه في هذه الآية، على سبيل تطييب نفسه وتسليته عمّا يلاقيه من تكذيب وعناد، خاطبه بقوله:(إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ) لم ينفعهم حرصك، فإنّ هدايته سبحانه تشمل مَن كان فيه استعداد لقبول الحقّ، والأخذ بأسباب الهداية، ومن أعرض عن الهداية الأُولى (فَإِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ)ولا يكتب التوفيق والسداد لمَن عزف عن الهداية الأُولى ولم يستضئ بأنوارها (وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)ينصرونهم من دون الله، ويدفعون عنهم العذاب الذي سيلاقونه جزاءً على كفرهم وضلالهم.

الآيات:٣٨- ٤٠ (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ... إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

الآيات: الثامنة والثلاثون إلى الأربعين

(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ * إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).

المفردات

جَهْد: قال الراغب(المفردات للراغب: ١٠١، مادة «جهد».): الجَهد والجُهد: الطاقة والمشقّة، وأُريد هنا الطاقة والوُسع.

بلى: كلمة جواب كنعم، ولا تقع إلاّ بعد النفي، فتثبت ما بعده.

وعْداً عليه: مفعول مطلق حُذف فعله، أي وَعَد ذلك وَعْداً عليه.

حقّاً: ثابتاً متحقّقاً.

التفسير

٣٨. (وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ):

عاد البيان القرآني هنا ليعرض مقالة أُخرى من شنيع مقالاتهم بعد ما فنّد مقالتهم حول الشرك في المجموعة السابقة، وهذه المقالة تدور على إنكارهم البعث والحياة الأُخرى، كما يقول سبحانه:(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ): أي بلغوا في القسم كلّ مبلغ، كما إذا أقسم أحدهم وقال: والله، وبالله، وتالله، مرّة بعد أُخرى، يقال: أقسم فلان جهد أيمانه. وأمّا المقسم عليه فهو قولهم:(لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ) أتى بصيغة المضارع دون الماضي ليعمّ المستقبل. ولمّا كانت مقالتهم هذه مجرّد دعوى، نفاها سبحانه بقوله:(بَلَى)، وقد مرّ أنّها تُستعمل في إبطال ما قبلها، فيكون معناه: بلى يبعث الله (وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا) فكلٌّ من لفظة (عَلَيْهِ)و (حَقًّا)وصف لـ (وَعْدًا)وتقدير الكلام: وعداً حقّاً عليه، والضمير في(عَلَيْهِ) يرجع إلى الله سبحانه، أي عليه إنجازه وتحقيقه من حيث الحكمة، وذلك الوعد وعد حق ليس فيه خُلف، إذ لولا البعث ما حصل التكليف (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ)لجهلهم وغفلتهم (لاَ يَعْلَمُونَ)أنّ البعث من بعد الموت، هو من الوعد الذي لابدّ منه، والقضاء الذي لا يتغيّر. ويحتمل أن يراد أنّهم لا يعرفون ما لله تعالى من قدرة مطلقة غير متناهية، وأنّه قادر على بعثهم وإحيائهم.

٣٩. (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ):

ما هو الغرض من بعث الناس يوم القيامة؟
الآية بصدد بيان الغاية من بعث من يموت، وقد ذكرت له غايتين: ١. (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الذي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ). ٢. (وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ). أمّا الأُولى، فأُريد من الاختلاف في قوله: (يَخْتَلِفُونَ فِيهِ) اختلافهم مع الأنبياء في أمر البعث، حيث إنّ الأنبياء على خطّ الدعوة إلى الحياة الأُخروية، ولكن المشركين على خطّ الإنكار، ففي يوم القيامة تظهر البواطن وترتفع الحُجب، وتنكشف الحقائق، ويتبيّن للجميع ما هو الحقّ، ويرون بأُمّ أعينهم أنّ البعث والحياة الأُخروية حقّ لا مرية فيها. وبذلك يظهر أنّ الغاية الثانية هي من لوازم الغاية الأُولى، وذلك لأنّ علم الكافرين بكذبهم من لوازم تبيّن ما يختلفون فيه، وليس شيئاً جديداً،يقول سبحانه: (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)(ق:٢٢). ثمّ إنّ التعبير بقولهم: (كَانُوا كَاذِبِينَ) يدلّ على استمرارهم في تكذيب البعث. ٤٠. (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ): لمّا كان إنكار المشركين أمر البعث ناشئاً عن جهلهم بقدرة الله تعالى ولذلك استبعدوا إعادة الحياة إلى أجسادهم البالية (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)(الإسراء:٤٩.)، جاء البيان القرآني لتخطئتهم في هذا التصوّر، وأنّه ليس بين الله وبين الموجود الإمكاني أي واسطة سوى تعلّق إرادته بإيجاده، فلو تعلّقت يتحقّق بلا امتناع ولا فاصل زماني، يقول سبحانه:(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ)الظاهر أنّ المراد من القول هو الأمر (أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ): أي نأمره بالوجود (فَيَكُونُ)فيتحقّق. والآية جرت على وفق الأذهان العامّة، فكما أنّ قول] أمر [العالي للسافل بإنجاز شيء يكون سبباً لتحقّقه، فهكذا قوله وأمره للشيء غير الموجود بأن يوجد، فيتحقّق بلا تريّث. وأُريد من أمره إرادته لتحقُّق الشيء. ثمّ إنّ لله سبحانه إرادتين: إرادة تكوينية إذا تعلّقت بشيء يتحقّق فوراً، ولا يكون بين الشيء وإرادته أي فاصل زماني، والآية إشارة إلى هذا القسم من الإرادة التي لا ينفكّ فيها مراده عن الإرادة، وهناك إرادة تشريعية وهي جعل الداعي للمكلّف لأن يمتثل من دون إلجاء واضطرار. وممّا ذكرنا يُعلم أنّ تعبيره سبحانه عن إرادته بـ (كُنْ) جرى على وفق أذهاننا، وإلاّ فالبارئ سبحانه ليس بحاجة إلى توسّط شيء حتى لو كان لفظة(كُنْ)، وهذا هو الذي فسّر به الإمام علي(عليه السلام) الآية وقال: «يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ:(كُنْ فَيَكُونُ)، لاَ بِصَوْت يَقْرَعُ، وَلاَ بِنِدَاء يُسْمَعُ; وَإِنَّمَا كَلاَمُهُ سُبْحانَهُ فِعْلٌ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَمَثَّلَهُ».(نهج البلاغة: الخطبة ١٨٦.) وأمّا كيفية إرادته سبحانه، فقد روى الشيخ الصدوق بإسناده إلى صفوان بن يحي قال: قلت لأبي الحسن]الرِّضا[(عليه السلام): أخبرني عن الإرادة من الله عزّ وجلّ ومن الخلق؟ فقال: «الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل، وأمّا من الله عزّ وجلّ، فإرادته إحداثه الفعل لا غير ذلك، لأنّه لا يروي ولا يهم ولا يتفكّر، وهذه الصفات منفيّة عنه وهي من صفات الخلق، فإرادة الله تعالى هي الفعل لا غير ذلك، يقول له: كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همّة ولا تفكّر ولا كيف كذلك، كما أنّه بلا كيف».(عيون أخبار الرضا: ١/١٠٩، برقم ١١ .)

ما هي الغاية من تفسير إرادته سبحانه بالفعل؟
ومن المعلوم أنّ الإمام(عليه السلام) إنّما نفى الإرادة الزائدة على الذات، وأمّا الإرادة الذاتية المجهول كنهُها فهي غير منفيّة، إذ لا يمكن إخلاء الذات من الإرادة التي هي ملاك كون الفاعل مختاراً، إذ عندئذ يصبح الواجب تبارك وتعالى فاعلاً مضطرّاً. نعم، ليس

لنا طريق إلى فهم كنهها.

وحاصل الكلام: إنّ الإرادة في مصطلحنا هي الإرادة الحادثة في صقع النفس بعد تصوّر المراد والتصديق بفائدته، ومن المعلوم أنّ الإرادة بهذا المعنى أمر محال في حقّه سبحانه، لاستلزامه كون الذات محلاً للحوادث، وهو يلازم حدوث الذات المنافي لكونه واجب الوجود.

وأمّا الإرادة المجرّدة عن الحدوث التي هي ملاك كون الفاعل مختاراً لا مضطرّاً، فلا يمكن سلبها عن الله سبحانه؛ لاستلزامه أن يكون سبحانه فاعلاً مضطرّاً مؤثّراً كتأثير النار، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً، فالله سبحانه موصوف بالإرادة بهذا المعنى وإن لم نقف على كنهها.

نعم فسّر الإمام (عليه السلام)إرادة الله سبحانه بفعله رعاية لحال السائل حتى لا يعتقد بالإرادة الحادثة في حقّه سبحانه، ولم تكن الغاية من التفسير نفي أصل الإرادة الذاتية المنزّهة عن وصمة الحدوث التي لا يعلم كنهها إلاّ هو.

الآيتان:٤١- ٤٢ (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ... الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

الآيتان: الحادية والأربعون والثانية والأربعون

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلاَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ).

المفردات

لنبوئنّهم: قال الجوهري: تبوّأت منزلاً: أي نزلته، وبوأت للرجل منزلاً وبوّأته منزلاً: أي هيّأته ومكّنت له فيه.(صحاح الجوهري:١ / ٣٧٨، مادة «بوأ».) وأُريد في الآية: الجزاء، أي لنجزينّهم عن الدنيا حسنة. وقال الوزير المغربي: أصل التبوئة: الإحلال، وهو هاهنا الرّزق.(المصابيح في تفسير القرآن : ٦٣٩.)

يتوكّلون: يفوّضون أمرهم إلى ربّهم.

التفسير

٤١. (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلاَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ):

ما وعد الله سبحانه به المهاجرين

يظهر من كتب السيرة أنّه كانت للمسلمين في الفترة المكيّة هجرتان:

الأُولى: هجرة فريق منهم إلى أرض الحبشة للحفاظ على عقيدتهم والتخلّص من أذى قريش، فغادروا أوطانهم ونزلوا أرض الحبشة بإرشاد من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) حيث قال للمضطهدين في مكة بسبب عقيدتهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه. وقد شدّوا رحالهم وغادروا مكة ليلاً في غفلة من الأعداء مشاة وركباناً، متّجهين إلى جدّة للسفر عبر مينائها إلى أرض الحبشة.(لاحظ في تفصيل تلك الهجرة التي تكرّرت مرّة بعد أُخرى: السيرة النبوية:١/٣٢١؛ تاريخ الطبري: ٢/٧٠ ؛ وبحار الأنوار:١٨/٤١٢.)

الثانية: هجرة فريق من المسلمين من مكّة المكرمة إلى يثرب قبل هجرة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) وذلك بعد ما أسلم «أسعد بن زرارة» على يد النبيّ، وكان قد سمع من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) الآيات الثلاث من سورة الأنعام:(١٥١ـ ١٥٣) فلمّا سمعها قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله، يا رسول الله بأبي أنت وأُمّي، فطلب من النبي أن يبعث إلى يثرب من يُرشد أشرافها وسادتها إلى الإسلام، فبعث النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) مصعب بن عُمَير يقرئهم ويفقّههم وكان لرحلته ـ وجمع بعده ـ إلى

يثرب أثر بالغ في دخول الأوس والخزرج في دين الله وانتشاره فيها.

فهل الآية ناظرة إلى الهجرة الأُولى، أو إلى الثانية؟ الظاهر هو الثانية لأنّ الفريق الأوّل، التحق بالنبيّ في السنة السابعة بعد الهجرة، فتفسير الآية المكّية بها بعيد.

وبما أنّ للهجرة في انتشار الاسلام، دوراً كبيراً في تبليغ الإسلام، كما أنّ ترك الأوطان والعشيرة والارتحال إلى أرض الغربة لا ينفكّ عن التعب والوَصَب، فالله سبحانه يَعِدهم في الدنيا والآخرة بعدما يصفهم بوصفين:

١. (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ) ابتغاء مرضاة الله ورسوله وصيانة لدينهم ودفاعاً عنه، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى، فمَن كانت هجرته إلى دنياً يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».(صحيح البخاري: الحديث١.)

٢. (مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا) بالتعذيب والإيذاء، فأبلوا بلاءً حسناً وفارقوا الديار وأهلها.وهؤلاء المهاجرون لأجل الله يَعِدهم سبحانه بوجهين:

١. (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً): أي تبوئة حسنة. ولقد صدقهم سبحانه وعده فقد عوّضهم في الدنيا خيراً ممّا كانوا فيه مأوىً ورزقاً وعيشاً حسناً في مجتمع ساد فيه العدل والإحسان، فلينظر ناظر «كَيْفَ نَشَرَتِ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ جَنَاحَ كَرَامَتِهَا، وَأَسَالَتْ لَهُمْ جَدَاوِلَ نَعِيمِهَا.... قَدْ تَرَبَّعَتِ الاُْمُورُ بِهِمْ، فِي ظِلِّ سُلْطَان قَاهِر، وَآوَتْهُمُ الْحَالُ إِلَى كَنَفِ عِزٍّ غَالِب، وَتَعَطَّفَتِ الاُْمُورُ عَلَيْهِمْ فِي ذُرَى مُلْك ثَابِت. فَهُمْ حُكَّامٌ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَمُلُوكٌ فِي أَطْرَافِ الاَْرَضِينَ. يَمْلِكُونَ الاُْمُورَ عَلَى مَنْ كَانَ يَمْلِكُهَا عَلَيْهِمْ، وَيُمْضُونَ الاَْحْكَامَ فِيمَنْ كَانَ يُمْضِيهَا فِيهِمْ!».(نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢(وتسمّى القاصعة)، فقرة: النعمة برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).)

٢. (وَلاَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ): أي أفضل من أجر الدنيا (لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ما أعدّ الله لهم فيها من النُّزل و النِّعم، ففيها سعادة من غير شقاء، وخلود من غير فناء، ولذّة غير مشوبة بالإثم.

٤٢. (الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ):

ثمّ إنّ الآية تصفهم بوصفين آخرين:

١. (الَّذِينَ صَبَرُوا) على تحمّل الأذى والمشاقّ في أيام إقامتهم بمكّة.

٢. (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)توكّلوا على الله وفوّضوا أمرهم إلى ربّهم الذي بيده مصائر الكون والعباد.

ثمّ إنّه سبحانه قدّم الصبر على التوكّل في آيتنا هذه، كما أنّه قدّم الصبر على الصلاة في قوله: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ).(البقرة: ٤٥.) لأنّه بمنزلة الرأس من الإيمان، فمَن لا صبر له لا إيمان له، والقيام بالتكاليف والوظائف الدينية فرع الصبر والمصابرة في صميم النفس.

إنّه سبحانه عبّر عن الصبر بصيغة الماضي، وعن التوكّل بصيغة المضارع، وما ذلك إلاّ لأنّ الصبر على أذى المشركين قد انتهى وانقضى زمانه بهجرتهم من مكة المكرمة إلى يثرب التي يعمّها الأمن والأمان للمسلمين.

وأمّا التوكّل فلم ينقضِ وقتُه، فما دام الإنسان يعيش على البسيطة فعليه التوكّل على الله وتفويض الأمر إليه مع السعي الجاد في الطريق الذي رسمه الإسلام.

هجرة المستضعفين

يظهر من أقوال فقهاء الإسلام وجوب هجرة المستضعفين ـ الذين صادر الظالمون حرّيتهم ومنعوهم من إقامة شعائر دينهم ـ إلى بلاد يتمكّنون فيه من إقامة الفرائض وتحريم الحرام، لأنّ بقاءهم في بيئة الشرك سيؤثر على أولادهم، لو لم نقل بتأثيره عليهم هم أنفسهم

أيضاً.

قال الشيخ محمد رشيد رضا(المتوفّى ١٣٥٤هـ): أوجب الله تعالى الهجرة على مَن يُستضعَف في أرض وطنه فيمنع من إقامة دينه فيها... إلى أن قال: رُبَّ أُناس عزّ عليهم ترك وطنهم وظلّوا يُسرّون المحافظة على الإسلام في خاصّة أنفسهم، ولكنّهم لم يتمكّنوا من تلقينه لأولادهم وتربيتهم عليه، فارتدّت ذريتهم عنه في زمنهم أو من بعدهم، كما وقع لبعض مسلمي الأندلس بعد ثلِّ الأسبانيين لعرش دولتهم العربية وإكراههم على التنصّر أو الخروج من البلاد فخرج بعض وبقي آخرون.(تفسير المنار:٩/١٤.)

وقال المحقّق جعفر بن الحسن الحلّي(المتوفّى ٦٧٦هـ): ويجب المهاجرة عن بلد الشرك على مَن يضعف عن إظهار شعائر الإسلام مع المُكنة، والهجرة باقية مادام الكفر باقياً.(شرائع الإسلام:١/٣٠٨، كتاب الجهاد، طبعة دار الأضواء، بيروت.)

ويدلّ على ذلك قوله سبحانه:(إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا).(النساء:٩٧.)

ثمّ إنّه سبحانه يحث في بعض الآيات على الهجرة ويُطمئنُ المسلمين بأنّهم إذا هاجروا في سبيل الله فسيجدون في الأرض مضطرَباً ومتحوّلاً كثيراً وسعة في الرّزق، كما يقول:(وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً)(النساء:١٠٠.)، ويقول في آية أُخرى:(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ)(العنكبوت:٥٦.)، وعلى هذا فيجب على كلّ مسلم لا يتمكّن من إقامة الدين في البيئة التي هو فيها، أن يترك هذا المكان وينتقل إلى مكان يتمكّن فيه من ذلك.

روى الصدوق بإسناده عن محمد بن سنان أنّ أبا الحسن الرضا(عليه السلام) كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله:«وحرّم التعرّب بعد الهجرة للرجوع عن الدين وترك الموازرة للأنبياء والحُجج(عليهم السلام)، وما في ذلك من الفساد وإبطال حقّ كلّ ذي حقّ لعلّة سكنى البدو، ولذلك لو عرف الرجل الدين كاملاً لم يجز له مساكنة أهل الجهل والخوف عليه، لأنّه لا يؤمن أن يقع منه ترك العلم والدخول مع أهل الجهل والتمادي في ذلك».(الوسائل:١١، الباب ٢٦ من أبواب جهاد العدو وما يناسبه، الحديث٢٨.)

الهجرة من المعصية

كان الحديث في السابق عن الهجرة من أرض إلى أخرى لأجل حفظ الدين، وهناك هجرة أُخرى يعبَّر عنها بالهجرة من المعصية إلى الطاعة، وقد روي عن النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال:«أن تهجر ما ترك ربُّك».(جامع الأصول:١٢/٢٦٢.)

وقال الإمام علي(عليه السلام): «يقول الرجل هاجرت ولم يهاجر، إنّما المهاجرون الذين يهجرون السيئات ولم يأتوا بها».(سفينة البحار:٢/٦٩٧.)

ونقل الطريحي في موسوعته الجمل التالية: والمهاجر من هاجر ما حرّم الله عليه، والمهاجر من ترك الباطل إلى الحق، وفي الحديث: ومَن دخل إلى الإسلام طوعاً فهو مهاجر.(مجمع البحرين: ٣ / ٥١٦، مادة (هجر).)

فإذا كانت الهجرة في سبيل الله عبارة عن ترك موطن يُسلَّط فيه الأذى والظلم على المؤمن، ونزول موطن آخر يتحرّر فيه من تلك الضغوط، فالإنسان العاصي الذي يعيش أيضاً تحت مطرقة نفسه الأمارة بالسُّوء، وفي أسر أهوائها، إذا ترك نفسه الأمّارة بالسوء، وتحرّر من ضغط أهوائها، فسوف يعيش حالة الاطمئنان النفسي من خلال الالتزام بطاعة الله تعالى.

الآيتان:٤٣- ٤٤ (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ... وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

الآيتان: الثالثة والأربعون والرابعة والأربعون

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

المفردات

الذِّكر: الكلام الذي من شأنه أن يُذكر ويُتلى ويكرّر، ولو فسّر بالتوراة أو بالقرآن فإنّه من قبيل تطبيق الكلّي على أحد مفرداته.

بالبيِّنات: البيِّنات: الحُجج والدلائل، أو المعجزات.

الزُّبُر: الكتب. قال الراغب: زَبَرتُ الكتابَ: كتبته كتابة غليظة، وكلّ كتاب غليظ الكتابة يقال له زبور.(المفردات للراغب:٢١١، مادة «زبر».)

التفسير

٤٣. (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ):

إبطال لزوم كون الرسول مَلَكاً

الظاهر أنّ الآية بصدد الإجابة عن شبهة أُخرى للمشركين حول رسالة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) وهي توهّم أنّ البشر لا يليق به أن يكون سفيراً بين الله والناس، وقد جاء ذكر هذه الشبهة في آية أُخرى، قال سبحانه حاكياً عنهم قولهم:(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً).(الإسراء:٩٤.)

وممّا يؤيّد أنّ الآية بصدد إبطال هذه الشبهة، هو ما ورد في صدر السورة، أعني قوله تعالى:(يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)(النحل:١.)، كما مرّ قولهم في نفس هذه السورة: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ)(النحل:٢٤.).

والله سبحانه يفنّد الشبهة بإرجاعهم إلى الأمر الملموس لمشركي مكّة، وهو أنّه سبحانه بعث في القرون السابقة نوحاً وإبراهيم بالرسالة والدعوة إلى التوحيد وهما ليسا بملَكين، بل من البشر، كما يقول:(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ) فالتعبير بـ(رِجَالاً) بصدد نفي كون المرسَل مَلَكاً، وبذلك يُعلم أنّ الآية ليست بصدد نفي رسالة المرأة أو الصبيّ حتى يقال أنّه سبحانه حكى عن المسيح قوله: (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) (مريم:٣٠.)وهو في المهد. ثمّ إنّه سبحانه أرشدهم إلى تحقيق الحال بسؤال أهل الذكر فقال: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) والفقرة هذه بصدد الإرشاد إلى ضابطة رائجة بين العقلاء، وهي رجوع الجاهل إلى العالم، أو رجوع غير المطّلع إلى المطّلع، والفقرة إن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على لزوم الرجوع إلى أهل الاختصاص، في المسائل التي يُبتلى بها عامّة الناس وليس لهم المقدرة على استنباط الأحكام فيها.

إنّما الكلام فيما هو المراد من الذِّكر، فقد ورد هذا اللّفظ في عدّة آيات، قال تعالى:(يَا أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ)(الحجر:٦.)، وقال تعالى: (وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ)(الزخرف:٤٤.)، وقال تعالى: (قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولاً)(الطلاق:١٠ـ١١.)، فمن الواجب تفسير هذا اللّفظ بوجه لا تخرج عن نطاقه كافّة هذه الموارد، ولكن يجدر أن نذكر، قبل ذلك، ما قيل في المراد بأهل الذِّكر:

١. هم أهل التوراة، والذّكر هو التوراة، والدليل عليه قوله تعالى:(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ)(الأنبياء:١٠٥.)يعني التوراة.

٢. هم أهل الكتاب الذين يعرفون معاني كتاب الله تعالى، فإنّهم يعرفون أنّ الأنبياء كلّهم بشر.

٣. هم أهل العلم بأخبار الماضين، إذ العالم بالشيء يكون ذاكراً له.

٤. هم كلّ من يُذكر بعلم وتحقيق.(انظر: التبيان في تفسير القرآن:٦/٣٨٤؛ تفسير الرازي:٢٠/٣٦.)

للذكْر معنى واحد والمصاديق مختلفة

أمّا لفظ الذّكر في هذه الآيات من حيث المعنى، فالظاهر أنّه عبارة عمّا يذكِّر الإنسان، وهذا يختلف بحسب متعلّقه، فتارة يذكِّر ما فُطر عليه الإنسان من الميل إلى الفضائل والابتعاد عن الرذائل، وأُخرى يذكِّر ما أُنزل إلى الإنسان من الوحي الإلهي الذي يذكر أسماءه تعالى وصفاته وقدرته، وإضافة إلى التعاليم التي يجب أن يبلّغها إلى الإنسان.

إذا علمت ذلك، فيكون قوله تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) ضابطة كلّية، تنطبق في مورد الآية على اليهود أصحاب التوراة، لأنّهم يذكرون ما أنزله الله إلى نبيّهم موسى(عليه السلام) والمشركون كانوا يقرّون بأنّ اليهود أعلم منهم وأعرف بتاريخ الأديان والرُّسل بحكم ما لديهم من كتاب، فأمرهم الله بأن يرجعوا إليهم في هذه المسألة ليبيّنوا لهم أنّه سبحانه قد بعث إلى الأُمم السابقة رسلاً من جنس البشر.

وعلى ما ذكرنا يتّضح ما ورد من الروايات حول هذه الفقرة.

روي عن أبي جعفر] الباقر[(عليه السلام) في تفسير هذه الفقرة من الآية:«الذكر القرآن، وآل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أهل الذكر وهم المسؤولون».(بصائر الدرجات: ٦٢، الحديث ٢٣، الباب ١٩ (في أئمة آل محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)أنّهم أهل الذكر).)

وفي رواية أُخرى عن حمزة بن الطيّار أنّه عرض على أبي عبد الله] الصادق[(عليه السلام) بعض خطب أبيه حتى إذا بلغ موضعاً منها قال له: كُفَّ واسكت، ثم قال أبو عبد الله(عليه السلام): «لا يسعكم فيما ينزل بكم ممّا لا تعلمون إلاّ الكفّ عنه والتثبّت والردّ إلى أئمّة الهدى، حتى يحملوكم فيه على القصد ويجلوا عنكم فيه العمى، ويعرّفوكم فيه الحقّ، قال الله تعالى: (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)(الكافي:١/٥٠، كتاب فضل العلم، باب النوادر، برقم١٠؛ نور الثقلين:٣/٥٥.).

وحصيلة الكلام: إنّ الذِّكر بمعنى ما يذكّر، ويرفع الجهل عن الإنسان، وله معنى وسيع، وفي كلّ مورد له مصداق، ومصداقه في المقام اليهود.

ثمّ إنّ قوله:(إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ) فيه إشارة إلى أنّهم يعلمون،ولكنّهم يتجاهلون، وعلى فرض جهلهم بالواقع فعليهم أن يسألوا أهل الخبرة والاطّلاع.

٤٤.(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ):

ما هو المراد من البيّنات والزبر؟

أُريد بالبيّنات: الدّلائل الواضحة أو المعاجز الدالّة على صدق رسالتهم، وبالزّبر: الكتب السماوية، والظرف متعلّق بفعل مقدّر أي: أرسلنا الرسل مصحوبين بالدلائل (أو المعاجز) والكتب، فالنبيّ موسى(عليه السلام)، مثلاً، قد أُوتي البيّنات والكتاب (التوراة)، وكذلك النبيّ عيسى(عليه السلام)، وأمّا النبيّ الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم)فكتابه هو المعجز الذي أدهش العقول وأبهر الأبصار، ولذلك يقول سبحانه:(وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)(العنكبوت:٥٠ـ ٥١.).

ولمّا أخبر سبحانه عن أنّه أرسل الرُّسل بالبيّنات والزبر وقد اجتمع الأمران في القرآن الكريم، أعقب تلك الفقرة بقوله:(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) الجامع للمنقبتين (لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ).

فإن قلت: لماذا قال:(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)، ولم يقل أنزلنا إليك الذكر لتبيّنه للناس؟

قلت: لوجود الفرق بين الإنزالين، فالإنزال على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) إنزال مباشر، وإنزاله إلى الناس بواسطة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم).

بل يمكن أن يقال: إنّ إنزاله على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالإجمال تارة والتفصيل أُخرى، بناءً على نزول القرآن على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) مرّتين، ونزوله إلى الناس على وجه التفصيل.

ثمّ إنّ قوله سبحانه:(لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ) دليل على أنّ القرآن بحاجة إلى بيان وتوضيح من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)ولا ينافي ذلك كون القرآن نازلاً: (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)(الشعراء:١٩٥.)، وذلك لأنّ المراد بالأخير هو أنّه ليس مثل كلام الكهنة!! الّذي لا يفهمه إلاّ هم

أنفسهم، أو غيرهم بتعب كبير، بل أنّ القرآن تعبير رصين عن مفاهيم عالية، ومع ذلك لا ينافي وجود الحاجة في شرح مفاهيمه وتوضيح معانيه في بعض الموارد، إلى مبيّن يفصّل إجماله ويرفع الستر عن متشابهه بإرجاعه إلى محكمه، كما هو الحال في كثير من العلوم، فتكتب الكتب بلسان الدارسين ولكنّها بحاجة إلى أُستاذ يشرح ومعلّم يبيّن حقائقها.

وأمّا قوله:(وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) فيدلّ على أنّ وظيفة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) هي تبيين ما نُزِّل إلينا، كما أنّ وظيفة الناس هي التفكّر فيما أُنزل إليهم، فإنّ المفاهيم السامية الواردة في القرآن الكريم لا تنعكس(لا تدخل) على النفس إلاّ بالتأمّل والدقّة.

الآيات:٤٥- ٤٧ (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ.... فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

الآيات: الخامسة والأربعون إلى السابعة والأربعين

(أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّف فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ).

المفردات

مكروا السيئات: عملوا، بتضمين (المكر) مفاد العمل، بشهادة قوله سبحانه:(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ)(النساء:١٨).

يخسف: الخَسْف: انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها، ويقال: خسف الله به الأرض خسفاً: غيّبه فيها.

تقلُّبهم: أسفارهم وتجاراتهم.

تَخَوُّف: تَنقُّص.

التفسير

٤٥. (أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ):

قوله:(أَفَأَمِنَ) أي: أنّه سبحانه أوعَد(الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ): أي يعملون السيئات مكراً وحيلة، أعني الذين دبّروا التدابير السيئة في توهين أمر النبيّ وإطفاء نور الدين وإيذاء المؤمنين ـ كما عليه الطبرسي ـ.(لاحظ : مجمع البيان: ٦/١٨٧.) ويحتمل أن يراد ما مكروا من الحيل من تشويش الأذهان حول القرآن والنبيّ من أنّه أساطير الأوّلين، أو استبعاد أن يبعث الله من يموت، أو أنّ الله سبحانه لا يبعث بشراً برسالته، إلى غير ذلك من ألوان المكر والخداع التي تجوز على العوام السذّج، فيَضلُّون ويُضلُّون، فالله سبحانه أوعدهم بأُمور أربعة:

تهديد عاملي السيئات بأُمور أربعة:

الأوّل: (أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ): أي نجعل الأرض خاسفة بهم، فيكونوا غائبين تحت الأرض.

الثاني: (أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ): أي بغتة ومن دون أن يشعروا أنّ الآتي عذاب، بل قد يتصوّرون أنّه رحمة كما قال:(فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)(الأحقاف:٢٤).

٤٦. (أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ):

الثالث:(أَوْ يَأْخُذَهُمْ) بالعذاب ويهلكهم وهم (فِي تَقَلُّبِهِمْ): أي تصرّفهم وتحرّكهم في أعمالهم من تجارة أو سفر. (فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ): أي بفائتين الله تعالى، حتى يعجز عن أخذهم بالعذاب.

وبما أنّه جاء بعد قوله:(مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ)فلابدّ أنّ الأخذ والإهلاك في حالة الشعور والعلم به.

٤٧. (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّف فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ):

الرابع:(أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّف) فلو كان التخوّف من الخوف لا يظهر للآية معنى واضح، ولذلك ذكر الطبرسي أنّ أكثر المفسّرين قالوا

إنّ معناه «على تنقّص» أي ينقص من أطرافهم ونواحيهم فيأخذ منهم الأوّل فالأوّل، حتى يأتي على جميعهم، أي يهلكهم شيئاً فشيئاً.(مجمع البيان:٦/١٨٧.)

وذكر الزمخشريّ لهذه الفقرة معنيين:

الأوّل: قال:(عَلَىٰ تَخَوُّف): أي متخوّفين، وهو أن يهلك قوماً قبلهم فيتخوّفوا، فيأخذهم بالعذاب وهم متخوّفون متوقّعون، وهو خلاف قوله: (مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ).وعلى هذا فالفعل متضمّن معنى الخوف، غير مجرّد عنه.

الثاني: قال: هو من قولك تخوّفته إذا تنقّصته، قال زهير:

تخوّف الرحل منها تامكاً قَرِداً *** كما تخوّف عود النبعة السّفَن

أي يأخذهم على أن يتنقّصهم شيئاً بعد شيء في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا.(تفسير الكشّاف:٢/٢٠٥.)

ثمّ إنّه سبحانه ختم الآية بقوله: (فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ). قد يتبادر إلى الذهن أنّ إكمال الآية بهذين الوصفين لا ينسجم مع ما تقدّم من الأخذ والإهلاك، فإنّ المقام مقام إظهار القدرة والتعزيز، لا الرأفة والرحمة، إلاّ أنّه لو تدبّر الإنسان في ذلك كثيراً لوجد أنّ لذكر هذين الوصفين كمال الانسجام مع ما تقدّم، وهو أنّه سبحانه مع كونه قادراً على أن يهلكهم بأحد هذه الوجوه، لكنّه برأفته ورحمته يمهلهم ولا يعجل بإهلاكهم، لعلّهم يرجعون عن مكرهم وأعمالهم السيّئة. وما أروع ما يدعو به الإمام عليّ بن الحسين، زين العابدين، حينما يقول:«سبحانك ما أعجَبَ ما أشهَدُ به على نفسي، وأُعدّده من مكتوم أمري، وأعجَب من ذلك أناتُكَ عنّي، وإبطاؤك عن معاجلتي، وليس ذلك من كَرَمي عليك، بل تأنياً منك بي، وتفضّلاً منك عليَّ لأن أرتدعُ عن معصيتك المُسخِطة، وأُقلعَ عن سيّئاتي المُخلِقَة».(الصحفية السجّادية الكاملة:٨٠، من دعائه(عليه السلام) في الاستقالة.)

الآيات:٤٨- ٥٠ (أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْء يَتَفَيَّؤُا ظِلاَلُهُ... وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ).

الآيات: الثامنة والأربعون إلى الخمسين

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْء يَتَفَيَّؤُا ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ * وَللهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّة وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ).

المفردات

يتفيّؤا: الفيء: كلّما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء، مشتقّ من قولهم: فاء، يفيء، أي رجع يرجع.

ظلاله: الظلّ: هو عبارة عمّا لم تنسخه الشمس كما هو الحال في أوّل النهار، وربّما يقال: إنّ الظلَّ أعمّ، أي: كلّ ظلام يسبّبه جسم ما عندما يحجب الضوءَ من الوصول إلى سطح ما.

داخرون: خاضعون لعظمة الله.

التفسير

خضوع الظِّلال والدوابّ والملائكة أمام عظمة الله

الظاهر أنّ هذه المجموعة بصدد بيان خضوع الظِّلال والدوابّ والملائكة في قبال عظمة الله وكبريائه، فبدأ سبحانه في الآية الأُولى بذكر خضوع ظلال الأجسام قبال عظمته وكبريائه، وفي الآية الثانية انتقل إلى خضوع كلّ ما يدبّ على الأرض مضافاً إلى الملائكة، ويستنتج من هذا الخضوع أنّه إذا كان النظام الكونيّ خاضعاً لله تعالى، فليقتدِ به الإنسان بالسجود لله تبارك وتعالى، مكان السجود للأصنام.

نعم، إنّ انتقال الظلّ بالنحو المذكور تابع للنظام الحاكم على منظومتنا الشمسية، حيث إنّ حركة الشمس في الظاهر أو حركة

الأرض في الحقيقة تسبب ذلك النظام الموحّد في الظلال، وهو إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ للعالم مدبّراً واحداً، قائم به ذلك النظام، ولو تعدّد لتسرّب إليه الفساد.

إذا علمت ذلك، فلندخل إلى تفسير الآيات:

٤٨. (أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ):

قوله: (أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ): أي من شيء له ظلّ، جماداً كان أم حيواناً أم نباتاً (يَتَفَيَّؤُا ظِلاَلُهُ): أي ظلال الشيء (عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ)، وليست الآية بصدد بيان أنّ لكلّ شيء ظلاًّ، بل بصدد أنّ كلّ شيء فُرض له ظلّ، تنتقل ظلاله من اليمين والشمال، فالظلال بانتقالها من جانب إلى آخر خاضعة لله تعالى. وأمّا كيفية انتقال الظلال من اليمين إلى الشمال، فبيانه: إنّ الشمس إذا طلعت وأنت متوجّه إلى القبلة كان الظلال قدّامك، وإذا ارتفعت كان عن يمينك، فإذا كان بعد ذلك كان خلفك، فإذا كان قبل أن تغرب الشمس كان عن يسارك.(مجمع البيان:٦/١٨٧ـ١٨٨.)

فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا ذكر اليمين والشمائل دون الخلف والأمام؟

والجواب: السبب في ذلك هو الاختصار في الكلام، وإلاّ فدوران الظلّ حول الأمام والخلف مع اليمين والشمال، أمر ملموس. ولك أن تقول بوجه أقصر :إنّ الإنسان إذا وقف متوجّهاً إلى القبلة بعد طلوع الشمس يرى شروق الشمس على الجانب الأيسر فيقع ظلال الشيء على يمينه(جهة الغرب)، ويستمرّ هذا الأمر حتى تقترب الظلال نحو الجهة اليمنى لحين وقت الظهر وعندها ستتحول الظلال إلى الجهة اليسرى، وتستمرّ في ذلك حتى غروب الشمس وتنعدم عند غروبها. وعلى هذا يتّضح وجه الاقتصار على ذكر اليمين والشمائل .نعم ما ذكرناه حسب الرؤية الحسّية وأمّا ما هو الواقع فالحقيقة الظلال لا تتفيّأ ولا تنتقل وإنّما ترد الشمس عليها، ثم ترجع إلى ما كانت عليه بعد أن تزول الشمس عنها، فالشمس هي المنتقلة عليها والظلال قائمة بحالها(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٩٢.) كما مرّ.

الإجابة عن سؤالين

بقي هنا سؤالان:

١. ما هو السبب لجمع الظلّ وإضافته إلى الضمير المفرد، كما قال: (يَتَفَيَّؤُا ظِلاَلُهُ)ومقتضى القاعدة أن يقول: يتفيأُ ظله.

٢. لماذا أفرد اليمين وجمع الشمائل؟

أمّا السؤال الأوّل، فجوابه: إنّ إفراد الضمير باعتبار مرجعه حيث يرجع إلى «شيء» وهو مفرد.

وأمّا السؤال الثاني، فإنّ اليمين يطلق على المفرد والجمع، ويُحتمل أنّ جمع الشمائل باعتبار تعدّد جنس جهة الشمال بتعدّد أصحابها أي الأجسام، ولمّا كان هذا الوجه موجوداً في جانب اليمين أيضاً، أُجيب بأنّ المخالفة بالإفراد والجمع، تفنّن.(التحرير والتنوير:١٣/١٣٦.)

والأَولى أن يقال: إنّ من أساليب البلاغة عند العرب أنّهم إذا ذكروا معنيين للجمع أن يعبّروا عن أحد المعنيين بلفظ المفرد، وعن المعنى الآخر بلفظ الجمع، كقوله تعالى: (وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)، وقوله تعالى: (خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ)(التفسير الكاشف:٤/٥١٨.).

كلّ ما ذكرنا من حركة الظلال منذ طلوع الشمس إلى غروبها على نسق واحد رمز سجودهم لله كما يقول: (سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ): أي خاضعون لعظمة الله تبارك وتعالى. وقد تقدّم الكلام عن سجود ظلال كلّ من السماوات والأرض في تفسيرنا لسورة الرعد.(لاحظ: الرعد:١٥.)

ثمّ إنّ للظلّ دوراً في الحياة، أمّا أوّلاً فلأنّه لو دام سقوط أشعة الشمس على الأشياء لارتفعت حرارة الأرض إلى درجة كبيرة تحرق كلّ ذي حياة. وأمّا ثانياً فلأنّه لولا الظلّ لامتنعت رؤية الأجسام،فإنّ النور إذا انعكس على الشيء على وجه الاستمرار لا يمكن رؤية

ذلك الجسم الغارق في النور إلاّ بدخول شيء من الظلّ فيه.

وسيوافيك أنّه سبحانه ينسب خلق النور والظلّ إلى نفسه ويقول: (وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)،⁽الأنعام:١.⁾ وما هذا إلاّ لأنّ للظلمات دوراً في الحياة.

٤٩. (وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ):

سجود ما في السماوات والأرض لله

تحدّث الذكر الحكيم عن سجود الظلال وخضوعها لخالقها وهو معنى مشهود فيها، ثم عاد إلى بيان سجود ما في السماوات والأرض من دابّة، ويقول: (وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ دَابَّة)والدابّة عبارة عن كلّ ما يدبّ ويتحرّك من مخلوقات من مكان إلى مكان، والظاهر أنّ قوله:(مِنْ دَابَّة)يرجع إلى السماوات والأرض، ويدلّ على وجود ما يدبّ في السماوات والأرض كليهما، واحتمال كونه قيداً لما في الأرض، ضعيف.

وعلى هذا فالإنس والجنّ داخلان في عموم الدابّة.

ثمّ إنّ سجود ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات حيّة هو سجود تكويني، بحكم خضوعها للنواميس الإلهية، وإن شئت قلت: سجود قسري، كسجود ظلال كلّ شيء وخضوع الجميع أمام عظمة الله، وحدوثهم وبقائهم بيد الله وإرادته.

ثمّ إنّه سبحانه أفرد الملائكة وقال:(وَالْمَلاَئِكَةُ) ولعلّه لخروجهم عن عنوان الدابّة، لأنّ حركة الملائكة تفترق عن حركة الآخرين ودبيبهم.

ثمّ إنّه سبحانه وصف الملائكة بأوصاف ثلاثة:

الوصف الأوّل:

(وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ) فعدم استكبارهم ذاتاً ووجوداً هو سجود قسري، وأمّا عدم استكبارهم في مقام الفعل ـ كما يشير إليه في الآية التالية ـ فهو سجود اختياري.

ثمّ إنّ الفرق بين المتكبّر والاستكبار هو أنّ الأوّل يومئ لمَن له الكبرياء بالحقّ، وهو يختصّ بالله سبحانه، ولذا يوصف بالمتكبّر، وأمّا الاستكبار فيومئ إلى مَن يترفّع على غيره دون أن يكون له كبرياء، فيوصف بالمستكبر، فالله سبحانه هو المتكبّر لا المستكبر، وأمّا غيره إنْ ترفّع على غيره فهو مستكبر لا متكبّر.

٥٠. (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ):

الوصف الثاني:

الوصف الثاني للملائكة هو قوله تعالى: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ)وأُريد من الفوق، المعنوي منه، بمعنى كونه متعالياً بالنسبة إليهم. وبهذا يظهر أنّ فوقهم يرجع إلى تعاليه عليهم فيكون الخوف أمراً ذاتياً لا خوفاً من عذابه، فإنّ الصغير إذا نظر إلى ما فوقه يستولي عليه الخوف بالذات. وقال الوزير المغربيّ:(يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) إخبار بعلوّ القهر والاقتدار لا برفعة المكان كما قال: (يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)⁽الفتح:١٠.⁾.⁽المصابيح في تفسير القرآن: ٦٤١.⁾

الوصف الثالث:

قوله تعالى: (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) وهذا هو الدليل على عدم استكبارهم في مقام الفعل. وفي الفقرات إشارة إلى أنّ الملائكة معصومون من الذنب والخطأ، فلا يشغلهم عن الله شاغل، وإنّما خصّ سبحانه الملائكة بالذِّكر وهو أنّهم يسجدون لله تعالى، تنبيهاً على غفلة المشركين وتنديداً بعقيدتهم، حيث إنّ قسماً من الوثنيين اتّخذوا الملائكة آلهة، إذ لكلّ ظاهرة عندهم ربٌّ من

الملائكة.

وقد جاء التصريح بعصمتهم في آية أُخرى، وهو قوله: (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)(التحريم:٦).

ثمّ إنّ الوصفين الأخيرين وقعا بعد قوله: (لَا يَسْتَكْبِرُونَ) فيمكن أن يقال: إنّ نتيجة عدم الاستكبار الأمران التاليان:

١. إحاطة الخوف بهم من الله تعالى، شعوراً منهم بعظمته المطلقة.

٢. الإطاعة المطلقة لكلّ ما يأمر به تعالى.

الآيات:٥١-٥٥ (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ... فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ).

الآيات: الحادية والخمسون إلى الخامسة والخمسين

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ).

المفردات

فارهبونِ: الرَّهْبة والرَّهْب: مخافة مع تحرّز واضطراب.

الدين: يطلق على معان، منها الطاعة، وهو المراد هنا.

واصباً: قال الراغب: الواصب: الدائم، أي حقُّ الإنسان أن يطيعه دائماً في جميع أحواله.(المفردات للراغب: ٥٢٤، مادة «وصب».)

تجأرون: ترفعون أصواتكم مستغيثين.

الضُرّ: سوء الحال.

التفسير

٥١. (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ):

النهي عن اتّخاذ الشريك على وجه الإطلاق

لمّا تحدّثت الآيات السابقة عن سجود ما في الكون لله سبحانه قسراً واختياراً، جاء البيان القرآني لإبطال الشّرك باتّخاذ إلهين اثنين(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ)، فهل الآية ناظرة إلى إبطال ما عليه المجوس من أنّ إله الخير غير إله الشرّ، وأنّ إله الأوّل هو النور، وإله الثاني هو الظلمة؟ باحتمال أنّ الآية ردّ لما اعتقدته قبائل العرب المجاورة لبلاد فارس، مثل بني بكر بن وائل وبني تميم، فقد شاع بينهم عبادة إله الخير المسمّى بـ(يزدان)، والتجنّب عن إله الشر المسمّى بـ(أهرمن).

يقول الحكيم السبزواري في بيان عقيدتهم:

والشَّرُّ إعدام فكم قد ضلّ مَنْ *** يقول باليزدانِ ثمّ الأَهْرِمَنْ

أو أنّ الآية ناظرة إلى مطلق المشركين، والتركيز على الاثنين آية التعدّد، فإنّ مَن اتّخذ آلهة ثلاثة أو أربعة فقد اتّخذ الاثنين. وهذا الوجه هو الظاهر، فإنّ الاثنين كناية عن التعدّد بشهادة قوله سبحانه:(إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ).

والحصر في قوله:(إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ) قصر قلب، أي اعبدوا الله وحده لا غيره، وليس قصر إفراد؛ لأنّ المشركين لم يقرنوا عبادة الله مع عبادة آلهتهم حتى يكون القصر قصر إفراد، وإنّما اقتصروا على عبادة آلهتهم المزعومة.

قوله تعالى: (فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ) التفات من الغيبة إلى الخطاب وذلك أبلغ في الرَّهبة. وهو أيضاً قصر قلب لا إفراد لأنّ المشركين كانوا يرهبون الأصنام دون الله، فردّ عليهم في عقيدتهم، وأمرهم بقصر الرَّهبة على الله، والمراد من الرَّهبة هو الحالة الحاصلة من إحساس

تعاليه سبحانه وجلاله ومهابته، لا الرَّهبة من مؤاخذته وعذابه، فإنّ الرّهبة من الجهة الأُولى متقدّمة على الثانية.

٥٢. (وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ):

إبطال الشرك ببراهين ثلاثة

لمّا نهى سبحانه عن اتّخاذ غيره إلهاً سواء أكان اثنين أو ما فوقهما، جاء البيان القرآني للبرهنة على ذلك النفي، وهو أنّ ما يتصوّرونه إلهاً مدبّراً للعالَم، هو مخلوق لله كما يقول:(وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ): أي هو المالك وما سواه مملوك له، وملكيته لما سواه نابعة من خالقيته، فبما أنّه خالق فهو مالك، فالعالَم مخلوق لله وما كان كذلك فهو قائم به قيام المعنى الحرفيّ بالمعنى الاسميّ، فلو صار إلهاً مدبّراً للعالَم فمعنى ذلك انقلابه ممّا عليه من التعلّق إلى الاستقلال، وهذا أمر غير ممكن.

ثمّ إنّه سبحانه لما أبطل أُلوهية غيره، قال: (وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا): أي وله الطاعة دائماً لأنّه الإله دون غيره، والطاعة من خصائص الأُلوهية.

ولك أن تفسّر الدين بالشريعة، وهو أيضاً من خصائص الربوبية، فليس لأحد حقٌّ في أن يشرّع لعباد الله، فإذا كان كذلك (أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ)، وهو توبيخ على خوفهم من غير الله سبحانه.

٥٣. (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ):

لمّا أبطل أُلوهية غيره بوجهين:

١. كونه سبحانه مالكاً لِما في الكون ومن ثمّ للآلهة المزعومة.

٢. له حقّ الطاعة أو حقّ التشريع دائماً.

برهن ببيان ثالث على إبطال ربوبية غيره وقال: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ) فإنّ كلّ ما يملك الإنسان من نِعَم فهو مخلوق لله فيكون جميعه من الله، ومع ذلك كيف تتركون عبادة الله صاحب النّعمة، وتعبدون غيره؟!

وبعد ذلك جاء ببيان رابع للتوحيد، وهو أنّكم إذا أصابكم سوء الحال تنسون الآلهة المكذوبة، وتلجأون إلى الله، كما يقول: (ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ): أي تتضرّعون وتستغيثون به، وأصله من الجؤار وهو الصياح. قال الطبري: أصله من جؤار الثور إذا رفع صوتاً شديداً من جوع أو غيره.(تفسير الطبري:١٤/١٢١.)

٥٤. (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ):

الآية تدلّ على رسوخ الشرك في أذهانهم، ففي ساعة العسرة يتضرّعون إليه وحده سبحانه، وفي ساعة الميسرة ينسونه ويرجعون إلى آلهتهم المزعومة، كما يقول: (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ)وصرتم في أمن وأمان (إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ)فعند إصابة الضُّرّ يرجع الإنسان بحكم الفطرة إلى كاشف الضُّر حقّاً، وعندما يكشف عنه الضُّرّ، يَنسى حكم الفطرة ويرجع المشرك إلى ما كان يعتقده. وقد أشار سبحانه إلى تذبذب المشركين في السرّاء والضرّاء، في قسم من الآيات، قال سبحانه:(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ).(يونس:٢٢ـ٢٣.)

٥٥. (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ):

قوله تعالى: (لِيَكْفُرُوا) اللاّم فيه للعاقبة، كما في قولهم: «لِدُوا للموتِ وابنوا للخراب»، أي صارت عاقبة هؤلاء الذين رجعوا في العسر إلى الله وفي اليسر إلى أصنامهم، الكفرَ:(بِمَا آتَيْنَاهُمْ)من النّعم (فَتَمَتَّعُوا)الأمر هنا للتهديد (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) عاقبتكم الوخيمة،

وتندمون حيث لا ينفع الندم.

زلّة للآلوسي

إنّ للسيد الآلوسي كلاماً في هذا المقام، قال فيه: إنّ بعض المتشيّخين قال لي وأنا صغير: إيّاك ثم إيّاك أن تستغيث بالله تعالى إذا خَطْب دهاك، فإنّ الله تعالى لا يعجّل في إغاثتك، ولا يهمّه سوء حالتك، وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالفين، فإنّهم يعجّلون في تفريج كربك، ويهمّهم سوء ما حلّ بك، فَمَجّ ذلك سمعي، وهمى دمعي، وسألت الله تعالى أن يعصمني والمسلمين من أمثال هذا الضلال المبين، ولكثير من المتشيّخين اليوم كلمات مثل ذلك.(روح المعاني:١٤/١٦٦.)

أقول: لا شكّ أنّ ما نقله عن بعض المتشيّخين كلام باطل وواه لا يعتدّ به، ولكن التوسّل بالأنبياء والأولياء وبدعائهم من الوسائل التي دعا الله سبحانه إلى التمسّك بها، وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ).(المائدة:٣٥.)

وللوسيلة مصاديق وافرة، من الاستغفار، وأداء الفرائض والنوافل، غير أنّ منها التوسّل بالأنبياء والأولياء وبدعائهم الذي يستجاب ولا يُردّ، وقد أمر به سبحانه في غير واحدة من الآيات وقال: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيمًا)(النساء:٦٤.) حتى أنّه سبحانه ذمّ المنافقين لأجل إعراضهم عن طلب الدعاء من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لغفران ذنوبهم، قال سبحانه: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ)(المنافقون:٥.).

ويظهر من قوله سبحانه حاكياًعن أبناء يعقوب حيث قالوا: (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) وأجابهم أبوهم بقوله: (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)(يوسف:٩٧ـ٩٨.) أنّ التوسّل بدعاء المقرّبين أمر فطريّ كان سائداً في الأُمم السابقة.

ولو قال قائل: إنّ الآيات تختصّ بالرجوع إلى الأولياء في حال حياتهم، قلنا مع أنّه ممنوع جدّاً، إذ لا فرق بين الرجوع إلى الحيّ أو الميّت، فإنّ ثمة روايات تؤكّد صحّة الأمرين، منها رواية الصحابيّ عثمان بن حُنيف الأنصاري التي تُثبت أنّ النبيّ علّم ضريراً بأن يتوسّل في دعائه بشخصه(صلى الله عليه وآله وسلم): «اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك نبيّ الرحمة...»(مسند أحمد:٤/١٣٨؛ سنن ابن ماجة:٣٢٦ـ ٣٢٧، برقم ١٣٨٥(وفيه: قال ابن إسحاق: هذا حديث صحيح).)، ثمّ إنّ ابن حُنيف علّم هذا الدعاء لشخص آخر في عهد عثمان بن عفّان، لتُقضى حاجته(لاحظ : المعجم الكبير للطّبراني: ٩ / ٣٠ ـ ٣١ برقم ٨٣١١ .)، فبأيّ معيار يصف السيد الآلوسي التوسّل بالأولياء بالضلال المبين؟! وسيأتي مزيد بحث حول هذا الموضوع عند تفسير الآية(٦) من سورة «المنافقون» فانتظر.

الآيات:٥٦- ٦٠ (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ... وَللهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

الآيات: السادسة والخمسون إلى الستين

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ * وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُون أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَللهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

المفردات

تفتَرون: تكذبون على الله وتنسبون عملكم إليه.

بُشّر: يقال للخبر السارّ: البشارة والبشرى. ولعلّه لأجل كونه مؤثراً في بشَرة الوجه. والقرآن الكريم يستعمل الكلمة أيضاً في الخبر المؤلم، كما في قوله تعالى:(وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَاب أَلِيم).(التوبة:٣.)

ظلّ: صار.

كظيم: ممتلئ غمّاً وحزناً.

يتوارى: يستخفي.

أيُمسكه: أيُبقيه ويتركه عنده؟

مَثَل السَّوء: وصف السوء.

المَثَل الأعلى: الوصف الأعلى.

التفسير

٥٦. (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ):

أشار سبحانه في هذه المجموعة إلى أعمالهم السيّئة مضافاً إلى ما تقدّم من عقائدهم الفاسدة، وقد أُشير هنا إلى أُمور ثلاثة كلّها سيّئة.

الأوّل: تقسيم نِعم الله بينه وبين أصنامهم

إنّهم كانوا يزرعون لله زرعاً وللأصنام زرعاً، وهذا ما أُشير إليه في المقام في قوله تعالى:(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ)، مع أنّ الجميع لله سبحانه، لقوله سبحانه: (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَة فَمِنَ اللهِ)(النحل:٥٣.) فالنِّعَم التي كلّها من الله يقسّمونها بين الله وبين أصنامهم. هذا ويظهر ممّا ورد في سورة الأنعام أنّهم كانوا يزرعون لله زرعاً وللأصنام زرعاً فكان إذا زكا الزَّرع الذي زرعوه لله ولم يزكُ الزَّرع الذي زرعوه للأصنام، جعلوا بعضه للأصنام وصرفوه إليها، ويقولون: إنّ الله غنيّ والأصنام أحوج، وإن زكا الزَّرع الذي جعلوه للأصنام ولم يزكُ الزَّرع الذي جعلوه لله، لم يجعلوا منه شيئاً لله، وقالوا: هو غنيّ، وإليه يشير سبحانه في قوله:(وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)(الأنعام:١٣٦. راجع: مجمع البيان:٤/١٨٨، ط. مصر.).

ثمّ إنّ قوله سبحانه:(لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ) يحتمل أمرين:

١. أنّ ضمير الجمع(الواو) في قوله: (لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ) يرجع إلى الموصول «ما» في قوله: (لِمَا)، ومفعول الفعل محذوف، أي يجعلون نصيباً للأصنام التي لا تدرك شيئاً. وفي وجه التصريح بعدم علمهم نوع تصريح بسخافة آرائهم، إذ يجعلون نصيباً في أموالهم للجمادات التي لا تشعر بما أعطيت.

٢. أنّ ضمير الجمع يرجع إلى المشركين، ومفعول (لاَ يَعْلَمُونَ)محذوف، والمعنى: ويجعل المشركون لآلهتهم التي لا يعلمون من حالها أنّها لا تضرّ ولا تنفع، نصيباً ممّا رزقناهم.

وعلى هذا، فالمشركون هم الموصوفون بعدم العلم بأحوال أصنامهم كأنّها تضرّ وتنفع، ومع ذلك يجعلون نصيباً من أموالهم لها. ويؤيّد هذا الوجه أنّ إرجاع ضمير الجمع في (مَا لاَ يَعْلَمُونَ)إلى الأصنام على خلاف القاعدة، لأنّها موجودات غير شاعرة، ومثل هذا الضمير يرجع إلى الموجودات العاقلة، اللّهمّ إلاّ أن يقال: إنّه استعمل للأصنام ضمير العقلاء، لأنّها كذلك في عقيدتهم.

وعلى كلّ تقدير، ففي التصريح بـ : (مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ) نوع تقريع لهم بأنّهم يجعلون رزق الله وما له لغيره، ثمّ يُقسم سبحانه ويقول: (تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ) والإقسام بحرف «التاء» يختصّ بمورد التعجّب، قال سبحانه حكاية عن أولاد يعقوب(عليه السلام):(قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ)(يوسف:٧٣.)، وقال أيضاً حاكياً عنهم:(قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ).(يوسف:٩١.)

ثمّ إنّ التعبير عن افترائهم بصيغة المضارع للدلالة على كونهم مستمرّين في هذا الأمر الفظيع، أي تخصيص شيء ممّا رزقهم الله تعالى لأصنامهم، وأنّهم مسؤولون عن هذا الافتراء والكذب المتعمّد، إذ أشركوا وجعلوا لما لا يعلمون له حقيقة، نصيباً من رزقه سبحانه.

٥٧. (وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ):

الثاني: تخصيص البنات لله والبنين لأنفسهم

تتضمّن الآية إشارة إلى تصوّر ثان للمشركين سيّئ، وهو تخصيص البنات لله سبحانه كما قال: (وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ)وأُريد بالبنات الملائكة، كما قال سبحانه حاكياً عنهم: (وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا) (الزخرف:١٩.)، وسمّوها بنات لاستتارها عن العيون كالنساء، كما أنّهم أطلقوا التأنيث على الشمس لاستتار قرصها بضوئها الباهر، عن العيون، فأطلقوا عليها لفظ التأنيث، وهذا ما يغلب على الظنّ في سبب إصرارهم على هذا القول الفاسد، والمذهب الباطل. (انظر: تفسير الرازي:٢٠/٥٤.)

ثمّ إنّهم بعد ما تخيّلوا أُنوثة الملائكة، تخيّلوا أمراً ثانياً، وهو أنّهم جعلوها بنات لله، كما يقول:(أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ) (الطور:٣٩.). وبعد أن نزّه سبحانه ذاته المقدّسة عن نسبة الولد إليه، بقوله: (سُبْحَانَهُ)، أنكر عليهم هذا التقسيم قائلاً بأنّهم اختاروا لأنفسهم ما هو مُحبَّب إليها، كما قال:(وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)وما يشتهونه وتشتدّ رغبتهم فيه أعربت عنه آيات أُخرى، كقوله سبحانه: (أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَات وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ) (الزخرف:١٦.).

٥٨. (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ):

الثالث : كراهة الأُنثى

تتحدّث الآية عن تصوّر ثالث لهم سيّئ يفضي إلى فعل منكر، وهو أنّ أحدهم كان إذا ظهرت آثار الطَّلْق على زوجته جلس ينتظر ليقف على جنس الوليد، فإذا علم أنّه بنت، كما يقول تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى)التي يكرهها لِما تلحقه به ـ حسب تصوّره السقيم ـ من عار في حالة وقوعها في الأسر، ظهر أثر الكراهة في وجهه و(ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا): أي صار متغيّراً تغيُّر مغتمٍّ كَمِد (وَهُوَ كَظِيمٌ): أي ممتلئاً غمّاً وحزناً.

ثمّ إنّ اسوداد الوجه يلازم الغمّ الشديد في داخل النفس ويكون أثره هو تغيّر لون الوجه إلى السواد، فإنّ للظواهر النفسية أثراً محسوساً على وجه الإنسان.

٥٩. (يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُون أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ):

مرّ أنّ الرجل كان في الجاهلية إذا ظهرت آثار الطَّلْق على امرأته جلس ينتظر إلى أن يعلم ما يولد له، فإن كان ذكراً ابتهج به، وإن كان أُنثى حزن وامتلأ صدره غيظاً، وهنا ترسم لنا الآية سلوكه بعد التبشير بها:(يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ): أي يختفي ويستتر منهم مدّة يدبّر فيها ماذا يصنع بهذه الأُنثى (أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُون): أي أيُبقيه ويتركه عنده على ذلّة وهوان (أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ)ويخفيه فيه، ثم إنّ تذكير الضمير في قوله:(أَيُمْسِكُهُ) وفي قوله:(يَدُسُّهُ) لأجل كونه عائداً إلى الموصول (مَا)في قوله:(مَا بُشِّرَ بِهِ). وسيوافيك شيء من قصصهم حول وأد البنات، عن قريب.

قوله تعالى: (أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ): أي ما أسوأ حكمهم هذا إذ بلغوا في الاستنكاف من البنات إلى أفظع الحدود، وهو وأدهنّ ودفنهنّ تحت التراب وهنّ على قيد الحياة!!

٦٠. (لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَللهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ):

يوبّخ الله سبحانه في هذه الآية المشركين على هذه الفعلة الشنيعة التي لا تقوم بها حتى الوحوش لأولادها، ويعبّر عن القائمين بهذه

الأعمال بقوله: (لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ) وكأنّ عدم إيمانهم بيوم الجزاء هو السبب لارتكاب هذه الأعمال السيّئة، ولأجل ذلك يوبّخهم بقوله: (مَثَلُ السَّوْءِ): أي الوصف السيّئ، أو وصف السوء، حيث يكرهون الإناث لتجنّب العار. ولما أثبت لهم(مَثَلُ السَّوْءِ) وصف نفسه بقوله: (وَلِلّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ): أي الوصف الأعلى، أو الصفة العالية المقدّسة، لكونه منزّهاً عن اتّخاذ الولد فضلاً عن اتّخاذ ما يكرهونه وإنْ كان الجميع عند الله سواء (وَهُوَ الْعَزِيزُ)في ملكه، فلا يحتاج إلى اتّخاذ الولد (الْحَكِيمُ) في صُنعه، فلا يفعل إلاّ ما تقتضيه الحكمة البالغة.

كلام في منشأ وأد البنات

لا شكّ أنّ وأد البنات أمر فظيع ترفضه الفطرة السليمة، فكلّ إنسان يحب أولاده ذكراناً كانوا أم أُناثاً، وربّما يضحّي بنفسه وبنفيسه لأجلهم، ولكن السؤال الذي يثار هنا: كيف ظهر هذا الشذوذ في الفطرة عند بعض العرب؟

قال الميداني: وكان السبب في ذلك أنّ بني تميم منعوا الملك ضربة الإتاوة التي كانت عليهم فجرّد إليهم النعمان أخاه الريّان مع دَوْسر «ودوسر إحدى كتائبه» وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل فاستاق نَعَمهم وسبى ذراريهم. وفي ذلك يقول أبو المُشَمْرَخ اليشكريّ:

لما رأوا رايةَ النعمان مُقبِلة *** قالوا: ألا ليتَ أدنى دارِنا عَدَنُ
يا ليتَ أُمَّ تميم لم تكن عَرَفَتْ *** مُرّاً وكانت كمن أَودى به الزّمنُ
إن تقتلوا فأعيارُ مُجَدَّعَةٌ *** أو تُنعموا فقديماً منكم المِنَنُ

فوفدت وفود بني تميم على النعمان بن المنذر وكلّموه في الذراري فحكم النعمان بأن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء، فأيّة امرأة اختارت زوجها رُدّت عليه، فاختلَفْنَ في الخيار، وكانت فيهنّ بنت لقيس بن عاصم فاختارت سابيها على زوجها، فنذر قيس بن عاصم أن يدسّ كلّ بنت تولد له في التراب فوأد بضع عشرة بنتاً، وبصنيع قيس بن عاصم وإحيائه هذه السنّة نزل القرآن في ذمّ وأد البنات.

وروي أنّ أوّل قبيلة وأدت من العرب ربيعة، وذلك أنّهم أُغير عليهم فنهبت بنت بنت لأمير لهم فاستردّها بعد الصلح فخيّرت رضى منه بين أبيها ومن هي عنده، فاختارت من هي عنده وآثرته على أبيها، فغضب وسنّ لقومه الوأد ففعلوه غَيرة منهم ومخافة أن يقع لهم بعد مثل ما وقع وشاع في العرب غيرهم. وغالب قبائل العرب كان غرضهم من الوأد ما ذُكر.

كيفية الوأد

ذكر غير واحد أنّ الرجل منهم كان إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبّة من صوف أو شعر ترعى له الإبل والغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية فيقول لأُمّها طيّبيها وزيّنيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فيبلغ بها البئر فيقول لها: أنظري فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض. وروي عن ابن عباس (رضي الله تعالى عنه) أنّه قال: كانت الحامل إذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإذا ولدت ولداً حبسته.(بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ٣/ ٤٢ ـ ٤٣.)

قصة مأساوية

لمّا وفد قيس بن عاصم على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) سأله بعض الأنصار عمّا يتحدّث به في الموءُودات، فأخبر أنّه ما ولدت له بنت إلاّ وأدها، قال: كنت أخاف العار وما رحمتُ منهن إلاّ بُنيّة كانت ولدتها أُمّها وأنا في سفر، فدفعتها إلى أخواتها، وقدمت أنا من سفري فسألتها عن الحمل، فأخبرت أنّها ولدت ولداً ميّتاً، وكتمتْ حالها، حتى مضت على ذلك سنونٌ، وكبرت الصبيّة، وينَعت،

فزارت أُمّها ذات يوم، فدخلتُ فرأيتها وقد ضفرت شعرها وجعلت في قرونها جداداً ونظمت عليها ودعاً، وألبستها قلادة من جزع، فقلت لها: من هذه الصبية؟ وقد أعجبني جمالها، فبكت أُمّها، وقالت: هذه ابنتك، فأمسكتُ عنها حتى غفلتْ أُمّها، ثم أخرجتها يوماً فحفرتُ لها حفرة وجعلتها فيها، وهي تقول: يا أبت ما تصنع؟ أخبرني بحقك!! وجعلتُ أُقلّب عليها التراب، وهي تقول: أنت مغطّ عليَّ بهذا التراب؟ أنت تاركي وحدي، ومنصرفٌ عنّي؟ وجعلتُ أقذفُ عليها حتى واريتها، وانقطع صوتُها، فتلك حسرتها في قلبي، فدمعتْ عينا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وقال:«إنّ هذه لقسوة، ومن لا يَرحَم لا يُرحَم».(حياة محمّد، تأليف محمد علي سالمين: ٢٤ و ٢٥.)

وقد ذكر ابن الاثير في كتابه «أُسد الغابة» في مادة: قيس: أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) سأل قيساً عن عدد البنات اللاتي وأدهنّ في الجاهلية: فأجاب قيسٌ بأنّه وأد اثنتي عشرة بنتاً له.(راجع: أُسد الغابة:٤/٢٢٠، وجاء في «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب»: ٣/٤٣ أنّه وأد بضع عشرة بنتاً.)

تفدية الموءُودة

كان عدّة من الرجال من أصحاب المروءة يسعون للحدّ من ظاهرة وأد البنات، ومنهم صعصعة بن ناجية المجاشعي، جدّ الفرزدق الشاعر لأبيه، وكان قد أخبر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه أنقذ(٣٦٠) بنتاً من الوأد، وفي خبر آخر(٢٨٠) بنتاً، وقد افتخر الفرزدق بجدّه هذا في كثير من شعره، منه قوله:

ومنّا الذي منع الوائدات *** وأحيا الوئيد فلم يُوأَدِ

(استفدنا في جمع هذه الموارد من كتاب: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب للآلوسي:٣/٤٣ـ ٤٦.)

وسيأتي مزيد كلام عند تفسير قوله تعالى:(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ).(التكوير:٨.)

الآيات:٦١- ٦٤ (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّة...هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْم يُؤْمِنُونَ).

الآيات: الحادية والستون إلى الرابعة والستين

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّة وَلَـكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَل مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ * وَيَجْعَلُونَ للهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُفْرَطُونَ *تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَم مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْم يُؤْمِنُونَ).

المفردات

دابّة: أُريد به الإنسان على وجه، ومطلق ما يدبّ على وجه آخر.

يجعلون: ينسبون.

لا جَرَمَ: لا محالة، أو حقّاً.

مُفرَطون: مقدّمون ومعجّلون إلى النار، من أفرطته إلى كذا أي قدّمته.

وليّهم: ناصرهم ومساعدهم.

اليوم: أُريد به هنا يوم نزول الآيات، كما يحتمل أن يراد يوم القيامة.

التفسير

٦١. (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّة وَلَـكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَل مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً

وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ):

في الآية سؤالان:

١. هل أُريد من الناس المشركون، ومن الظلم الشرك لقوله تعالى:(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)،(لقمان:١٣.) أو أُريد الإنسان كلّه، ومن الظلم مطلق العصيان والتمرّد؟

٢. هل أُريد من قوله: (مِنْ دَابَّة) الإنسان بما أنّه يدبّ على الأرض بشهادة قوله سبحانه: (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ)،(النمل:٨٢.) أو أُريد المعنى الأعمّ، الذي يشمل الإنسان والحيوان؟

تفسير شمول العذاب لكلّ دابّة

يظهر من السيد الطباطبائي أنّه فسّر الناس بجُلّهم، والدابّة بالإنسان، قال: ولا يبعد أن يُدّعى أنّ السياق يدلّ على كون المراد بالدابّة الإنسان فقط من جهة كونه يدبّ ويتحرّك، والمعنى: ولو أخذ الله الناس بظلمهم مستمراً على المؤاخذة ما ترك على الأرض من إنسان يدبّ ويتحرّك، أمّا جُلّ الناس فإنّهم يهلكون بظلمهم، وأمّا الأشدّ الأندر وهم الأنبياء والأئمّة المعصومون من الظلم فهم لا يوجدون لهلاك آبائهم وأُمّهاتهم من قبل.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٢٨٠.)

ومعنى الآية: (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ) جميعهم (بِظُلْمِهِمْ) لله أو لأنفسهم (مَا تَرَكَ عَلَيْهَا) الضمير يرجع إلى الأرض، وهو مفهوم من الآية وربّما يُحذف ما هو المعلوم كما في قوله:(حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)(ص:٣٢.)، يعني الشمس، (مِنْ دَابَّة) فيهلك الناس كلّهم بظلمهم، وأمّا الأنبياء والأوصياء فبما أنّهم يولدون منهم، فلا يوجدون.

ويظهر من أكثر المفسّرين أنّهم قد أخذوا بإطلاق الدابّة وعندئذ يوجّه إليهم هذا الإشكال: إنّ الإهلاك نتيجة الظلم، والدوابّ غير مكلّفة حتى تكون ظالمة، فأجابوا بأنّها تهلك بشؤم ظلم الظالمين.(تفسير الكشّاف:٢/٢٠٧.) وفي الكلام إجمال، وإنّما أراد بأنّه إذا هلك الناس وبطل النسل، هلكت الدوابّ من الحيوانات لأنّها مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم، كما يُشعر به قوله تعالى:(خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا)(البقرة:٢٩.). وفي «المصابيح»: عنى بهلاك الدوابّ أنّه إذا أهلك الناس لم يبق لحياة الدوابّ معنى.(المصابيح في تفسير القرآن: ٦٤٤.)

وإن شئت قلت: إنّ إهلاك الظالمين لا يحصل إلاّ بحوادث عظيمة لا تحدد بمساحة ديارهم لأنّ أسباب الإهلاك لا تتحدّد في عادة نظام هذا العالم، فلذلك يتناول الإهلاك الناس ويتناول دوابّهم.

وعلى كلّ تقدير، فالآية لا تشمل الأنبياء لعصمتهم، ومنه يظهر عدم صحّة ما أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«ولو أنّ الله يؤاخذني وعيسى بن مريم بذنوبنا ـ وفي لفظ: بما جنت هاتان (الإبهام والتي تليها) ـ لعذّبنا ما يظلمنا شيئاً»(تفسير الدر المنثور:٥/١٤٠.)، لمخالفته للكتاب وأنّ خاتم الأنبياء والنبي عيسى(عليهما السلام)معصومان من ارتكاب الذّنوب، مصونان عن الخطأ والزّلل.

إشارة الآية إلى إحدى السنن الإلهية

هذا، ويمكن فهم الآية في إطار السُّنن الإلهية التي تحكم التاريخ، والتي أشارت إليها آيات عديدة، منها قوله تعالى:(سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)(الفتح:٢٣.)، فالناس إذا عمّهم الظلم، استحقّوا الهلاك الذي لا ينجو منه أحد، وهذا لا يعني أنّ كلّ فرد منهم ظالم، وإنّما شملهم جميعاً لأنّه يأتي وفق سنّة من السُّنن الإلهية في الساحة التاريخية، والتي كشف عنها سبحانه بقوله: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)(الأنفال:٢٥.)، فالبلاء عندما يحلّ يعمّ المجتمع كلّه ولا يختصّ بالظالمين فيه.(انظر: السنن التاريخية في القرآن الكريم للسيد الشهيد محمد باقر الصدر:٥٤ـ٥٥.) وسيأتي الكلام في ذلك أيضاً عند تفسير

الآية(٤٥) من سورة فاطر، فانتظر.

وعلى كلّ تقدير، فالله سبحانه بما أنّه أرحم الراحمين، لا يهلك الناس بظلمهم فوراً وبلا تريّث، وإنّما يمهلهم عسى أن يثوب الظالمون إلى رشدهم ويتوبوا، كما قال: (وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى)لعلّهم يرجعون عن ظلمهم، وربّما يخرج من أصلابهم أُناس مؤمنون يعمرون الأرض.

والمراد بالأجل المسمّى أي المدّة المعيّنة وهي منتهى العمر، فإنّ الظالمين يؤخذون بالعقوبة إذا انقضت أعمارهم وخرجوا من الدنيا. (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ): أي الموت (لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ)، وفي موضع آخر يقول سبحانه:(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ)(الأعراف:٣٤).

وما في الفقرة شاهد على أنّ المراد من (أَجَلٍ مُسَمًّى) هو المدّة المعيّنة لحياة الإنسان على البسيطة.

قال الإمام علي(عليه السلام):«فَإِنَّ أَجَلَهُ [الإنسان] مَسْتُورٌ عَنْهُ، وَأَمَلَهُ خَادِعٌ لَهُ، وَالشَّيْطَانُ مُوَكَّلٌ بِهِ، يُزَيِّنُ لَهُ الْمَعْصِيَةَ لِيَرْكَبَهَا، وَ يُمَنِّيهِ التَّوْبَةَ لِيُسَوِّفَهَا، إِذَا هَجَمَتْ مَنِيَّتُهُ عَلَيْهِ أَغْفَلَ مَا يَكُونُ عَنْهَا».(نهج البلاغة: الخطبة٦٤).

٦٢. (وَيَجْعَلُونَ للهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ):

الآية تتحدّث عن أُمور:

الأوّل:(وَيَجْعَلُونَ للهِ مَا يَكْرَهُونَ): أي يجعلون لله البنات التي يكرهونها لأنفسهم، والمراد من الجعل هو الوصف، أو الحكم، وقد تقدّمت الإشارة إليه في قوله تعالى:(وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ)(النحل:٥٧)، والتكرار لغاية التصريح بأمر آخر، وهو أنّهم يصفون الله بما يكرهونه لأنفسهم، وهذا في غاية الظلم، كيف يصفون الربَّ الجليل الذي هو خالقهم باتّخاذ ما يكرهون، وباتّخاذهم ما يحبّون؟

الثاني:(وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى) فقوله:(أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى) بدل عن(الْكَذِبَ)، وتقدير الكلام: وتصف ألسنتهم أنّ لهم الحسنى، وهذا يدلّ على غرورهم وكبرهم. وأمّا ما هو المراد من الحسنى ففيه وجهان:

١. البنوّة، وتقدّم قوله:(وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ) فوصفوا الله بما يكرهونه ووصفوا أنفسهم بما يستحسنون.

ويحتمل أن يُراد بالحسنى الفوز برضوان الله، بمعنى أنّهم قالوا: إن كان محمد صادقاً في قوله بالبعث والنشور، فإنّ لنا ـ على فرض الصدق ـ الجنّة والثواب بسبب الدين الحقّ. ويؤيّد المعنى الثاني قوله تعالى: (وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى)(السجدة:٥٠).

الثالث: (لاَ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ): أي كيف يزعمون:(أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى)، بل لهم النار الّتي سوف يدخلونها.

الرابع: (وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ) هو توكيد لدخولهم النّار، فليست لهم الحسنى كما يزعمون، بل لهم النّار (وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ): أي مقدّمون إلى النار سابقون إليها، فهم فَرَط للذين يدخلون بعدهم.

٦٣. (تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ):

تزيين الشيطان أعمال أوليائه

لمّا تقدّم بيان عقائد القوم وأفعالهم المشينة، عاد البيان القرآني إلى تسلية النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وتطييب نفسه بأنّ تلك الجهالات كانت رائجة في القرون السابقة، حيث إنّهم استرسلوا مع أهوائهم وشهواتهم، فزيّن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة وحسنّها في أعينهم كما يقول: (تَاللهِ) القسم بالتاء يختصّ بالموارد التي يتعجّب فيها المتكلّم (لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ): أي الأُمم السابقة (فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ)فحلّ الشرك محلّ التوحيد، والظلم والاعتداء محلّ العدل والإنصاف والسِّلم.

إلى هنا تبيّن معنى الآية، بقي الكلام في قوله: (فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ)، الظاهر أنّ الضمير في قولهم:(وَلِيُّهُمْ)يرجع إلى أُمم، وأُريد من (الْيَوْمَ) يوم نزول الوحي، فتنطبق الآية على أهل الضلال في وقت نزول الآية كاليهود والنصارى والمجوس، والمعنى: إنّ الشيطان وليّ هؤلاء الموجودين في عصر الرسالة، مضافاً إلى أنّ لهم عذاباً مؤلماً يوم القيامة كما يقول: (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) جزاءً على تنكّبهم عن سواء السبيل.

ويُفهم من تنزيل مشركي عصر الرسالة منزلة الموجودين من أهل الضلال، أنّ الشيطان أيضاً وليّهم يتولّى أُمورهم ويديرها، (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

ومن هنا يظهر ضعف ما جاء في «الكشّاف» حيث احتمل أنّ الضمير في (وَلِيُّهُمُ) يرجع إلى مشركي قريش، حيث قال: «ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش وأنّه زيّن للكفّار قبلهم أعمالهم، فهو وليّ هؤلاء لأنّه منهم»(تفسير الكشّاف:٢/٢٠٨.)، إذ لازم ذلك التفكيك بين ما أُريد من المرجع، وما أُريد من الضمير.

وهناك احتمال آخر، وهو أن يُراد من الأُمم، الأُمم الغابرة الذين هلكوا وليس لهم أثر في الوجود، وعندئذ تكون ولاية الشيطان لهم ولاية في البرزخ ولهم هناك عذاب أليم.

وعلى كلا الاحتمالين، فالآية تطييب لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وأنّ السيرة جرت على تزيين الشيطان أعمال الكافرين، من غير فرق بين الأُمّة الحاضرة والأُمّة الغابرة.

٦٤. (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ):

القرآن الكريم يبيّن ما هو الحق في مواضع اختلافهم

لمّا تقدّم في الآيات السابقة ذكر عقائدهم الفاسدة ومقولاتهم الباطلة، ذكر هنا أنّ الغاية من إنزال الكتاب، وهي القضاء بالحقّ بين المختلفين من غير فرق بين اختلاف المشركين أو اختلاف اليهود والنصارى، كما قال: (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ) أمّا المشركون فقد اختلفوا في الآلهة المكذوبة، فلكلّ قبيلة صنم أو أكثر، كما أنّ بعض القبائل صاروا من عبدة الشمس والقمر، وأمّا اختلاف أهل الكتاب فواضح، فاليهود قد انقسموا إلى طوائف وفرق اختلفت فيما بينها حول المعتقدات والشعائر التعبّدية، وأمّا النصارى فانحرفوا عن خطّ التوحيد إلى خط التثليث، فالله سبحانه بإنزال القرآن بيّن ما هو موقفه من كلّ ما اختلفوا فيه من العقائد والأحكام، وبهذا المضمون قوله سبحانه:(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)(النمل:٧٦.). وختم الآية بقوله: (وَهُدًى وَرَحْمَةً)فالله سبحانه هو الهادي وفي كتابه الهداية، كما أنّه الرحيم ففي كتابه الرحمة لكن (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)الذين دخل الإيمان في صميم قلوبهم.

أقول: تيسّر لي اجتماع مع رئيس رابطة العالم الإسلامي في مكّة المكرّمة عام ١٤٢٤ هـ ، فدار الحديث بيننا، وقال: إنّ الكتب السماوية المعروفة بالعهدين فيها أغلاط وأكاذيب، فلو أراد علماء أهل الكتاب تصحيح العهدين فعليهم أن يصحّحوهما على وفق ما جاء في الكتاب العزيز.

وقد أضفت إليه: أنّ ما ذكرتموه حقّ لا إشكال فيه، والقرآن الكريم يصرّح بذلك، ويقول:(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ)(المائدة:٤٨.)، فوصف القرآن بوصفين:

١. (مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ)، فهو يؤيّد نبوّة موسى والمسيح(عليهما السلام) ويصرّح بنزول الكتاب عليهما من الله سبحانه.

٢. (وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ): أي مراقباً وحافظاً وشاهداً، مشتقّ من هيمن الرجل إذا ارتقب وحفظ وشهد، والقرآن الكريم مع أنّه مصدّق لما نزل قبله من الكتب فهو مهيمن وحاكم ومراقب لما فيها.

نعم، القرآن هدى ورحمة لكلّ إنسان، لكن لا ينتفع به إلاّ مَن يؤمن به ويهتدي بهديه، ونظير ذلك قوله: (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا)(النازعات:٤٥.) مع أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) منذرٌ للكلّ، مَن خشي منهم الساعة ومَن لم يخشها.

الآيات:٦٥- ٦٩ (وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا..نَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

الآيات: الخامسة والستون إلى التاسعة والستين

(وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ).

المفردات

لَعِبرة: العِبرة: العِظة.

فرث: ما يبقى في الكرش بعد الهضم، ويسمّى الثُّفل، وما يدفع إلى الخارج يسمّى الرَّوث.

سائغاً: السائغ ما سهل مروره في الحلق.

سَكَراً: أُريد به الخمر.

أوحى: قال الراغب: الوحي: الإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، أو بصوت مجرّد عن التركيب، أو بإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة، ثمّ استدل بقوله تعالى:(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)(مريم:١١.)، فقد قيل: رمز، وقيل: أشار، وقيل: كتب.(المفردات للراغب: ٥١٥، مادة «وحى».) وسيوافيك ما هو الحقّ عند التفسير.

يعرشون: يرفعون من الكروم والسُّقوف.

ذُلُلاً: جمع ذَلول، وهو الطائع المنقاد.

التفسير

سبق أن ذكرنا أنّ هذه السورة تُسمّى بـ«سورة النِّعَم» وقد تقدّم ذكر قسم من آلائه سبحانه من قوله تعالى: (هُوَ الذي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) إلى قوله:(وَعَلاَمَات وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)(النحل:١٠ـ ١٦.)، وفي هذه المجموعة أشار سبحانه إلى قسم آخر من النِّعم، والغاية من ذلك تنبيه المشركين على أنّ خالق النِّعم وواهبها لهم، هو وحده المستحقّ للشكر والعبادة. وأمّا أُصول النّعم التي جاءت في هذه المجموعة فهي تدور على الأُمور التالية:

١. إنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بالإنبات بعد موتها نتيجة اليبس.

٢. إخراج اللّبن الخالص السائغ من بطون الأنعام.

٣. ما يُتّخذ من ثمرات النخيل والأعناب سكراً ورزقاً حسناً.

٤. الإيحاء إلى النحل أن تأكل من كلّ الثمرات حتى يخرج من بطونها العسل.

ويجمع هذه الآيات أنّها تشير إلى نِعَم الله التي هي على شكل سائل كما هو واضح في الماء، واللّبن، والعسل، وما يستخرج من الأعناب.

ثم جعل سبحانه في هذه النّعم آية لقوم يسمعون، أو يعقلون، أو يتفكّرون، كما ترى. فلنبدأ بالنّعمة الأُولى، قال تعالى:

٦٥. (وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ):

تصريح الآية بوجود التأثير بين الموجودات الطبيعية
جاء مضمون هذه الآية في عدّة مواضع من القرآن الكريم، والتكرار لأجل مناسبات اقتضت بيانها، فقال: (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) وهو ماء الحياة، (فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ) الباء في(بِهِ) للسببية، وهذا يدلّ على أنّ للموجودات الطبيعية خاصّية التأثير في شيء، وأنّ للماء أثراً في إحياء الأرض وإنبات النبات، خلافاً للأشاعرة حيث نفَوا التأثيرات الطبيعية بين الموجودات وقالوا بعلّة واحدة وهو الله سبحانه، ولكن القرآن المجيد يثبت، في عدد من الآيات وجود التأثير بين الموجودات الطبيعية في علاقاتها بعضها مع بعض، ولكن هذا التأثير قائم بإذن من الله سبحانه. وعلى أيّ حال، فالمراد من الإحياء هو الإحياء بالإنبات، ومن الموت يبس الأرض، ثم عقّب ذكر هذه النعمة بقوله:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ): أي يعقلون، إذ المراد من السماع هو السماع عن تدبّر وتعقّل. وأنت ترى الأرض أيام الشتاء جرداء يابسة وكأنّ عليها ملامح الغضب، ولكنّها في أيام الربيع تزهو بالخضرة والأزهار، وتدخل على الناظر إليها البهجة والسرور، وما ذلك إلاّ بسبب نزول المطر الذي يحرك الأرض ويثير فيها الحياة ويهزها لتخرج خيراتها بالإنبات، يتكرّر، ذلك كلّ سنة، فهذا النظام السائد عبر العصور أفضل دليل على أنّ لها خالقاً ومدبّراً، والغاية منه انتفاع الإنسان بها، فكما أنّ ماء المطر تحيا به الأرض، فكذلك القلوب تحيا بالقرآن الكريم، بشرط أن تتوفّر له أسماع واعية. ٦٦. (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ):
إنتاج اللبن من بين فرث ودم
جعل سبحانه الأنعام معبَراً من الجهل إلى العلم، فلو تدبّر الإنسان في خلق الأنعام وفي كيفيّة إنتاجها اللّبن الذي يعدّ من أكثر المواد الغذائية فائدة له، لنبذ الشرك ودان بالتوحيد وخضع للخالق القادر الحكيم، حيث إنّ ما تشربه الأنعام وما تأكل سيتبدّل بعد زمان إلى لبن صاف نقيّ لذيذ للإنسان كما يقول:(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ) يعني الإبل والبقر والغنم، (لَعِبْرَةً)اعتباراً ودلالة على قدرة الخالق. قوله:(نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ) والضمير في بطونه يرجع إلى الأنعام، والجمع، يذكّر ويؤنث، وجاء هنا على لغة من يذكّر، وجاء في سورة «المؤمنون» على لغة من يؤنث قال سبحانه:(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا).(المؤمنون:٢١) قوله تعالى: (مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا)، ظاهر قوله:(مِنْ بَيْنِ) أنّ اللبن يقع بين فرث ودم، حتى أنّ الطبرسي نقل عن ابن عبّاس قوله: «إذا استقرّ العلف في الكرش، صار أسفله فرثاً، وأعلاه دماً، ووسطه لبناً» (مجمع البيان:٦/٢٠١)، وليس كذلك بل أُريد من كلمة (بَيْنِ)التوسّط بالمعنى المجازي، وبالبيان التالي: إنّ الأنعام تتغذى على النباتات، فإذا صارت في المعدة مهضومةً، فما يبقى في المعدة مقوّماً لحياتها يسمّى فرثاً، وما يُدفع إلى الخارج يسمّى روثاً، والفرث بعد مدّة يقضيها في الكرش ويتمّ هضمه فيها ينتقل إلى الأمعاء، ويقوم جدار الأمعاء بامتصاص المواد الغذائية من الفرث، وحينما يصل الدم إلى ضرع الحيوان تقوم هذه الغدد بعملية معقّدة في استخلاص المواد الغذائية من الدم ومزجها مع المياه، وهذه تتجمّع في الضّرع تنتظر وليد الحيوان أن يرضعها أو أن يحلبها صاحب الحيوانات بيده أو بالأجهزة الحديثة، وتصل إلى الإنسان لبناً خالصاً عجزت المختبرات الحديثة عن تركيب سائل مثله. فكأنّ الصانع الحكيم جعل الضَّرع مصنعاً لتحويل الدم إلى اللّبن، وهكذا توجد غدد أُخرى تحوّل الدم إلى مادة منويّة، أو مادة لعابيّة، أو دموع، وغير ذلك. وبما ذكرنا ظهر معنى قوله سبحانه:(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ) حيث إنّ الغذاء يتحوّل إلى فرث، وعصارته تتحوّل إلى الدم الذي يذهب إلى كلّ خلية في الجسم فيتحوّل في عروق الضَّرع إلى لبن خالص سائغ للشاربين.

وبهذا يتبيّن لنا أنّ كلمة (بَيْنِ) استعملت في مكان مجازي، وهي كثيراً ما تستعمل في إرادة الوسط بين مرتبتين كقولهم: الشجاعة صفة بين التهوّر والجبن، فمن بلاغة القرآن هذا التعبير القريب للأفهام لكلّ طبقة من الناس، بحسب مبالغ علمهم مع كونه موافقاً للحقيقة.(انظر: التحرير والتنوير:١٣/١٦٠؛ روح المعاني:٢٠/١٧٨.)

ثمّ إنّه سبحانه وصف اللَّبن بوصفين:

١. (لَبَنًا خَالِصًا) لا يشوبه شيء، لا من الفرث ولا من الدم.

٢. (سائِغاً لِلشَّارِبِينَ): أي لا يغصّ الشارب به. وقد حكي أنّه لم يغصّ باللبن أحد قط.(تفسير الطبري:١٤/١٣٣.) وربّما يكون الماء غير سائغ «روى السكوني عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): ليس أحد يغصّ بشرب اللّبن لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:(سائِغاً لِلشَّارِبِينَ)». (تفسير نور الثقلين:٣/٦٢.)

٦٧. (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ):

هذا هو المحور الثالث لبيان النِّعم التي أنعم الله بها سبحانه، وهي عبارة عن أمرين:

١. ثمرات النخيل، حلالها وحرامها.

٢. الأعناب، حلالها وحرامها.

قال سبحانه: (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ)شيء(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) فقوله: (مِنْهُ) يدلّ على مرجع محذوف، وتقدير الآية هكذا: ومن ثمرات النخيل والأعناب شيء تتّخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً.

والظاهر أنّ كلاًّ من القسمين: السَّكَر والرِّزق الحسن، يرجع إلى كلا الصنفين، أعني: ثمرات النخيل والأعناب.

إذا وقفت على ذلك، فهناك بحث، وهو أنّه سبحانه بصدد بيان ما أنعم به على العباد، فكيف يمكن أن يُعد السَّكَر نعمة وإن لم يكن رزقاً حسناً؟

والذي يمكن أن يقال: إنّ الآية تخاطب المشركين، وأنّهم يتّخذون من هذه الثمرات سَكَراً ورزقاً حسناً، وليس بصدد بيان كون السكر حلالاً، ويشهد لذلك أنّه سبحانه حرّم الخمر في قوله تعالى:(إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)(الأعراف:٣٣.). وقد نزلت سورة الأعراف قبل سورة النحل، كما سيوافيك.

فإن قلت: كيف يمكن أن يقال: إنّه سبحانه حرّم الخمر في الفترة المكيّة مع أنّ بعض المسلمين كانوا يشربون الخمر في الفترة المدنية كما يدلّ عليه قوله سبحانه:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)(المائدة:٩٠ و ٩١.) حيث يدلّ على أنّ المسلمين كانوا يشربون الخمر، فهل يمكن مع تحريمه أن يشربوه؟

قلت: بما أنّ شرب الخمر كان من عاداتهم الراسخة فلم يثبت عن بعضهم الانتهاء عنه حتى نزلت هذه الآية التي تضمّنت تشديد الحرمة وزجر بعض المسلمين، والشاهد على ذلك ما جاء في آخر الآية الثانية، أعني قوله:(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) فيدلّ على أنّهم لم يكونوا منتهين مع كونه حراماً.

وحصيلة البحث: إنّه سبحانه يخاطب المشركين بأنّهم يتّخذون من ثمرات النخيل والأعناب (سَكَرًا): أي شراباً مُسكراً دون أن يصفه بالحلال والحرام، لولا أنّه أشار إلى التحريم بفصله عن الرِّزق الحسن.

وعلى أيّ حال، فالرزق السيّئ هو المسكر، والرِّزق الحسن هو التَّمر والزَّبيب وغيرهما، ولكنّ الوزير المغربي قال في معنى (سَكَرًا):

غذاءً وطَعُماً.(المصابيح: ٦٤٦.)

ثمّ إنّه سبحانه أتمّ الآية بقوله:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

هذا هو المختار في تفسير الآية وعليه السيد الطباطبائي وبعض المعاصرين، غير أنّ قسماً من المفسّرين قالوا: المراد بالسَّكَر الخمر، والآية نزلت في مكة والخمر إذ كانت حلالاً يشربها البرّ والفاجر، وتحريمها إنّما كان في المدينة واختلفوا في أنّه قبل أُحد أو بعدها، والآية المحرّمة قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)(المائدة:٩٠.)، وعلى هذا فما هنا، منسوخ بها.(روح المعاني:١٤/١٨٠.)

وقد عرفت ضعف ذلك، وأنّ الخمر حرّمت في سورة الأعراف والتي نزلت قبل النّحل، فقد نزلت سورة النّحل بعد ثلاث وثلاثين سورة من نزول سورة الأعراف.(لاحظ: الإتقان للسيوطي: ١/٨١ .)

ولمّا كان القول بحلّيّة الخمر في الشريعة الإسلامية أمراً غير مقبول ذهب بعضهم إلى ما روي عن ابن عباس من أنّ السَّكر هو الخلّ بلغة الحبشة، وهو كماترى، فإنّ الخلّ من أفضل الأطعمة وقد ورد الحثّ على تناوله في غير واحدة من الروايات. وعلى كلّ تقدير، فهذان الرأيان لا يعتمد عليهما.

وآخر كلمة في المقام: أنّ الأحناف تخلّصوا من الإشكال بالقول بأنّ المراد بالسَّكَر هو ما لا يُسكر من الأنبذة، واستدلّوا عليه بأنّ الله تعالى امتنّ على عباده بما خلق لهم من ذلك، ولا يقع الامتنان إلاّ بمحلَّل، فيكون ذلك دليلاً على شرب ما دون المُسكر من النبيذ، فإذا انتهى إلى السُّكر لم يجز.(روح المعاني:١٤/١٨٠.)

يلاحظ عليه: أنّه سبحانه يعدّ من النّعم ثمرات النخيل والأعناب لا كلّ ما يعملونه منها من حلال وحرام، ولو كان سبحانه في بيان الامتنان لم يقابله بالرزق الحسن، على أنّ حمل السَّكَر على ما لا يُسكر على خلاف اللغة، فإنّ السَّكَر عبارة عن الشّراب المُسكر.

٦٨.(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ):

الوحي وموارد استعماله في القرآن الكريم

قوله تعالى:(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)يدلّ على أنّه سبحانه أوحى إليه، فما هو معنى الوحي إليه؟ إذ ربّما يتبادر إلى الذهن أنّ الموحى إليه يجب أن يكون ذا عقل، ولكن ليس للنحل عقل، بل غريزة وطبيعة تدفعه إلى الأعمال التي تذكرها هذه الآية والآية التالية.

وللإجابة عن ذلك، ينبغي أن نقف على موارد استعمال لفظ الوحي في القرآن الكريم، وهي:

١. الإيحاء إلى أمّ موسى(عليه السلام) قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى)(القصص:٧.).

٢. إيحاء زكريا إلى قومه، كما قال: (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)(مريم:١١.).

٣. الإيحاء إلى الأنبياء وحياً تشريعياً، كما في قوله: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا)(الشورى:٥١.).

٤. وحي الجنّ بعضهم إلى بعض، قال تعالى:(وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْض زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)(الأنعام:١١٢.).

٥. وحيه سبحانه إلى كلّ سماء أمرها، قال تعالى : (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا).(فصلت:١٢.)

٦. وحيه تعالى إلى الأرض بالتحدّث عن أخبارها، قال تعالى:(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا)(الزلزال:٤ـ٥.).

٧. وحيه سبحانه إلى النّحل للقيام بأُمور.

فتحصّل ممّا ذكرنا من موارد استعمال الوحي أنّ الموحى إليه تارة يكون نبيّاً، وأُخرى إنساناً عاقلاً، وثالثة حيواناً، ورابعة جنّاً، وخامسة جماداً كالسماوات والأرض.

وعلى هذا، فمن البعيد أن يكون لفظ الوحي مشتركاً لفظياً بين تلك الموارد، بل هو موضوع لمعنى جامع بين هذه الموارد، والذي يمكن أن يقال: إنّه عبارة عن إلقاء المعنى بنحو يخفى على غير من قُصد إفهامه. وقد يُلقى المعنى في نفوس غير الأنبياء، كما حصل لأُمّ موسى(عليه السلام)، ويُطلق على هذا النوع من الوحي أيضاً الإلهام، وهو لا يختصّ ـ كما رأيت ـ بالأنبياء، وإنّما المختصّ بهم، الوحي التشريعي.

فالأنبياء يُلقَى المعنى ـ أو هو مع اللفظ ـ في نفوسهم مباشرة بحيث لا يفهمه غيرهم.

وأمّا الحيوانات فالمراد بالوحي إليها، التعليم الغريزيّ.

وأمّا السماوات فالمراد بالوحي إليها إطلاق القوانين والسُّنن فيها على نحو تقوم بالأُمور الموضوعة لها.

ومن هذا يُعلم أنّ الوحي على ثلاثة أقسام:

١. الوحي التشريعي، كما في الوحي إلى الأنبياء.

٢. إلقاء المعنى إلى الموحى إليه، كما في الوحي إلى أُمّ موسى.

٣. الوحي التكويني، كما في الوحي إلى الحيوانات والجمادات.

والجميع يقع تحت عنوان واحد، وهو تفهيم ما هو المقصود الى الموحى إليه على نحو خفيّ لا يدركه غيره. وسيأتي تفصيل أكثر عند تفسير الآية (٥٢) من سورة الشورى، بإذن الله تعالى.

***

تقدّم أنّه سبحانه ذكر في هذه المجموعة جملة من النّعم، وقد مرّت الأُمور الثلاثة التي هي من أكبر النّعم، أعني: إنزال الماء من السماء، وخلق اللّبن في بطون الأنعام، وانتفاع الناس من ثمرات النخيل والأعناب، بقي الكلام في العطيّة الرابعة، وهي عطيّة العسل التي هي عطيّة ربّانية فيها غذاء ودواء، وسمّي النحل نحلاً لأنّه عطية على سبيل التبرّع. وهذه الحشرة مع صغرها تتميز بأُمور عجيبة، وقد كُتب حول خلقتها وحياتها ووظائف كلّ نوع منها مقالات ورسائل كثيرة، وها نحن نذكر شيئاً يسيراً من ذلك حسب اقتضاء المقام.

النّحل وبناء البيت السُّداسيّ

النحلة: حشرة تعيش في جميع أنحاء العالم ماعدا المناطق القريبة من القطبين الشمالي والجنوبي. ويُعدّ النَّحل من أكثر الحشرات فائدة وينتج النَّحل العسل الذي يستعمله الناس غذاء، كما ينتج شمع العسل الذي يستعمل في منتجات عديدة. وهناك نحو عشرين ألف نوع من النَّحل، لكن النوع المعروف بنحل العسل هو النوع الوحيد الذي يصنع العسل والشمع بكميات كبيرة تكفي الناس.

ثمّ إنّه سبحانه أشار في هذه الآية إلى الأعمال التي تقوم بها النّحلة، ولأجل عظمة أعمالها وبديع أمرها وجّه الخطاب إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وقال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وقد عرفت معنى الوحي في هذه الآية وأمثالها، وأوّل عملية يقوم بها النحل هو بناء البيوت.

خلايا النّحل

يعيش النحل في قفائر أو (خلايا نحل)، والقفير مكان تخزين يشبه شجرة جوفاء أو صندوقاً يحتوي على قرص العسل، الذي هو كتلة من الحجيرات السداسية الشكل تُدعى الخلايا.الموسوعة العربية العالمية:٢٥/٢٦٩.

إنّ النحل تتّخذ بيوتاً في أحد أماكن ثلاثة:

الأوّل والثاني: الجبال والغياض(مجتمع الأشجار، الأَجَمة.)، وهذه تعيش بشكل طبيعي إذ لا يتعهَّد بها أحد من الناس إلاّ قليلاً منهم، وأشار إلى ذلك تعالى بقوله: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ)، والتعبير بـ : (مِنَ الْجِبَالِ) بدل(في الجبال) لأنّها لا تبني بيوتها في كلّ جبل وشجر بل في مساكن توافق مصالحها وتليق بها.

الثالث:(وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ): أي فيما يعرش الناس ويرفعون من السقوف والكروم ونحوها.

وأمّا البيت فيتشكّل من خلايا سداسية الشكل تصنعها العاملات (الشغّالات) من الشمع الذي تفرزه أجسامها.

ينطلق النَّحل في المزارع يمصّ رحيق الأزهار ويجمع حبوب اللقاح الصغيرة، ثم يعود إلى الخلية فيصنع عسلاً من الرحيق يتغذّى به سكّان الخلية صغاراً وكباراً، وتفرز الشمع الذي تبني به بيوتاً سداسية الشكل تخزن في بعضها العسل وفي بعض آخر منها تربّي صغار النّحل، ولا يمكن للمهندس الحاذق أن يبني مثل هذه البيوت حتى يستعين بالآلات كالمسطرة والفرجار.

وقد ألهمها الله أن تبني بيوتها على شكل سداسيّ حتى لا يحصل فيه خلل ولا فرجة ضائعة، كما عليها أن تنظف الخلية وتخفق بأجنحتها لتساعد على تهويتها.

إلى هنا تمّ العمل الأوّل وهو بناء البيوت (الخلايا). ثم أشار سبحانه في الآية التالية إلى الأعمال الأُخرى للنَّحل، فقال:

٦٩. (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ):

امتصاص رحيق الأزهار

لفظة(ثُمَّ) للترتيب الرُّتبي لأنّ مجموع العمليات نابع عن الغريزة التي تدفعها إلى تلك العمليات، فبما أنّ اتّخاذ البيوت متقدّم زماناً على أكل الثمرات، جاء الثاني مقروناً بلفظ (ثُمَّ)، والنَّحل يمصّ الرحيق من الأزهار قبل أن تصير ثمرات، فما في الآية من أكل الثمرات مجاز بعلاقة الأُول، فإنّ الأزهار تصير في المستقبل ثمرات.

البحث عن الأزهار

إذا لم تجد النَّحلة زهرة انتقلت من مكان إلى آخر ومن روضة إلى أُخرى، وهذا ما أُشير إليه في قوله تعالى: (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلُلاً): أي ذُلِّلت لك المسالك فاسلكيها. وبعد أن تمتلأ بطنها بالرحيق ترجع إلى خلاياها تصنع العسل منه، كما أسلفنا.

كيف يتكوّن العسل

تمتصّ العاملات(تتألّف مستعمرة نحل العسل النموذجية من ملكة واحدة، وآلاف العاملات (الشغّالات)، وبضع مئات من الذكور.) من النَّحل رحيق الأزهار، فينزل ويجتمع في كيس في بطنها، وهناك يمتزج بعصارة خاصّة فيتحوّل إلى عسل، ثم تعود النَّحلة إلى الخلية فتفرز العسل من فمها في البيوت الشمعية التي خصّصت لتخزين العسل، وكلّما امتلأ بيت منها غطّته بطبقة من الشمع وانتقلت إلى بيت آخر. وإلى هذا أشار سبحانه بقوله:(يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ) حيث إنّ للنّحل معدة خاصّة تسمّى معدة العسل، وفيها تخزن العاملات الرَّحيق الذي تصنع منه العسل.

أوصاف الشراب

يتأثّر لون العسل بأنواع الأزهار مصدر الرحيق. ويتراوح لونه بين الأبيض والأصفر الدّاكن، ولذلك وصفه سبحانه بقوله:(مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ).

فوائد العسل

قال تعالى في ذكر فوائد العسل: (فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)، ففي العسل خواص مختلفة ذكرها الأخصّائيون في كتبهم، ولكنّه سبحانه نكّر

الشفاء، حتى لا يُتخيَّل أنّ العسل يشفي كلّ مرض. وليس المقام يسع للتفصيل فيما للعسل من فوائد في علاج الأمراض، فلنشر إليها إجمالاً:

١. العسل سريع الامتصاص من قِبَل الدم، ولهذا فهو غذاء مقوٍّ ومؤثّر جدّاً في تكوين الدم.

٢. يقي المعدة والأمعاء من العفونة، وهو رافع لليبوسة.

٣. ينفع الذين لا يستطيعون النوم بسرعة (على أن لا يُتناول الكثير منه، لأنّ الإكثار منه يقلّل النوم).

٤. له أثر مهم في رفع التعب وتشنّج العضلات.

٥. يقوّي الشبكة العصبية للأطفال (إذا ما تناولته الأُم أثناء الحمل).

٦. يرفع نسبة الكالسيوم في الدم.

٧. هو نافع لضعف الجهاز الهضمي (وبالخصوص لمن أُبتلي بنفخ البطن).

٨. لسرعة دخول العسل في مرحلة الاحتراق وبناء البدن، فهو يعمل على توليد الطاقة بسرعة فائقة بالإضافة لترميمه للقوى.

٩. هو مقوٍّ للقلب، ومساعد في علاج أمراض الرئة، ونافع للإسهال لخاصيّته في قتل المكروبات.

١٠. يعتبر العسل عاملاً مهماً من عوامل معالجة قرحة المعدة والإثنى عشري.

١١. هو دواء نافع لعلاج الروماتيزم، ونقصان قوّة نموّ العضلات، ورفع الآلام العصبية.

١٢. هو نافع في رفع السعال وعامل مهم لتصفية الصوت.

ثمّ إنّ خواصّ العسل العلاجية أكثر من أن يحيط بها هذا المختصر.

ومع ذلك كلّه فإنّه يدخل في صناعة الأدوية لتلطيف الجلد وللتجميل، ولعلاج ورم الفم واللسان والعين، ويستعمل أيضاً لمعالجة الإرهاق، وتشقّق الجلد، وما شابه ذلك.

أمّا المواد والفتيامينات الموجودة في العسل فكثيرة جداً. وفيه من المواد المعدنية: الحديد، الفسفور، البوتاسيوم، اليود، المغنيسيوم، الرصاص، النحاس، السلفور، النيكل، الصوديوم وغيرها.(الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٨ / ٢٢١، تلخيصاً من كتاب «النحل» تأليف: مترلنگ.)

أثر العسل في الروايات

تناولت الروايات الشريفة العسل وذكر أثره ودوره في شفاء الكثير من العلل والأمراض، وها نحن نذكر شيئاً يسيراً منها.

عن أبي سعيد الخدري: أنّ رجلاً أتى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: اسقه عسلاً. ثمّ أتى الثانية، فقال: اسقه عسلاً. ثم أتاه فقال: فعلت. فقال: صدق الله، وكذب بطن أخيك، اسقه عسلاً. فسقاه فبرأ.(صحيح البخاري:٤/١٥، كتاب الطبّ، باب الدواء بالعسل، برقم ٥٦٨٤.)

روى الصّدوق بإسناده عن الإمام عليّ الرضا(عليه السلام): قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«إن يكن في شيء شفاء، ففي شُرطة الحجّام، أو في شربة عسل».(عيون أخبار الرضا:٢/٣٩، باب ٣١، برقم ٨٣.(وشُرطة الحجّام: الآلة التي يحجم بها).)

وروى عنه أيضاً: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«لا تردّوا شربة عسل من آتاكم بها».(نفس المصدر: رقم الرواية ٨٤.)

وروى عنه أيضاً عن الإمام علي(عليه السلام):«ثلاثة يزدن في الحفظ ويذهبن بالبلغم: قراءة القرآن، والعسل، واللّبان».(عيون أخبار الرّضا:٢/٤٢، برقم ١١١.)

بقي هنا شيء وهو ما ذكره الزّمخشري في تفسيره، قال: ومن بدع تأويلات الرافضة أنّ المراد بالنّحل عليٌّ وقومه.(تفسير الكشّاف:٢/٢١٠.)

والعجيب أنّ ابن عاشور نقل ما في «الكشّاف» وعدّه من لطيف النّوادر!!(لاحظ : التحرير والتنوير: ١٣/١٦٩.)

أقول: هل يمكن مؤاخذة ربع المسلمين أو ثلثهم بقول واحد منهم، لو ثبت أنّه قال ذلك؟ على أنّ التعبير عن شيعة أهل البيت (عليهم السلام) بالروافض أو الرافضة سوء أدب، وخلاف منطوق قوله تعالى:(بِئْسَ الإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ).(الحجرات:١١.)
إنّ الّذي ورد عن الإمام عليّ، هو قوله:«أَنَا يَعْسُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَالُ يَعْسُوبُ الْفُجَّارِ»(نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٣١٦.)، واليعسوب أمير النّحل وكبيرهم وسيّدهم تُضرب به الأمثال لأنّه إذا خرج من كوره تبعه النّحل بأجمعه.(مجمع البحرين: ٢ / ١٢١، مادّة «عسب».) قال الشريف الرضيّ: ومعنى ذلك أنّ المؤمنين يتّبعوني، والفجّار يتّبعون المال، كما تتّبع النّحل يعسوبها، وهو رئيسها.(نهج البلاغة: ٥٣٠، قصار الحكم، برقم ٣١٦.) وأضاف ابن أبي الحديد: هذه كلمة قالها رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)]العليّ [بلفظين مختلفين، تارة: «أنت يعسوب الدين»، وتارة:«أنت يعسوب المؤمنين»، والكلّ راجع إلى معنى واحد، كأنّه جعله رئيس المؤمنين وسيّدهم، أو جعل الدّين يتّبعه ويقفو أثره حيث سلك، كما يتّبع النّحل اليعسوب، وهذا نحو قوله:«وأدِر الحقَّ مَعهُ كَيف دار».(شرح نهج البلاغة:١٩/٢٢٤.)
هذا غيض من فيض ممّا يتعلق بحياة النّحل وخلاياها وفوائد عسلها، ومن أراد المزيد فليرجع إلى المقالات والرسائل المخصّصة لذلك.

قوله تعالى:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ).

بدأ سبحانه ببيان نعمه فختم إحياء الأرض بعد موتها بقوله:(لِقَوْم يَسْمَعُونَ)، وختم ما أنعم به على الناس من ثمرات النخيل والأعناب بقوله: (لِقَوْم يَتَفَكَّرُونَ)، فما هو الوجه في ذلك؟

والجواب: عن ذلك ـ كما يقول السيد الطباطبائي ـ : ولعلّ الوجه في ذلك أنّ النظر في أمر الموت والحياة بحسب طبعه من العبرة والموعظة، وهي بالسمع أنسب، والنظر في الثمرات من حيث ما ينفع الإنسان في وجوده عن السير البرهاني من مسلك اتّصال التدبير وارتباط الأنظمة الجزئية ورجوعها إلى نظام عام واحد لا يقوم إلاّ بمدبر واحد وهو للعقل أنسب، وأمر النحل في حياتها يتضمّن دقائق عجيبة لا تنكشف للإنسان إلاّ بالإمعان في التفكّر فهو آية للمتفكّرين.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٢٩٣.)

الآيات:٧٠- ٧٤ (وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ... إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ).

الآيات: السبعون إلى الرابعة والسبعين

(وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْم شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْض فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ * وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ * وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ * فَلاَ تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ).

المفردات

يتوفّاكم: من التوفّي بمعنى الأخذ وقبض الشيء على وجه الإيفاء والإتمام.

أرذل: الأرذل: أفعل تفضيل من الرّذالة، وهي الرداءة في صفات الأشياء.

العمر: مدّة بقاء الإنسان في الحياة. وإضافة الأرذل إلى العمر من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف أي(العمر الأرذل).

برادّي: الرادّ هو المعطي.

أَيمانهم: أُريد اليد اليمنى في مقابل اليسرى، ونسبة الملك إلى الأيمان مجاز، فإنّ سبب الملك أحد أُمور إمّا القتال بالسيف الذي تأخذه اليد اليمنى أو البيع والشراء أو الميراث.

من أنفسكم: من جنس أنفسكم، نظير قوله سبحانه:(ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ)(البقرة:٨٥.) وبه يفسّر قوله سبحانه:(فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)(النور:٦١.) أي على الذين يسكنون البيوت.

حَفَدة: جمع الحافد والحفيد، وهو ابن الابن، والسبط ابن البنت.

التفسير

إنّ الله سبحانه بدأ الآيات الثلاث الأُولى من هذه المجموعة بلفظ الجلالة، فقال: (وَاللهُ خَلَقَكُمْ)، وقال:(وَاللهُ فَضَّلَ)، وقال: (وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ)، والوجه في ذلك هو إفادة التخصيص، أي أنّه سبحانه هو المبدأ لهذه النعمة ولا شريك له في ذلك، ولذلك قدّم الإظهار على الإضمار ليكون أبلغ في بيان التخصيص.

٧٠.(وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ):

الإحياء وتقدير الأعمار والإماتة بيد الله

قد تقدّم في صدر السورة أنّ الغرض من بيان النِّعم التي أنعم بها الله سبحانه على عباده، هو الدعوة إلى توحيده في الربوبية الذي يستلزم توحيدَه في العبادة، وجاءت الآيات السابقة مبيّنة أنّه القادر المتصرّف في الكون، وهنا، في هذه الآية، أخذ يذكر دلالة أُخرى على عظيم قدرته، وهي الإحياء والإماتة وتقدير الأعمار، والجميع بيد الله تبارك وتعالى، وليس لأحد التصرّف في ذلك، وقال: (وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ): أي يأخذ أرواحكم، ونسبة التوفّي إلى الله لا تنافي نسبته إلى الملائكة كما في قوله سبحانه:(الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ)(النحل:٢٨، ولاحظ: الآية ٣٢.)، لأنّهم من جند الله، فتصحّ نسبة فعل الجند إلى الآمر.

ثمّ إنّ عمر الإنسان يمتدّ ما بين الطفولة إلى أرذل العمر، وأمّا ما هو المراد من أرذل العمر، فهو ما يصفه سبحانه بقوله: (لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) واللاّم في (لِكَيْ) للعاقبة، أي تكون عاقبته نسيان كلّ ما اختزنه عقله من معلومات، وفقدان القدرة على استحضارها، والجميع بيد الله تعالى، وليس للإنسان فيه دخل ولا تأثير، ويشهد لذلك قوله في ذيل الآية: (إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) فليس حياتكم ولا موتكم ولا بقاؤكم إلى أرذل العمر بيدكم، بل كلّ ذلك بيد الله سبحانه.

ثمّ إنّ رذالة العمر رهن ضعف عضو من الأعضاء أو حاسّة من الحواسّ على وجه لا يرجى عودتها إلى الحالة السابقة، بل تزداد ضعفاً ووهناً مع الأيام وبالخصوص الذاكرة، حيث يفقدها تماماً الطاعن كثيراً في السنّ، ولكن هنا نكتة وهي أنّ الآية ناظرة إلى أغلب الأفراد لا جميعهم، أي ليس كلّ معمّر عاش مئة سنة أو مئتين أو أكثر، فقد كافّة حواسّه، بشهادة أنّ بعض الأنبياء والأولياء امتدّ بهم العمر طويلاً ولم يصابوا في حواسّهم، فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً.(لاحظ: العنكبوت:١٤.)، وهذا هو وليّ الله الأعظم آخر الأوصياء الإمام المهدي(عج) حيّ يرزق وقد مضى عليه من العمر إلى زماننا هذا ألف ومئة وثلاثة وثمانون عاماً، وذلك لأنّهما (عليهما السلام) بعين الله ورعايته وحفظه... .

نعم حياة الإنسان في تلك الفترة هي أسوأ حياة وربّما تصل الحالة إلى حدّ يتمنّى الوارث أن يرزق الله والده أو والدته أحد الشفاءين إمّا الصحّة أو الموت، لأنّ الإنسان عند ذاك يصير كَلاًّ على الأهل والأولاد في عامّة الحالات، ومن المعلوم أنّ لهم طاقة محدودة فربّما لا يتحمّلون ما تستتبعه رذالة العمر، ولذلك نرى أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يتعوّذ بالله من أرذل العمر، فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود، قال: كان دعاء رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«أعوذ بالله من دعاء لا يُسمع، ومن قلب لا يخشع، ومن علم لا ينفع، ومن نفس لا تشبع، اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الجوع فإنّه بئس الضجيع، ومن الخيانة فإنّها بئست البطانة، وأعوذ بك من الكسل والهرم والبخل والجبن، وأعوذ بك أن أُردّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدجّال وعذاب القبر».(تفسير الدر المنثور: ٥/١٤٧.)

ثمّ إنّه ليس لأرذل العمر حدّاً معيّناً حتى يقال: إنّه يبدأ من السنة الخامسة والسبعين بل يختلف حسب اختلاف الأمزجة والبلاد.

٧١.(وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ):

تفضيل بعض على بعض في الرّزق

بيّن سبحانه في الآيات السابقة أنّ الإحياء والإماتة وما بينهما من هرم من صنع الله، ثم انتقل إلى الاستدلال بالرِّزق، فالله سبحانه هو الذي يفرّق رزقه بين عباده ويجعل نصيب بعضهم أكثر من الآخر كما يقول:(وَ اللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْض فِي الرِّزْقِ)، وفرّع على ذلك قوله: (فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ): أي ما هم بمعطين فضل رزقهم (عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ): أي على عبيدهم وإمائهم (فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)قيد للمنفيّ، أي(بِرَادِّي رِزْقِهِمْ): أي حتى يكونوا في الرِّزق سواء، فلا يقوم أصحاب الثروات بإعطاء ما فَضَل من الرزق إلى ماليكهم حتى يكون الجميع على درجة واحدة، ومع ذلك فهم يقومون بنفس ذلك العمل في حقّه سبحانه حيث يسوّون بعض المخلوقات بالخالق ويشركون الجميع في الإلهية!! حتى أنّهم جعلوا ذلك شعاراً في حَجّهم عند التلبية، فكانوا يقولون:«لبيك لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» فعلى عقيدتهم فالله سبحانه قسّم الأُلوهية بينه وبين مخلوقاته، فعملهم هذا أشبه بعملهم في جعل البنات لله سبحانه، حيث يصفون الله تعالى بما لا يصفون به أنفسهم، وقد أُشير إلى هذا المعنى في سورة الروم، قال تعالى:(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ)(الروم:٢٨.) فحصيلة الآية أنها ردّ على عبدة الأوثان والأصنام، كأنّه قيل: إنّه تعالى فضّل المُلاّك على ماليكهم في الرّزق، وهم لا يرضَون أن يجعلوا عبيدهم المماليك شركاء لهم في الرّزق، فيكونوا هم وإيّاهم سواء فيه، فكيف يرضَون أن يجعلوا هذه الجمادات معه تعالى سواء في المعبودية؟ إن هو إلاّ قسمة ضيزى.

ثمّ إنّه سبحانه ختم الآية مخاطباً المشركين بقوله:(أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ) حيث أسندوا بعض النّعم إلى غيره سبحانه مع أنّ كلّ النّعم من الله سبحانه. وهذا هو الجهل، والدليل على ذلك الإسناد عبادتُهم الأصنام، فمَن أثبت لله شريكاً وعبده فقد أسند بعض الخيرات إليه.

إلى هنا تمّ تفسير الآية، بقي هنا كلام حول التفاوت في الرِّزق.

أقول: إنّ التفاوت في الرِّزق لا يُعدّ جوراً ولا ظلماً من الله سبحانه على المفضول (المفضّل عليه)، وما ذلك إلاّ لأنّ الرِّزق يخضع لعوامل منها الاستعدادات الذاتية والسعي والنشاط واستثمار الفُرص. ومن المعلوم أنّ الاختلاف في الرّزق فيه قوام المجتمع، لأنّ الناس لو كانوا على مستوى واحد من الاستعدادات لتعرقلت عجلة المجتمع عن التقدّم والتطوّر. وسيوافيك تفسير ذلك في قوله سبحانه:(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْض دَرَجَات لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا)(الزخرف:٣٢.) ومعنى قوله: (لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا): أي لتسخّر كل فئة الأُخرى، إذ أنّ في كلّ من المسخَّر والمسخِّر كمالاً يفقده الآخر.

نعم الطبقية (بمعنى وجود طبقة بيدها الثروات وطبقة أُخرى يعاني أفرادها من الجوع والعري) أمر يرفضه العقل والفطرة والشرائع السماوية. وسيوافيك تفصيل ذلك في سورة الزخرف.

٧٢. (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ):

النِّعم الثلاث من الله سبحانه
بدأ سبحانه هذه الآية بلفظ الجلالة لإبداء التخصيص وأنّه تعالى هو القائم ببديع الصنع في خلق النَّسل واستمراره، وذكر من بديع الصنع أمرين: ١. خلق الأزواج للناس من نوعهم وذات أنفسهم. ٢. استمرار النَّسل بالبنين والحفدة. ٣. توفير الرِّزق للناس بما فيه بقاء النّسل. أمّا الأوّل، فيشير إليه بقوله:(وَاللهُ جَعَلَ): أي خلق (لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)من جنس أنفسكم (أَزْوَاجًا)، والغاية من خلق الأزواج ما ذكره في سورة الروم، أعني قوله:(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)(الروم:٢١.) ففي ظلّ العلاقة الزوجية المتينة يتحقّق السكن والاطمئنان والاستقرار، وتفيض مشاعر الحب وأحاسيس العطف والرأفة. وأمّا الثاني، فقد أشار إليه بقوله:(وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً) فالأولاد وأولاد الأولاد يعينون الآباء أيام عجزهم وهرمهم، وهذه من نِعَم الله سبحانه على عباده. وأمّا الثالث، أي إمداد الأُسرة برزقها، فقد أشار إليه بقوله:(وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) فإنّ العيش الهانئ وبقاء النّسل مرتهنان بوجود الرّزق، والله سبحانه أتمّ النعمة بأن منّ على البشر بالطيبات من الرّزق وجنّبهم الخبائث. والظاهر أنّ المراد بالطيبات هو كلّ ما تطيب به النفس من النّعم التي بها قوام الحياة. ومع ذلك كلّه يجحد المشرك هذه النّعم الجمّة، بشهادة أنّه يؤمن بالباطل ويعبد الأصنام كما يقول:(أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ): أي من ليس له أيّ نعمة عليكم (وَ بِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)، وبما أنّ كفران النعمة كان مستمرّاً، جاء بالفعل المضارع: (يَكْفُرُونَ). ٧٣. (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ): تقدّم في الآية السابقة توبيخ المشركين بقوله:(أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ)وعطف عليه قوله: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) ثم وصف معبوداتهم المزعومة بوصفين: ١. (مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ شَيْئًا)، وقوله:(شَيْئًا)يفيد العموم لوقوعه في حيّز النفي، فالآلهة المزعومة لا يملكون أي شيء حتى يعطوه لعبّادهم. ٢. (وَ لاَ يَسْتَطِيعُونَ) ـ على فرض التملّك ـ لأنّ الأُمور كلّها بيد الله سبحانه. ٧٤. (فَلاَ تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ):
النهي عن ضرب المَثَل والمِثْل لله سبحانه
بدأ هذه الآية بفاء النتيجة وكأنّه استنتاج ممّا أقامه من الدلائل على التوحيد، فقال: (فَلاَ تَضْرِبُوا للهِ الأَمْثَالَ) فلو كان لفظ (الأَمْثَالَ) جمع مَثَل فيكون المراد المنع من إجراء أوصاف الممكن على الواجب بضرب من التشبيه كجعل البنات له، وأنّ بينه وبين الجِنّة نسباً وصهراً، وأنّه كيف يحيي العظام وهي رميم، فهؤلاء المشركون يصرّون على إجراء صفات الممكن على الواجب، وقد مرّ ذلك في تفسير قوله سبحانه:(لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ).(النحل:٦٠.) وأمّا لو كان لفظ (الأَمْثَالَ) جمع مِثل بمعنى النِدّ، فالمراد: لا تجعلوا لله نداً في التدبير والعبادة، وأُشير إليه في قوله سبحانه: (فَلاَ تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا)(البقرة:٢٢.)فليس لله مِثل ولا مثال ولا مَثَل يمثّل ذاته أو صفاته أو أفعاله بصورة ذات الممكن وصفاته وأفعاله.

الآيات:٧٥- ٧٧ (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ... إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

الآيات: الخامسة والسبعون إلى السابعة والسبعين

(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَ مَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَللهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

المفردات

أبكم: الذي يُولَد أخرس لا يمكنه أن يتكلّم.

الكَلّ: الثقيل، يقال: كَلَّ عن الأمر يكِلّ كَلاًّ إذا ثقل عليه، وكلّت السكين كلولاً إذا غلُظت شفرتها، وكَلَّ لسانُه، أي لا ينبعث في القول لغلظه وذهاب حدّه.

يوجّهه: الإرسال في وجه من الطريق، يقال: وجّهته إلى موضع كذا فتوجّه إليه.

أمر: شأن، يطلق الأمر ويراد به الشأن المهمّ، قال تعالى:(أَتَى أَمْرُ اللهِ)(النحل:١).

الساعة: القيامة، صار علماً عليها.

كلمح: اللَّمح: النظرة أو النظر، لأنّ النظر أيسر شيء للباصرة، تقوم به بسهولة وسرعة.

التفسير

٧٥. (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ):

عدم التسوية بين مَن يملك ومَن لا يملك

ندّد سبحانه بعمل المشركين الذين يعبدون غير الله سبحانه، بأنّ معبوداتهم لا تملك لهم رزقاً ولا نفعاً ولا ضرّاً، فكيف يعبدونها مع أنّها جمادات لا يُرجى منها خير ولا تنفع في دفع شرّ، وإنّما العبادة للإله الرازق المعطي المجيب للدعوة؟ وهذا المفهوم من قوله سبحانه:(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا).(النحل:٧٣).

ثمّ إنّه سبحانه يصف معبود المشركين والمعبود الحقّ، بالتمثيل التالي:

افرض مملوكاً لا يقدر على شيء ولا يملك شيئاً حتى نفسه، فهو بتمام معنى الكلمة مَظهر الفقر والحاجة، ومالكاً يملك الرزق ويقدر على التصرّف فيه، فيتصرّف في ماله كيف شاء وينعم كيف شاء فهل هذان متساويان؟ كلاّ.

وعلى ضوء ذلك مثل معبودهم المزعوم مثَلُ العبد الرَّقيق المملوك غير المالك لشيء، ومثلُه سبحانه مثل المالك للنعمة الباذل لها المتصرّف فيها كيف شاء.

وذلك لأنّ صفة الوجود الإمكاني ـ أي ما سوى الله ـ نفس الفقر والحاجة، لا يملك شيئاً ولا يستطيع على شيء إلاّ بفضل من الله سبحانه.

وأمّا سبحانه فهو المحمود بكلّ حمد والمنعم لكلّ شيء، فهو المالك للخلق والرِّزق والرَّحمة والمغفرة و الإحسان والإنعام، فله كلّ ثناء جميل، فهو الربّ ودونه هو المربوب، فأيّهما يصلح للخضوع والعبادة؟

إذا عرفت ذلك فلنفسّر الآية:

قوله تعالى:(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً) قد تقدّم أنّ ضرب المثل عبارة عن بيان الحال (عَبْدًا مَمْلُوكًا لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْء) فهو مسلوب القدرة، فلا يملك البيع والشراء والهبة وغير ذلك (وَ مَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا): أي طيّباً (فَهُوَ)يتصرّف في ماله بالانتفاع لنفسه والهبة لغيره، كما يقول:(يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا)والقيدان كناية عن استقلاله في التصرّف، فعندئذ يُسأل عن حالهما ويقال: (هَلْ يَسْتَوُونَ) وصيغة الجمع ـ مع أنّ مقتضى الحال أن يقول: هل يستويان ـ باعتبار أنّ الطرف المقابل للمولى هو العبد وهو كناية عن الأصنام والأوثان المتعدّدة.

ثمّ إنّه سبحانه حصر الحمد لنفسه وقال: (الْحَمْدُ للهِ) وهو صحيح وإن جاز حمد الآخرين بأفعالهم المحمودة، لكن حمد هؤلاء مجازيّ، لأنّ ما بذله المنعم لم يكن مالكاً له وإنّما يملكه سبحانه، فهو الذي أقدَرَ المنعم على الإنعام، فحمد هؤلاء يرجع إلى حمده وثنائه سبحانه، ولذلك صحّ أن يقول: (الْحَمْدُ للهِ): أي الحمد منحصر بالله وليس لغيره سهم فيه (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) أسند نفي العلم إلى أكثرهم لأنّ منهم مَن يعلم الحقّ ويكابر، وقد جاء مضمون الآية في سورة أُخرى، قال تعالى:(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِرَجُل هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ للهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ)(الزمر:٢٩).

٧٦. (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْء وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَ مَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْر هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم):

تمثيل لبيان الفرق بين معبود المشركين ومعبود الموحّدين

هذا تمثيل آخر لبيان الفرق بين الآلهة المدّعاة والله الواحد الأحد، بالبيان التالي: نفترض رجلين أحدهما تجتمع فيه كلّ النقائص ورجل آخر يتمتّع بكلّ الكمالات.

فيصف الأوّل بصفات أربع:

١. (أَبْكَمُ): أي أخرس من أصل الخلقة أي وقت الولادة لا يَفهم ولا يُفهِم.

٢. (لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْء) فهو عاجز لأنّه زَمِن.

٣. (وَ هُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ) لا يدبّر أُموره وإنّما يدبّرها مولاه الذي يلي أمره.

٤. (أَيْنَ مَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْر): أي أينما يرسله مولاه لا يهتدي إلى ما وجّه إليه.

فمَن وجدت فيه هذه الصفات يكون مجمعاً للسّلب المطلق (سلبيّ بكلّ المعنى).

هذا من جانب، ومن جانب آخر ثمّ رجل وصفه سبحانه بوصفين:

١. (يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) وهذا يدلّ على اعتداله في مقام الذات، ثمّ يظهر أثره على أعماله، فيتجنّب الإفراط والتفريط.

٢. (وَ هُوَ عَلَى صِرَاط مُسْتَقِيم): أي السبيل الواضح، فيظهر أثره في الشرائع التي بعث بها أنبياءه، فتكون كذلك بعيدة عن الإفراط والتفريط، وعندئذ يسأل، (هَلْ يَسْتَوِي) هذا وذاك؟ والجواب: لا.

هذا هو تفسير ظاهر الآية، وأمّا ما هو المراد فالظاهر أنّ هذا التمثيل بقرينة التمثيل السابق ناظر إلى بيان الفرق بين الآلهة المزعومة والإله الواقعي الجامع لصفات الجمال والكمال، الحاكم بالعدل، الهادي إلى الصراط المستقيم.

فأين الأصنام الجامدة التي هي أرذل حتى من الأبكم والأصمّ والأعمى، من الله سبحانه الجامع لصفات الجمال والكمال، القادر على كلّ شيء، والعالم به؟

وهناك وجه آخر في تفسير الآية، يمكن تلخيصه فيما يلي:

كان التمثيل السابق يبيّن موقف الآلهة المزعومة بالنسبة إلى العبادة والخضوع وموقفه سبحانه تبارك وتعالى حيالها، ولكن هذا

التمثيل جاء لبيان موقف عبدة الأصنام والمشركين، وموقف المؤمنين والصادقين، فيشبّه الأوّل بالرجل الأبكم العاجز الفاقد للمواهب التي تمكّنه من جلب الخير لوليّه الذي يتولّى أمره، ويشبّه الآخر برجل حرّ عامل بالخير وداع إليه، متمتّع بسيرة صالحة ودين قويم.

فهذا المثل يبين موقف المؤمن الموحّد، وموقف الكافر المشرك، من الهداية الإلهية، وقد أشار سبحانه إلى مغزى هذا التمثيل في آية أُخرى، وقال: (أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لاَ يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)(يونس:٣٥)، ولكنّ التفسير الأوّل أظهر.

٧٧.(وَللهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ):

مسألة البعث كلمح البصر

قد تقدّم أنّ مشكلة المشركين مع النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) كانت في أمرين:

١. مسألة التوحيد، وأنّه سبحانه لا شريك له في الألوهية والربوبية، غير أنّ قريشاً على طرف النقيض من ذلك، فقد جعلوا له شركاء يعبدونهم من دونه، والتمثيلان السابقان كانا بصدد الردّ على تلك المزعمة ببيان الفرق بينه سبحانه وبين الأصنام.

٢. مسألة البعث والنشور، فكانوا يثيرون حول الحياة الأُخروية أسئلة ويصوّرونها شيئاً محالاً. قال تعالى على لسانهم:(وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ)(النحل:٣٨)؛ فجاء البيان القرآني لردّ تلك المزعمة ببيان أنّه سبحانه يملك غيب السماوات والأرض كما يقول:(وَللهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) وبما أنّ الغيب والشهادة أمران إضافيان، فالأمر الواحد غيب وغائب بالنسبة إلى شيء، وشهادة ومشهود بالنسبة لشيء آخر، فغيب السماوات والأرض غيب بالنسبة إلينا، ولكنّه شهود بالنسبة إليه تعالى، وقد جاء في الدعاء المأثور: «كلّ سرّ عنده تعالى علانية، وكلّ غيب عنده شهادة».(بحار الأنوار:٩٢/٤١٨، دعاء الإخلاص.) فتكون النتيجة: إنّ الله يملك السماوات والأرض بأجمعها ملكية نابعة عن خالقيته لهما، ومَن كان يملك ذلك فهو قادر على إحياء الموتى كما يقول:(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ)، فبما أنّ اللّمح، وهو مدّ البصر، أخفُّ الأشياء عند الإنسان وأقصرها زماناً، شبّه سبحانه قيامه بهذا العمل بلمح الإنسان بصره، بل عقّبه بقوله: (أَوْ هُوَ أَقْرَبُ):أي بل أمرها أقرب منه من حيث الخفّة والسهولة. وما ذكر في الآية تعبير ثان عن قوله: (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).(يس:٨٢.)

ثمّ ختم الآية بما يؤكّد مضمونها بقوله:(إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

إنّ تشبيه يوم القيامة بلمح البصر ثم العدول عنه بما هو أقرب، كلّ ذلك تشبيه حسب فهم السامع وإلاّ فنسبة الجميع إلى الله سبحانه على حدّ سواء، فالشدّة والسهولة إنّما هما بالنسبة إلينا، فالله سبحانه إذا أراد، يتحقّق المراد بلا فصل كما قال سبحانه:(إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ).(مريم:٣٥.)

فإن قلت: لازم ذلك ـ أي وقوع الشيء بعد الإرادة بلا فصل ـ حذف الأسباب والشروط والموانع بينه سبحانه وبين الأشياء، مع أنّا نرى أنّ الأُمور الطبيعية تتحقّق ضمن شروط خاصّة.

قلت: إنّ إرادته سبحانه تعلّقت بوقوع الطبيعة غبّ هذه الشروط، فلو تحقّقت مجرّدة عنها، يلزم تخلّف المراد عن الإرادة.

وإن شئت قلت: إنّ هذه الأسباب وعدم الموانع شرط لوقوع الفعل، وليست شرطاً لإرادته سبحانه.

ثمّ إنّ تحقّق الفعل غبّ إرادته أمر لازم لا يتخلّف، وذلك لأنّ قدرته عين ذاته، وذاته واجبة الوجود من جميع الجهات، فلازم القدرة الواجبة وجود الفعل وعدم تخلّفه عن إرادته.

الآيات:٧٨- ٨٣ (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا.... ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ).

الآيات: الثامنة والسبعون إلى الثالثة والثمانين

(وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًاتَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ * وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ * فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ * يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ).

المفردات

الأفئدة: جمع فؤاد نحو: أغربة جمع غراب. ونُقل عن الزجّاج أنّه قال: ولم يجمع فؤاد على جمع الكثرة ولم يُقل فيه: فؤدان كما قيل: غراب، غربان، قال الرازي: لعل وجه فؤاد على جمع القلّة تنبيهاً أنّ ما يدرك بالسمع والبصر أُمور كثيرة وأنّ ما يدرك بالفؤاد قليل ؛ لأنّه إنّما خلق للمعارف الحقيقية والعلوم العقلية، وأكثر الخلق ليسوا كذلك بل يكونون مشغولين بالأفعال البهيمية والصفات السبعية فكأنّ فؤادهم ليس بفؤاد.(تفسير الرازي:٢٠/٩٠).

وما ذكره مورد تأمل لأنّ معناه أنّ الواضع كان فيلسوفاً، واقفاً على ذلك التفصيل، ولذا لم يجمعه جمع كثرة.

مسخَّرات: التسخير: التذليل للعمل، والمراد مسخّرات بأمره سبحانه.

يُمسكهنّ: أي من السقوط إلى الأرض.

سَكَناً: موضعاً تسكنون فيه.

تستخفّونها: يخفّ عليكم حملها.

ظعنكم: الظَّعْن: الارتحال من مكان إلى مكان.

إقامتكم: الموضع الذي تقيمون فيه.

أصوافها: الصوف للغنم.

أوبارها: الأوبار للإبل.

أشعارها: الشعر للمعز.

أثاثاً: الأثاث: اسم جمع للأشياء التي تفرش في البيوت من وسائد وبُسُط وكلّ ما يُنسج أو يُحشّى بالأصواف والأوبار والأشعار.

متاعاً: ما يتمتّع وينتفع به وهو أعمّ من أثاث البيت كالأواني والرحائل.

أكناناً: الأكنان جمع كِنّ، وهو ما يُحفَظ فيه الشيء، والمراد بها هنا الغيران والكهوف.

سرابيل: جمع سربال، وهو القميص أو كلّ ما يُلبَس. والسرابيل التي تقي البأس هي دروع الحديد.

بأسكم: البأس: الشدّة في الحرب.

التفسير

هذه المجموعة من الآيات سيقت لبيان نعم أُخرى على الإنسان، يُستدلّ بها على أنّ التدبير والتصرّف فيها له سبحانه ومن ثمّ وجوب الشكر والعبادة له وحده، فالجميع سيق لبيان النعم إلاّ قوله سبحانه:(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ)(النحل:٧٩). نعم يجمع الكلّ ما ذكرنا، وهو الاستدلال على توحيده في التدبير.

٧٨. (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ):

الإنسان يخرج من بطن أُمّه مجرّداً عن كلّ علم

تحدّثت الآية عن أنّ الإنسان يخرج من بطن أُمّه مجرّداً عن كلّ علم كما يقول:(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ): أي أولدكم (مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) في حال أنّكم (لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا) الجملة حال من الضمير في(أُمَّهَاتِكُمْ)وهذه الحالة أمر ملموس، فإنّ الوليد لا يعرف شيئاً إلاّ الأعمال الغريزية كمصّ الثدي، والبكاء عند الألم.

ثمّ إنّ الإنسان بعدما يبلغ مبلغاً يستعين لمعرفة الكون بثلاث أدوات، ولكلّ منها مجال وعمل خاص، وهي:

١. السّمع، ويستعين به على سماع الأصوات.

٢. البصر، ويستعين به على رؤية المبصرات.

وقد اقتصر سبحانه على ذكرهما مع أنّ الحواسّ الظاهرية خمسة، وهي بالإضافة للسمع والبصر: الذوق، والشّمّ، واللّمس، لأنّهما يُعَدّان من أقوى الوسائل لإدراك العلوم الضرورية.

٣. العقل، وهو الذي يكتشف الحقيقة في مجالات خاصّة، بالاستناد إلى أُصول مبادئ خاصّة، كما قال سبحانه:(وَ جَعَلَ): أي خلق (لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ) والمراد بالأفئدة العقول، التي تُعين على التفكير، وتكتسب النظريات عن طريق البديهيات.

ولقد أجاد أبو الطيّب المتنبّي في قوله:

لـولا العقول لكان أدنى ضيغـم *** أدنى إلى شرف من الإنسانِ

ولَمَا تفاضلَت النّفوسُ ودبّرتْ *** أيدي الكُماة عَواليَ المُرّانِ[١]

١ . ديوان المتنبّي:٣٢٦. أدنى ضَيغم: أخسّ أسد. والكماة: جمع كميّ، وهو البطل عليه السلاح. العَوالي: جمع العالية، وهي صدر الرُّمح. والمُرّان: الرّماح اللّيّنة.

ثمّ إنّ الغاية من خلق السمع والبصر والفؤاد ما يدلّ عليه قوله:(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) والرجاء المستفاد من لفظ «لعلّ» كناية عن الأمر، وهو دالّ على كونه مرغوباً عند الله سبحانه. ثمّ إنّ من مظاهر الشكر هو استعمال كلّ عضو في محلّه.

ثمّ إنّ لكشف الحقائق طريقاً آخر، وهو الوحي النازل على الأنبياء والرُّسل، يقول سبحانه:(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ).(النحل:٤٣.)

نعم مجال الوحي أوسع نطاقاً وأكثر شمولية لأنّه يتّصل بما وراء الطبيعة التي لا مجال للعقل والحسّ إليها.

بقي هنا شيء، وهو أنّ ظاهر الآية أنّ الإنسان يخرج من بطن أُمّه مجرَّداً عن كلّ علم مع أنّا نرى أنّ للإنسان علوماً ضرورية بالذات لم يكتسبها عن طريق الأدوات الحسّيّة والعقلية، نظير:

١. امتناع اجتماع النقيضين وارتفاعهما.

٢. العلم بذاته.

٣. كون الممكن في ذاته بحاجة إلى علّة، وما أشبه ذلك، فإنّ هذه العلوم غير مستحصلة عن طريق الحواسّ إذ ليس لها مصاديق في الخارج، ولم يستحصلها عن طريق العقل لاستغنائها عن البرهان والتفكّر في نسبة المحمول إلى الموضوع.

قال الفيلسوف صدر المتألهين: وأحقّ الأقاويل ما كان صدقه دائماً، وأحقّ من ذلك ما كان صدقه أوّليّاً، وأوّل الأقاويل الحقّة الأوّلية التي إنكاره مبنى كلّ سفسطة، هو القول بأنّه لا واسطة بين الإيجاب والسّلب.(الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة:٨٩/١ـ٩٠.)

فعلى ما ذكر، فالنفس تستحصل هذا النوع من العلوم بلا حاجة إلى أدوات الحسّ ولا إعمال الفكر لاقتناص النتيجة من مقدّماتها

البديهية.

عدم المنافاة بين مفاد الآية والإدراكات الفطرية

والجواب: إنّ الآية الكريمة ترمي إلى نفي كلّ معرفة فعلية للإنسان حين ولادته ومجيئه إلى الدنيا، وهذا لا ينافي وجود معلومات فطرية مختمرة في النفس الإنسانية، لكن تظهر وتتفتح شيئاً فشيئاً مع مرور الزمان، واحتكاك الإنسان بالوقائع الخارجية، فإنّ مثل هذه ليست علوماً فعلية وإدراكات حاضرة حتى تكون منفيّة بقوله تعالى:(لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا)، فسلسلة المعلومات والإدراكات الفطرية المودعة في النفس، حاصلة فيها بالقوّة منذ ولادة الإنسان، ثم تخرج إلى الفعلية، وتتكامل بتكامل وجوده، وتتفتّح تدريجياً باتّصاله بالخارج عبر أدوات المعرفة.

وبعبارة أُخرى: الآية ناظرة إلى العلوم الحصولية التي تنقسم إلى البديهية والنظرية، لا إلى العلوم الحضورية بذاتها مثل علم النفس، ولا إلى العلوم الفطرية التي ليست لها إلاّ قوّة العلم، وإنّما تتفتّح إذا خرج الإنسان إلى هذا العالم وأعمل حواسّه، ولامسَ الحقيقة الخارجية، فعند ذاك ينقلب ما هو علم بالقوّة إلى علم بالفعل.

وصفوة القول: إنّ هناك في النفس البشرية سلسلة من المعلومات على صورة خمائر تتجلّى وتظهر وتتفتّح شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن ومع احتكاك الإنسان بالوقائع الخارجية، ولا يُسمّى هذا علماً فعلياً وإدراكاً حاضراً، والآية ناظرة إلى ذلك المعنى، أعني أنّ الإنسان منذ يخرج من بطن أُمّه ليس فيه علم فعليّ، ولا ينافي وجود ما يشبه خمائر العلوم التي تحتاج إلى أرضية للتفتّح والظهور. (

راجع: مفاهيم القرآن:١/٧٢ـ٧٣.)

٧٩.(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَات فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَات لِقَوْم يُؤْمِنُونَ):

إمساك الطير في الجوّ من مظاهر التدبير

بدأ سبحانه الآية السابقة باسم الجلالة وقال:(وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) كما بدأ الآية اللاحقة بنفس الاسم وقال:(وَ اللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ)، وأمّا هذه الآية فقد عدل إلى أُسلوب آخر وهو البدء بالاستفهام فقال:(أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَات) وما هذا إلاّ لأنّ موقف هذه الآية غير موقف الآيتين: السابقة واللاّحقة، لأنّه سبحانه هنا بصدد الاستدلال على قدرته وبديع صنعه من دون إشارة إلى النّعم التي أنعم بها على عباده، بخلاف الآيتين فإنّ الموقف فيهما بيان نعمه، حيث أشار في الأُولى إلى أنّ النفس الإنسانية كانت يوم ولادتها كصحيفة بيضاء لم ينتقش فيها شيء، ولكنّه سبحانه جهّزها بأدوات يتوصّل بها الإنسان إلى إدراك المعلومات الحسّية والعقلية، كما أنّه سبحانه في الآية اللاحقة بصدد بيان نعمة التفكير التي أنعم الله بها على الإنسان ليستخدم الطبيعة وخيراتها في طريق تأمين مصلحته من بناء البيوت من طين وحجر أو من منتجات الحيوانات التي حوله.

وعلى كلّ تقدير، فالآية تشير إلى أنّ الطيور في السماء (مُسَخَّرَات): أي مذلّلات للطيران في الهواء بأجنحتها، فتطير من غير أن تعتمد على شيء (مَا يُمْسِكُهُنَّ) من السقوط على الأرض من السماء (إِلاَّ اللهُ)، وعلى هذا فالتدبّر في طيران الطير في جو السماء يثبت أنّ لها مسخِّراً ومدبِّراً، وأنّ للمدبّر قدرة فائقة.

ثمّ إنّ نسبة الإمساك إلى الله لا تنافي أنّه سبحانه خلق أجسامها بشكل يمكّنها من السباحة في الهواء كما يسبح السمك في الماء، حيث جعل لها أجنحة قابلة للبسط عند الطيران والقبض عند النزول إلى الأرض، وجعل هيكلها العظمي وريشها وأعضاءها الداخليّة كلّها خفيفة، ومع ذلك فحركة جسم صغير على خلاف قانون الجاذبية من دون أية صعوبة، وارتفاعها بسرعة حيث تغيب عن أعيننا بعد لحظات، يدلّ على أنّ هنا خالقاً مدبّراً خلق الطير على وزن خاص وزوّده بأفضل الأجهزة والقدرات للتحليق والهبوط، كلّ ذلك بصنع من الله سبحانه، فصحّ قوله سبحانه:(مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ). ثمّ ختم الآية بقوله:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لاَيَات لِقَوْم

(يُؤْمِنُونَ) وقد خصّ فيها الاعتبار بقوم يؤمنون، لأنّ غيرهم لا يتدبّرون في ذلك حتى ينتفعوا.

ولكي نتعرّف أكثر على عظمة القدرة الإلهية، نذكر بعض الحقائق المهمّة في هذا المجال، أعني: تذليلها للطيران:

١. تطير بعض أنواع الطيور، وتشمل العديد من طيور السواحل والإوزّ، على علوّ يزيد على (٦٠٠٠)م.

٢. تمّ قياس سرعة صقر البحر عند التحليق، فبلغت (١٢٩) كم/الساعة.

٣. تم قياس سرعة الصقر الشاهين عند الانقضاض على طريدته، فبلغت (٢٩٠)كم / الساعة.

٤. يقطع الخطّاف القطبيّ، عندما يهاجر من موطنه الشتوي في القطب الجنوبي إلى مناطق تكاثره في القطب الشمالي، يقطع مسافة تقدّر بنحو (١٨٠٠٠)كم ذهاباً وإياباً.(انظر: الموسوعة العربية العالمية:١٥/٣٥٥.)

هذا كلّه في صنع الله سبحانه، وهكذا الحال فيما يصنعه البشر من الطائرات التي تحلّق في السماء على ارتفاع كبير، فيصحّ فيها قوله تعالى: (مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ)، وذلك لأنّ هذه الصنائع نتيجة العقل والفكر الذي وهبه الله تعالى للإنسان الذي صنع هذه المخترعات الحديثة.

ثمّ إنّ التأكيد على أنّ الإمساك إنّما هو بيد الله تعالى مع أنّه سبحانه يمسكها عن طريق العلل الطبيعية لأجل التأكيد على أنّ كلّ ما في الكون من العلل قائم بالله، وهو جند من جنوده تعالى، والغاية هي إلفات نظر المشركين إلى التوحيد في التدبير، وحاشى أن يكون القرآن نافياً لوجود النظام الذي يؤثّر في الإمساك والطيران والهبوط.

٨٠. (وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ):

بدأ سبحانه هذه الآية بالإشارة إلى بيان قسم من النّعم التي يستفيد منها الإنسان، وتتلخّص في الأُمور التالية:

١. البيوت الثابتة، وإليها يشير سبحانه بقوله:(وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا): أي مقرّاً تسكنون فيه وهي الّتي يبنيها الإنسان من الحجر والطين وغيرهما من المواد الطبيعية.

٢. البيوت المتنقّلة التي تصنع من جلود الأنعام ويستفاد منها في السفر والحضر كما يقول:(وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا): أي فساطيط (تَسْتَخِفُّونَهَا) تجدونها خفيفة للحمل (يَوْمَ ظَعْنِكُمْ): أي وقت ارتحالكم وسفركم (وَ يَوْمَ إِقَامَتِكُمْ): أي وقت نزولكم موضعاً تقيمون فيه. وعلى كلّ حال فهذا النوع من البيوت لا يثقل حمله في الحالتين: السفر والإقامة.

وعلى هذا، فالبيوت في صدر الآية يُراد بها ما يُبنى في المدن ويسكن فيها أهلها، فهم ليس لهم ظعن ولا ترحال.

وأمّا البيوت المصنوعة من الجلود، فهي البيوت التي يستخدمها الرُّحّل الذين يتنقّلون أغلب حياتهم في البوادي، يقتفون أثر الماء والكلأ.

٣. استخدام الصوف والوبر والشعر لصنع الأثاث إمّا بالنسج وإمّا بالحشو، لصنع الوسائد والأغطية وفُرش النوم.

٤. بما أنّ الإنسان يستفيد في حياته من هذه الأشياء بغير ما ذُكر بصور مختلفة، أشار سبحانه إلى تلك النّعم بقوله:(وَمَتَاعًا): أي يتمتّعون متاعاً (إِلَى حِينٍ): أي ما دامت النّعم باقية، أو ما داموا هم على قيد الحياة.

وعلى كلّ تقدير، فالله سبحانه أنعم على الإنسان بالعقل والفكر، وإنّه في ظلّ هذه النعمة يستطيع تسخير المواد الأرضية أو الحيوانية لعيشه ورفاهيته.

٨١ . (وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ):

النّعم الأربع

اشتملت هذه الآية على ذكر نِعَم أربع:

١. الظِّلال، وأشار إليها بقوله: (وَ اللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً) فلو أُريد بـ (مِمَّا خَلَقَ) ما خلق طبيعياً فهو يختصّ بالأشجار، والجبال، وإلاّ فيعمّ الأبنية. ونسبة جعل الظّلال إلى الله سبحانه لأنّه خلق طبائع الأشياء بشكل معيّن وعلى نظام خاصّ، بحيث تكون لها ظلال.

٢. مواضع السكن في الجبال، وأشار إليها بقوله:(وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا): أي مواضع تسكنون فيها من كهوف ومغارات تأوون إليها.

وإنّما يقدّر هذه النعمة من يعيشون في المناطق الجبلية، إذ يأوون إليها عند الشدائد كالمطر والبرد والرّيح القويّة.

٣. السرابيل، التي تُنسج من القطن والكتّان والصوف ويتّقي بها الناس لفحَ الحرّ، وقد أشار سبحانه إليها بقوله:(وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ)وإنّما خصّ الحرّ بذلك لأنّ المخاطبين كانت حاجتهم إلى ما يقيهم من الحرّ أكثر من حاجتهم إلى ما يقيهم من البرد. ويُحتمل أنّه لم يقل: «والبرد» للاستغناء عنه بما ذُكر.

٤. الدروع، التي تقي الإنسان عند احتدام القتال، وأشار إليها بقوله:(وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ): أي تحميكم من شدّة الطّعن والضرب في الحرب.

ولا شكّ في أنّ للإنسان دخلاً في هذه الصناعات ولكن لمّا كانت موادّها مخلوقة من قبل الله تعالى، والإنسان إنّما يصل إلى هذه الصناعات بفكره الذي أعطاه له سبحانه، تصحّ نسبة هذه الأُمور إلى الله سبحانه، ولأجل ذلك ختم الآية بقوله: (كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)فالغاية من إتمام النّعم عليهم، هي أن ينقادوا لواهبها، ويمتثلوا أمره ونهيه.

٨٢ . (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ):

لمّا بيّن سبحانه في الآية السابقة أنّ الغاية من إتمام النّعم على الناس هي الانقياد له وامتثال أمره فيما يدعو إليه من الإيمان بوحدانيّته، وبرسوله ورسالاته، فرّع على ذلك بأنّهم لو أعرضوا عمّا يدعوهم إليه النبيّ من الإيمان بالله وحده وأن لا يشركوا به شيئاً، وأصرّوا على ما هم عليه من ضلال عناداً واستكباراً، فلا حرج عليه(صلى الله عليه وآله وسلم)، فإنّ وظيفته التبليغ الواضح، وقد قام به على خير الوجوه، كما قال: (فَإِنْ تَوَلَّوْا)هؤلاء المشركون عن التوحيد (فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ) وليس عليك إجبارهم أو إكراههم، فإنّ الإيمان الحقّ ما كان عن تعقّل واختيار لا عن إلجاء واضطرار، فالآية نوع تسلية للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وأن لا يتحرّج من إعراضهم.

٨٣ . (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ):

وصف المشركين بوصفين

يصف سبحانه، في هذه الآية، كلّ المشركين بوصفين:

١. عرفان نعمة الله تعالى.

٢. إنكارها.

ثم يصف قسماً كثيراً منهم بأنّهم (هُمُ الْكَافِرُونَ).

وعندئذ يثار هذا السؤال: كيف يصف الأكثرية بالكفر مع أنّ جميعهم كافرون؟

والذي يمكن أن يقال: إنّ المراد بعرفان النعمة هو التمتّع بها، ومن إنكارها إسنادها إلى غير الله تعالى، لِما قلنا من أنّ المشركين

كانوا مشركين في التدبير؛ فيتصوّرون أنّ هذه النّعم من آلهتهم المزعومة.

ثمّ إنّ هؤلاء المنكرين على قسمين:

١. بسطاء العقول، بُعداء عن النظر، فهؤلاء يعتقدون جدّاً بأنّ هذه النّعم من غير الله تعالى، وكان هذا بطن عقيدتهم.

٢. عقلاؤهم وأهل النظر منهم، فهؤلاء يعلمون أنّ هذه النّعم من الله سبحانه لكنّهم يجحدون بها عناداً بإسنادها إلى غيره جلّ شأنه. وعلى هذا فالجميع يشاركون في الإنكار أي الإسناد إلى غير الله من غير فرق بين السُّذّج وأهل النظر، غير أنّ كثيراً من أهل النظر منهم يكفرون بنعم الله تعالى عناداً وتمرّداً وينسبونها إلى غير الله، حفظاً لامتيازاتهم الزائفة من مال وجاه وسلطان، إذ لو ساد التوحيد لَفقدوا تلك الامتيازات والمكاسب الشخصية.

وحصيلة الكلام: إنّ إنكار النّعم يتساوى فيه جميع المشركين، بمعنى إسناد النّعم إلى غير الله وأنّها حصلت لهم بشفاعة هذه الأصنام، غير أنّ عقلاءهم اختصّوا بوصف ثالث وهو جحدهم وعنادهم لما يجدونه في أنفسهم من الدلائل الواضحة على أنّ النّعم منه سبحانه، فأريد من الكفر هو الجحد والعناد.

الآيات:٨٤- ٨٩ (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّة شَهِيدًا... تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْء وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ).

الآيات: الرابعة والثمانون إلى التاسعة والثمانين

(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّة شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * وَإِذَا رَأى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ * وَإِذَا رَأى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاَءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ * وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّة شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاَءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْء وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ).

المفردات

شهيداً: شاهداً، يشهد على الأعمال.

يُستعتبون: من الاستعتاب بمعنى طلب العُتبى، وهي الرضا بعد الغضب، قال تعالى: (وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ)(فصّلت:٢٤).

يُنظَرون: يُمهَلون ويؤخّرون.

السَّلَم: الاستسلام والانقياد.

ضلّ: ضاع وبطل.

تبياناً: بياناً لأُمور الدّين.

التفسير

صلة هذه المجموعة بما قبلها تتضح بالبيان التالي:

تبيين مصير المشركين بوجوه عشرة

قوله: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ) عطف على قوله: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ)، فبما أنّ ظاهر الفقرة الأخيرة أنّ أمر الكافرين يتمّ عندئذ دون أن يكون لهم جزاء وعقاب، جاءت الآيات في هذه المجموعة تذكر مصيرهم السيِّئ في ضمن فقرات وتشير إلى أنّهم سيواجهون الأُمور التالية:

١. إحضار شهيد يشهد على حقائق أعمالهم يوم القيامة.

٢. لا يؤذن لهؤلاء بالكلام يوم ذاك.

٣. لا تقبل منهم العُتبى أي طلب الرضا.

٤. لا يُخفّف عنهم العذاب.

٥. لا يُمهلون.

٦. محاولة إلقاء مسؤولية شركهم على الآلهة.

٧. دفاع الآلهة عن أنفسهم بتكذيب المشركين.

٨. الاستسلام إلى الله يوم القيامة بعد كشف الحقائق.

٩. بطلان أُمنياتهم الكاذبة من أنّ آلهتهم تشفع لهم.

١٠. مضاعفة العذاب لمن يصدّون الناس عن اتّباع الإسلام.

هذه هي الأُمور التي يواجه بها المشركون الجاحدون لنعم الله تعالى.

فنبدأ بتفسير آيات المجموعة.

٨٤ . (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ):

أُمور ثلاثة يواجَه بها الكافرون

قوله:(وَيَوْمَ نَبْعَثُ) معطوف على قوله:(فَإِنْ تَوَلَّوْا) حيث أخذ سبحانه يبيّن مصير هؤلاء ويقول: (نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) وهذا الشهيد إمّا أن يشهد على إيمان بعض النّاس أو على كفره وعصيانه.

ثمّ إنّ من يشهد عليه الشهداء بالكفر والتمرّد يحاول أن يدافع عن نفسه، فلا يُسمح له بذلك كما في قوله: (ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) بالدفاع عن أنفسهم لأنّ شهادة الشهيد أوضحت الحال وكشفت الحقائق فلم يبق هناك أيُّ إبهام في إثبات إجرام المجرم، وربّما يطلب المشهود عليهم تحصيل الرضا من الله فلا يُمكّنون منه، كما يقول سبحانه: (وَ لاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ): أي لا يسمح لهم بتحصيل الرضا، لأنّ الموقف هناك موقف محاسبة وجزاء ولا مجال فيه للإرضاء، فيكونون عند ذاك مطرودين لا يُسمع منهم كلام ولا استعتاب.

ثمّ إنّ المراد من الشهيد، هو المطّلع على حقائق أعمال الأُمّة، وهو إمّا أن يكون نبيّاً كما في قوله سبحانه:(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا)(النساء:٤١.)، أو غير نبيّ قد بلغ في الإيمان درجة كاملة حتى وقف على حقائق أعمال الغير كما يقول سبحانه:(وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ)(الزمر:٦٩.).

إنّ الشهيد والشهداء في القرآن الكريم هم شهداء الأعمال وليس من قُتل في المعركة، وإن كان للكلّ مقام سام عند الله تبارك وتعالى.

ومن المعلوم أن تحمّل الشهادة وأداءها فرع الحياة والعلم والإحصاء والتسجيل حتى تكتمل شروط الشهادة.

كلام حول الشهادة

إنّ قوله سبحانه:(وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) يدلّ على أنّ في كلّ جمع وقرن في الدنيا يوجد فيهم واحد شهيد عليهم. أمّا الشهيد على الذين كانوا في عصر الرسول فالشاهد عليهم هو الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه، بشهادة قوله:(وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)(البقرة:١٤٣.) وأمّا بعد الرسول فلابدّ في كلّ زمان بعد زمان الرسول من وجود الشهيد.

فتحصّل من هذا أنّ ما من عصر من العصور يخلو من شهيد على الناس، وذلك الشهيد لابدّ أن يكون غير جائز الخطأ وإلاّ لافتقر إلى شهيد آخر ويمتدّ ذلك إلى غير النهاية، وذلك باطل.

هذا ما ذكره الرازي(تفسير الرازي:٢٠/٩٨ـ ٩٩.)، ونعمَ ما ذكر، إنّما الكلام في التعرّف على ذلك الشهيد.

أقول: إنّ أدوات الشهادة في الدنيا هي الحواسّ الخمس، غير أنّ هذه الحواسّ لا تنفع في المقام لأنّ الشهداء إنّما يشهدون على واقع الأعمال، مثلاً هل عمله هو زواج أو سِفاح؟ بيع أو ربا؟ كذب أو صدق؟ حتّى يشهدون على المعاني النفسية من الكفر والإيمان، وهذه الأُمور ممّا لا يدركه الإنسان بالحواسّ الظاهرية وبواطنها، فليس هو إلاّ رجل في كلّ عصر يتولّى الله أمره ويرزقه قدرة علمية فائقة يصل بواسطتها إلى ما يشهد به.

وبذلك يُعلم أنّ ما ذكره الرازي بعد كلامه السابق من أنّ هذا الشهيد عبارة عن الإجماع حيث قال: (فثبت أنّه لابدّ في كلّ عصر من أقوام تقوم الحجّة بقولهم، وذلك يقتضي أن يكون إجماع الأُمّة حجة)(تفسير الرازي:٢٠/٩٩.) لا صلة له بكلامه السابق، إذ ليس الكلام في وجود الحجّة وعدمها إنّما الكلام في الشهادة على الناس ولا يقوم به الإجماع؛ وإنّما يقوم به إنسان واقف بفضل الله على ما صدر من الناس من إيمان أو كفر، وطاعة أو عصيان، فكان على الرازي أن يستظهر من الآية وجود إمام معصوم في كلّ زمان يكون حجّة أوّلاً، وشهيداً وشاهداً على الأعمال ثانياً. والآية تؤيّد ذلك، أعني وجود شاهد، حجّة، في كلّ عصر وزمان يتحمّل شهادة أعمال الأُمّة، وهذا ما عليه الإمامية من عدم خلوّ الأرض من حجّة.

٨٥ . (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ):

أُريد بالذين ظلموا هنا المشركون، وكثيراً ما يطلق الظلم ويراد به الشرك. وهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ـ بعد ما حكم عليهم بالعذاب ـ يساقون إلى مقرّهم البئيس (جهنم) فإذا رأوا العذاب، فربما يتصوّرون أنّ الجزاء يوم القيامة كالجزاء في الدنيا يمكن أن يتغيّر باعتذار المجرم واستعتابه، فالله سبحانه يردّ هذا التصوّر بالفرق بين العذابين ويقول: (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا): أي أشرفوا على (الْعَذَابَ)وطلبوا التخفيف (فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ) العذاب إذا وقعوا فيه، لأنّه موافق لظلمهم (وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ): أي يُمهلون، إذ لا سبيل لتأخير العذاب وتأجيله.

٨٦ . (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاَءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ):

إلقاء المسؤولية على الآلهة وتبرؤهم منها

قد يخطر ببال المشركين لو أنّهم ألقوا مسؤولية شركهم على عاتق آلهتهم ربما ينفعهم وتكتب لهم النجاة من العذاب، ولذلك يبدأون بالاعتذار عن هذا الطريق، قال سبحانه:(وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ)أضاف الشركاء إلى المشركين لا إلى الله سبحانه تحقيراً لهم، إذ ليس لهم من الشركة إلاّ الاسم، كما قال سبحانه: (مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَان)(يوسف:٤٠.).

فإذا أبصروا الشركاء: (قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاَءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا) نعبد (مِنْ دُونِكَ) يقولون ذلك طمعاً في توزيع العذاب بينهم وبين شركائهم أو إحالة الذنب عليهم، ولكن الآلهة المدّعاة تتبرّأ منهم كما يحكي ذلك عنهم سبحانه بقوله: (فَأَلْقَوْا): أي الآلهة (إِلَيْهِمُ): أي إلى المشركين (الْقَوْلَ): أي الجواب (إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ): أي كذبتم ولم تكن عبادتكم لنا بأمرنا.

ثمّ إنّ التعبير عن الآلهة بالضمير الراجع إلى العاقل أعني الواو في (فَأَلْقَوْا) من باب المشاكلة.

وليعلم أنّ صريح كلامهم هو الإعلام بأنّ هؤلاء شركاؤنا، وأمّا القاء المسؤولية عن عاتقهم فإنّما يفهم بالقرينة الحالية.

٨٧ . (وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ):

الضمير في (وَأَلْقَوْا) يرجع إلى المشركين على خلاف السابق، فإنّ الضمير فيه يرجع إلى الآلهة كما مرّ: أي استسلم المشركون إلى أمر الله وانقادوا إلى حكمه يومئذ. ويشهد لهذا المعنى ذيل الآية: (وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ): أي ضاع عنهم وغاب ما كانوا يفترون في الدنيا من أنّهم يسمعون ويشفعون.

ثمّ إنّ استسلام المشركين أمام المحكمة الإلهية ومصائرهم السيّئة، لأجل مكان عنادهم الذي كانوا عليه في الدنيا، حيث إنّهم كانوا يعاندون ولا يستسلمون كما قال سبحانه:(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ)(النمل:١٤.) أي إذا عاينوا العذاب بأُمّ أعينهم استسلم كل جزء من أجزاء أبدانهم لحكم الله تعالى، ولذلك يقول:(وَ أَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذ السَّلَمَ).

٨٨ .(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ):

مضاعفة العذاب للصادّين عن سبيل الله

الآية تتعرّض لحال قسم من الكافرين الذين كانوا يصدّون الناس عن سبيل الله ويمنعونهم من الإيمان بالله، وهم قادة الكفر وأئمته، والله سبحانه يخبر بأنّ عذاب هؤلاء فوق عذاب الآخرين من الضالّين، فلهم عذابان:

١. عذاب الكفر بالله سبحانه.

٢. عذاب صدّ الناس عن الإيمان.

قال تعالى: (الَّذِينَ كَفَرُوا)؛ (وَ)الحال أنهم (صَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ)فجُوزوا بقوله: (زِدْنَاهُمْ عَذَابًا)وصدّهم الناس عن الإيمان بالله وحده ورسالة نبيه فيعذّبون (فَوْقَ الْعَذَابِ)المقرّر للكفر، وسبب هذه الزيادة (بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ): أي بسبب إفسادهم وإغراء الناس بالكفر ورغبتهم عن الإسلام.

وإليك نموذجيين من رؤساء القبائل الذين صدّهم كبار المشركين عن الإسلام:

١. الأعشى

ذكر ابن هشام وغيره أنّ الأعشى الذي كان من شعراء الجاهلية وكانت قصائده تتناقلها مجالس السَّمر القرشية، بلغه نبأ ما جاء به الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) من التوحيد، فوجد في نفسه هياجاً خاصّاً وحرّك مشاعره فأنشد قصيدة مطولة يمدّح فيها رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وتتضمن بعض تعاليم الإسلام، ثم خرج إلى مكّة ليهديها إليه، وهو في نفس الوقت يريد الإسلام.

ورغم أنّ تلكم القصيدة لا تتجاوز أبياتُها ٢٤ بيتاً، ولكنّها تُعدّ من أفضل وأفصح ما قيل من الشعر في الإسلام وفي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في العهد النبوي، ويوجد نصّها الكامل في ديوانه، وممّا جاء فيها وهو يذكر بعض تعاليم الإسلام:

نَبيّاً يرى ما لا يَرون وذكرُه *** أغار لعَمري في البلاد وأنجدا

فإيّاك والميتات لا تقربنّها *** ولا تأخذَنْ سَهماً حديداً لتفصدا

وذا النُّصُب المنصوب لا تُنسكنّه *** ولا تعبد الأوثان واللهَ فاعبُدا

ولا تقربنَّ حُرَّة كان سرُّها *** عليك حراماً فانكحن أو تأبّدا

وذا الرَّحِم القربي فلا تقطعنَّه *** لعاقبة، ولا الأسير المقيَّدا

وسبِّح على حين العشيات والضُّحى *** ولا تحمَد الشيطان واللهَ فاحمدا

فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه جواسيس قريش ورجالها فسألوه عن أمره وقصده، فأخبرهم بانّه جاء يريد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ليسلم، وحيث إنّهم كانوا يعرفون بأنّ «الأعشى» رجل يحبّ النساء والخمر حبّاً كبيراً لذلك عمدوا إلى الضرب على هذا الوتر لينفّروه من الإسلام، فقالوا له: يا أبا بصير (وهي كنية الأعشى) إنّه يحرِّم الزنا.

فقال الأعشى: والله ذلك لأمرٌ مالي فيه من أَرَب.

فقالوا له: يا أبا بصير فإنّه يحرّم الخمرَ.

فقال الأعشى ـ وقد صُدِمَ بهذا الخبر ـ أمّا هذه فوالله في النفس منها لعلالات، ولكني منصرفٌ فأتروّى منها عامي هذا، ثم آتيه فأُسلم!! فانصرفَ فمات في عامه ذلك، ولم يَعُدْ إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).(السيرة النبوية لابن هشام: ١ / ٣٨٦ ـ ٣٨٨.)

٢. الطُفيل بن عَمرو الدَّوسيّ

وهو الشاعر العربي الحكيم العذب اللسان، صاحب النفوذ والكلمة المسموعة في قبيلته.

يُروى أنّه قدم «مكة» ورسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بها، وكانت قريش تخشى أن يتصل بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) فيُسلم.

ومن البديهي أنّ إسلام رجل مثله كان ممّا يشقّ على قريش جدّاً، ولهذامشى إليه رجالٌ منهم وقالوا له ـ محذّرين إيّاه من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ـ : يا طُفيل، إنّك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرّق جماعتنا، وشتّت أمرنا، وإنّما قوله كالسحر يفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنَّه، ولا تسمعنّ منه شيئاً، ففعلت تحذيرات قريش فعلتَها في نفس الطفيل وهم يكرّرونها عليه بقوّة وإصرار، حتى أنّه قرّر أن لا يسمع من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) شيئاً، ولا يكلّمه، وحشّى أُذنه ـ حين غدا إلى المسجد للطواف ـ قُطناً، خوفاً من أن يبلغه شيء من قول رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وهو لا يريد أن يسمعه!!!

يقول الطفيل: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قائم يصلّي عند الكعبة، فقمتُ منه قريباً فسمعتُ كلاماً حسناً من غير اختيار منّي، فقلت في نفسي: واثكلَ أُمّي، والله إنّي لرجل لبيبٌ شاعرٌ ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلتُه، وإن كان قبيحاً تركتُه؟

فمكثتُ حتى انصرف رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى بيته فاتّبعته حتى إذا دخل بيته دخلتُ عليه، فقلت: يا محمّد إنّ قومك قد قالوا لي كذا وكذا للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوّفونني أمرك حتى سددت أُذني بكُرسُف لئلاّ أسمع قولك ثم أبى الله إلاّ أن يُسمعني قولك فسمعتهُ قولاً حسناً، فأعرِضْ عليّ أمرك، فعرض عليّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قطّ أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحقّ.

ثم قلت: يا نبيّ الله إنّي امرؤ مطاعٌ في قومي وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام.

قال ابن هشام: إنّ الطفيل لم يزل بأرض «دوس» يدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)إلى المدينة، ومضى «بدر» و «أُحد» و «الخندق» فقدم على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بمن أسلم معه من قومه وهم سبعون أو ثمانون بيتاً ورسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بخيبر، فلحقوا جميعاً برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)بخيبر، وبقي مع النبيّ حتى قُبِض(صلى الله عليه وآله وسلم) ثم سار مع المسلمين ـ في عهد أبي بكر ـ إلى «اليمامة» وشارك في معركتها وقُتل فيها.(السيرة النبوية:١/٣٨٢ـ ٣٨٥.)

وبالتدبّر فيما ذكرنا يُعلم لماذا يزيد سبحانه على الصادّين عن سبيل الله عذاباً فوق عذابهم، فالصدّ عن إسلام مثل هؤلاء الرُّؤساء، هو صدٌّ عن إسلام جمع من الناس، فإنّ الأمر في الحياة العشائرية بيد رئيس العشيرة، فإذا أسلم أسلم كلّ أبناء عشيرته، فإذا صدّوا رئيس القبيلة عن اعتناق الإسلام، فقد صدّوا عنه أعداداً كبيرة من أبناء عشيرته.

٨٩ . (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّة شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاَءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْء وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ):

كان سبحانه قد أشار في صدر الآية(٨٤) إلى بعث شهيد من كلّ أُمّة، وإنّما كرّر ذلك هنا ليبني عليه ما يلي:

١. أنّ شهيد كلّ أُمّة من أنفسهم، كما قال:(شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ).

٢. كون النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) شاهداً على أُمّته، كما يقول:(وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلاَءِ) وأُريد بهم المسلمون والمشركون الذين عاصروا النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم).

ثمّ إنّ الشهادة على المؤمن والكافر فرع الاحتجاج وإتمام الحجّة، والنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يستحقّ هذا المقام، أعني مقام الشهادة، وذلك لأنّ الله تعالى أنزل عليه الكتاب الذي تتمّ به الحجّة بما احتوى من آيات بيّنات تهدي إلى الحقّ وإلى صراط مستقيم، كما يقول سبحانه: (وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ): أي القرآن. ثمّ وصفه بأربعة أوصاف:

الأوّل: (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْء): أي تبياناً لكلّ ما يحتاج إليه الناس في معرفة الحلال والحرام ومعرفة الله سبحانه وأسمائه وصفاته، يقول السيد الطباطبائي: التبيان والبيان بمعنى واحد، وإذ كان كتاب هداية لعامّة الناس، وذلك شأنه، كان الظاهر أنّ المراد بكلّ شيء كلّ ما يرجع إلى أمر الهداية ممّا يحتاج إليه الناس في اهتدائهم من المعارف الحقيقية المتعلقة بالمبدأ والمعاد، والأخلاق الفاضلة، والشرائع الإلهية، والقصص والمواعظ، فهو تبيان لذلك كلّه... إلى أن قال: لكن في الروايات ما يدلّ على أنّ القرآن فيه علم ما كان وعلم ما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، ولو صحّت الروايات لكان من اللازم أن يكون المراد بالتبيان أعمّ ممّا يكون من طريق الدلالة اللفظية، فلعلّ هناك إشارات من غير طريق الدلالة اللفظية تكشف عن أسرار وخبايا لا سبيل للفهم المتعارف إليها.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٣٢٤ـ٣٢٥.)

الثاني: (وَهُدًى) حيث تُرشد آياته التي تتضمّن الحكم والمواعظ والحجج الباهرة، إلى طريق الحقّ وسبيل النجاة.

الثالث: (وَ رَحْمَةً) لمن صدّق به.

الرابع: (وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ): أي بشارة بالثواب الدائم والنعيم المقيم، للذين استسلموا للحقّ وانقادوا إليه قولاً وعملاً.

الآيات:٩٠- ٩٤ (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبى... بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

الآيات: التسعون إلى السابعة والتسعين

(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّة أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبى مِنْ أُمَّة إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاق وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ *مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَر أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

المفردات

بالعدل: فسّره الراغب بقوله: لفظ يقتضي لفظ المساواة، ثمّ قال: فالعدل هو التقسيط على سواء، وعلى هذا روي:«بالعدل قامت السماوات والأرض».(المفردات للراغب:٥٠١، مادة «عَدَلَ».)

وما ذكره ينطبق على المعنى اللغوي حيث يطلق العِدْل على ما تحمله الدابّة على جانبي ظهرها فيجب أن يكون متساوياً، ولكن

الذي أريد به وضع الأشياء في مواضعها أو إعطاء كل شخص حقّه، وقد سئل الإمام عليّ(عليه السلام): أيهما أفضل، العدل، أو الجود؟ فقال(عليه السلام):«الْعَدْلُ يَضَعُ الْأُمُورَ مَوَاضِعَهَا، وَالْجُودُ يُخْرِجُهَا مِنْ جِهَتِهَا، وَالْعَدْلُ سَائِسٌ عَامٌّ، وَالْجُودُ عَارِضٌ خَاصٌّ، فَالْعَدْلُ أَشْرَفُهُمَا وَأَفْضَلُهُمَا». (نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٤٣٧.)

الإحسان: الإحسان (إلى الآخرين): إيصال خير أو نفع إليهم لا على سبيل المجازاة والمقابلة، كأن يقابل الخير بأكثر منه، ويقابل الشرّ بالإغضاء والتسامح، أو يبادر إلى الخير ابتداءً.

إيتاء ذي القربى: إعطاء الأقارب حقّهم من الصلة والبرّ، وأُريد في الآية القريب الخاص.

الفحشاء: ما قبح من القول والفعل، كالكذب والسرقة.

المنكر: ما تنكره العقول المستقيمة.

البغي: الظلم والتطاول.

يعظكم: الوعظ: النصح والإرشاد.

بعهد: العهد كلّ ما يلتزمه الإنسان باختياره من فعل أو ترك فهو عهد عند أهل العرف، ولا يكون عهداً يجب الوفاء به شرعاً إلاّ إذا كان مقروناً باسمه سبحانه، كقوله: عاهدت الله، وعليّ عهد الله.

لا تنقضوا الأيمان: نقض اليمين: الحنث بها.

كفيلاً: الكفيل: الضامن، والمراد هنا: شاهداً ورقيباً.

نقضت غزلها: نقض الغزل بمعنى حلّه.

أنكاثاً: جمع نِكْث، وهو نقض المفتول بعد غزله.

دَخَلاً: الدَّخَل: الفساد، الخديعة. وأصل الدَّخَل ما يدخل في الشيء تدريجاً وليس منه.

أربى: أكثر وأوفر عدداً.

تزلّ: تنقل الرجل من موضعها من دون إرادة صاحبها لخلل في الأرض، وزلل القدم يستعار لاختلال الحال.

تذوقوا: الذوق مستعار للإحساس القويّ.

صددتم: منعتم الناس عن اتّباع دين الله.

ينفد: النفاد: الفناء، نَفِد الشيء إذا فني.

التفسير

لمّا وصف سبحانه القرآن بكونه تبياناً لكلّ ما يحتاجه الناس في حياتهم الدنيوية والأخروية، جاء البيان القرآني ليكشف عن أُصول الفضائل والأخلاق والآداب التي لو عملت بها الأمة الإسلامية أو الأُمم جميعاً لَصلح حالهم، ونَعِموا في ظلالها بتعايش سلميّ، وحياة رغيدة تشيع فيها روح التآخي والتآلف، ويسودها الرفق والأمن والسلام.

٩٠.(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ):

ذكر سبحانه أُصولاً ثلاثة من أنواع الفضائل كما أردفها بأُصول ثلاثة من المساوئ.

روى الطبريّ والحاكم وغيرهما عن ابن مسعود قال: أعظم آية في كتاب الله: (اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) (البقرة:٢٦٥.) وأجمع آية في كتاب الله للخير والشرّ قوله سبحانه: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ...) (انظر: تفسير الدر المنثور:٥/١٦٠.).

وروى البيهقي عن الحسن]البصري[: أنّه قرأ هذه الآية وقال: إنّ الله عزّ وجلّ جمع لكم الخير كلّه والشّرّ كلّه في آية واحدة، فوالله

ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً إلاّ جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله إلاّ جمعه.(انظر: تفسير الدرّ المنثور: ٥/١٦٠.)

وروى الصّدوق عن أبي الحسن الرضا(عليه السلام)، قال: «استعمال العدل والإحسان مؤذِن بدوام النّعمة».(عيون أخبار الرضا: ٢ / ٢٦، الحديث ٥٢)

ونقل الطبرسي أنّ عثمان بن مظعون قال: كنت أسلمت استحياء من رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) لكثرة ما كان يعرض عليّ الإسلام ولم يقرّ الإسلام في قلبي، فكنت ذات يوم عنده حال تأمُّله، فشخص بصره نحو السماء كأنّه يستفهم شيئاً، فلما سرّي عنه سألته عن حاله فقال: نعم، بينا أنا أحدّثك إذ رأيت جبرائيل في الهواء، فأتاني بهذه الآية: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)وقرأها إلى آخرها، فقرّ الإسلام في قلبي، وأتيت عمّه أبا طالب فأخبرته، فقال: يا آل قريش، اتّبعوا محمداً(صلى الله عليه وآله وسلم) تُرشدوا، فإنّه لا يأمركم إلاّ بمكارم الأخلاق، وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية فقال: إن كان محمد قاله فنعمَ ما قال، وإن قاله ربُّه فنعمَ ما قال، قال: فأنزل الله: (وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى)(النجم: ٣٤.)يعني قوله: فنعم ما قال.(مجمع البيان:٦/٢٢٠ـ ٢٢١.)

إذا تبيّن ذلك فلندخل في تفسير الآية، فنقول: إنّه سبحانه ركّز على الأُصول الثلاثة: العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وقال:(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبى).

العدل

أمّا العدل فقد مرّ أنّه عبارة عن وضع الأشياء في مواضعها أو إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه، وهو يشمل كافة شؤون الإنسان المادّية والمعنوية، وله حسب الموارد أبعاد:

١. عدل الحاكم

إذا تسنّم إنسان منصب الحكم ومَلَك القدرة بيده، فعليه الالتزام بالعدل في كلّ ما يتعلّق به، وإليه يشير سبحانه بقوله:(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ)(الحج:٤١.).

فالعدل يوجب على الحاكم أن يقيم الصلاة بدعوة الناس إليها مضافاً إلى فعلها، وأن يدفع خَلّة المحتاجين بإيتائهم الزكاة، مضافاً إلى إشاعة المعروف بين الناس ونشر المحاسن والزّجر عن المنكرات، فإذا قام بذلك فقد قام بالعدل المطلوب في الحاكم.

وهناك من الحكّام مَنْ يُسيء استغلال منصبه، فيعمل على نشر الظلم والفساد والدّمار والخراب، كما يقول سبحانه:(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ).(البقرة:٢٠٥ـ ٢٠٦.)

٢. عدل المشرّع

وللعدل بُعدٌ ثان وهو رعاية العدل عند تدوين القوانين وتشريعها، فينظر المشرّع إلى المجتمع بنظرة واحدة دون أن يسلِّط طائفة على طائفة فقد قال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم): «الناس كأسنان المشط سواء».(من لا يحضره الفقيه:٤/٣٧٩، برقم ٥٧٩٨.)

٣. عدل القاضي

القضاء الصحيح الذي يقوم به المجتمع هو القضاء بالعدل، ولذلك يأمر سبحانه نبيّه داود بقوله:(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ).(سورة ص:٢٦.)

وقد عقد المحدّثون لا سيما الحرّ العاملي(رحمه الله) باباً مفصّلاً حول آداب القاضي، نذكر بعض ما ورد فيه من الروايات ممّا يتّصل ببحثنا:

١. روى سلمة بن كهيل: سمعت عليّاً(عليه السلام) يقول لشريح:«واعلم أنّه لا يحمل الناس على الحق، إلاّ من وزَعَهم عن الباطل، ثم واسِ بين المسلمين بوجهك ومنطقك ومجلسك، حتى لا يطمع قريبك في حَيفك، ولا ييأس عدوّك من عدلك، وردّ اليمين على المدّعي مع بيّنته، فإنّ ذلك أجلى للعمى، وأثبت في القضاء.

واعلم أنّ المسلمين عدول بعضهم على بعض، إلاّ مجلود في حدّ لم يتب منه، أو معروف بشهادة زور، أو ظنين. وإيّاك والتضجّر والتأذّي في مجلس القضاء، الذي أوجب الله فيه الأجر، ويحسن فيه الذُّخر لمن قضى بالحقّ».(الوسائل:١٩، الباب ١ من أبواب آداب القاضي، الحديث١.)

٢. روى الحلبي، قال: قال أبو عبد الله(عليه السلام):«قال أمير المؤمنين(عليه السلام) لعمر بن الخطاب: ثلاث إن حفظتهنّ، وعملت بهنّ كفتك ما سواهنّ، وإن تركتهنّ لم ينفعك شيء سواها، قال: وما هي يا أبا الحسن؟ قال: إقامة الحدود على القريب والبعيد، والحكم بكتاب الله في الرضا والسخط، والقسم بالعدل بين الأحمر والأسود، قال عمر: لعمري لقد أوجزتَ و أبلغتَ».(الوسائل:١٩، الباب١ من أبواب آداب القاضي، الحديث٢.)

٤. العدل الاقتصادي

لا شكّ أنّ أبناء المجتمع يتفاوتون فيما بينهم في الاستعداد والقابليات، فالتسوية ـ مثلاً ـ بين العامل الماهر والعامل غير الماهر على خلاف العدل، ومع ذلك كلّه فيجب على الحاكم أن يتجنب الطبقية الظالمة التي تنشأ تحت ظلها طبقة تملك كلّ شيء وطبقة أُخرى تفقد كلّ شيء، ولذا نهى الله عن ذلك وقال:(كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ).(الحشر:٧.)

قال الإمام علي(عليه السلام): «وَلـكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَغْلِبَنِي هَوَايَ، وَيَقُودَنِي جَشَعِي إِلَى تَخَيُّرِ الاْطْعِمَةِ ـ وَلَعَلَّ بِالْحِجَازِ أَوِ الْيَمَامَةِ مَنْ لاَ طَمَعَ لَهُ فِي الْقُرْصِ، وَلاَ عَهْدَ لَهُ بِالشِّبَعِ ـ أَوْ أَبِيْتَ مِبْطَاناً وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى وَأَكْبَادٌ حَرَّى، أَوْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَبِيتَ بِبِطْنَة *** وَحَوْلَكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إِلَى الْقِدِّ!(١)

(١) نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٤٥ (من رسالة الإمام(عليه السلام) إلى عثمان بن حنيف).

٥. العدل الاجتماعي

وللعدل أيضاً بُعدٌ في الاجتماع، وهو أن يقوم كلّ فرد من أفراد المجتمع برعاية حقوق الآخرين، ولا يتجاوز عليها، ولذلك يقول سبحانه:(وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً).(الإسراء:٣٥.)

وقد أكّد الأنبياء على إيفاء الكيل و الميزان بالقسط في غير واحدة من الآيات، قال تعالى:(وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ)(هود:٨٥.) .

وما أروع قول الإمام عليّ(عليه السلام)، وهو يرسم الخطوط العريضة للعدل الاجتماعي، قال(عليه السلام) لابنه الحسن(عليه السلام): «يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيما بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلاَ تَظْلِمْ كَمَا لاَ تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلاَ تَقُلْ مَا لاَ تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ».(نهج البلاغة: قسم الرسائل، برقم ٣١.)

هذا كلّه حول العدل، وإليك الكلام في الإحسان.

الإحسان

وهو على قسمين:

١. أن تُحسن إلى من أحسن إليك، يقول سبحانه:(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ)(الرحمن:٦٠.).

٢. أن تحسن إلى من أساء إليك. وهذا من أفضل مراتب الإحسان.

روى الكليني بإسناده عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام)، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبته:«ألا أُخبركم بخير خلائق الدنيا والآخرة؟: العفوعمّن ظلمك، وتصل من قطعك، والإحسان إلى من أساء إليك، وإعطاء من حرمك».(الكافي:٢/١٠٧، كتاب الإيمان والكفر، باب العفو، برقم ١.)

ومن الإحسان نشر الرحمة وإيجاد المحبّة في نفوس الآخرين، وكلّ شيء يستقلّ العقل بحسنه فهو داخل في الإحسان.

وما أجمل قول أحد المعاصرين:«لولا البرّ والإحسان لم تنبض عروق الأحقاب والأزمان»(التعايش السلمي للدكتور محمود الموسوي:٦١.).

إيتاء ذي القربى

وأمّا إيتاء ذي القربى، أي الأقارب والأرحام، فبما أنّ المراد من الإيتاء هو إيتاء المال فيكون المراد إعطاء الخمس الذي فرضه الله سبحانه في قوله:(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْء فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ)(الأنفال:٤١.).

وربما يتصور أنّ المراد به ما في قوله سبحانه:(وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفًا)(النساء:٨.).

وهو بعيد لأنّ السورة وآياتها مكّية وما ورد في النساء مدنيّ، مضافاً إلى الاختلاف في التعبير فقد جاء لفظ القربى هنا بصورة الإفراد وقال: (وَلِذِي الْقُرْبى) وفي سورة النساء بصيغة الجمع:(أُولُوا الْقُرْبى)وهذا دليل على أنّ المراد من ذي القربى في آيتنا هو نفس ما أريد به في سورة الأنفال.

وبعد أن أمر سبحانه بما يوشّج العلاقات بين أبناء المجتمع من أُصول الفضائل، نهى عما يفسد تلك العلاقات من رذائل، وقال: (وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْي).

أمّا الفحشاء، فهي ما قبح من القول والفعل، وإن شئت قلت: اسم جامع لكلّ عمل أو قول تستفظعه النفوس، لأنّه إمّا يضرّ بحال الفاعل، أو بحال المجتمع.

وأمّا المنكر، فهو ما تنكره العقول والنفوس المعتدلة من فعل أو قول، وقد وصف سبحانه الظهار من مصاديق المنكر قال:(وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا)(المجادلة:٢.)، كما وصف اللواط منكراً وقال: (وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ)(العنكبوت:٢٩.).

وأمّا البغي، فهو الاعتداء على حقوق الآخرين سواء أكان في غير المعاملة، كالغارة التي كانت إحدى المكاسب في الجاهلية، أو في المعاملة كالتطفيف، يقول سبحانه: (ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ)(الحج:٦٠.).

وأتمّ سبحانه الآية بقوله: (يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) وهذا يدلّ على أنّ حسن الفضائل وقبح الرذائل أمر فطريّ مخمور في النفوس، والله سبحانه يريد أن يذكّر بما تدعو إليه فطرتهم. وفي نهاية المطاف نذكر ما روى ابن ماجة عن الإمام علي(عليه السلام) أنّه قال:«أمر الله نبيّه أن يعرض نفسه على قبائل العرب، فخرج، فوقف على مجلس قوم من شيبان بن ثعلبة في الموسم. فدعاه إلى الإسلام وأن ينصروه، فقال مفروق بن عمرو منهم: إلاَمَ تدعونا أخا قريش، فتلا عليهم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) الآية: فقال: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قومٌ كذّبوك وظاهروا عليك».(التحرير والتنوير:١٣/٢٠٨؛ شرح الأخبار:٢/٣٨٧.)

***

لمّا رسا مركب القلم عند هذا الساحل خطر ببالي ما جادت به قريحة الشريف الرضيّ في قصيدته التي ذكر فيها عمر بن عبد العزيز بقوله:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العيـ *** ـنُ فتىً من أميّة لَبكيتُكْ
أنت نزّهتنا عن السبّ والشتـ *** ـمِ فلو أمكن الجزاء جَزيتُك[٣]

[٣]شرح نهج البلاغة:٤/٦٠.

ومن المعلوم أنّ عمر بن عبد العزيز أمر بقراءة هذه الآية في خطبة الجمعة، وأن تجعل تلاوتها عوضاً عما كانوا يذكرونه في خطبة الجمعة من سب عليّ بن أبي طالب(عليه السلام)، وقد أسّس هذا البناء الظالم معاوية بن أبي سفيان بعد أن ابتزّ الحُكم بالسُّفهاء عام ٤١هـ فكتب إلى الأمصار يأمر بسبّ عليّ(عليه السلام)على منابر صلاة الجمعة، فصار ذلك سنّة، لُعن فيها أوّل المسلمين إسلاماً وأشدّهم جهاداً في سبيله، وأعبدهم عبادة، وأزهدهم عن حطام الدنيا، ولقد ولد في بيت الله الحرام واستشهد في بيت الله.

ومن عجيب الكلام ما ذكره ابن عاشور، حيث قال: ولم أقف على تعيين الوقت الذي ابتدأ به هذا السبّ، ولكنّه لم يكن في خلافة معاوية.(التحرير والتنوير:١٣/٢٠٩.)

أقول: كأنّ الشيخ لم يقرأ سطراً من سطور التاريخ في مبدأ هذه السُّنّة، ولم تمر على ناظريه الرواية التالية التي ذكرها مسلم في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقّاص، عن أبيه، قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما منعك أن تسبّ أبا التراب؟ فقال: أمّا ما ذكرت ثلاثاً قالهنّ له رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فلن أسبّه، لأَن تكون لي واحدة منهن أحبّ إليّ من حُمر النَّعم... إلى آخر الرواية.(صحيح مسلم:١١٩٨، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب(عليه السلام)، رقم الرواية ٦١١٤، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٤هـ ولاحظ: مروج الذهب:٣/٢٤، البداية والنهاية:٨/٨٣، حوادث سنة ٥٥ هـ.)

وقد كتب كتاباً إلى الأمصار يأمرهم بذلك.(لاحظ: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:٤/٧٢.)

وجاء في الكشّاف: حين أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، أُقيمت هذه الآية مقامها. ولعمري إنّها كانت فاحشة ومنكراً وبغياً، ضاعف الله لمن سنّها غضباً ونكالاً وخزياً إجابة لدعوة نبيّه و«عادِ من عاداه».(تفسير الكشّاف:٢/٢١٥.

أقول: ولو كانت لصاحب الكشّاف شجاعة أدبيّة لصرّح باسم من سنّ هذه الجريمة النكراء، ولكنّ الظروف لم تسمح له بالتصريح بالاسم.)

كلام حول التحسين والتقبيح العقليين

اختلف المتكلّمون في هذا الأمر: هل أنّ العقل يدرك حُسن بعض الأفعال وقبحها، فيحثّ على الأوّل ويزجر عن الثاني أو لا؟ ذهبت العدلية إلى أنّ للعقل تلك المقدرة، فيدرك حسن فعل أو قبحه، أمّا الأشاعرة فقالت: إنّ الحسن والقبح شرعيّان، ولا يقضي العقل بحسن شيء ولا بقبحه، بل القاضي بذلك الشرع، فما حسّنه فهو حَسَن، وما قبّحه فهو قبيح.(انظر: نهج الحق وكشف الصدق:٨٣.)

وللطائفتين دلائل لا نريد الدخول في نقلها ونقدها، لكن نشير في المقام إلى شيء له مساس بالآية، وهو أنّه سبحانه يأمر في هذه الآية بأُمور ثلاثة، ويزجر عن ثلاثة، ومعنى ذلك أنّ حسن الأُمور الثلاثة الأُولى كان أمراً مسلّماً في عهد الرسالة عند المخاطبين، كما أنّ قبح الثلاثة الأُخرى كان أمراً مفروغاً منه عندهم، ولذلك أمر بالأُمور الحسنة عندهم، ونهاهم عن الأُمور القبيحة، أي أنّهم كانوا على اطّلاع على الحَسَن والقبيح.

وبعبارة أُخرى: إنّ الذكر الحكيم يستنطق فطرتهم، وبما أنّها قاضية على حُسن الأُولى وقُبح الأُخرى، أمر بالأُولى ونهى عن الثانية.

وبعبارة ثالثة: إنّه سبحانه أمر بالعدل بالمعنى الذي عند المخاطبين دون أن يشرح لهم معنى العدل والإحسان و... وهذا يدلّ على تسليم درك العقل واقع هذه المفاهيم التي تتردّد بين الحُسن والقُبح.

وليست هذه الآية الوحيدة في إثبات أنّ التحسين والتقبيح عقليان، بل هناك آيات أُخرى تدلّ على ذلك نأتي بها على وجه الإجمال:

١. قال تعالى: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ)(سورة ص:٢٨).

٢. قال تعالى: (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)(القلم:٣٥).

٣. قال تعالى: (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ)(الرحمن:٦٠).

ففي هذه الطائفة من الآيات يوكل الذكر الحكيم القضاء إلى وجدان الإنسان، وأنّه هل تصحّ التسوية بين المفسدين والمتقين، والمسلمين والمجرمين، كما يتّخذ من الوجدان قاضياً في قوله: (هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ).

فخرجنا بالنتيجة التالية: وهي أنّ إدراك الحُسن والقُبح في قسم من الأفعال أمر يدركه العقل، وأنّ الشارع أخذ بما هو الحَسَن عندهم أو القبيح كذلك موضوعاً لحكمه، فأكّد على الأوّل وزجر عن الثاني من دون حاجة لأن يشرح لهم الموضوع ثم يذكر الحكم، وإن كنت في شكّ فاقرأ قوله تعالى:(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ): أي ما عندهم من معروف (وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ)(الأعراف:١٥٧): أي ما عندهم من منكر.

ومن أراد التفصيل، فليرجع إلى كتابنا «التحسين والتقبيح العقليان».

***

٩١. (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ):

الأمر بالوفاء بالعهد والنهي عن نقضه

يأمر الله سبحانه في هذه الآية بشيء وينهى عن شيء آخر. أمّا الأوّل فيأمر بالوفاء بالعهد، وأمّا الثاني فينهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها. والعهد بين الإنسان وربّه هو أن يوجب الإنسان على نفسه التزاماً لله تعالى على أن يفعل أمراً معيّناً أو يتركه، كما لو قال:أعاهد الله أن أفعل كذا أو أترك كذا. وهذا هو العهد الصريح، وأمّا غير الصريح فهو أن يؤمن بالله تبارك وتعالى فإنّ الإيمان به إعطاء عهد له أن يكون عبداً مأموراً من جانبه فيمتثل أوامره ويجتنب نواهيه. ولا شكّ في أنّه يجب الوفاء بكلا العهدين، لكن الكلام فيما هو المقصود من الآية؟

الظاهر هو المعنى الثاني، لأنّ الآية مكّية، وهذه الفترة تناسب المعنى الثاني، حيث إنّ بعض المسلمين كانوا على مقربة من الرجوع من الإسلام إلى الشرك خوفاً من المشركين. ويؤيد ذلك ما رواه ابن جرير الطبري بسنده عن بُريدة في قوله تعالى:(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) قال: نزلت هذه الآية في بيعة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، كان من أسلم بايع على الإسلام فقال:(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)فلا تحملنكم قلّة محمد وأصحابه وكثرة المشركين ان تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام.(جامع البيان:١٤/٢٠١ برقم ٢١٨٧٢؛ تفسير الدر المنثور:٥/١٦١(وفيه: مزيدة بن جابر، بدل بُريدة).)

وأمّا اليمين، فكما إذا قال: بالله لأفعلنّ كذا، أو لأتركنّ كذا.

فقوله تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ) إشارة إلى التعاهد مع الله، وأمّا قوله تعالى:(وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) فإشارة إلى الحلف بالله تعالى.

ثمّ إنّه سبحانه قيّد الأيمان بالتوكيد وقال: (وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)وربما يُتوهّم منه أنّ اليمين الذي لاتشدّد فيه لا يجب الوفاء به، مع أنّ اليمين يجب الوفاء به مطلقاً سواء أتشدّد الحالف وأغلظ بيمينه أم لم يتشدّد ويغلظ.

وعلى هذا، فالمراد من التوكيد إحكام اليمين بالقصد والعزم وكونها لأمر راجح، بخلاف قولهم: لا والله، فإنّه من لغو الأيمان، فالتوكيد في هذه الآية يفيد ما يفيده التعقيد في قوله تعالى: (لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ

الأَيْمَانَ)(المائدة:٨٩).

ثمّ إنّ الظاهر أنّ نقض اليمين أشنع من نقض العهد بشهادة قوله: (وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً)والظاهر أنّ هذه الفقرة ترجع إلى الأيمان، ومعناها أنّ من حلف بالله فقد جعل الله كفيلاً وضامناً للوفاء بقوله، والكفيل هنا الرقيب والشاهد، فإن أخلف فقد خان الله بالذات واستحقّ العذاب والعقاب (إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) من حفظ الأيمان ونكثها.

إنّ الوفاء بالعهد فرديّاً كان أم جماعيّاً أم دوليّاً، هو أمر فطريّ يحثّ عليه الإسلام، وأمّا نقض العهد فهو أمر تأباه الفطرة السليمة، وهو مذموم عند الناس، وكأنّ شخصية الإنسان تتجلّى في حفظ العهد ونقضه، ولذلك نرى أنّه سبحانه ينهى عن قتال المشركين مادام أنّهم استقاموا على عهدهم، قال سبحانه:(إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)(التوبة:٧.)، كما أنّه سبحانه يحثّ على قتال الناكثين فيقول: (أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ)(التوبة:١٣.).

وهذا هو الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) يحثّ على الوفاء بالعهد ويقول:«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفِ إذا وعد».(الكافي:٢/٣٦٢.)

من روائع قصص الوفاء بالعهد

من روائع قصص الوفاء بالعهد ما رواه ياقوت الحَمَويّ من أنّ المنذر بن امرئ القيس(كذا في المصدر، والمشهور أنّ النعمان بن المنذر، هو صاحب يومي البؤس والنعيم.) كان قد سمّى أحد يوميه: يوم البؤس وهو اليوم

الذي يقتل فيه ما ظهر له من إنسان وغيره، وسمّى الآخر يوم النعيم يُحسن فيه إلى كلّ من يلقى من الناس ويحملهم ويخلع عليهم.

ثم قال: فلم يزل على ذلك حتّى مرّ به في بعض أيام البؤس رجل من طيّ يقال له حنظلة فقُرّب ليُقتل فقال: أبيتَ اللعن! إنّي أتيتك زائراً، ولأهلي من بحرك مائراً، فلا تجعل ميرتهم ما تورده عليهم من قتلي، قال له المنذر: لابدّ من قتلك فسل حاجتك تُقض لك قبل موتك، فقال: تؤجلني سنة أرجع فيها إلى أهلي فأحكم فيهم بما أريد ثم أسير إليك فينفذ فيّ أمرك، فقال له المنذر: ومن يكفلك أنّك تعود؟ فنظر حنظلة في وجوه جلسائه فعرف شريك بن عمرو بن شراحيل الشيباني فقال:

يا شريكٌ يا ابن عمرو *** هل من الموت مَحالَه؟

يا شريكٌ يا ابن عمرو *** يا أخا من لا أخا لَهْ

يا أخا المنذر فُكّ الـ *** ـيوْمَ رَهْناً قد أتى لَهْ

يا أخا كلّ مضاف *** وأخا من لا أخا لَهْ

إنّ شيبان قبيلٌ *** أكرمَ الناسُ رجالَهْ

وأبو الخيرات عمرو *** وشراحيل الحَمالَهْ

رَقباك اليوم في المجْـ *** ـد وفي حسن المَقالَهْ

فوثب شريك وقال: أبيت اللعن! يدي بيده ودمي بدمه إن لم يَعُدْ إلى أجله، فأطلقه المنذر؛ فلما كان من القابل قعد المنذر في مجلسه في يوم بؤسه ينتظر حنظلة فأبطأ عليهم، فقُدِّم شريك ليُقتل فلم يشعر إلاّ وراكب قد طلع، فإذا هو حنظلة وقد تحنّط وتكفّن ومعه نادبته تندبه، فلما رأى المنذر ذلك عجب من وفائه وقال: ما حملك على قتل نفسك؟ فقال: أيها الملك إنّ لي ديناً يمنعني من الغدر، قال: وما دينك؟ قال: النصرانية، فاستحسن ذلك منه، وأطلقهما معاً، وأبطل تلك السنّة.(معجم البلدان:٤/١٩٨ـ ١٩٩.)

وهذا إن دل على شيء فإنّما يدل على أنّ الدين السماوي يركز القيم الإنسانية في نفس معتنقيه، وهي من دعائم المجتمع، ويجعله موفياً لوعده حتى لو كان بقيمة دمه وحياته.

٩٢. (وَلاَ تَكُونُوا كَالتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ):

نقل المفسّرون في صدد هذه الآية أنّ امرأة حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواريها إلى انتصاف النهار ثم تأمرهنّ أن ينقضنَ ما غزلنَ، وما يزال ذلك دأبها، واسمها رَيطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرّة، وكانت تسمّى خرقاء مكّة.(تفسير الرازي: ٢٠/١٠٨؛ تفسير القرطبي: ١٠/١٧١.)

وبذلك يظهر معنى قوله سبحانه:(وَلاَ تَكُونُوا كَالتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا) فعمل من يحلف ويُبرم عهده ثم ينقضه أشبه بعمل تلك المرأة التي تنقض غزلها وتحلّه أجزاءً وصوفاً متناثراً من بعد أن فتلتْه بإحكام، فعمله هذا كعملها بل أسوأ منه، حيث يدلّ على سقوط شخصيته وانحطاط منزلته.

دوافع نقض اليمين في مورد الآية

قال الزمخشري: كأنّ قوماً ممّن أسلم بمكة زيّن لهم الشيطان لجزعهم ممّا رأوا من غلَبة قريش واستضعافهم المسلمين وإيذائهم لهم ولِما كانوا يَعِدونهم إن رجعوا من المواعيد أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)فثبّتهم الله.(تفسير الكشّاف:٢/٢١٦.)

وبما ذكر يظهر معنى قوله سبحانه:(تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ)فالدَّخَل هو الفساد، أي تجعلون أيمانكم التي حلفتموها فاسدة كاذبة.

ثمّ تصرّح الآية بعلّة نقض أيمانهم وتقول: تنقضون الأيمان بسبب (أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ): أي قريش (هِيَ أَرْبَى) أقوى وأكثر (مِنْ أُمَّةٍ) أي النبيّ ومن تَبِعه. فكون قريش أقوى وأكثر عدداً صار سبباً لنقض الأيمان.

ثمّ إنّه سبحانه يذكر في حقّ هؤلاء أمرين:

الأوّل: أنّه سبحانه يعاملهم، فيما يواجهون من أحداث، معاملة المختبر، فالله سبحانه يبلوهم هل هم يتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله، وهم يرون قلة المؤمنين وفقرهم، أو يغترّون بكثرة قريش وثروتهم؟ وإلى ذلك يشير قوله سبحانه: (إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ) والضمير المجرور في (به)يرجع إلى كون أمّة أربى من أمّة.

الثاني: أنّه سبحانه يهدّدهم وينذرهم من مخالفة ملّة الإسلام ويقول:

(وَ لَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) فستعلمون أنّ الإسلام هو الحقّ المحض وأنّ الشرك هو الشرّ كلّه.

٩٣. (وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ):

أساس السعادة الإيمان عن اختيار

لمّا أمر سبحانه المؤمنين بالوفاء بالعهد وحرّم نقض الأيمان وذكر آثاره السيّئة في الآخرة كانت هنا مظنّة سؤال، وهو أنّه سبحانه لماذا لم يجعل الجميع على خطّ واحد ويُلجئهم إلى حفظ الأيمان واجتناب نقضها؟ فأجاب سبحانه بقوله:(وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) لا اختلاف بينهم وحمَل الجميع على الإيمان، ولكن لم يفعل ذلك لأنّ أساس السعادة هو الإيمان والاستقامة على نهج الهدى عن اختيار لا عن إلجاء، فلذلك لم يُلجئ عباده إلى الإيمان بل فوّض الأمر إلى اختيارهم، فالإيمان كمال إذا وصل إليه الإنسان من خلال التفكير والتدبّر في الدلائل والبراهين لتمييز الحق من الباطل، ولو أودع الله الإيمانَ قلوب الناس قهراً عنهم لأصبح الإيمان كالثمرة على الشجرة.. لا إرادة ولا تعقّل ولا تدبّر، وعندئذ لا استحقاق لمدح أو ذم أو ثواب أو عقاب .

ولمّا كان اختيار الإيمان على الكفر والتوحيد على الشرك موقوفاً على تبيين الله تعالى حقيقة الأمرين المتضادّين، جعل الإيمان بوحدانيّته سبحانه أمراً فطرياً جبلّيّاً لدى الإنسان، وأيّده ببعث الأنبياء وإرسال الرسل وقضاء العقل الحصيف، فمن استثمر هذه

المبادئ، فالله سبحانه يمدّه بعناياته في المراحل الأُخرى، ومن أعرض عنها فيُحرم منها في بقية المراحل، وإلى ذينك الأمرين يشير قوله سبحانه: (وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)بقطع عناياته وتوفيقاته عمن أعرض عن مبادئ الهداية ولم يستثمرها (وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) من خلال تيسير أسباب الوصول إلى قمة السعادة لمن استثمرها وانتفع بها، وفي نهاية الأمر (وَ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)من غير فرق بين المؤمن والكافر.

وبذلك ظهر أنّ الآية ليست دليلاً على القول بالجبر لو لم تكن دليلاً على الاختيار. وأمّا صلة قوله سبحانه:(وَلَوْ شَاءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) بما قبله، فقد ذكرها الطبرسي بقوله: إنّه أخبر في الآية المتقدّمة أنّه يبيّن لهم في الآخرة الحقّ من الباطل، والمحقّ من المبطل بيان ضرورة، فأخبر عقيب ذلك أنّه يقدر على ذلك أيضاً في الدنيا، ولكنّه لم يفعل ذلك ليستحقّ الناس الثواب بأعمالهم.(مجمع البيان:٦/٢٢٥.)

٩٤. (وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ):

النهي عن جعل الأيمان وسيلة للمكر

إنّ الله سبحانه نهى في هذه المجموعة التي تحدّثت حول الأيمان، عن شيئين:

١. نهى عن نقض الأيمان بعد توكيدها وقال: (وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا).(النحل:٩١.)

٢. نهى عن اتخاذ الأيمان دخلاً في البين وهو ما في قوله: (وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ)فيقع الكلام فيما هو الفرق بينهما؟

الظاهر أنّ الأوّل ناظر إلى من حلف ونقض من دون أن ينقض لغاية المكر، وأمّا الثاني فناظر إلى من يحلف وينقض ثانياً وثالثاً ورابعاً وجعل الحلف خدعة وخيانة ومكراً بعد مكر لا يبالي بما قال، وهذا هو الذي يشير إليه قوله سبحانه:(وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ).

ولذلك قال بعد النهي الأوّل: (وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً): أي جعلوا الله ضامناً للوفاء بقولهم، فكأنّ المقسم به بما له من الكرامة والعزّة هو المسؤول عن قولهم، فعليهم ألا ينكثوا، ولكنّه علل الثاني بقوله:(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا): أي فتضلّوا عن الرُّشد بعد أن تكونوا على هدى، إذ يقال: زلّت قدم فلان في أمر كذا، إذا عدل عن الصواب، فيكون الملاك للنهي الأوّل غيره في النهي الثاني، ولذلك نرى أنّ النهي فيه أشدّ، كما يفيد قوله سبحانه: (وَ تَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ): أي تذوقوا العذاب عاجلاً بما منعتم الناس من اتّباع دين الله. وهذا يدلّ على أنّ هؤلاء بعد اتّخاذ أيمانهم دخلاً يضلّون ويمنعون الناس من الهداية.

ثمّ إنّ كثيراً من المفسّرين حملوا الأيمان في الآية على بيعة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وفسّروا الصدّ عن سبيل الله بصدّ الناس عن الاعتقاد بالإسلام، وبذلك خصّصوا الآية بمورد محدّد، إلاّ أنّ السيد الطباطبائي جعل متعلق الأيمان أمراً مطلقاً من غير فرق بين بيعة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وغيرها، ثم فسّر الصدّ عن سبيل الله بالإعراض عن سبيل الله الذي هو التزام الفطرة والتحرُّز عن الغدر والخدعة والخيانة والدَّغَل، وبالجملة الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، وذلك يجرّهم إلى أن يذوقوا السوء والشقاء في حياتهم الدنيا ولهم عذاب عظيم في الأُخرى.(لاحظ: الميزان في تفسير القرآن:١٢/٣٣٨.)

ثمّ الظاهر عن كثير من المفسرين أنّهم جعلوا النهيَ الثاني تأكيداً للنهي الأوّل والموضوع واحداً، يقول في الكشّاف: ثمّ كرّر النهيّ عن اتّخاذ الأيمان دخلاً بينهم تأكيداً عليهم وإظهاراً لعِظَمِ ما يركب منه (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)فتزلّ أقدامكم عن محجّة الإسلام بعد ثبوتها عليها.(تفسير الكشّاف:٢/٢١٦.)

٩٥. (وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ):

لمّا كان بعض المستضعفين من المؤمنين في الفترة المكية يبايعون الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن ربما ينقضون بيعته بعَرَض

قليل من الدنيا ـ حيث إنّ قريشاً يَعِدونهم إن رجعوا ـ جاء البيان القرآني يندّد بعملهم هذا بقوله: (وَ لاَ تَشْتَرُوا): أي لا تستبدلوا (بِعَهْدِ اللهِ) ببيعة الرسول (ثَمَنًا قَلِيلاً) يصل إليكم من قريش، وذلك لـ (إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ) من الجزاء (هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ). وتفسير العهد في الآية ببيعة الرسول إنّما هو حسب ما ورد من شأن نزول الآية، وأمّا حسب ما نقلناه عن «الميزان في تفسير القرآن» فالآية عامّة تعمّ موارد نقض الإيمان.

٩٦. (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ):

نعيم الدنيا يفنى ونعيم الآخرة يبقى

لمّا تحدثت الآية السابقة أنّ ما عند الله خير من عَرَض الدنيا، جاء البيان القرآني يعلّل ذلك ويقول: (مَا عِنْدَكُمْ): أي ما تتمتّعون به من نعيم الدنيا (يَنْفَدُ) يفنى وينقضي بانقضاء العمر، وهو أقصى مدّة له (وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ)بقاء الجنّة ونعيمها الخالد. وبما أنّ حفظ الإيمان في الفترة المكية كان مقروناً بالأذى من قريش، أمر سبحانه هؤلاء المؤمنين بالصبر وقال: (وَ لَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا)على أذيّة المشركين وعلى تحمّل المشاقّ (أَجْرَهُمْ): أي لنكافئنّ الذين صبروا على الطاعات ثوابهم (بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) فإنّ أعمالهم بين حسن وأحسن، فالله سبحانه يجزي الجميع بالأحسن.

٩٧. (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ):

يستفاد من الآية الأُمور التالية:

١. أنّ الجزاء إنّما هو للعمل الصالح، وله مفهوم وسيع يشمل جميع الأعمال الإيجابية المفيدة على كافة صُعُد الحياة، العلمية منها والثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، ولا يختصّ بالعبادات بل يشمل العمل الصالح القليل كالمسح على رأس اليتيم، إلى العظيم كبناء مستشفى كبير، وما ربما يفسّر ببعض الأعمال فإنّما هو من باب التصريح ببعض المصاديق.

٢. أنّ الفاعل يجب أن يكون مؤمناً حتى يكون عمله لله سبحانه وإلاّ فعمل الكافر يُحبَط لأجل كفره، قال سبحانه:(وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(هود:١٦)، فالكافر إذا لم يعترف بالمُنْعِم الأكبر وجحد إنعامه فكيف يمكن أن يشكر عمله؟

٣. لا فرق بين الذكر والأُنثى في القانون الإلهي، من حيث قبول الأعمال الحسنة والمكافأة عليها.

وهو يدل على مساواة الرجل والمرأة أمام الله سبحانه إذا قاما بواجبهما من الإيمان والعمل الصالح، فما ربما يجترّه بعض المنحرفين من كلام المستشرقين بأنّ الإسلام دين الرجال، أمر باطل تبطله هذه الآية إذ نرى أنّها تسوّي بينهما، فمن قام بعمل، ذكراً كان أم أُنثى، مع هذين الشّرطين، فالله سبحانه يبشّره بأمرين:

١. (فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً).

٢.(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وإليك دراسة كلا الفقرتين.

أمّا الفقرة الأُولى، فذكر المفسّرون أنّ الضمير في الفعل يرجع إلى الموصول في صدر الآية(مِنْ عَمِلَ)ومعنى (فَلَنُحْيِيَنَّهُ) هو إعطاء الحياة وإفاضتها عليه، فالله سبحانه يفيض على هذا القائم بعمل صالح حياة طيّبة، ومقتضى التقابل بين الفقرتين أنّ إفاضة الحياة الطيّبة إنّما تتحقّق في الدنيا، وأمّا الجزاء الأحسن ففي الآخرة.

الأقوال في تفسير الحياة الطيّبة

ثمّ إنّهم اختلفوا في واقع هذه الحياة الطيّبة، وبما أنّها غير مدركة بالعيان حيث إنّ كثيراً من المؤمنين يعيشون حالة الفقر والفاقة فسّر شيخنا محمد جواد مغنية (رحمه الله) الحياة الطيّبة بالجنة، وقال: غريب أن يختلف المفسّرون في ذلك وهم يشاهدون بالحسّ

والعيان أنّ الدنيا جنّة الكافر وسجن المؤمن، ثمّ قال: فمن أجل ذلك نرجّح بأنّ المراد من الحياة الطيّبة هنا الجنة، وأنّ قوله: (وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ)عطف تفسير على قوله: (فَلَنُحْيِيَنَّهُ) وتأكيد له.(التفسير الكاشف:٤/٥٥١.)

وربما تفسّر الحياة الطيّبة بأنّ المجتمع سيعيش حينئذ حياة هادئة مطمئنة ملؤها الرفاه والسلم والمحبّة والتعاون بل وكلّ ما يرتبط بالمجتمع من المفاهيم الإنسانية وفي أمان من الآلام الناتجة عن الاستكبار والظلم والطغيان وعبادة الأهواء والأنانية التي تملأ الدنيا ظلاماً وظلامات .(الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل:٨/٢٨٢.)

وما ذُكر صحيح في نفسه، ولكنّه لا مساس له بالآية لأنّها تثبت الحياة الطيّبة للعامل بالعمل الصالح لا للمجتمع، فمن أطعم فقيراً يوماً واحداً أو سقى كلباً عطشاناً في الصحراء الحارقة، فالله سبحانه يَعِده بالحياة الطيّبة والجزاء الأحسن، وأين ذلك ممّا ذُكر؟

ولذلك نرى أنّ أكثر المفسّرين يفسّرون الحياة الطيّبة بشكل فردي، وبالمعاني التالية:

١. الرّزق الحلال. عن ابن عباس وغيره.

٢. القناعة والرضا بما قسم الله. عن الحسن البصريّ.

٣. رزق يوم بيوم.

٤. حياة طيّبة في القبر.

وهناك من يرجع الفقرتين إلى معنى واحد كالتأكيد.

وأمّا السيد الطباطبائي فقد فسّر الآية بشكل آخر لا يمتّ لما ذكره المفسّرون بصلة، وحاصل ما أفاد: أنّ المؤمن يعرض بقلبه عن الباطل الفاني الذي هو الحياة الدنيا بزخارفها الغارّة الفتّانة ويعتزّ بعزة الله فلا يستذلُّه الشيطان بوساوسه، ولا النفس بأهوائها وهَوَسها، ولا الدنيا بزهرتها لما يشاهد من بطلان أمتعتها وفناء نعمتها. ويتعلّق قلبه بربّه الحقّ الذي هو يحقّ كلّ حقّ بكلماته فلا يريد إلاّ وجهه ولا يحبّ إلاّ قربه ولا يخاف إلاّ سخطه وبُعده، يرى لنفسه حياة طاهرة دائمة مخلّدة لا يدبِّر أمرَها إلاّ ربُّه الغفور الودود، ولا يواجهها في طول مسيرها إلاّ الحسن الجميل فقد أحسن كلّ شيء خلقه، ولا قبيح إلاّ ما قبّحه الله من معصيته.

فهذا الإنسان يجد في نفسه من البهاء والكمال والقوة والعزّة واللذّة والسرور ما لا يقدّر بقدر، وكيف لا؟ وهو مستغرق في حياة دائمة لا زوال لها، ونعمة باقية لا نفاد لها، ولا ألم فيها، ولا كدورة تكدّرها، وخير وسعادة لا شقاء معها. هذا ما يؤيده الاعتبار وتنطق به آيات كثيرة من القرآن لا حاجة إلى إيرادها على كثرتها.

فهذه آثار حيوية لا تترتب إلاّ على حياة حقيقية غير مجازية، وقد رتبها الله سبحانه على هذه الحياة التي يذكرها ويخصّها بالذين آمنوا وعملوا الصالحات في حياة حقيقية جديدة يفيضها الله سبحانه عليهم.(انظر: الميزان في تفسير القرآن:١٢/٣٤٢ـ ٣٤٣.)

يلاحظ عليه: أنّ ما ذكره جميل، ولكنّه يختصّ بالكُمّل من المؤمنين الذين يستمرّون على العمل الصالح طول حياتهم، فكلّ عمل صالح يوجِد أرضية صالحة لظهور الحياة المعنوية في نفس العامل ولكنّها لا تحصل في نفس العامل إلاّ بعد رياضات شرعية وفترات، والآية أعمّ من هذا فهي تشمل كلّ من عمل عملاً صالحاً ولو قليلاً ، كرفع الحجر عن طريق المارّة والمسح على رأس اليتيم، أو إطعام فقير مُعدِم، وبهذا أيضاً يكون من مصاديق الآية. ومن المعلوم أنّ هذا العمل الصالح القليل لا يؤدي إلى الحياة المعنوية التي أشار إليها السيد الطباطبائي في كلامه. إذ هي رهن القيام بأعمال صالحة كثيرة، فتدبّر.

ولذلك نرى أنّ الروايات تفسّر الحياة الطيّبة بأقلّ من ذلك، كما مرّ آنفاً.

وعندنا احتمال آخر في الآية، وهو أنّ الضمير في قوله: (فَلَنُحْيِيَنَّهُ) لا يرجع إلى الموصول ؛ بل يرجع إلى العمل المفهوم من قوله: (فَلَنُحْيِيَنَّهُ)والمراد أنّ من عمل عملاً صالحاً فالله سبحانه يحيي ذلك العمل إمّا في الدنيا أو في الآخرة، فكأنّ العمل الصالح كالبذر في

الأرض يبقى مدّة تحت التراب ولكنّه سينبت نباتاً زاهياً ويصبح شتلة صغيرة(الشتلة واحدة الشتل وهي ما قلع من النبات ليغرس في مكان آخر.) ثم شجيرة، ثمّ تكون شجرة مثمرة إمّا في الحياة الدنيا أو في الآخرة، وهذا أمر مجرّب فربما يعمل الإنسان عملاً صالحاً ويغفل عنه، لكنّه بعد فترة يستثمر نتيجة ذلك العمل.ويؤيّد ما ذكرناه إفراد الضمير في قوله:(فَلَنُحْيِيَنَّهُ) وجمعه في قوله:(وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ)فلو كان الضمير عائداً إلى الموصول، لكان الصواب الوحدة في التعبير، إمّا الإفراد وإمّا الجمع.

الآيات:٩٨- ١٠٥ (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ).

الآيات: الثامنة والتسعون إلى الخامسة بعد المئة

(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ * وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَة وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ * وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ * إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ).

المفردات

قرأت القرآن: أي إذا أردت قراءته، كما يقال: إذا أكلت فقل باسم الله، ونظير قوله سبحانه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ)(المائدة:٦.)، وقوله: (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا)(الأنعام:١٥٢.) .

فاستعذ: من العوذ وهو الالتجاء إلى الغير والتعلّق به، كقوله تعالى:(أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)(البقرة:٦٧.).

سلطان: تسلّط واستيلاء.

يتولّونه: التولي: الطاعة، يقال: تولّيته أي أطعته، فإذا تعدّى بـ«عن» يكون بمعنى الإعراض، كقولك: تولَّيت عنه أي أعرضت.

بدّلنا: التبديل: جعل شيء مكان شيء آخر، كقوله سبحانه:(ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ)(الأعراف:٩٥.).

مُفتر: كاذب على الله. أصله مفتري، ولما كان خبراً لـ «أنت» وكان الأصل «مفتري» فبالإعلال صارت «مفتر».

روح القُدُس: جبريل أمين الوحي(عليه السلام).

يُلحدون: ينسبونه إليه ويميلون إليه. والإلحاد هو الميل عن الحق إلى الباطل.

أعجميّ: هو الذي لا يُفصح وإن كان عربياً. والعَجَميّ هو المنسوب إلى العَجَم وإن كان فصيحاً.

التفسير

٩٨. (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ):

وجه صلة الآية بما قبلها

ابتدأ سبحانه هذه الآية بالفاء، فهل هي لمجرّد وصل كلام بكلام آخر، أو أنّه أُوتي بها لنكتة؟ الظاهر هو الثاني، وهي أنّ الله وصف القرآن بقوله: (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْء وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ)(النحل:٨٩.) ثمّ أتى بجوامع الكلم ممّا فيه حياة المسلمين، أعني الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، ثمّ أكّد على الوفاء بعهد الله، فأوجد بذلك أرضية صالحة لقراءة القرآن لِما فيه من هذه الجوامع، فأمر سبحانه القارئ أن يستعيذ عند القراءة وقال:(فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ)في نفسك وروحك مادمت قارئاً، وهو أمر معنويّ نفسيّ يقوم به الإنسان بالتفكير والتدبّر. وأمّا قول القارئ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فهو حاك عن الاستعاذة النفسانية، فعندئذ تحصل المطابقة بين الاستعاذة النفسانية واللّفظية، وأمّا المستعاذ منه فهو

الشيطان الرجيم أي المطرود عن رحمة الله.

ثمّ إنّ الصيغة المعروفة للاستعاذة هي ما ذكرنا، وقد ورد في الذكر الحكيم قوله:(وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ)(المؤمنون:٩٧).

وروي عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام) في تفسير الآية أنّه قيل له: كيف أقول؟ قال: «تقول: أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم».(تفسير نور الثقلين:٣/٨٥).

وعلى كلّ تقدير، فالاستعاذة اللّفظية لا تنفع إلاّ إذا كانت مقرونة باستعاذة حقيقية في النفس، ففي مصباح الشريعة قال الإمام الصادق(عليه السلام) في كلام طويل:«فقارئ القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء: قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خال، فإذا خشع لله قلبُه فرّ منه الشيطان الرجيم، قال الله تعالى: (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)(تفسير نور الثقلين:٣/٨٥ـ٨٦).

وقد اتّفق الفقهاء على أنّ الاستعاذة عند التلاوة مستحبّة وغير واجبة، لا في الصلاة ولا في خارجها.(مجمع البيان:٦/٢٢٨).

٩٩. (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ):

لمّا أمر في الآية السابقة بالاستعاذة، جاءت الآية تعليلاً لهذا الأمر، وهو (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ): أي قدرة وسلطة (عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا) بالله (وَ عَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ). فأخرج من تسلّط الشيطان على العباد من حاز شرطين:

١. الإيمان بالله .

٢. التوكّل عليه سبحانه.

وعلى هذا تكون استعاذة المؤمن بالله، هي نفس التوكّل عليه. ويظهر من قوله سبحانه:(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ)(الحجر:٤٢)، أنّ عباد الله هم الذين آمنوا بالله وتوكّلوا عليه، فيحصل من ضمّ هذه الآيات الثلاث أنّ المستعيذ بالله سبحانه لا ينفكّ عن الإيمان والتوكّل، وأنّ من جمع هذه الصفات يكون داخلاً في عباد الله.

١٠٠. (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ):

لمّا أخبر سبحانه عن عدم تسلّط الشيطان على المؤمن المتوكّل على ربّه، تحدّث عمّن عليه سلطانه وهم الذين جمعوا بين أمرين، وكلاهما يقابلان الأمرين اللّذين يتحلّى بهما من ليس له سلطان عليه.

١. الذين اتّخذوه وليّاً لهم كما قال: (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ)وتولّي الشيطان يقابل ما في الآية السابقة أعني قوله: (الَّذِينَ آمَنُوا) ووجه التقابل واضح، فمن تولّى الشيطان يكون مطيعاً، والشيطان مطاعاً، ومن آمن بالله واتّخذه ربّاً يكون مطيعاً، والله مطاعاً.

٢. الذين يشركون بالشيطان كما قال: (وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ): أي بالشيطان (مُشْرِكُونَ). والضمائر الثلاثة في قوله: (سُلْطَانُهُ) و (يَتَوَلَّوْنَهُ) و (بِهِ) ترجع إلى الشيطان، وجعل الشيطان شريكاً لله سبحانه يقابل التوكّل على الربّ، فإنّ المتوكل يُسلِم أمره إلى الله سبحانه، وأمّا المشرك فينقاد إلى من جعله شريكاً. فسبحان الله كيف وصف الطائفتين بوصفين يقابل كلُّ الوصف الآخر!! فهل يمكن لرجل أُمّيّ مع أنّ له هموماً كثيرة أن يأتي بهذه المعجزة؟

١٠١. (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَة وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَر بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ):

ما هو المراد من تبديل آية مكان آية؟

تحدّث سبحانه عن القرآن وأمر بالاستعاذة عند قراءته، فصار ذلك سبباً لاستمرار الكلام حول القرآن، كيف؟ وقد جاء في بدء السورة قوله سبحانه:(يُنَزِّلُ الْمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)(النحل:٢)، فذكر في هذه الآية واحدة من الذرائع التي تمسّك بها المشركون في نفي كونه كلام الله سبحانه، والنبيّ مرسلاً من لدنه تعالى، وهي مسألة نسخ آية بآية.

توضيحه: أنّ أحكامه سبحانه تابعة للمصالح، فربما تقتضي المصلحة إنشاء حُكم في فترة خاصّة إلى مدّة معينة عند الشارع وإن لم يذكر في اللفظ، فإذا تمّ أمد الحكم، وفقد الحُكم المشروعُ الملاكَ وترتّبت المصلحة على إنشاء حُكم آخر يقوم مكان الحكم الأوّل، لا محيص للمشرّع من التبديل وليس في ذلك أي إشكال، مثلاً: كانت المصلحة الملزمة الصلاة باتّجاه بيت المقدس، ولكن بعد فترة اقتضت المصلحة الصلاة شطر المسجد الحرام، فالذين أُوتوا الإيمان الكامل قالوا كلٌّ من عند الله، وأمّا الذين في قلوبهم زيغ فجعلوا ذلك ذريعة لإنكار الوحي وصلة الرسول بالسماء، ولذلك يقول سبحانه:(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً): أي وضعنا آية (مَكَانَ آيَة): أي رفعناها، ونسخنا آية مكان آية أُخرى، فليس هذا أمراً بديعاً (وَ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ): أي أعلم بمصالح الأُمّة، فينزل في كلّ وقت ما تقتضيه المصلحة، لكنّ المعاندين الذين يتشبّثون بكلّ قشّة في نقد الرسالة: (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَر)فخصّوا أمر النبيّ بالافتراء ووصفوه بأنّه مفتر، وكأنّه لا شأن له إلاّ هذا، فالله سبحانه يردّ عليهم بقوله: (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ): أي لا يعلمون وجه التبديل ومصلحة النسخ والأسباب التي توجب التبديل، فأغلبهم غافلون عن حقيقة الأمر، وأنّ التبديل لا ينافي كون الآية من الله سبحانه، ولكنّ قليلاً منهم واقفون على حقيقته، ولكن يستكبرون في قبوله.

وهنا يثار سؤال، وهو كيف تتحدّث الآية عن النسخ مع أنّ الظروف المكّية(إذا قلنا بمكّية الآية) لم تشهد تشريع حكم حتى ينسخ ويقع موقع الاعتراض؟ ويمكن أن يجاب عنه بأنّ الآية ناظرة إلى ما سيأتي في قوله سبحانه:(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ)(النحل:١١٨.) حيث إنّه سبحانه نسخ ما حرّم على بني إسرائيل، وحصر الحرمة في أُمور أربعة، فصار ذلك موضع اعتراض للمشركين ،والله العالم.

وربّما تفسّر الآية بالشريعة، فيكون المراد اِحلال الشريعة المحمّدية مكان الشريعة المتقدّمة. وليس ثمّة موضع للسؤال إذا قلنا بمدنيّة قسم من السورة، أعني من الآية (٤١) إلى آخر السورة، كما مرّ في فقرة (عدد آياتها ومحلّ نزولها).

١٠٢. (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ):

لمّا وصفوا النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بكونه مفترياً والقرآن من افترائه، ردّ عليهم سبحانه في هذه الآية بأنّ القرآن منزل من ربّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) نزّله من الله سبحانه روحُ القدس، كما قال:(قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ): أي جبرئيل(عليه السلام)، فليس النبيّ مفترياً ولا القرآن من افترائه واختراعه، بل جاء به ملك ملؤه القدس والطُّهر كما قال: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ)، والجملة من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، فالرُّوح كلّه طُهر وفضل وجلالة، وأريد به جبرئيل، وقد أطلق عليه سبحانه لفظ الرُّوح في قوله: (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا)(مريم:١٧.) نزّله: (مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ): أي ملتبساً بالحقّ لا يشوبه الباطل.

وإضافة الربّ إلى المخاطب للدّلالة على كمال العناية والرحمة في حقّه.

ثمّ إنّه سبحانه يذكر الغاية من تبديل آية مكان أُخرى، وهو تثبيت قلوب المؤمنين على الحقّ وأنّ المصالح تتغيّر، ويتبعها تبدُّل الأحكام كما يقول: (لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا) على الحقّ مضافاً إلى أنّه (وَهُدًى وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ) وقد تقدّم هذان الوصفان في قوله: (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْء وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ)(النحل:٨٩.).

١٠٣. (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ):

القرآن الكريم كان أقوى معجزة للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بحيث خضع أمام حلاوة كلماته وروعة آياته، أساتذة الفصاحة والبيان، واعترفوا برُمّتهم بأنّ القرآن الذي جاء به محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يعرف مثله البشر ولم يعهد له التاريخ الإنساني نظيراً، ومع ذلك نرى أنّ زعماء قريش المعاندين رمَوه بتُهم واهية، كقولهم: إنّه سحر يأخذ بقلوب الناس، كما نُقل عن الوليد بن المغيرة،(إعلام الورى باعلام الهدى:٤١.) إلى غير ذلك من التُّهم، وأخيراً اتّهموا النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)بأنّه يتعلّم القرآن من غيره، وقد نُقل

عن ابن عباس أنّ قريشاً قالت: إنّما يعلّمه بلعام، وكان قيناً بمكة رومياً نصرانياً، وإليه يشير قوله سبحانه:(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ). ثمّ إنّه سبحانه ألزمهم الحجة وأكذبهم بأن قال:(لِسَانُ الذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ): أي يضيفون إليه التعليم (أَعْجَمِيٌّ) وهو الذي لا يفصح وإن كان عربياً(وَ هَذَا) أي القرآن الكريم (لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)فكيف يأتي الأعجمي بمثله؟!

لنفترض ـ وفرض المحال ليس بمحال ـ أنّ النبيّ جلس يوماً أو يومين أو أياماً عند مَن أشاروا إليه، فغاية ما يمكن أن يأخذ منه بضعاً من الآيات، مع أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يتلو القرآن منذ بعثته بمكّة إلى ما قُبيل رحيله بالمدينة المنورة ولم يكن معه، طول تلك الفترة التي استغرقت نحو (٢٣) عاماً، ذلك الرجل المزعوم!! على أنّ هؤلاء الذين اتّهموا النبيّ بهذه التُّهمة الظالمة غفلوا عن أنّ القرآن يتضمّن تشريعاً وتقنيناً في مختلف المجالات، وقصصاً وعبَراً، وبراهين وحججاً في أمر التوحيد وغيره، فكيف يمكن لرجل روميّ مهنته الحدادة أن يأتي بكلّ ذلك؟! ولو كان هو صاحب هذا الكتاب وصانعه فأَولى به أن يدعو الناس إلى نفسه ويحتجّ به.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله) حول هذه الآية: وهذه استعارة ؛ لأنّ المراد باللِّسان هاهنا جملة القرآن وطريقته، لا العضو المخصوص الذي يقع الكلام به، وذلك كما يقول العرب في القصيدة: هذه لسان فلان أي قوله، قال شاعرهم:

لسان السوء تهديها إلينا *** وحِنْتَ وما حسبتك أن تحينا[1]

[1]قال محقق الكتاب: روي هذا البيت هنا على هذه الصورة، وفي «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي:١٧٩/١٠ روي هكذا:

لسان الشرّ تهديها إلينا *** وخُنتَ وما حسبتك أن تخونا

أي مقالة السوء، ومثل ذلك قول الآخر:

ندمتُ على لسان كان منّي *** وددتُ بأنّه في جوف عِكْمِ

أي على قول سبق منّي لأنّ الندم إنّما يكون على الفعال والكلام لا على الأعضاء والأعيان، وإنما سمّى القول لساناً لأنّه إنّما يكون باللِّسان ويصدر عن اللِّسان.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٩٦، تحقيق محمد عبد الغني حسن.)

١٠٤. (إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ):

الإخبار عن عدم إيمان جماعة من قريش

اشتهرت جماعة في الفترة المكّية بأنّهم كانوا من ألدّ أعداء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل، وأبو سفيان بن حرب، و عُتبة بن ربيعة، وشَيبة بن ربيعة، فكانوا يمنعون الناس عن اعتناق الإسلام ويؤذون مَن أسلم، وهم الذين كانوا يفترون على النبيّ، وكان من افتراءاتهم أنّ النبيّ أخذ القرآن من أعجميّ، فالله سبحانه يخبر عن أنّه يترك هؤلاء المشركين وأنفسَهم، حيث تمرّدوا على الله وواجهوا آياته بالتكذيب عناداً وتعنّتاً، ويقول:(إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللهُ) هداية توفيق ولطف منه تعالى، وإنّما يحجبها عنهم لعدم استنارتهم بهداية الدلالة والإرشاد. وهذا ما تنبّأ به القرآن الكريم ببقاء هؤلاء على كفرهم، وتحقّق النبأ كما أخبر. ثم إنّه سبحانه بعدما أخبر بعدم إيمانهم أوعدهم بعذاب أليم، وقال:(وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

غير أنّ ابن عاشور يستثني منهم أبا سفيان ويقول: وكان أبو سفيان مقتصراً على الانتصار لدينه ولقومه ودفْع المسلمين عن أن يغلبوهم، فحرَم الله أبا جهل الهداية فأهلكه كافراً، وهدى أبا سفيان فأصبح من خيرة المؤمنين وتشرّف بصهر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ؟!(التحرير والتنوير:٢٣٣/١٣.)

نقد نظرية ابن عاشور حول أبي سفيان

أقول: نحن مع تقديرنا لابن عاشور، لكنْ يبدو أنّه قليل الاطّلاع عمّا جرى في صدر الإسلام من الحوادث المرّة، فإنّ أبا سفيان هو

رئيس المشركين في أُحد والأحزاب، أمّا في غزوة أُحد فكان قائد المشركين، وقد قسّم الجند إلى ثلاثة أقسام: الرماة وجعلهم في الوسط، والميمنة وجعل عليهم خالد بن الوليد، والميسرة وجعل عليهم عكرمة بن أبي جهل. فكيف يكون شأنه هو ما ذكره ابن عاشور من الانتصار لدينه فقط؟! وأمّا غزوة الخندق فحدّث عنها ولا حرج، فقد حاصر المشركون مع قبائل أُخرى المدينة المنورة قرابة شهر ومكثوا حول الخندق إلى أن فرّقهم الإمداد الغيبيّ ـ بعد أن جندل الإمام عليّ فارسَ قريش عمرو بن عبدوَدّ العامريّ ـ حيث بعث الله عليهم فجأة الريح العاصف، واشتدّ البرد، وكان اشتداد الريح كبيراً بحيث أكفأ قدورهم، واقتلع خيامهم، وأطفأ أضواءهم وعند ذاك، لم يجد أبو سفيان بُدّاً إلاّ الارتحال، وقال: يا معشر قريش (خطاباً لقومه) إنّكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخفّ، وأخلفتنا بنو قريظة ولقينا من شدّة الريح ما ترون، ما تطمئنّ لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا إنّي مرتحل.(انظر:تاريخ الطبري:٢/٢٤٤، إمتاع الأسماع:١/٢٣٩.)

وأمّا أنّه أسلم بعد فتح مكّة فإنّما كان إسلامه لغاية ضعفه وسقوطه في أعين الناس، ولم يكن إسلامه هذا إلاّ إسلاماً لفظياً لا عن اعتقاد راسخ، بل كان باقياً على كفره بشهادة أنّه عندما تولّى عثمان بن عفان الأمر، اجتمع بنو أُمية في بيت عثمان وخطب بهم أبو سفيان قائلاً: يا بني عبد مناف تلقّفوها تلقُّف الكرة، فما هناك جنّة ولا نار.(انظر: تاريخ الطبري: ٨/١٨٥.)

وأمّا أنّه تشرّف بصهر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) فقد تزوّج بابنته أُمّ حبيبة (رَملة) سنة ستّ، وقيل: سبع، وأبو سفيان يومذاك كافر، وكانت قد هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي إلى الحبشة، فتنصّر بها، ومات نصرانياً، وثبتت هي على الإسلام، فتزوّجها رسول الله بعده.(تهذيب الكمال:٣٥/١٧٥، برقم ٧٨٤١.)

١٠٥. (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ):

لمّا وصف المشركون النبيَّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بقولهم:(إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَر) وقولهم الآخر: (إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) ونزّه القرآن من أن يكون أثراً لمن ينسبونه إليه، جاء البيان القرآني ردّاً على هؤلاء بأنّ الافتراء شأن من لا يؤمنون بآيات الله، حيث ينسبونها إلى بشر وقال: (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ) عبّر عنهم بقوله:(لاَ يُؤْمِنُونَ) مكان ما آمنوا تلويحاً باستمرارهم في عدم الإيمان، ولم يُسمّ هؤلاء وإنّما عبّر عنهم بمضمون الصلة ليكون علماً وعلامة لهم. وبما أنّهم وصفوا النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بقولهم:(إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَر)فجعلوا الرسول مقصوراً على كونه مفترياً، دَمَغهم الله سبحانه بالكذب، وقال: (وَ أُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ): أي لا غيرهم.

الآيات:١٠٦- ١١١ (مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ... وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ).

الآيات: السادسة بعد المئة إلى الحادية عشرة بعد المئة

(مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْس تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْس مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ).

المفردات

أُكره: الإكراه هو الفعل أو القول الصادر بضغط من عامل خارجيّ، بخلاف الاضطرار فهو يشترك مع الإكراه لكن العامل الدافع أمر داخليّ كما إذا باع ما يعدّ من ضروريات حياته لأجل علاج الداء الذي ابتُلي به. وأُريد بالإكراه هنا التلفُّظ بكلمة ا لكفر بضغط ممّن بيده القوّة.

مطمئنّ: من الاطمئنان، وهو سكون النفس بعد انزعاجها. والمراد الثبات قلباً.

شَرَح بالكفر صدراً: اعتقده وطاب به نفساً.

استحبُّوا: مبالغة في «أحبّوا» أي فضّلوا الحياة الدنيوية على الأُخروية.

طَبَع: خَتَم.

لا جَرَم: لا محالة، ولا بدّ.

فُتنوا: عُذِّبوا في الله.

كلّ نفس: أُريد به الإنسان الخارجيّ بما أنّه عند العرف مركَّب من بدن وروح.

تجادل: تدافع وتسعى في خلاصها.

عن نفسها: أي ذاتها وواقعها، التي يعبّر عنها بـ«أنا».

تُوفّى: تُعطى شيئاً وافياً.

التفسير

١٠٦. (مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ):

تجويز التقية لدى الاضطرار

لمّا تقدّم التحذير من نقض عهد الله، انتقل إلى من أُكره على النقض بضغط من عامل خارجيّ فأظهر الكفر غير أنّ قلبه ممتلئ بالإيمان، فهذا لا بأس عليه. ويظهر مفاد الآية بما اتّفق عليه أكثر المفسّرين من نزول الآية في حقّ عمّار بن ياسر (رضوان الله تعالى عليهما)، وقالوا: إنّ جماعة أُكرهوا، وهم عمّار وياسر أبوه وأُمّه سُمَيّة وصُهيب وبلال وخبّاب، عُذِّبوا وقُتل أبو عمّار وأُمّه، وأعطاهم عمّار بلسانه ما أرادوا منه، ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، فقال قوم: كفر عمّار، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): كلاّ، إنّ عمّاراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه. وجاء عمّار إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وهو يبكي، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): ما وراءك؟ فقال: شرّ يا رسول الله، ما تُركتُ حتى نلتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير، فجعل رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يمسح عينيه، ويقول: إن عادوا لك فعُد لهم بما قلت، فنزلت الآية.(مجمع البيان:٦/٢٣٣ـ ٢٣٤.)

وبعد هذه المقدّمة، فلندخل في تفسير الآية، فنقول:

قوله تعالى:(مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ)(الموصول مبتدأ، والخبر محذوف أي فعليهم غضب الله، يدلّ عليه خبر موصول آخر أعني: (مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ) أعني قوله سبحانه: (فعليهم...)أو هو خبر لكلا الموصولين على ما اخترناه في المتن وما ذكرناه أوضح الوجوه التي ذكرها المفسّرون. لاحظ تفسير الرازي: ٢٠ / ١٢٠.) إخبار عمّن ارتدّ عن دينه. ثم إنّ الآية تصنّف هذه الطائفة إلى قسمين:

١. (إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ): أي كفر لفظاً ولم يكفر قلباً وبقي على اعتقاده، وإنّما أجرى الكفر على لسانه إكراهاً للتخلّص من الأذى والعذاب، فهذا مستثنىً ممّا حُكم على الطائفة الثانية من غضب الله عليهم.

٢. (وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا): أي بسط صدره للكفر ورضيَه قلباً، وعدل عمّا كان يعتقد من التوحيد إلى الشرك، فهو محكوم بما سيأتي.

فقوله: (وَ لَكِنْ مَنْ شَرَحَ) وإن كان استدراكاً من الاستثناء أعني قوله: (إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ) واحتراساً من أن يُفهم من الاستثناء أنّ المُكرَه مرخّص له في أن يسلخ الإيمانَ من قلبه، ولكنّه في الوقت نفسه توضيح وشرح للصدر، أعني قوله:(مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ

إِيمَانِهِ)، وبهذا يظهر أنّ قوله: (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ) خبر عن الموصول والاستدراك معاً لِما عرفت من أنّ الاستدراك شرح للموصول الأوّل.

ثمّ إنّه سبحانه يتوعّد هذه الطائفة التي «كفرت بالله قلباً بعد إيمانها» وشرحت صدرها للكفر بأُمور:

أحدها: (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ) والغضب من الله هو إرادة العقاب بهم.

ثانيها: (وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) يوم القيامة.

وأمّا سائر الأُمور فستوافيك عند تفسير الآيات التي تتضمّن بيانها.

١٠٧. (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ):

بعد أن ذكرت الآية السابقة وعيده سبحانه للمرتدّين، جاء البيان القرآني لتعليل ذلك ووصفهم بأُمور ثلاثة ـ وراء الأمرَين السابقَين (غضب الله، وعذابه) ـ وهذه الأُمور عبارة عن:

١. استحباب الدنيا وإيثارها على الآخرة.

٢. الحرمان من هداية الله.

٣. الطّبع على القلوب والسمع والأبصار.

٤. الغفلة التامّة. وسيأتي شرح هذه الأُمور في الآيات التالية:

(ذَلِكَ) كونهم مستحقّين للوعيد المتقدّم (بِأَنَّهُمُ):

١. (اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا): أي آثروا منافعها (عَلَى الآخِرَةِ) ونعيمها، فرجعوا عن الإيمان ورضيت نفوسهم بالكفر.

٢. (وَ أَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)فحُرموا من هداية الله، أي هداية التوفيق والعناية الخاصّة، لتولّيهم عن هداية الدلالة والبيان، وعزوفهم عن الاستضاءة بأنوارها.

١٠٨. (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ):

٣. (أُولَئِكَ) الكافرون المؤثرون للحياة الدُّنيا، هم (الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ)والمراد من الطبع هو الختم، فلو أراد شخص أن يغلق صندوقاً معيّناً بشكل محكم كي لا تصل إليه الأيدي يقوم بوضع ختم من الشمع على باب الصندوق للإطمئنان عليه من عبث العابثين، فالله سبحانه يختم على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم اللاّتي تُعدّ من أدوات المعرفة، فعندئذ لا تجد الهداية الإلهية منفذاً للدخول إلى قلوبهم. ومن المعلوم أنّ الطّبع على أدوات المعرفة من الله تعالى، هو نتيجة عملهم حيث إنّهم فضّلوا الحياة الدنيا على الآخرة فغيّروا دينهم، فصاروا مستحقّين للطّبع. ويدلّ عليه عدد من الآيات الكريمة، قال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ)(المنافقون:٣.) وتجد نظير هذه الآية في الختم على القلوب.

٤.(وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) عن مصيرهم السيّئ.

١٠٩. (لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ):

٤. (لاَ جَرَمَ): أي لا محالة (أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ)لأنّهم ضيّعوا رأس مالهم في الدنيا، فبقوا لا زاد لهم في الحياة الأُخروية.

١١٠. (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ):

شكوى المعذّبين إلى النبيّ

لمّا كان الموضوع في الآيات السابقة هو المعتنقين للإسلام المعذَّبين من القوى الكافرة، وقد مرّ أنّهم على قسمين: قسم أظهروا الكفر مع الحفاظ على العقيدة، وقسم أظهروا الكفر وفضّلوا الحياة الدنيا، فصار ذلك سبباً لذكر طائفة ثالثة، وهم الذين (فُتِنوا): أي

عُذِّبوا من جانب المشركين فلم يجدوا محيصاً إلاّ المهاجرة إلى أرض بعيدة للحفاظ على عقيدتهم، وهؤلاء هم الذين هاجروا إلى الحبشة بإذن من النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم).

روى أصحاب السير أنّ المعذَّبين شكوا إلى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وطلبوا رأيه في ذلك فقال(صلى الله عليه وآله وسلم) لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكاً لا يظلم عنده أحدٌ، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه».(السيرة النبوية:١/٣٢١؛ تاريخ الطبري:٢/٧٠.)

لقد كان لكلام رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أثر قوي في نفوسهم فشدّوا رحالهم وغادروا مكّة ليلاً في غفلة من المشركين مشاة وركباناً، متّجهين نحو جدّة للسفر عبر مينائها إلى الحبشة، وكان هذا الفريق يتألّف من خمسة عشر شخصاً بينهم أربعة من النسوة المسلمات.(تاريخ الطبري:٢/٧٠.)

ثمّ تلتها هجرة أُخرى وفي مقدّمة المهاجرين جعفر بن أبي طالب ابن عمّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم). وهؤلاء هاجروا اقتداءً بالنبيّ إبراهيم(عليه السلام) حيث قال:(إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي).(العنكبوت:٢٦.)

وإلى هؤلاء يشير سبحانه بقوله:(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا) إلى الحبشة (مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا): أي عُذِّبوا (ثُمَّ جَاهَدُوا): أي قاوموا ضغوط المشركين للرجوع إلى الشِّرك (وَصَبَرُوا) واستعانوا بالصبر كما يقول سبحانه: (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ)(البقرة:٤٥.)، (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا): أي من الهجرة أو هي والفتنة والجهاد والصبر (لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) جزاء على أعمالهم.

١١١. (يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْس تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْس مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ):

لمّا تقدّم أنّ الذين آثروا الحياة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية(هُمُ الْخَاسِرُونَ)(النحل:١٠٩.) بدأ ببيان حال هؤلاء يوم القيامة.

ويحتمل أن يكون ناظراً إلى ما تقدّم من قوله:(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ).(النحل:١١٠.)

فعلى الأوّل تختصّ الآية بالخاسرين وهم المشركون، وعلى الثاني تشمل المشركين والكافرين. وعلى كلّ تقدير، فقوله: (يَوْمَ): أي يوم القيامة (تَأْتِي كُلُّ نَفْس تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا) وتسعى في خلاصها ولا يهمّها شأن غيرها من والد أو ولد، والله سبحانه يخبر بأنّ كلّ نفس تُجزى حسب ما عملت كما يقول: (وَتُوَفَّى): أي تُعطى على التمام (كُلُّ نَفْس مَا عَمِلَتْ)من طاعة ومعصية فيُجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بما أسلف من إساءة (وَ هُمْ لاَ يُظْلَمُونَ): أي لا يُعتدى عليهم.

***

إلى هنا قمنا بتوضيح فقرات الآية، وعندئذ يقع الكلام في مقامين:

١. الارتداد جريمة خطيرة.

٢. التقيّة وآثارها البنّاءة. وإليك الكلام فيهما.

الأوّل: الارتداد جريمة خطيرة

عُرِّف الارتداد بالكفر بعد الإسلام.(لاحظ: شرائع الإسلام:٤/١٨٣.)

قال سبحانه:(وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)(البقرة:٢١٧.).

والارتداد من أفحش أنواع الكفر وأغلظها حكماً، وعليه يدلّ قوله تعالى:(حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ).

دواعي الارتداد

إنّ للارتداد دواعيَ مختلفة تختلف حسب الظروف، أهمّها ما يلي:

١. الإصرار على كبائر الذنوب ينتهي إلى الارتداد
إنّ الإصرار على الذُّنوب مرّة بعد أُخرى يؤثّر في تفكير الإنسان وقضائه على وجه لو توغّل الإنسان في التعدّي على حدود الله ربّما ينتهي به الأمر إلى إنكار ماوراء الطبيعة، ويشهد لذلك قوله سبحانه:(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوآى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ)(الروم:١٠.) فتقدير الآية: إنّ التكذيب بآيات الله والاستهزاء بها نتيجة الأعمال السيئة التي يقوم بها الإنسان، فيكون العمل بنّاءً للعقيدة وصانعاً لها، ولذا فإنّ كثيراً من المرتدين إنّما يرتدّون على أعقابهم بسبب إيغالهم في المعاصي على نحو يؤثّر في زوال العقيدة.
٢. الترغيب والترهيب
إنّ القوى الكافرة التي تملك القدرة والمال ربّما تصدّ المؤمنين الضعفاء عن اتّباع سبيل الله إمّا ترهيباً أو ترغيباً، كما كان هو الحال في صدر الإسلام، فقد جاء عن جابر بن زيد والضحّاك بن مزاحم أنّ جماعة ممّن آمن برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ارتدّوا ورجعوا إلى الشِّرك بعد أن لَحِقهم الأذى، ومن هؤلاء: الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أُميّة بن خلف، والعاصي بن منبّه بن الحجاج، فأنزل الله فيهم قوله سبحانه: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ)(العنكبوت: ١٠.). وعن الكلبيّ أنّها نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة المخزوميّ.(لاحظ : تاريخ الإسلام للذهبي: ٢ / ٦٣ ؛ مجمع البيان: ٨ / ٩.) وأُريد من فتنة الناس عذابهم. وربّما يُتصوَّر أنّ الحكم على المرتدّ بالقتل كما هو الحال في المرتدّ الفطريّ لا ينسجم مع الحرية، فإنّ للإنسان أن يختار أيَّ دين من الأديان السماوية، فلماذا لا يجوز أن يرتدّ المسلم إلى النصرانية مثلاً؟ والجواب: إنّ الحرية الدينية شيء وتجويز ارتداد الإنسان عن الإسلام شيء آخر، فللإنسان أن لا ينتحل ديناً، ويبلغ كافراً على أن لا يبادر إلى دعوة إنسان آخر إلى الكفر، أو يبقى على النصرانية واليهودية ويخلّي بين نفسه وما فيها، لكن إذا اختار الإسلام عن بصيرة ووعي، ثمّ عدل عن الإسلام وتظاهر بذلك فإنّه يوجب التزعزع في سائر المعتقدين بالإسلام، وينتهي إلى ما لا تحمد عقباه، ولذلك فالإسلام يحاربه بشدة وبلا هوادة، وذلك لأنّ عمله هذا يُعتبر نوع محاربة للدّين الإسلامي، إذ أنّ الارتداد والتظاهر به ليس أمراً فردياً يتسامح فيه، بل هو محاربة للدّين بنحو سرّيّ. توضيح ذلك: أنّ الأنظمة على قسمين: ١. أنظمة قائمة على أُسس مادّية، وقوانين اجتماعية مستمدة منها، ولا علاقة لها بالدين، وماوراء الطبيعة، ومثالها الأنظمة السائدة في الغرب، فإنّ اللازم على كلّ مواطن في تلك البلدان، هو العمل على وفق القوانين السائدة فيها، من دون أن يكون للدين والعقيدة تأثير في تلك الأنظمة، وعلى هذا فلو تحوّل المواطن المسيحيّ إلى بوذيّ، أو تحوّل البوذيّ إلى مسيحيّ، لَما كان ذلك مؤثّراً في النظام ولا في استقرار المجتمع؛ لأنّ أعمدة النظام، هي تلك الأُسس المادّية الّتي يقوم عليها النظام، وهي معزولة عن أي فكر دينيّ أو عقيدة إلهية. ٢. أنظمة قائمة على أُسس دينية وعقائد إلهية، مرتبطة بما وراء الطبيعة، ففي هذه الأنظمة يُعدّ اعتقاد المواطن بالدين وأحكامه، ركناً ركيناً في حفظ النظام، كما أنّ الخروج عن العقيدة، والتظاهر به، يعدّ خروجاً على أصل النظام، خصوصاً إذا أعلن المرتدّ عن فكرته، وفي المجتمع ضعفاء العقول سمّاعون لكلّ صوت، ففي هذه الحالة، يعدّ الشخص محارباً للنظام، داعياً إلى نقضه وهدمه. فهل يُتصوّر أن يمهل مدير النظام ورئيسه مَن يحاول إلغاء وجوده وسلب أثره عن المجتمع؟ كلاّ، ولا، ولذلك لا تجد أيَّ مجتمع ـ وإن كان ينادي بالحرية ـ يسمح لأحد أفراده أن يعمد إلى خلخلة النظام، وتعكير أمن أفراده، والّذي يشهد لذلك أنّ الجاسوس في عامّة

الأنظمة، يعاقَب بأشدّ العقوبات، وما ذلك إلاّ لأنّه يحارب النظام ويعاديه.

ولذلك نرى أنّه لما تأسّست الدولة الإسلامية في المدينة المنوّرة وضعفت سيطرة اليهود الاقتصادية، بدأوا يخطّطون لإضعاف البنية التحتية لدولة الإسلام الفتيّة بأساليب مختلفة، ومنها ما يذكره القرآن الكريم، حيث يقول:(وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (آل عمران:٧٢).

ويستفاد من الآية أنّهم كانوا يخطّطون لبذر ظاهرة الارتداد بين المسلمين، فإنّ الإيمان وجه النهار والارتداد آخره، يورث سريان الشكّ والترديد في نفوس المؤمنين.

وبهذه المناسبة نقول:إنّ ارتداد سلمان رشدي، أو رافق تقي، أو شاهين نجفي ـ الذي تجرّأ على مقام الإمام الهادي(عليه السلام) ـ كلّها ارتدادات ذوات دوافع سياسية، تقف وراءها دول غربية، تدعمهم وتشجّعهم على ذلك حتّى يحقّق المستكبرون أهدافهم في زعزعة إيمان المسلمين بإسلامهم، وتتحقّق عند ذلك خططهم الشيطانية في السيطرة على بلاد الإسلام وخيراته.

هذا كلّه حول الارتداد على وجه الإجمال، وأمّا حكم الارتداد فطرياً وملّياً فتعرّضت له الكتب الفقهية، فليرجع إليها من أحبّ.(

وقد أجبنا عن الشبهات المثارة حول الارتداد في كتابنا«شبهات و ردود»، فراجع.)

الثاني: التقية وآثارها البنّاءة

هذا هو الأمر الثاني الذي تشير إليه الآية.

والتقيّة لغة اسم لاتّقى، يتّقي، والتاء في أوّلها بدل عن الواو، والأصل: وقي، فأُبدل الواو إلى التاء، فيقال: تقيّة، وكأنّ المتّقي يجعل التقيّة وقاية لنفسه من العدوّ.

إنّ الأخذ بالتقيّة خوفاً من المخالف الغاشم أمر فطريّ، تأمر به فطرة الإنسان، فعندما يرى أنّ المخالف يصادر عامّة الحريات ويمارس سياسة القمع، لم يبق له محيص، من أجل حقن دمه أو تجنّب التعرّض للأذى الشديد، إلاّ مماشاة المخالف على نحو لولا الخوف لما أخفى عليه عقيدته وترك مخالفته.

وفي الحقيقة أنّ التقيّة درع يحتمي به الضعيف من المتسلّط الظالم الذي لا يرحم مخالفه إلاّ باتّباعه وهو مجهّز بكلّ وسائل القوّة والبطش والظلم.

وسيوافيك، في تفسيرنا لسورة غافر، التي ورد فيها قوله تعالى: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ) (غافر:٢٨)، سيوافيك مزيد بيان حول التقيّة، وأنّها من المبادئ التي التزم بها المسلمون جميعاً، وليس الشيعة منهم فقط، كما يحاول أن يُصوِّر ذلك خصومهم ويغمزونهم بها، وإن كان الشيعة قد اضطرّوا إلى العمل بها أكثر من غيرهم بسبب قسوة الظروف التي عاشوها في عصور مختلفة.

ولقد صدق العلاّمة محمد حسين كاشف الغطاء حينما قال:«واللّوم والتعيير بالتقيّة ـ إن كانت تستحقّ اللّوم والتعيير ـ ليس على الشيعة فحسب، بل على مَن سلبهم موهبة الحرية، وألجأهم إلى العمل بالتقية». (أصل الشيعة وأُصولها:١٩٣.)

سبب تأكيد الروايات على التقيّة

مَن سبر الروايات الكثيرة التي ذكرت التقيّة سيعرف أنّ أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) يؤكّدون على التقيّة في القول والعمل، وهنا يطرح السؤال التالي: ما هو السبب لهذا التأكيد؟

والجواب: إنّ مَن قرأ تاريخ حياة الشيعة في العصور الماضية يرى أنّهم كانوا يُؤخذون بالظِنّة ويُقتلون وتُصادر أموالهم، وإن كنت في شكّ من ذلك فأقرأ ما ذكره أبو الحسن علي بن محمد المدائني في كتاب «الأحداث».

كتابة معاوية إلى عمّاله في التشديد على الشيعة

قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عمّاله بعد عام الجماعة: أن برئت الذمّة ممّن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كلّ كورة (الكورة: البقعة الّتي تجتمع فيها المساكن والقرى؛ المنجد: مادة «كور».)، وعلى كلّ منبر، يلعنون علياً ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشدَّ الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة، لكثرة مَن بها من شيعة علي(عليه السلام)فاستعمل عليها زياد بن سمية، وضم إليه البصرة، فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف، لأنّه كان منهم أيام علي(عليه السلام)، فقتلهم تحت كلّ حجر ومدر، وأخافهم، وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشرَّدهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم، وكتب معاوية إلى عمّاله في جميع الآفاق: ألاّ يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة.

ثمّ كتب إلى عمّاله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا مَن قامت عليه البيّنة أنّه يحبّ علياً وأهل بيته، فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشفع ذلك بنسخة أُخرى: مَن اتّهمتموه بموالاة هؤلاء القوم، فنكّلوا به، واهدموا داره. فلم يكن البلاء أشدّ ولا أكثر منه بالعراق، ولا سيّما بالكوفة، حتّى أنّ الرجل من شيعة علي(عليه السلام) ليأتيه مَن يثق به، فيدخل بيته، فيُلقي إليه سرّه، ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدّثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة، ليكتمنّ عليه. (شرح نهج البلاغة: ١١ / ٤٤ ـ ٤٦.)

فإذا كان حال الشيعة بهذا الشكل في عصر معاوية المعروف بالدهاء والمرونة ـ كما تعرّفه كتب التاريخ ـ فكيف حالهم في عصر المروانيّين الذي سلّطوا على شيعة الكوفة الحجّاج بن يوسف الثقفي فنكّل بهم وقتلهم قتلاً فظيعاً. ثم بعد أن دالت دولة الأمويّين جاء عصر بني العباس، ففاقوا أسلافهم في الظلم والقتل، كما قال الشاعر الفحل أبو فراس الحمدانيّ في قصيدته في أهل البيت (عليهم السلام):

ما نال منهم بنو حرب وإنْ عظُمت *** تلك الجرائر إلاّ دون نيلكُمُ

كم غدرة لكم في الدين واضحة *** وكم دم لرسول الله عندكمُ

أأنتم آلُه فيما ترون وفي *** أظفاركم من بنيه الطاهرين دمُ

وقال آخر:

يا ليت جور بني مروان عاد لنا *** وأنّ عدل بني العباس في النارِ[١]

[١] البيت لأبي عطاء أفلح بن يسار السِّنديّ. المحاسن والمساوئ للبيهقي:٢٤٦.

ففي تلك الأيام العصيبة كان بسطاء الشيعة يتظاهرون بالمخالفة فيُسبِّبون فتنة كبيرة تنتهي إلى قتلهم وأخذ أصدقائهم وأعوانهم، فربّما ينتهي الأمر إلى قطع نسل الشيعة وتصفيتهم جسديّاً.

إنّ هدر الدم في سبيل الله تعالى من أفضل القربات، لكن بشرط أن تترتّب عليه نتيجة إيجابية، لا على عكس المقصود، كإبعاد الشيعة من أوطانهم، وإغلاق مساجدهم ودورهم العلمية والثقافية أو تهديمها، وإحراق كتبهم، ومحو آثارهم. ففي مثل هذه الظروف يؤكّد الإمام(عليه السلام) على التقيّة ويراها تسعة أعشار الدين مبالغة في المقصود ويرى المخالف ممّن لا دين له، أي لا يُحترم دمه وعرضه ودم سائر أبناء مذهبه.

إذا عدنا إلى تاريخ بغداد، مركز العلم والثقافة، نجد أنّ الشيعة والسنّة كانوا يعيشون فيها متسالمين، ثمّ اتّخذ غلاة الحنابلة العنف وسيلة في التعامل مع المخالفين لهم من المسلمين لا سيّما الشيعة منهم. ولمّا استولى السلاجقة على بغداد وأزالوا حكم البويهيّين أضرموا نار العداء بين هاتين الطائفتين السُّنيّة والشِّيعيّة، وسرت شرارتها إلى الكرخ فقُتل فيه عدد من الشيعة وهُدمت دورهم وأُحرقت مكتبة الشيخ الطوسي وأخذوا يحرقون الكتب، ولم يجد الشيخ بدّاً من مغادرة بغداد مهاجراً إلى النجف الأشرف.(انظر:

الكامل في التاريخ لابن الأثير:٩/٦٣٧ـ ٦٣٨(حوادث سنة ٤٤٩هـ).)

ثم لماذا نتصفّح الأوراق التالدة للطائفتين، إذ يكفينا اليوم النظر إلى النار التي أجّجها الاستكبار العالمي بين الطائفتين وتحمّل مسؤوليتها أُمراء المنطقة ووعّاظهم، فما زلنا نرى، عبر الفضائيات، عمليات القتل وسفك الدماء قائمة على قدم وساق، فما أن يدخل التكفيريون الوهابيون منطقة إلاّ ويتتبّعوا فيها الشيعة قتلاً وذبحاً ونهباً لأموالهم وهدماً لمساجدهم ومراكزهم العلمية والثقافية.

وبهذا وغيره تتجلّى لنا قيمة ما دعا إليه الأئمة(عليهم السلام) من وجوب الأخذ بالتقيّة.

وإلى الله المشتكى.

ولعلّ ما ذكرنا حول التقيّة كاف في المقام.

الآيات:١١٢– ١١٩ (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا... إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ).

الآيات: الثانية عشرة بعد المئة إلى التاسعة عشرة بعد المئة

(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَان فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ * فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغ وَلاَ عَاد فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَة ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ).

المفردات

آمنة: الأمن: السلامة من تسلّط العدوّ.

مطمئنة: الاطمئنان: السُّكون والاستقرار وهدوء البال.

رغداً: الرغد: الوافر الهنيء.

أذاقها: الإذاقة: إحساس اللّسان بأحوال الطعام.

لباس: اللِّباس: ما يغشي الإنسان ويستره.

أُهلّ: الإهلال: رفع الصوت عند رؤية الهلال، وأُريد بقوله: (وَ مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ): أي ذُكر عليه غير اسم الله، وهو ما كان يذبح لأجل الأصنام، فقد كان المشركون يرفعون أصواتهم عند الذّبح بذكر آلهتهم.

غيرَ باغ: غيرَ ظالم على مضطرّ آخر.

عاد: متجاوز قَدْر الضرورة.

بجهالة: الجهالة هي عدم العلم، وأُريد مَن لم ينكشف له الواقع، كما هو الحال فيمن يرتكب الحرام انطلاقاً من الأهواء النفسانية مع العلم بالحُكم، وأمّا تفسيرها بمن لا يعلم الحكم أصلاً فليس عمله معصية حتى يحتاج إلى المغفرة.

التفسير

١١٢. (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَان فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ):

سبق أن ذكر سبحانه جماعة بأنّهم (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا)(النحل:٨٣).

فجاءت هذه الآية تشرح حال هؤلاء وتقول: (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً): أي وصَف الله حال بلدة (كَانَتْ) تتمتّع بثلاث نعم معنويّة وماديّة، وهي:

١. (آمِنَةً) من تسلّط العدوّ وغاراته.

٢. (مُطْمَئِنَّةً): أي ساكنة مستقرّة.

وقدّم سبحانه الأوّل على الثاني لأنّ الثاني رهن الأوّل، فما لم تكن هناك سلامة من تسلّط العدوّ، لا يحصل الهدوء والسكون ولا يتحقّق الاطمئنان.

٣.(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا): أي أقواتها (رَغَدًا): أي وافراً(مِنْ كُلِّ مَكَانٍ) . والمترقّب من أهل هذه القرية أن يشكروا الله سبحانه ويعبدوه، ولكنّهم جحدوا نعم الله عليهم وأخذوا يعبدون غيره، كما قال: (فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ)والمراد كُفر أهل القرية بالمُنعم، وإنّما أضاف الكفر إلى القرية مجازاً، فاستحقّوا الجزاء. وأمّا ما هو الجزاء فيبيّنه بقوله: (فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ): أي شملهم الجوع والخوف في كلّ جوانب حياتهم، كما يشمل اللباس البدن كلّه، ولم يكن ذلك عن ظلم من الله سبحانه بل شملهم بسبب أعمالهم السيّئة، كما قال:(بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ).

فتسلّط الجوع والخوف عليهم كان نتيجة أعمالهم، فبدّلوا الرزق الرغيد بالجوع، والأمن والاطمئنان بالخوف.

ما هو المراد من إلباس الجوع مكان إذاقته؟

بقيت هنا كلمة، وهي أنّه قد يتبادر إلى الذهن أنّ اللباس لا يذاق، بل يلبس فما هو الوجه في قوله تعالى: (فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ)؟ أليس من اللازم أن يقول: ألبسهم الله لباس الجوع والخوف، أو أذاقهم طعم الجوع والخوف؟

قال الشريف الرضيّ في بيان وجه استعمال الذوق في المقام: بأنّه قد عُرف في لسان العرب أن يقولوا لمن عوقب على جريمة، أو أُخذ بجريرة: ذق غِبَّ فِعلك، واجنِ ثمرة جهلك، وإن كانت عقوبته ليست من جنس ما يُحسُّ بالطَّعم ويُدرَك بالذوق، فكأنّه تعالى لمّا شملهم بالجوع والخوف على وجه العقوبة حَسُن أن يقول تعالى: (فَأَذَاقَهُمُ اللهُ) ذلك، أي أوجدهم مرارتَه، كما يجد الذائق مرارة الشيء المرير، ووخامة الطَّعم الكريه.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٩٥).

هذا كلّه حول قوله: (فَأَذَاقَهُمُ).

وأمّا أنّه تعالى قال: (لِبَاسَ الْجُوعِ) ولم يقل: طعم الجوع، فيمكن أن يقال: إنّ ذلك الجوع كان شديداً كاملاً فصار كأنّه أحاط بهم من كلّ الجهات، فأشبه اللّباس.

وإن شئت قلت: إنّه حصل في ذلك الجوع حالة تشبه المذوق وحالة تشبه الملبوس، فاعتبر الله تعالى كلا الاعتبارين فقال:(فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ).(تفسير الرازي:٢٠/١٢٩).

١١٣. (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ):

يشير سبحانه هنا إلى نعمة أُخرى حظيت بها القرية، وهي نعمة معنوية، أعني بعث الرسول من أنفسهم إليهم كما يقول:(وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ) فهؤلاء بدل أن يشكروا الله عليها حيث أكمل نعمه عليهم ظاهرة وباطنة، لكنّهم ـ يا للأسف ـ بدل أن يبادروا إلى تصديقه، وهو المعروف عندهم بنسبه وصدقه وأمانته، بادروا إلى تكذيبه، كما قال:(فَكَذَّبُوهُ): أي كذّبوا الرسول (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ): أي متعدّون على حقوق الله سبحانه حيث أشركوا غيره معه.

إلى هنا يتمّ تفسير الآيتين، لكن يقع الكلام في القرية التي ضرب الله بها المثل، هل هي قرية مفروضة فرضها الله سبحانه أو قرية

معيّنة؟ وعلى الثاني فهل أُريد بها قرية في الأُمم السابقة اجتمعت فيها هذه الصفات أو أُريد بها مكّة المكرَّمة؟

لا سبيل إلى الاحتمال الأوّل لأنّه سبحانه يخبر عن وقوع العذاب، بقي الكلام بين كونها قرية في الأُمم السابقة أو أهل مكّة.

الظاهر هو الأوّل، والدليل عليه أنّ السورة مكّية والآية مكّية أيضاً، والمفروض أنّه لم ينزل العذاب على أهل مكّة والنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) فيها، مع أنّ ظاهر قوله: (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ): أي عذاب الاستئصال (وَ هُمْ ظَالِمُونَ)، نعم هو في الوقت نفسه تهديد لأهل مكة. ونِعمَ ما قال الوزير المغربيّ في مصابيحه: والقرية غير مكّة وإنّما ضُربت مثلاً لها وتخويفاً لأهلها(تفسير المصابيح:٦٥٣، النسخة المحققة في السعودية.).

وتوهُّم أنّ المراد من العذاب في قوله: (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)يوم بدر ـ كما عليه قسم من المفسّرين ـ ، بعيد لأنّ الآية مكّية.

ويؤيّد ما ذكرنا ما روي عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام).

روى العياشي عن حفص بن سالم، عن أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام)، قال: «إنّ قوماً في بني إسرائيل كان يُؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت في بلادهم يستنجون بها، فلم يزل الله بهم حتى اضطروا إلى التماثيل يبيعونها ويأكلونها، وهو قول الله:(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَان فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)».(تفسير نور الثقلين:٣/٩١.)

وفي رواية أُخرى عن زيد الشحّام، عن أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام) قال: «كان أبي يكره أن يمسح يده في المنديل وفيه شيء من الطعام تعظيماً له إلاّ أن يمصّها، أو يكون إلى جانبه صبيّ فيمصّها، قال: فإنّي أجد اليسير يقع من الخُوان فأتفقّده فيضحك الخادم. ثم قال: إنّ أهل قرية ممّن كان قبلكم كان الله قد وسّع عليهم حتى طغَوا، فقال بعضهم لبعض: لو عمدنا إلى شيء من هذا النَّقي فجعلناه نستنجي به كان ألين علينا من الحجارة.

قال(عليه السلام): فلمّا فعلوا ذلك بعث الله على أرضهم دوابّاً أصغر من الجراد، فلم تدع لهم شيئاً خلقه الله إلاّ أكلته من شجر أو غيره، فبلغ بهم الجهد إلى أن أقبلوا على الذي كانوا يستنجون به، فأكلوه وهي القرية التي قال الله تعالى: (وَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَان فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ).(تفسير نور الثقلين:٣/٩٢.)

قول آخر في القرية التي ضُرب بها المثل

ذهب كثيرمن المفسّرين إلى أنّ المراد بالقرية هنا مكّة، لأنّ أهلها كانوا في أمن وطمأنينة ورفاه، ثمّ أنعم الله عليهم بنعمة عظيمة وهي محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)فكفروا به وبالغوا في إيذائه، فلا غَروَ إن سلّط عليهم البلاء.

قال المفسّرون: عذّبهم الله بالجوع سبع سنين حتى أكلوا الجِيَف والعظام.

وأمّا الخوف، فهو أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كان يبعث إليهم السرايا فيُغيرون عليهم.

ويؤيّد هذا القول، ما جاء من وصف أرض مكّة في قوله تعالى:(أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْء)(القصص:٥٧.).

ومع ذلك كلّه، فتطبيق الآية على أهل مكّة لا يخلو من بُعد، للأسباب التالية:

أوّلاً: إنّ الآية استخدمت الأفعال الماضية ممّا يشير إلى وقوعها في الأزمنة الغابرة.

ثانياً: لم يثبت ـ تاريخياً ـ ابتلاء أهل مكة بالقحط والجوع على النحو الوارد في الآية الكريمة، وإن كان يذكره بعض المفسّرين.

ثالثاً: إنّ الآية بصدد تحذير المشركين من أهل مكّة من مغبّة تماديهم في كفرهم، والسورة مكّية إلاّ آيات قليلة، ونزولها فيها يقتضي أن يكون للمثل واقعية خارجية وراء تلك الظروف، لتكون أحوال تلك الأُمم عبرة للمشركين من أهل مكّة وما والاها.

وسيوافيك الكلام حول ذلك في تفسيرنا لقوله سبحانه:(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ)(الدخان:١٠).

ورابعاً: إنّه سبحانه ابتدأ الآية التالية بالفاء، وهذا يؤيّد كون المراد من القرية غير مكّة.

١١٤. (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ):

الارتزاق من نعم الحلال مقروناً بالشكر

ابتدأ سبحانه هذه الآية «بالفاء»، فعلى هذا تكون الآية متفرعة على نتيجة التمثيل وصدّاً للمشركين عمّا يؤدي إلى مثل عاقبة تلك القرية، والمعنى: وإذ قد استبان لكم حال مَن كفر بأنعم الله تعالى وكذّب رسوله وما حلّ بهم بسبب ذلك من العذاب، فانتهوا عمّا أنتم عليه من كفران النعم وتكذيب الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)كي لا يحلّ بكم ما حلّ بهم، واعرفوا حقّ نعَم الله (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّبًا)واتركوا ما حرّم عليكم (وَ اشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ)واعرفوا حقّها (إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)(انظر: روح المعاني:١٤/٢٤٥).: أي إن كنتم لا تعبدون غير الله سبحانه، فتقديم الضمير يفيد التخصيص.

وبما أنّه سبحانه ابتدأ هذه الآية بقوله:(فَكُلُوا) فهذا يؤيّد أنّ المراد من القرية غير مكّة، وإنّما ذكر التمثيل تهديداً لأهل مكّة، وكأنّه سبحانه يقول: إذا عرفتم نكال الله لمَن كفر بنعمة الله فاتركوا كفران النعمة وكلوا، فيكون الخطاب شاملاً للمؤمنين والمشركين جميعاً. وهذا هو خيرة صاحب «الميزان» حيث قال: لا سبيل إلى ما ذكره بعضهم من «أنّ المراد من قوله:(فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ) هو الغنائم، بناء على أنّ الآية نزلت بعد وقعة بدر، والمثل السابق مثل مضروب لأهل مكّة، والمراد بالرسول الذي كذّبوه هو النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وبالعذاب الذي أخذهم هو القتل الذريع لصناديد يوم بدر».

وهذا كلّه ممّا لا دليل عليه من طريق لفظ الآيات.(الميزان في تفسير القرآن:١٢/٣٦٣ـ٣٦٤).

١١٥. (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ):

تحريم الأُمور الأربعة

لمّا أمر سبحانه بأن يأكلوا من رزقه الحلال الطيّب، اقتضى المقام أن يبيّن ما يتميّز به الطيّب من الخبيث، فحصر سبحانه المحرّمات في أربعة مآكل وقال:(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ) وهي ما مات حتف أنفه (وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ)والمراد بالدّم المسفوح منه، لقوله في آية أُخرى: (أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا)(الأنعام:١٤٥).: أي مصبوباً.

وهذه الثلاثة خبيثة بالذات، مولّدة للمضرّة، وأمّا الرابع فهو (وَ مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ): أي ما ذُبح للنُّصب والأصنام، أي ما ذُكر اسم غير الله عليه وهو وإن لم يكن خبيثاً بالذات، ولكنّه خبيث فطرياً ؛ لأنّه شرك بالله سبحانه.

ثمّ إنّه تعالى استثنى من حرمة تناول تلك المآكل صورة الاضطرار وقال: (فَمَنِ اضْطُرَّ) فلا بأس عليه بشرط أن يكون (غَيْرَ بَاغٍ): أي ظالم بالاستئثار على مضطرّ آخر (وَ لاَ عَادٍ): أي متجاوز حدّ الضرورة ممّا يُسدّ به الجوع (فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

وربّما يقال: إنّه سبحانه حرّم غير هذه الأربعة حيث قال: (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ)(المائدة:٣).

والجواب: إنّها كلّها داخلة في الميتة، إذ كلّ حيوان مات عن غير طريق الذّبح فهو ميتة.

ثمّ إنّه سبحانه حصر المحرّمات بهذه الأربعة ردّاً على ما حرّمه المشركون على أنفسهم من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام، ونسبوا حرمتها إلى الله سبحانه فردّ عليهم سبحانه في هذه الآية بالمفهوم، وفي سورة المائدة بالمنطوق وقال: (مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)(المائدة:١٠٣).

ثمّ إنّ الحصر في قوله: (إِنَّمَا حَرَّمَ) حصرٌ إضافي في مقابل تحريم المشركين غير هذه الأشياء كما مرّ آنفاً. ولا ينافي ذلك وجود

محرّمات في الحيوانات غير الخنزير، كالسِّباع، فقد علم ذلك بالسنّة. ثم إنّ التركيز على تحريم الأربعة لأجل أنّ المشركين كانوا ينتفعون بها.

وليُعلم أنّ تحريم هذه المآكل الثلاثة: الميتة والدّم ولحم الخنزير، يخضع لحكمة ربّانية، وأنّها ـ كما يقول الأطباء ـ تضرّ بصحّة الإنسان البدنية والنفسيّة، فالإسلام دين الوسط، فلا يحرّم الانتفاع بالحيوان على وجه الإطلاق ولا يحلّله كذلك.

١١٦. (وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ):

تحريم الحلال نسبة إلى الله، تشريع وبدعة

في الآية تحذير من البدعة، وهي أن ينسب إلى الله تعالى ما لم يقله ولم يدلّ عليه دليل، فإنّ من مراتب التوحيد: التوحيد في التشريع والتقنين، فالتشريع منحصر بالله سبحانه لا يشاركه فيه غيره، قال سبحانه:(إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)،(يوسف:٤٠.)فالمراد من الحكم هو الحكم التشريعي لا التكويني بشهادة قوله: (أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ) لكنّ المشركين كانوا يحلّلون أشياء ويحرّمون أُخرى وفق مشتهياتهم وأهوائهم، كما حكاه عنهم سبحانه في قوله:(وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْم وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)(الأنعام:١٣٩ـ ١٤٠.ولاحظ الآية ١٣٧).

فكان هؤلاء مشركين في العبادة والتشريع، والآية ناظرة إلى ابتداعهم.

إذا تبيّن ذلك، فلندخل في تفسير الآية.

الآية تنهى عن التشريع في دين الله وتنهى أيضاً عن أن تصف الألسن بكون شيء حلالاً وكون شيء حراماً من دون دليل من الشرع، فإنّه افتراء على المشرّع عزّ وجلّ. وكأنّ الآية ردّ على ما كان عليه المشركون في الحرث والأنعام على ما يحكيه الله سبحانه في قوله:(وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)(الأنعام:١٣٦. راجع مجمع البيان:٤/١٨٨، ط مصر.) كما حكى عنهم أيضاً بقوله: (وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)(الأنعام:١٣٨ـ ١٣٩.).

فالله سبحانه يصف كلّ ذلك بأنّه افتراء عليه وأنّ المفترين لا يفلحون.

هذا كلّه حول مفاد الآية، وأمّا إعرابها فقد اختلف المفسّرون فيه، والأقرب من بين الوجوه هو التالي:

قوله: (وَ لاَ تَقُولُوا) مقوله هو: (هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ) وكأنّه يقول: ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام.

قوله: (لِتَفْتَرُوا) اللام للعاقبة، أي قولكم هذا عاقبته افتراؤكم على الله الكذب.

قوله: (لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ) الظاهر أنّ الفعل (تَصِفُ) بمعنى تذكر وتشرح ألسنتكم الكذب، وهو مفعول الفعل (تَصِفُ).

وأمّا قوله: (لِمَا) فاللاّم بمعنى «عن»: أي لا تقولوا عمّا (أي الأنعام) التي تشرح ألسنتكم الكذب فيه. ونظير هذه «اللاّم» هي ما في قوله تعالى: (الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا)(آل عمران:١٦٨.): أي قالوا عن إخوانهم أنّهم لو أطاعونا ما قتلوا.

و «ما» موصولة كناية عن الأنعام والحرث، والمعنى: ولا تقولوا ـ عن الأنعام والحرث ـ التي تصف ألسنتكم فيه الكذب، هذا حلال

وهذا حرام... الخ.

١١٧. (مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ):

هذه الآية في مقام التعليل لقوله: (لاَ يُفْلِحُونَ).

أي أنّ ما حرّمتم وحلّلتم بأنفسكم هو نفع مؤقّت زائل، بعده عذاب أليم.

١١٨. (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ):

تحريم أُمور على بني إسرائيل عقوبة

لمّا تقدّم أنّ المحرّمات منحصرة في الأشياء الأربعة، وهي: الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أُهلّ لغير الله به، وكأنّ ما وراءها حلالاً، كان هنا مظنّة سؤال وهو: ما هو الوجه لكون هذه الأُمور قد حرّمت على بني إسرائيل من قبل هذا، وليست هي من هذه المآكل الأربعة؟ فجاءت الآية لبيان وجه التحريم، وهو أنّ التحريم كان عقوبة لبني إسرائيل للجرائم التي ارتكبوها، ولولاها لم تكن محرّمة عليهم، وفي نفس الآيات التي حرّمت أشياء على بني إسرائيل شاهدٌ على أنّه من باب العقوبة.قال تعالى:(وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ)(الأنعام:١٤٦.)، وأراد بـ (ذِي ظُفُرٍ)الحيوانات ذات الظّفر الواحد كالخيل، وبـ(مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا)الشُّحوم التي في منطقة الظهر منها، وبـ (الْحَوَايَا)الشُّحوم التي على أطراف الأمعاء والخاصرتين.

فقوله سبحانه: (ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) أفضل دليل على أنّ التحريم لم يكن تحريماً ذاتياً، بل كان من باب العقوبة على بغيهم.

وعلى ذلك فلا منافاة بين كون المحرّمات منحصرة في المآكل الأربعة، ومع ذلك حرّم على بني إسرائيل ماوراءها.

ولعلّ قوله سبحانه:(وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ...)(النحل:١٠١.) ناظر إلى هذا الموضوع، حيث إنّه سبحانه حرّم على بني إسرائيل أشياء كثيرة ولكنّه لم يحرّمها على الأُمّة الإسلامية، فجعلت الآية الثانية مكان الآية الأُولى. كلّ ذلك لأجل مصالح تقتضي إبدال حُكم مكان حُكم آخر.

قوله: (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ) بما حرّمنا عليهم (وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)بكفران النّعمة، فحُرموا من نِعَم عظيمة.

١١٩. (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ):

بشارة العفو لمن عمل السوء بجهالة ثم تاب

الظاهر أنّ الآية تطييب لنفوس المسلمين الذين شاركوا المشركين في الجاهلية في الافتراء على الله في التحليل والتحريم، فقال تعالى: (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ): أي عن جهل بما يترتّب على أعمالهم (ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا) أعمالهم وأقوالهم وأفكارهم (إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا): أي بعد الجهالة (لَغَفُورٌ رَحِيمٌ). والآية وإن كانت واردة في مورد خاص لكنّها ضابطة كلّية لكلّ مَن عمل سوءاً بجهالة، إمّا جهلاً بالحكم أو جهلاً بما يترتّب عليه من العذاب، فإذا تاب وأصلح فكره وعمله فالله سبحانه يغفر ذنوبه لأنّه رحيم.

ونظير ذلك قوله سبحانه: (إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا).(النساء:١٧.)

الآيات:١٢٠- ١٢٤ (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا للهِ حَنِيفًا.... لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ).

الآيات: العشرون بعد المئة إلى الرابعة والعشرين بعدها

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ).

المفردات

أُمّة: الأُمّة: الطائفة العظيمة من الناس.

قانتاً: مطيعاً لله قائماً بأمره.

حنيفاً: الحَنَف: الميل عن الضلالة إلى الاستقامة، والحنيف هو المائل إلى ذلك. هذا ما في المفردات.(المفردات للراغب: ١٣٣، مادة «حنف».) وقال الخليل: الحنيف في قول: المسلم الذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملّة إبراهيم(عليه السلام).(العين: ٣/٢٤٨، مادة «حنف».)

وقد كانت التسمية معروفة قبل الإسلام، وكان عبد المطّلب وأجداد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) على حنفيّة إبراهيم الخليل لا يعبدون الأصنام.

اجتباه: اختاره واصطفاه.

جُعل: فُرض وعُيّن.

السَّبت: أصل السبت: القطع، ومنه: سَبَتَ السير أي قطعه.(المفردات للراغب: ٢٢٠، مادة «سبت».)

وفسّر الخليل السّبت بأنّه عيد عند اليهود، وأنّ معناه النوم،(العين: ٧ / ٢٣٨، مادة «سبت».) وفسّره ابن فارس بالسكون والراحة،(معجم مقاييس اللغة: ٣ / ١٢٤، مادة «سبت».) قال تعالى واصفاً الليل: (وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً).(النبأ: ٩.)

التفسير

لمّا اشتملت الآيات السابقة على بيان نعم الله تعالى وحثِّ الناس على شكرها، كما قال: (وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)(النحل: ١١٤.)، وندّد بالقرية التي (كَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ)(النحل: ١١٢.)، صار ذلك سبباً لبيان نموذج من عباد الله، تجلّت فيه صفة الشكر لأنعم الله تعالى ـ مع صفات أُخرى ـ بأجلى مظاهرها، أعني: النبيّ إبراهيم(عليه السلام).

١٢٠. (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ):

صفات سامية لإبراهيم الخليل(عليه السلام)

وصف سبحانه النبيّ إبراهيم بصفات سامية قلّما تتّفق لغيره، وقال:

١. (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً): أي قائماً مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم فلان في نفسه قبيلة، إذ يقوم بأُمور لا يقوم بها إلاّ جماعة، أو أنّه(عليه السلام)جمعَ من الفضائل والكمالات ما لا يوجد إلاّ في جماعة كلٍّ انفرد بكمال، وكأنّ أبا نؤاس يريد إبراهيم(عليه السلام) بقوله:

ليس من الله بمستنكر *** أن يجمع العالَم في واحدِ

وربّما يقال: أُريد به إمام هُدى. وربّما يفسّر بأنّه انفرد في دهره بالتوحيد فكان مؤمناً وحده والناس كفّاراً.(مجمع البيان:٦/٢٤٠.)

ويحتمل أن يقوم بطاعاته مكان أُمّة كاملة. وكان الحنيف في الجاهلية الذي يُختن ويحجّ ويغتسل من الجنابة ويغسِّل موتاه. والآية قابلة للتطبيق على الجميع.

٢. (قَانِتًا لِلهِ) مطيعاً له دائماً منقاداً إليه، وكيف لا يكون كذلك وقد أمره سبحانه بذبح ولده فاستسلم لهذا الأمر.

٣. (حَنِيفًا) مستقيماً، مجانباً للباطل ومائلاً إلى الحقّ الذي يلازم كونه موحّداً. والشاهد على ذلك الوصف التالي.

٤. (وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) كيف؟ وهو الذي حطّم الوثنية ودمّرها، وخاطر من أجل ذلك بنفسه. ولعلّ فيه تعريضاً بمشركي قريش الذين كانوا يزعمون أنّهم على شريعة أبيهم إبراهيم(عليه السلام).

١٢١. (شَاكِرًا لِاِنْعُمِهِ اِجْتَبَاهُ وَهَداهُ إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم):

الآية تتضمّن صفات أُخرى لنبيّ الله إبراهيم(عليه السلام) نأتي بها تباعاً:

٥. (شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ) والشكر وضع النعمة في مكانها.

وما أجمل قول المعاصر:

ازددْ من الشكر تزدَدْ من سنا الكرم *** فالشكر دربٌ إلى الآلاء والنِّعمِ(القيم الإنسانية للدكتور محمود الموسوي:١/٩٥).

٦. (اِجْتَبَاهُ): أي اختاره للنبوّة والرسالة، بل للإمامة أيضاً، كما قال: (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)(البقرة:١٢٤).

٧. (وَهَداهُ إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم) وهو صراط التوحيد والإسلام.

١٢٢. (وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ):

وهذه الآية أيضاً تتضمّن بيان صفات وفضائل أُخرى لإبراهيم الخليل، وهي:

٨. (وَ آتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً): أي أعطيناه معيشة حسنة فكان ذا مال وأولاد. وربّما تفسّر الحسنة بالذِّكر الطيِّب، فإنّه ليس من أهل دين إلاّ وهو يرضاه ويتولاّه.

٩. (وَ إِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) و الآية إجابة لدعاء إبراهيم أن يجعله من الصالحين، حيث قال: (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)(الشعراء:٨٣).

لقد كان إبراهيم رأس الصالحين ومع ذلك يطلب من ربّه أن يلحقه بهم، ولعلّ ذلك للإشارة إلى عظمة ذلك المقام حتى أنّ إبراهيم يطلبه، والله سبحانه يخبر عنه بأنّه من الصالحين الذين استقاموا على دين الحقّ ولم يزيغوا عنه حتى قيد شعرة.

والغاية من ذكر هذه الأوصاف هي الإشارة إلى أنّ ما ذُكر من آثار هذا الدين الحنيف، فإنْ آمن به الإنسان واتّبعه ساقه إلى ما ساق إليه إبراهيم(عليه السلام).

١٢٣. (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ):

ثمّ إنّه سبحانه ختم ما آتاه إبراهيم(عليه السلام) بهذه الآية بأن جعل شريعته شريعة عامّة لكلّ مَن يأتي بعده، فالأنبياء كموسى وعيسى(عليهما السلام) والنبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) قد أُمروا باتّباع شريعته، وقال: (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)كلمة (ثُمَّ)للترتيب البياني (أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ) وهذا الأمر يكشف عن أفضل صفة وكرامة لإبراهيم(عليه السلام) حيث جعل النبيّ الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم) متّبعاً لشريعته، فشريعة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وشريعة إبراهيم(عليه السلام) هما شيء واحد في الأُصول، والعمود القويّ الذي يجمع الشريعتين هو قوله: (حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) حيث كان النبيّ إبراهيم موحّداً وما كان من المشركين، فالأنبياء بعده على هذا الخطّ.

وهنا سؤال طرحه الطبرسي في «مجمع البيان» وقال: إنّ نبينا أفضل من إبراهيم فكيف أمر الفاضل باتّباع المفضول؟

وأجاب بقوله: إنّ إبراهيم(عليه السلام) سبق إلى اتّباع الحقّ ولا يكون في سبق المفضول إلى متابعة الحقّ زراية على الفاضل في اتّباعه.(مجمع البيان:٦/٢٤٠ـ ٢٤١).

والأَولى أن يقال: إنّ المراد بالأمر بالاتّباع هو الردّ على المشركين الذين يعترفون بدين إبراهيم(عليه السلام)وينكرون دين النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) مع أنّهما شيء واحد.(تفسير الكاشف:٤/٥٦٣.)

وبعبارة واضحة: الآية بصدد توحيد الأديان والشرائع وأنّها من عهد إبراهيم إلى عهد النبيّ الأكرم واحدة، فجميع الأنبياء بعد إبراهيم هم من أتباع شريعته(عليه السلام).

إنّ الأمر باتّباع ملّة إبراهيم(عليه السلام) لأجل أنّ الشرائع السماوية لا تختلف في أُصولها ولبابها، بل كلّها تهدف إلى أمر واحد، وتسوق المجتمع إلى هدف مفرد، والاختلاف إنّما هو في الشريعة والمنهاج لا في المقاصد والغايات، كما قال تعالى: (لِكُلّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)(المائدة:٤٨.)، وقال سبحانه: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَة مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ)(الجاثية:١٨.).

وبذلك يُعلم أنّ الأمر باتّباع الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) ملّة إبراهيم(عليه السلام) لا ينافي كون الرسالة المحمدية أتمّ الشرائع وأكملها، لِما عرفت من أنّ المراد من الاتّباع هو الاتّباع في الأُصول أي التوحيد والمعارف الإلهية دون غيرها.

ولذلك لمّا جاءت الرُّسل تترى، وتواصلت حلقات النبوّة في الأدوار الماضية إلى أن بعث الله آخر سفرائه فأتمّ نعمته وأكمل به دينه، فأصبح المجتمع البشري في ظلّ دينه الكامل، وكتابه الجامع، غنيّاً عن تواصل الرسالة وتعاقب النبوّة، وأصبح البشر غير محتاجين إلى إرسال أيّ رسول بعده، إذ جاء الرسول بأكمل الشرائع وأتقنها وأجمعها للحقوق وبكلّ ما يحتاج إليه البشر في أدوار حياتهم وأنواع تطوّراتهم، وفي الوقت نفسه امتازت بمرونة جعلتها تتمشّى مع جميع الأزمنة والأجيال من دون أن تمسّ جوهر الرسالة الأصلي بتحوير وتحريف.

١٢٤. (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ):

توضيح الآية رهن بيان أمرين:

١. ماهي صلة الآية بما سبقها من الآيات؟

٢. ما هو الأمر الذي اختلف فيه اليهود؟

أمّا الأوّل فيمكن أن يقال: إنّ المفهوم من قوله سبحانه:(ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا)أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ومَن قبله كلّهم قد أُمروا باتّباع ملّة إبراهيم(عليه السلام) ومن المعلوم أنّ ملّته ملّة سهلة حنفية سمحاء، وعندئذ يُطرح هذا السؤال: ما هو الوجه في أنّه سبحانه فرض يوماً على اليهود يتركون فيه العمل؟

وقد أُجيب عن ذلك بأن جعل السبت وقطع العمل عليهم لم يكن إلاّ لابتلائهم وتمييز المطيع عن العاصي، نظير ما حرّم عليهم من اللُّحوم الذي أُشير إليه بقوله:(وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ).(النحل:١١٨.)

وأمّا الأمر الثاني أي ما هو الأمر الذي وقع فيه الاختلاف؟ فهو قطع العمل في نفس ذلك اليوم، فمنهم مَن قبله ومنهم مَن ردّه ومنهم مَن احتال فيه للعمل مع التظاهر في قبوله، وقد مرّ تفسير ذلك في سورة الأعراف أعني قوله سبحانه:(وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ).(الأعراف:١٦٣.)

فعلى ذلك يكون المراد من قوله: (اخْتَلَفُوا فِيهِ): أي اختلفوا في الأخذ به (وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) فيجزي من امتثل جزاءً حسناً، ويجزي الرادّ والمحتال بالعقاب. وما ذكرناه هو مختار صاحب «الميزان» لكن بتفصيل خاص.(لاحظ : الميزان في تفسير القرآن:١٢/٣٦٩ـ ٣٧٠.)

نعم لغيره من المفسّرين رأي آخر معتمدين على ماروى عن ابن عباس من أنّه قال: أمرهم موسى بالجمعة وقال: تفرّغوا لله في كلّ سبعة أيام يوماً واحداً وهو يوم الجمعة لا تعملوا فيه شيئاً من أعمالكم، فأبَوا أن يقبلوا ذلك وقالوا لا نريد إلاّ اليوم الذي فرغ فيه من الخلق وهو يوم السَّبت، فجعل الله تعالى السَّبت لهم وشدّد عليهم فيه، وهذا مفاد قوله سبحانه:(إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ)ولم يقل: «للذين» لأنّه تعالى جعل السبت لهم وشدّد عليهم فيه.

قوله تعالى:(اخْتَلَفُوا فِيهِ): أي على نبيّهم موسى حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت، فاختلافهم في السبت كان اختلافاً على نبيّهم في ذلك اليوم.

ثمّ إنّ النصارى أيضاً تلوا تلوهم حيث إنّ عيسى أمر بالجمعة فقالت النصارى لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا، واتّخذوا الأحد.(تفسير الرازي:٢٠/١٣٧.)

أقول: سياق الآية لا يؤيّده.

الآيات:١٢٥- ١٢٨ (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ... إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ).

الآيات: الأربعة الأخيرة من السورة

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْق مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ).

المفردات

بالحكمة: الحكمة: المعرفة المحكمة الخالصة عن شوائب الأخطار.

الموعظة الحسنة: النصيحة التي تؤثّر في نفوس الناس بلين البيان ويرقّ لها القلب لما فيها من صلاح حال السامع.

جادلهم: الجدال: الحجّة التي تستعمل لإبطال دليل الخصم الذي هو يعتقد به ويسلّم به، وإن كان المستدلّ غير مسلّم. وأمّا وصف الموعظة بالحسنة والجدال بالتي هي أحسن، فسيأتيك وجهه.

ضيق: الضِّيق: الغمّ وانقباض الصدر.

التفسير

١٢٥. (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ):

يظهر من الآية أنّ الدعوة تنحصر في وجهين: الحكمة، والموعظة الحسنة كما هو المتبادر من قوله:(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ). وأمّا الجدل فليس من باب الدعوة بل الغرض منه إسكات الخصم وإفحامه بأمر مسلّم عنده وإن لم يكن مسلّماً عند الداعي.

ثمّ إنّ الحكمة للإنسان الكامل الذي يطلب المعارف بالدلائل القطعية، وأمّا الموعظة فهي للإنسان الذي لا يبلغ حدّ الكمال وفي الوقت نفسه ليس أهلاً للجدل والشغب، فيقبل الحقّ إذا وجده موافقاً للفطرة، وهم أكثر الناس.

وأمّا الجدل فقد علمت أنّه للمشاغبين المخاصمين الذين حُرموا من فهم الدلائل القطعية فانحصر طريق الدعوة بما هو المسلّم عندهم.

والله سبحانه أمر نبيّه بأن يردَ من كلّ باب حسب اختلاف استعداد المخاطب، فبما أنّ المخاطبين مختلفون في الاستعداد في فهم

الحقائق كلٌّ حسب مستوى تفكيره ومبلغه من العلم والمعرفة وطبيعته النفسية، فهو يتكلّم مع كلّ من هؤلاء حسب ما يقتضيه الحال.

ولا يتوهّم أنّ أصحاب الكمالات العالية مستغنون عن الموعظة الحسنة إذ ربّما ينتفعون بالبراهين العقلية والمواعظ الحسنة التي تُستنطق فيها فطرةُ المخاطب.

ثمّ إنّه سبحانه وصف الموعظة بالحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ولعلّ وجهه أنّ الموعظة إذا كانت جامعة للشروط فالجميع حسن، وأمّا الجدال فهو ينقسم إلى حسن وأحسن، فإذا لم يحرّك عناد المخاطب فهو أحسن، وله مراتب. فكلّما ساد الجدالَ الرِّفقُ واللِّين من غير فظاظة ولا تعنيف يكون أحسن.

قوله تعالى:(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) وأعرضَ عن قبوله (وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)ولذلك أمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بسلوك سبيلين، والله سبحانه أعلم بمن يبقى على الضلال بعد إتمام الحجّة عليه، وأعلم بمن يهتدي، فيجازي كلاًّ منهما بما يستحقّه.

١٢٦. (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ):

الآية تمثّل عدالة الإسلام عند امتلاك القدرة على العقاب، فإمّا أن يردّ المعتدى عليهم الاعتداء بمثله، كما يقول: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ): أي بمثله ولا تزيدوا عليه، أو أن يكظموا غيظهم ويبادروا إلى العفو عنهم، كما قال:(وَ لَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ): أي الصبر (خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ).

والظاهر أنّ المراد من الصبر الإعراض عن أذى المشركين والعفو عنه، لأنّه أجلب لقلوب الأعداء فهو خير من الأخذ بالعقوبة، وقد أمر تعالى بالعفو ومقابلة السيئة بالحسنة في غير واحدة من الآيات، قال تعالى:(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ)(الشورى:٤٠.)، وقال تعالى: (ادْفَعْ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)(فصلت:٣٤.) فالآية تنهى عن أمر وتأمر بأمرين.

أمّا النهي، فهو النهي عن الإفراط في العقوبة والتعدّي.

وأمّا الأمر فهو تجويز العقوبة بمثلها، والأمر الثاني هو العفو عن المجرم بعد الانتصار في الحرب، لأنّه أشدّ تأثيراً في استمالة قلوب أبناء نحلته.

قال معاوية لخالد بن معمر السَّدوسي: على ماذا أحببتَ عليّاً؟ قال: على ثلاث: حلمه إذا غضب، وصدقه إذا قال، ووفائه إذا وعد.(شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:١٨/١١١.)

ثمّ أكدّ سبحانه الأمر الثاني في الآية التالية:

١٢٧. (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْق مِمَّا يَمْكُرُونَ):

الآية تأمر بشيء، وتنهى عن شيئين:

١. قال تعالى:(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ) وهي تأمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالصبر ويخصّه بالخطاب، ولذلك نرى أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لقي من المشركين ما لاقاه ثم عفا عنهم بعد فتح مكة وقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، وبذلك جازاهم سبحانه خير الجزاء، لأنّ صبره كان بالله أي بإعانة من الله.

٢. قال تعالى: (وَ لاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) وهذا أمر عجيب، فإنّ النبيّ كان يحزن على المشركين لشركهم وعدم إيمانهم إلى حدّ يصفه سبحانه بقوله: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)(الشعراء:٣.).

٣. (وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) حيث كانوا يتآمرون على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)بين فترة وأُخرى، ويكيدون به، وهذا ممّا يوجب ضيقاً في الصدر وقلقاً في الروح، ولذلك خاطبه تعالى بقوله:(وَ لاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ).

١٢٨. (إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ):

كأنّ الآية بمنزلة التعليل للأمر بالصبر وعدم الضيق بمكر المشركين، لماذا؟ لـ(إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا)وتجنّبوا الإفراط والتعدّي في العقوبة،ولذلك وصفهم سبحانه بالتقوى وقال:(إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا)وإذا صبروا على أذى المشركين وعفوا عنهم يكونون محسنين، والله سبحانه مع (الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ).

فالفقرة الأُولى، أعني: الأمر بالتقوى دليل على اجتناب التعدّي، كما أنّ الفقرة الثانية دليل على العفو.

***

تمّ تفسير سورة النحل

سورة الإسراء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)
وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)
وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا
لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ
وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا
الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا
(٨) إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ
فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا
(١٢) وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا
(١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا
(١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ
نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا
مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ
عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١) لَا
تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ
أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا
كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ
وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ
عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ

مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ
نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ
اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ
مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ
الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩) أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ
لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا
لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ
مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى
أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا
(٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا
(٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ
إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)
وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ
يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ
عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ
مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا
الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا
الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ
اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ
بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ
لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥) رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)
وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ
بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ
يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ

الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا
لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا
يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧) أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى
غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا
(٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ
الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ
أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤) وَيَسْأَلُونَكَ
عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا
وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا
يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)
وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١)
أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ
وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ
الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا
رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ
أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا
لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا
(١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى
مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧)
وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا
الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ
يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)

سورة الإسراء: خصائص السورة

تسمية السورة

تُسمّى السورة تارة بسورة «الإسراء»، وأُخرى بسورة «أسرى» أخذاً بما جاء في صدر السورة، وثالثة بسورة «بني إسرائيل». روى البخاري عن ابن مسعود أنّه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم: إنّهن من العِتاق الأُوَل وهنّ من تِلادي.(صحيح البخاري: ٣ / ٢٢١، كتاب تفسير القرآن الكريم، برقم ٤٧٠٨، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م.)

قال ابن حجر في تفسير هذه الفقرة: أي من أوّل ما نزل من القرآن أو المراد بالعتيق الشريف.

وقال: قوله:«من تلادي» بكسر أوّله، أي من قديم ما قرأته، وتلاد المال: قديمه.(مقدّمة فتح الباري:٩١.)

وقال ابن عاشور: ووجه ذلك أنّها ذُكر فيها من أحوال بني إسرائيل ما لم يُذكر في غيرها، وهو استيلاء قوم أُولي بأس (الآشوريين) عليهم، ثم استيلاء قوم آخرين وهم (الروم) عليهم.(التحرير والتنوير:٥/١٤.) وسيوافيك ما هو الحقّ في المقام.

عدد آياتها ومحلّ نزولها

يبلغ عدد آيات السورة مئة وإحدى عشرة آية في عدّ الكوفي، ومئة وعشر آيات في عدّ الباقين.

والسورة مكّية. واستثنى بعضهم الآيات التالية:

١. قوله تعالى:(وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً).(الإسراء:٣٢.)

٢. قوله تعالى:(وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ).(الإسراء:٣٣.)

٣. قوله تعالى:(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ).(الإسراء:٥٧.)

٤. قوله تعالى:(أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ).(الإسراء:٧٩.)

أمّا الآية الثالثة فلا وجه لعدّها مدنية بل هي مكّية يشهد لذلك مضمونها، حيث إنّها ردّ لعبّاد الأصنام كما هو واضح، وأمّا سائرالآيات فهي نظير ما ورد في هذه السورة من قوله سبحانه:(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ)(الإسراء:٢٣.) إلى قوله: (لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ)(الإسراء:٣٩.)، فمضامين هذه الآيات أوفق بكونها مدنية، لأنّها تشتمل على أحكام تناسب حالة المسلمين في المدينة، ومع ذلك كلّه يمكن عدّها مكّية أيضاً، إذ كثر المسلمون والمعتنقون لرسالة النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) في أواخر الفترة المكّية واستعدّوا لتشريع بعض الأحكام لهم، فلا مانع من أن يكون الباعث لنزول هذه الآيات والأحكام كونهم مستعدّين للعمل بها حتى في موطنهم الذي كان معقل الشِّرك.

ولو قال أحدهم أنّ ما نزل في حقّ بني إسرائيل، أعني من قوله تعالى:(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ...)(الإسراء:٤.) إلى قوله: (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا)(الإسراء:٨) أوفق بأن يكون مدنياً، لم يبعُد، لأنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ابتُلي بهم في مهجره لا في موطنه. وعندئذ يحتمل نزول قسم من آيات السورة في المدينة.

أغراض السورة

المراد من الأغراض روح السورة التي تدور عليها سائر آياتها، وإلاّ فذكر فهرس الآيات ومضامينها من أوّل السورة إلى آخرها لا يُعدّ غرضاً للسورة، وبذلك يُعلم أنّ قسماً من المفسّرين خلطوا بين الغرض ومحتويات السورة من أوّلها إلى آخرها.

والذي يمكن أن يقال: إنّ غرض السورة هو التأكيد على توحيد الباري تعالى، ونفي الشرك، ولذلك نرى أنّه سبحانه يبدأ السورة بقوله: (سُبْحَانَ الذِي). وما يدلّ على ذلك أنّ قسماً من آيات هذه السورة يشتمل على التسبيح، كالآيات التالية:

١. (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ)(الإسراء:٤٣.).

٢. (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي).(الإسراء:٩٣.)

٣. (وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا).(الإسراء:١٠٨.)

حتى أنّه سبحانه ختم السورة بقوله:(وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا).(الإسراء:١١١.)

وفي ثنايا السورة آيات تدعو إلى التوحيد وتبطل الشرك، نحو قوله سبحانه: (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي

الْعَرْشِ سَبِيلاً)(الإسراء:٤٢.)، وقد مرّ أنّ قوله سبحانه:(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) دليل على كونها مكّية.

وبذلك تبيّن أنّ غرض السورة وروحها التي تسري في آياتها، هما الدعوة إلى التوحيد ورفض الشرك بدلائل مختلفة، ومع ذلك قد مرّ أنّ البيئة المكّية كانت صالحة في أواخر أيام النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لبيان بعض الأحكام.

سورة الإسراء: الآية ١ (سُبْحَانَ الذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ... لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).

الآية الأُولى

(سُبْحَانَ الذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ).

المفردات

سبحان: مصدر سبّح سبحاناً، مثل رجح رجحاناً، وشكر شكراناً، والتسبيح هو التنزيه والتقديس، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره : أُسبِّح الله سبحاناً، أو سبّحت الله سبحاناً، فهو مفعول مطلق، ومعناه: ما أبعد الذي له هذه القدرة عن جميع النقائص.

حكى الرازي عن صاحب «النظم» قوله: السَّبح في اللغة التباعد، يدلّ عليه قوله تعالى:(إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا)(المزمّل:٧.) أي تباعداً، فمعنى: سبّح الله تعالى أيّ بعّده ونزّهه عمّا لا ينبغي.(تفسير الرازي:٢٠/ ١٤٥ ـ ١٤٦.)

أسرى: لغة في (سرى) ـ وكلاهما فعل لازم ـ يراد بها السير في الليل ولولا قوله: (بِعَبْدِهِ)لكانت الهمزة للتعدية، لكنّ وجود الباء في (بِعَبْدِهِ)يأبى ذلك.

بعبده: الضمير يرجع إلى الله سبحانه.

ليلاً: لعلّه إشارة إلى أنّ السير كان في جزء من الليل، وبذلك يخرج عن كونه تأكيداً.

المسجد الحرام: هو الفِناء المحيط بالكعبة في مكّة المكرمة.

المسجد الأقصى: مكان عبادة الله في بيت المقدس(مدينة القدس)، ووصف بالأقصى لبُعده الشاسع عن المسجد الحرام في مكّة، ثمّ صار تعبير «المسجد الأقصى» علَماً على مسجد بيت المقدس اقتباساً من الوصف القرآني. وكان قبل الإسلام مكان المعبد الذي بناه سليمان(عليه السلام).(التفسير الحديث:٣/٣٥٢.)

باركنا حوله: بمعنى كثرة الخير ووفرته.

آياتنا: الآيات الكونية.

التفسير

١. (سُبْحَانَ الذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ):

تدلّ هذه الآية والآيات الواردة في سورة النجم على أنّ للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)رحلتين:

١. رحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الواقع في بيت المقدس، وهو المسجد الذي بناه سليمان(عليه السلام)، وهذه الرحلة يطلق عليها كلمة الإسراء.

٢. رحلة من المسجد الأقصى إلى السماوات العلى، ويطلق عليها كلمة المعراج إشارة إلى الارتقاء والصعود، وآيتنا هذه تشير إلى الرحلة الأُولى أي من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما يقول سبحانه: (سُبْحَانَ الذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى).

ثمّ إنّ المراد من التعبير (بِعَبْدِهِ) هو النبيّ الخاتم(صلى الله عليه وآله وسلم)، والضابطة في ذلك أنّ لفظ العبد إذا أضيف إلى الله سبحانه ولم يكن مقروناً باسم نبيّ خاصّ، يراد به النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، نظير قوله تعالى:(الْحَمْدُ للهِ الذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)(الكهف:٢.)، إلى غير ذلك من الآيات التي أُضيف فيها لفظ «عبد» إلى الضمير العائد إلى الله وأُريد به شخص النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم).

نعم لو قُرن باسم نبيّ خاصّ يراد به ذلك النبيّ، كما في قوله تعالى: (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا)(مريم:٢.) وغيرها من الآيات.

ثمّ إنّ إضافة العبد إلى الله سبحانه إضافة تشريفية، وليست إضافة تعريفية، لأنّ وصف العبودية لله موجود في عامّة المخلوقات، فلا تفيد الإضافة تعريفاً، ومع ذلك فالتعبير عن النبيّ بالعبد، إشارة إلى أنّ عبوديته لله من أفضل مفاخره، قال الإمام علي(عليه السلام):«إلهي، كفاني فخراً أن تكون لي ربّاً، وكفاني عزّاً أن أكون لك عبداً».(شرح نهج البلاغة:٢٠/٢٥٥.)

وفي قوله:(بِعَبْدِه) إشارة إلى أنّ الإسراء كان جسدياً وروحياً، وسيوافيك تفصيل ذلك بعد الفراغ عن تفسير الآية.

قوله تعالى:(مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ): أي المكان المعدّ للسجود والصلاة، وهو الفِناء المحيط بالكعبة.

ومع ذلك يمكن أن يكون المسجد الحرام كناية عمّا حوله من البيوت، بشهادة أنّه سبحانه يقول:(هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ)(المائدة:٩٥.)، مع أنّ الهَدْي لا يُذبح عند الكعبة بل يُساق إلى مكة المكرّمة.

والظاهر أنّ بناء المسجد يرجع إلى إبراهيم أو ابنه إسماعيل(عليهما السلام)بشهادة قوله سبحانه: (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ)(إبراهيم:٣٧.)، ومن المعلوم أنّ المراد إقامة الصلاة حول الكعبة لا داخل الكعبة نفسها. وفي التاريخ: أنّ قريشاً بنوا بيوتهم حول المسجد الحرام، وجعل قُصيّ(هو من أجداد النبيّ محمد، فإنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصيّ بن كِلاب.) بقربه دار النّدوة لقريش وكانوا يجلسون فيها حول الكعبة، فانحصر بما أحاطت به بيوت عشائر قريش. وكانت كلّ عشيرة تتّخذ بيوتاً متجاورة، ومجموع البيوت يُسمّى شِعباً ـ بكسر الشين ـ وكانت كلّ عشيرة تسلك إلى المسجد الحرام من منفذ دورها، ولم يكن للمسجد الحرام جدار يُحفظ به.(التحرير والتنوير:١٤/١٢.)

قوله تعالى: (إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) أُريد به ـ كما مرّ في المفردات ـ مكان عبادة الله في بيت المقدس، وقد وصف بالأقصى لبُعده عن المسجد الحرام في مكّة، ولم يكن حينئذ وراءه مسجد، فصار المسجد الأقصى نهاية الإسراء في هذه الرحلة.

ثمّ إنّ في ذكر المبدأ باسم (المسجد الحرام) والمنتهى باسم (المسجدالأقصى) نكات نشير إليها،وهي:

١. أنّ قطع تلك المسافة في جزء من الليل كان كرامة من الله سبحانه للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وخرقاً للعادة إذ لا يمكن قطع تلك المسافة في هذا المقدار من الزمان حسب وسائل النقل المتوفّرة في ذلك العصر.

٢. أنّ مبدأ الرحلة كان هو المسجد الحرام، لا البيوت، اللّهم إلاّ أن يطلق المسجد ويراد به البيوت المحيطة به، وقد مرّ كونه محتملاً.

روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك عن صعصعة قال: قال النبي(صلى الله عليه وآله وسلم):«بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان... إلخ.(صحيح البخاري:٧٨٧، برقم:٣٢٠٧، كتاب بدء الخلق.)

وبذلك عُلم أنّ ما روي عن عائشة أنّ جسد النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يفارقها تلك الليلة يخالف القرآن الكريم، لأنّ معناه أنّه أُسري به من بيته لا من المسجد، مضافاً إلى أنّ عائشة لم تكن حين الإسراء الذي وقع في العشر الأُولى من البعثة زوجة للنبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)، فالرواية موضوعة مكذوبة.

قال السيد الآلوسي ـ بعد أن نقل ما روي عن عائشة ـ : ولعلّه لم يصحّ عنها، كما في البحر، وكانت صغيرة ولم تكن زوجته.(روح المعاني:١٥/٧.)

٣. بدأ رحلته(صلى الله عليه وآله وسلم) من مكّة المعظمة التي هي مكان الشريعة الإبراهيمية إلى المسجد الأقصى الذي هو موطن تفرّع الشريعة الإبراهيمية إلى شرائع، ثم عاد ـ بعد عروجه إلى السماء ـ إلى مكّة المكّرمة، وفيه إشارة إلى أنّ الشريعة المحمّدية جامعة لكلّ كمال في تلك الشرائع، حيث بدأ في هذه الرحلة بالتعرّف على خصوصيّات الشرائع وجزئيّاتها.

قوله تعالى:(الذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) والبركة هي الوفرة والكثرة، وتحتمل وجهين:

١. أُريد بها البركة المادية، وقد تجلّت في كثرة الخصب ووفرة الأنهار والأشجار والأثمار.

٢. البركة المعنوية، حيث إنّ الأرض التي فيها المسجد الأقصى، هي مقرّ الأنبياء، ومهبط الملائكة، قال تعالى ممتنّاً على إبراهيم(عليه السلام):(وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ)(الأنبياء:٧١.)، وهي أرض فلسطين.

هذا، وقد يكون المراد كلا البركتين.

قوله تعالى: (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) بيان لغاية تلك الرحلة، وهو أنّه سبحانه أراه في تلك الرحلة آياته، وأشير إليها أيضاً في سورة النجم حيث قال:(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)(النجم:١٨.)، أمّا رؤية الآيات في الرحلة السماوية فواضح لأنّه عُرج به إلى السماوات العلى، ومنها إلى سدرة المنتهى، وكم من آية بين المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى، إنّما الكلام في آيات الرحلة الأرضية (الإسراء).

وفي هذا المجال يمكن أن يقال إنّ رحلته تلك (من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) في وقت قصير(جزء من الليل) تعدّ آية باهرة من آيات الله لأنّها تدلّ على عظمة قدرته جلّ وعلا، ومنها أيضاً ما رآه من آثار الأنبياء السابقين في تلك الأرض المقدّسة، وغير ذلك من أُمور غيبية أطلعه الله سبحانه عليها.

قوله تعالى:(وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) فالله سبحانه سميع لأقوال عباده في موضوع الإسراء، بصير بأفعالهم حيث إنّ قسماً من عباده سينكرونه، وقسم منهم سيقبلونه برحابة صدر.

ويمكن أن يقال: إنّ الصفتين إشارة إلى أنّ الله سبحانه لم يختر رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) لشرف الإسراء إلاّ بعد أن اختبر استعداده لهذا الشرف، فالله سبحانه وتعالى سمع قول رسوله ورأى عمله وسلوكه، فاصطفاه للمقام السامي الذي اختاره له في الإسراء والمعراج.

وهذا هو الظاهر من الرازي، حيث قال: إنّ الذي أسرى بعبده محمد هو السميع لأقوال محمد، البصير بأفعاله، العالم بكونها مهذبة خالصة عن شوائب الرياء، مقرونة بالصدق والصفاء، فلهذا السبب خصّه الله تعالى بهذه الكرامات. ثم نقل الوجه الأوّل وقال:

وقيل: المراد سميع لما يقولون للرسول في هذا الأمر، بصير بما يعملون في هذه الواقعة.(تفسير الرازي:٢٠/ ١٤٧.)

إلى هنا تم تفسير الآية، وهناك أسئلة تطرح في هذا الصدد.

أسئلة حول الإسراء والمعراج

السؤال الأوّل: هل أُسري برسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بجسده وروحه، أو بروحه الشريف فقط؟

المشهور بين العلماء هو الأوّل، ويدلّ عليه:

أوّلاً: أنّ لفظ العبد إنّما يطلق على الروح والجسد معاً، ولو كان الإسراء في المنام، لقال: أسرى بروح عبده.

ثانياً: لو كان الإسراء مجرّد رؤية صالحة لما أنكره مشركو قريش؛ لأنّ النائم قد يرى نفسه في السماء أو يذهب من المشرق إلى المغرب ولا يستبعده أحد، مع أنّ المشركين أنكروه أشدّ الإنكار.

نعم ربّما يقال: إنّ الإسراء قد كان بالروح فقط في عالم الرؤيا، ويحتجّون بما ورد عن عائشة إذ قالت: ما فقدت جسد رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).(تاريخ الخميس:١/٣٠٨؛ المواهب اللدنية:٢١٢.)

يلاحظ عليه: أن الرواية تكذّب نفسها، لأنّ الإسراء وقع في العشر الأُولى من البعثة، ولم تكن عائشة آنذاك زوجة للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) حتى تفقد جسده تلك الليلة، كما مرّ.

السؤال الثاني: ما هي الغاية من الإسراء والمعراج؟

ذكر سبحانه الغاية من الإسراء وقال: (لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا) وقد ورد عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام) ما يوضح ذلك، فقد سئل الإمام زين العابدين(عليه السلام) عن الله عزّ وجلّ هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى عن ذلك، قلت: فلمَ أسرى بنبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى السماء؟ قال: «ليريه ملكوت السماوات وما فيها من عجائب صنعه وبدائع خلقه».(علل الشرائع: ١ / ١٣١، الباب ١١٢ (علّة المعراج)، برقم ١ ؛ نور الثقلين:٣/٩٩.)

وروى الصدوق بإسناده إلى يونس بن عبد الرحمن قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر(عليهما السلام): لأي علّة عرج الله عزّ وجلّ بنبيّه إلى السماء ومنها إلى سدرة المنتهى، ومنها إلى حجب النور، وخاطبه وناجاه هناك، والله لا يوصف بمكان؟ فقال(عليه السلام):«إنّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان ولا يجري عليه زمان، ولكنّه عزّ وجلّ أراد أن يشرّف به ملائكته وسكّان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقول المشبّهون، سبحان الله وتعالى عمّا يشركون».(التوحيد: ١٧٠، الباب ٢٨ (نفي المكان والزمان...)، برقم ٥ .)

وممّا ورد في السيرة النبويّة أنّه لمّا رأت قريش أمر النبيّ يزداد كلّ يوم ظهوراً، رغب إليهم أبو الوليد عتبة بن ربيعة ـ وكان من رؤساهم ـ في أن يعرض على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أُموراً لعلّه يقبل بعضها، فقال له: يابن أخي إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر، مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيّاً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فإنّه ربّما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، أو كما قال له. حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ).(فصّلت:١ـ٥.)

ثمّ مضى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فيها يقرؤها عليه، فلمّا سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.(السيرة النبوية:١/٢٩٣ـ٢٩٤.)

هذا وجاء في واقعة أُخرى أنّ أشراف قريش وهم خمسة وعشرون، منهم الوليد بن المغيرة وهو أكبرهم، وأبو جهل، وأُبيّ وأُميّة ابنا خلف، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والنضر بن الحارث، أتوا أبا طالب، وقالوا: أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك فإنّه سفّه أحلامنا وشتم آلهتنا، فدعا أبو طالب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)وقال: يا ابن أخي هؤلاء قومك يسألونك، فقال: ماذا يسألونني؟ قالوا: دعنا وآلهتنا، ندعك وإلهك، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم):أتعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب والعجم؟ فقال أبو جهل: لله أبوك نعطيك ذلك عشر أمثالها، فقال: قولوا«لا إله إلاّ الله»، فقاموا وقالوا:(أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا)(سورة ص:٥.).

وروي أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)استعبر، ثم قال: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا القول حتى أُنفذه أو أُقتل دونه»، فقال له أبو طالب: امضِ لأمرك، فوالله لا أخذلك أبداً.(مجمع البيان:٨/٣٧٨.وانظر: تاريخ الطبري:٢/٦٦ـ٦٧، منشورات مؤسسة الأعلمي.)

ترى أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) لا يساوم في رسالته ولا ينثني عزمه في تبليغها، وإن أُعطي كلّ هذا المُلك العريض، لماذا؟ لأنّه رأى في الإسراء والمعراج من الآيات العظيمة التي لم ترها عين ولم تسمع بها أذن، فصارت الدنيا في مقابلها شيئاً تافهاً، ومنه يُعلم كنه قوله سبحانه:(لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا).

السؤال الثالث: لماذا فرّق القرآن بين بيان الإسراء والمعراج؟

كانت للنبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) رحلتان، الأُولى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهذه هي التي جاء بيانها في هذه السورة، والثانية رحلته من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى وهذه جاء بيانها في سورة النجم بقوله:(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى...) إلى قوله: (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى)(النجم: ٥ـ ١٨.).

وللقارئ أن يسأل هذا السؤال: لماذا فرّق البيان القرآني بين الرحلتين مع أنّهما حدثتا في وقت واحد، والمنتظر أن تُذكرا في سورة واحدة؟

ولعلّ الجواب عنه: أنّ إسراء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى أسهل قبولاً من عروجه من المسجد الأقصى إلى السماوات، وذلك لأنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لمّا أخبر عن رحلته الأُولى سألوه ـ كما جاء في الرواية ـ عن أشياء من بيت المقدس، فأجاب بما وافق تصديق القوم، وقال لهم أيضاً أنّه مرّ بِعير لقريش في موضع كذا وأنّها تطلع عليهم مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق، إلى غير ذلك ممّا أخبر به من الأُمور المحسوسة ثم وجدوها وفق ما أخبر(انظر: الأمالي للصَّدوق:٣٦٣، المجلس(٦٩)، برقم ١، وجامع البيان (تفسير الطبري):٩/١٠، برقم ٢٢٠٢٠.)، ومع ذلك كلّه قد ثقل قبول ذلك على المشركين، وعلى ضعاف الإيمان من المسلمين، ففي تاريخ الخميس: لمّا أخبر النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)بمعراجه قالوا: إنّ هذا لشيء عجاب، وبعضهم من كثرة إنكارهم يصفقون، وبعضهم من قلّة اعتبارهم يضحكون إلى أن قال: فإن هذا الأمر يُرى عندهم محالاً وعجباً، وارتدّ ناس ممّن كان قد آمن به وصدّقه.(تاريخ الخميس:١/٣١٥، ولاحظ: منتخب كنز العمال في هامش مسند أحمد:١/٣٥٣.)

فإذا كان استماع خبر الرحلة الأُولى ثقيلاً حتى على بعض المسلمين، فإنّ مقتضى الحال يستلزم أن يؤخَّر ذكر الرحلة الثانية التي هي أشدّ غرابة من الرحلة الأُولى، حيث إنّها رحلة إلى أُمور غير محسوسة لهم، ولم تكن مقرونة بقرائن حسّية دالّة على وقوعها، وتصدّق خبر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم).

السؤال الرابع: متى وقع الإسراء والمعراج؟

اختلف المؤرّخون في تاريخ الإسراء في أي سنة كان؟ فقال الزُّهري: كان ذلك بعد المبعث بخمس سنين، حكاه القاضي عياض، ورجّحه القرطبي والنَّووي. وقيل: قبل الهجرة بسنة، قاله ابن حزم وادّعى فيه الإجماع. وقيل: قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر. وقيل: قبل الهجرة بثلاث سنين.(تاريخ الخميس:١/٣٠٦.)

هذا هو الاختلاف في سنة الإسراء، وقس عليه الاختلاف في الشهر واليوم، وفي أي ليلة من الأسبوع، ففيها اختلافات كثيرة، لا يمكن الاستناد إلى واحد منها. ولعلّ القول الأوّل، أي كونه بعد المبعث بخمس سنين، أقرب إلى الواقع.

وقد مرّ أنّ ابن مسعود وصف سورة الإسراء بقوله: إنّهن من العتاق الأُوَل وهنّ من تِلادي، وهذا لا يناسب كونه قبل الهجرة بسنة أو اثنتين أو ثلاث.

السؤال الخامس: مشكلة الروايات حول الإسراء والمعراج

كثرت الروايات حول رحلتَي النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) (الإسراء والمعراج)، وقد اشتمل بعضها على ما لا يمكن تصديقه، ولذلك نرى أنّ الطبرسي قسّم روايات المعراج إلى أربعة أقسام:

أحدها: ما يقطع على صحّته لتواتر الأخبار به، وإحاطة العلم بصحّته.

وثانيها: ما ورد في ذلك ممّا تجوّزه العقول ولا تأباه الأُصول، فنحن نجوّزه ثم نقطع على أنّ ذلك كان في يقظته دون منامه.

وثالثها: ما يكون ظاهره مخالفاً لبعض الأُصول، إلاّ أنّه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول، فالأَولى أن نؤوّله على ما يطابق الحق والدليل.

ورابعها: ما لا يصحّ ظاهره، ولا يمكن تأويله إلاّ على التعسّف البعيد، فالأَولى ألاّ نقبله.(مجمع البيان:٦/٢٤٧.)

وإليك نموذجاً من تلك الروايات التي لا يمكن قبولها وإن كانت قد وردت في كتب الفريقين:

روى القمي في تفسيره أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال ـ وهو يذكر ما جرى له في ليلة المعراج ـ : ثمّ غشيتني صُبابة، فخررت ساجداً، فناداني ربّي: إنّي قد فرضت على كلّ نبيّ كان قبلك خمسين صلاة، وفرضتها عليك وعلى أُمّتك، فقم بها أنت في أُمّتك، فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): فانحدرت حتّى مررت على إبراهيم فلم يسألني عن شيء حتّى انتهيت إلى موسى، فقال: ما صنعت يا محمّد؟ فقلت: قال ربّي: فرضت على كلّ نبيّ كان قبلك خمسين صلاة، وفرضتها عليك وعلى أُمّتك.

فقال موسى(عليه السلام): يا محمّد إنّ أُمّتك آخر الأُمم وأضعفها، وإنّ ربّك لا يردّ عليك شيئاً، وإنّ أُمّتك لا تستطيع أن تقوم بها، فارجع إلى ربّك فاسأله التخفيف لأُمّتك، فرجعت إلى ربّي حتّى انتهيت إلى سدرة المنتهى، فخررت ساجداً، ثمّ قلت: فرضتَ عليّ وعلى أُمّتي خمسين صلاة ولا أُطيق ذلك ولا أُمّتي، فخفّف عنّي، فوضع عنّي عشراً، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع لا تطيق، فرجعت إلى ربّي فوضع عنّي عشراً، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع وفي كلّ رجعة أرجع إليه أخرّ ساجداً حتّى رجع إلى عشر صلوات، فرجعت إلى موسى فأخبرته، فقال: لا تطيق، فرجعت إلى ربّي فوضع عنّي خمساً، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: لا تطيق، فقلت: قد استحييت من ربّي، ولكن أصبر عليها، فناداني مناد: كما صبرت عليها فهذه الخمس بخمسين كلّ صلاة بعشر، ومن همّ من أُمّتك بحسنة يعملها فعملها كتبت له عشراً، وإن لم يعمل كتبت له واحدة، ومن همّ من أُمّتك بسيّئة فعملها كتبت عليه واحدة، وإن لم يعملها لم أكتب عليه شيئاً، فقال الصادق(عليه السلام): جزى الله موسى عن هذه الأُمّة خيراً.(تفسير القمّي:١/٤٠٣ـ ٤٠٤؛ بحار الأنوار:١٨/٣٣٠ـ ٣٣١. وروى نحوها البخاري في كتاب الصلاة من صحيحه:١/٩٢ـ ٩٣، برقم ٣٤٩.)

وفيها ما يلي:

١. أنّها مخالفة لما صحّ عن علي الرضا(عليه السلام)، حيث روى الصدوق عن الفضل بن شاذان في حديث العلل التي سمعها من الرضا (عليه السلام) قال:«إنّ الصلاة إنّما قصرت في السفر لأنّ الصلاة المفروضة أوّلاً إنّما هي عشر ركعات، والسبع إنّما زيدت فيها بعد، فخفف الله عزّ وجلّ عن العبد تلك الزيادة لموضع سفره وتعبه».(وسائل الشيعة:٣، الباب١٤ من أبواب أعداد الفرائض، الحديث٥.)

والحديث صريح في أنّ الصلاة شرّعت يوم شرّعت عشر ركعات لا خمسين، لا أقلّ ولا أكثر.

ويؤيّده ما رواه البخاري عن عائشة، قالت: فرض الله الصلاة حين فرضها، ركعتين، ركعتين، في الحَضَر والسفر، فأقرّت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحَضَر.(صحيح البخاري:١/٩٣، برقم ٣٥٠.)

٢. أنّ الرواية ـ كما يقول السيد الشريف المرتضى ـ رويت عن طريق الآحاد فلا توجب علماً في مورد العقائد، وهي مع ذلك مضعّفة.(تنزيه الأنبياء:١٢١.)

٣. أنّ مضمون الرواية بعيد عن العقول الحصيفة، فإنّه سبحانه وتعالى لا يشرِّع حكماً إلاّ بملاك لا يتغيّر لا بسؤال النبيّ وغيره، فكيف يشرِّع وجوب خمسين ركعة ثم يخففها إلى أربعين ثم ثلاثين إلى أن تبلغ عشراً؟!

٤. أنّ التخفيف على سبيل التدريج أشبه بمساومة المشتري مع البائع للحطّ من ثمن المبيع، أفيليق هذا بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)

مع الله تبارك وتعالى؟

هذا نموذج ممّا ورد من روايات في المعراج، وعلى هذا فقس سائر الروايات التي وضعتها الغلاة المجسّمة، من رؤية النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)للباري عزّ وجلّ، وحديثه معه.

السؤال السادس: المشاكل العلمية في المعراج

ذهب مَن ذهب إلى أنّ المعراج كان بالروح لا بالجسم، لأجل المشاكل العلمية التي ربّما تسبب امتناع كون الإسراء والمعراج بالجسم، فالمشكل المهم عند القدماء هو الهيئة البطليموسية التي تفسّر العالم بالأفلاك التسعة، وتعتقد أن خرقها والتئامها محال وقوعاً، وإن لم يكن محالاً عقلاً.

يقول الرازي: احتجّ المنكرون له بوجوه:

أوّلها: أنّ الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحدّ، غير معقولة.

وثانيها: أنّ صعود الجسم الثقيل إلى السماوات، غير معقول.

وثالثها: أنّ صعوده إلى السماوات يوجب انخراق الأفلاك، وذلك محال.(تفسير الرازي:٢٠/١٩١.)

ثمّ أجاب عن الشبهتين الأُوليين على الأُصول الثابتة في الهيئة البطليموسية.

نعم، قد يتصوّر فريقٌ من الناس أنّ القوانين الطبيعية والعلمية الحاضرة لا تتلاءم مع معراج النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)، وذلك من وجوه:

الأوّل: أنّ الابتعاد عن الأرض يتطلب التخلّص من جاذبية الأرض، وبعبارة أُخرى إبطال مفعولها، فإنّ (الكرة) التي نقذفها إلى الأعلى تعود مرّة ثانية إلى الأرض بفعل الجاذبية، ومهما كرّرنا قذف الكرة إلى الأعلى فإنّها تعود وترجع إلى الأرض أيضاً.

فإذا أردنا أن نبطل مفعول جاذبية الأرض إبطالاً كاملاً بحيث لا تعود الكرة المقذوفة إلى الأعلى إلى الأرض ثانيةً بل تواصل مسيرها إلى الأعلى، فإنّنا نحتاج لتحقيق هذا الهدف إلى جعل سرعة الكرة باتجاه معاكس للأرض تعادل ٢٥،٠٠٠ ميل في الساعة.

الثاني: كيف استطاع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يطوي هذه المسافة بمثل هذه السرعة؟ وهل البدن الطبيعي يتحمّل مثل هذه السرعة مع عدم توفّر الغطاء الواقي والوسائل اللازمة، التي تصون الجسم من التبعثر والذوبان بفعل السرعة الفائقة؟

الثالث: أنّ الهواء (بما فيه الأُوكسجين اللاّزم للتنفّس) يقلّ تدريجياً كلّما ابتعدناعن الأرض، ويضمحلّ تدريجياً على بُعد (١٦٠٠كم) تقريباً فوق سطح الأرض، فكيف استطاع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وبعد طيّ تلك المسافة الطويلة والبعيدة في أعالي الجو، أن يعيش بدون وجود الأُوكسجين؟!

الرابع: أنّ هناك أعداداً كبيرة من الأحجار (النيازك) تسقط من السماء، ولو اصطدمت بأيّ جسم أرضي لأبادَتهُ، وأفنته، ولكنّها تصطدم بالغلاف الغازيّ المحيط بالأرض، وعندما يندفع النيزك مخترقاً الغلاف الغازي يحترق وينتج ذيلاً من الغازات المتوهّجة (يُسمّى الشهاب). ولهذا يعتبر الغلاف الغازي في الحقيقة بمنزلة درع يقي سُكّان الأرض من خطر تلك القذائف المهلكة.

ومع هذه الحالة كيف تهيّأ لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يصون نفسه من تلك الأحجار السماوية؟! وكيف تهيّأ له أن يصون نفسه من الأشعة الفضائية الضارّة المنبعثة في الفضاء الخارجي؟!

الخامس: إذا تغيّر ضغطُ الهواء على جسم الإنسان فزاد أو نقص، اختلّت حياته الطبيعية، فهو يمكنه أن يعيش تحت ضغط معيّن من الهواء، لا يوجَد في الطبقات العُليا من الجوّ، فكيف استطاع النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)والحال هذه أن يحافظ على حياته في أعالي الفضاء؟!

السادس: أنّ سرعة الحركة التي سار بها النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لا ريب كانت تفوق سرعة الحركة التي يسير بها النور، مع العلم بأنّ سرعة النور هي (٣٠٠،٠٠٠) كيلومتراً في الثانية، كما أنّه ثبت في العلم الحديث أنّه لا يستطيع أيّ جسم أن يتحرك بسرعة تفوق سرعة النور، فكيف استطاع النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يسير بسرعة تفوق سرعة النور، ومع ذلك يرجع إلى الأرض سالم الجسم كامله؟؟!

جوابنا:

جوابنا هو : أنّنا إذا أردنا أن نناقش هذه المسألة على ضوء القوانين العلميّة الطبيعية لتجاوز عدد الاعتراضات والإشكالات ما ذكرناه آنفاً.

ولكنّنا نقول في جواب هذا الفريق متسائلين: ما هو مقصودكم من توضيح هذه النواميس الطبيعية؟

هل تريدون القول بأنّ السير في العوالم العليا أمرٌ غير ممكن، وممتنع ذاتاً، ومن ثمّ هو أمر محال؟

وهذا مردود لأنّ الجهود والتحقيقات العلمية التي بذلها علماء الفضاء في الشرق والغرب قد جعلت هذا الأمر ـ ولحسن الحظ ـ أمراً ممكناً، وعادياً، لأنّ مع إطلاق أوّل قمر صناعيّ عام (١٩٥٧م) إلى السماء والذي أسماه علماء الفضاء بـ«اسپوتنيك» اتّضح أنّه يمكن إبطال مفعول جاذبية الأرض بواسطة الصاروخ، كما أنّ إرسال السفن الفضائيّة الحاملة لروّاد الفضاء من البشر بواسطة الصاروخ، أوضحَ أنّ ما كان يعدّه البشر مانعاً من الصعود في الفضاء، قد أصبح قابلاً لرفعه وإزالته، والتخلّص منه بفضل العلم والتكنولوجيا.

إنّ البشر استطاع بأدواته وآلاته العلمية والتكنولوجية أن يعالج مشكلات عديدة في مجال ارتياد الفضاء، مثل مشكلة النيازك المتطايرة في الجوّ ومشكلة الأشعة الفضائية، ومشكلة انعدام الغاز اللازم للتنفس و... و... وها هو علم ارتياد الفضاء في حال توسع مستمرّ وأنّ العلماء أصبحوا الآن يثقون بأنّهم سرعان ما يتمكّنون من مدّ بساط الحياة والعيش في إحدى الكرات السماوية والسفر إلى إحدى الكواكب كالقمر والمريخ بسهولة كبرى! (يعدّ الضابط الروسي جاجارين (١٩٣٤ ـ ١٩٦٨ م) أوّل إنسان يحلّق في الفضاء. وابتعدت سفينته (٣٢٧) كيلومتراً عن سطح الأرض، ودارت دورة واحدة حول الكرة الأرضية في ساعة وثمان وأربعين دقيقة، وكان ذلك في ١٢ من شهر نيسان عام ١٩٦١ م.)

وبعد ذلك أقدمت أمريكا والاتحاد السوفيتي على إرسال السفن الفضائية إلى الفضاء في محاولة لغزو القمر. وفي ٢٠ تموز ١٩٦٩ م هبط رواد الفضاء في مركبة حتى حطّت «أپولو ١١ الأمريكية» على سطح القمر ، وكان هذا أوّل مرّة يحطّ فيها إنسان قدمه على أرض القمر.

وقد تكرّرت تجارب هذا البرنامج الفضائي فيما بعد مرات ومرات، وكانت ناجحة على الأغلب. وكل هذه الجهود والنتائج تكشف عن أنّ هبوط الإنسان على سطح الكرات والكواكب أمرٌ ممكن. وما يستطيع البشر فعله عن طريق العلم، يقدر الله خالق البشر على فعله بإرادته النافذة.

إنّ هذه الأحداث العلمية وهذا التقدّم التكنولوجي في مجال ارتياد الفضاء، شاهدٌ قويٌّ على أنّ هذا العمل أمر ممكن مئة بالمئة، وليس من الأُمور المستحيلة.

وإذا كان مقصود المعترضين على المعراج هو أنّه لا يمكن القيام بمثل هذه الرحلة من دون أجهزة علميّة وتكنولوجية، ولم يكن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)يملك في تلك الليلة مثل هذه الأجهزة، فكيف طوى تلك المسافات وطاف على جميع تلك العوالم من دون أدنى وسيلةِ نقل من هذا القبيل؟!

فإنّا نجيب بأنّ ما يستطيع البشر فعله عن طريق الأدوات والآلات العلمية الصناعية، يستطيع الأنبياء فعله بعناية الله تعالى وإقداره، وبدون الأسباب الظاهرية والخارجية.

لقد عرج رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى السماء بعناية وبإقدار الله جلّ وعلا الذي خلق الوجود كله، وأقام هذا النظام البديع برمّته، فهو الذي أعطى للأرض جاذبيتها، وأعطى للشمس أشعتها وأوجد مختلف طبقات الهواء، وأنواع الغازات في الجوّ، ومتى أراد أخذَها وانتزعها منها، أو كبح جماحها، وردّ عادتها.

فإذا تحقّق معراج النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) في ظلّ العناية الإلهيّة فإنّ من المسلّم به أنّ جميع النواميس تخضع لقدرته القاهرة، وإرادته الغالِبة، وهي طوع إرادته، والسماوات والأرض مطويّات بيمينه، والجميع في قبضته ورهن إشارته دائماً وأبداً، وفي كلّ حين وأوان.

وعلى هذا فماذا يمنع من أن يخرج الله الذي منح للأرض جاذبيتها، وللأجرام السماوية أشعتها، عبده المصطفى(صلى الله عليه وآله وسلم) بقدرته المطلقة ومن دون الأسباب الظاهرية، من مركز الجاذبية الأرضيّة، ويصونه من أخطار الأشعة الكونية، وأن يعمد خالق كلّ هذا القدر الهائل من الأُوكسجين إلى إيجاد الهواء اللازم لنبيّه في الطبقات التي ينعدم فيها الهواء، وهذا هو معنى قولهم:«إنّ الله مسبِّب الأسباب ومعطّل الأسباب».

إنّ أمر المعجزة يختلف ويفترق أساساً عن أمر العلل الطبيعية والقدرة البشرية.

وحصيلة الكلام: إنّ قدرة الله المطلقة لا تقاس بقدرتنا المحدودة، فإذا كنّا لا نقدر على شيء من دون الأسباب لم يصحّ أن نقول: إنّ القادر المطلق لا يقدر على مثله من دون الأسباب الطبيعية أيضاً.

إنّ إحياء الموتى، وقلب العصا إلى ثعبان، وإبقاء يونس حيّاً في بطن الحوت، في قعر البحار، أو إحضار عرش بلقيس في لحظة واحدة، ممّا صدّقته جميع الكتب السماوية ونقلته إلينا، فالجميع لا يقلّ إشكالاً ولا يختلف جواباً عن قصة المعراج النبويّ.

إنّ جميع العلل الطبيعية والموانع الخارجية مسخّرةٌ لله تعالى خاضعة لإرادته، مطيعةٌ لأوامره وإرادته، يمكن تعلُّقها بكلّ شيء إلاّ بالأمر المحال، وأمّا غير ذلك أي ما يكون ممكناً بالذات مهما كان، فإنّه قابلٌ لأن يتحقّق في ظل إرادة الله ومشيئته، سواء يقدر البشر عليه أم لا يقدر.

على أنّ حديثنا هذا موجَّهٌ إلى مَن آمن بالله، وعرف ربّه بصفاته الخاصّة به تعالى، ومن ثمّ آمن بالله الأزليّ على أنّه القادر على كلّ شيء.

سورة الإسراء: الآيتان ٢ و ٣ (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ... ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا).

الآيتان: الثانية والثالثة

(وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً * ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا).

المفردات

الكتاب: أُريد به التوراة.

وكيلاً: الوكيل: مَن يُعتمد عليه في الأُمور.

ذرية: سلالة.

شكوراً: كثير الشكر.

التفسير

٢. (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً):

الآية مع ما قبلها في صدد بيان نعمتين عظيمتين آتاهما الله سبحانه لنبيّين كريمين، فقد أسرى بعبده(صلى الله عليه وآله وسلم) ليلاً وأعطى موسى(عليه السلام) الكتاب، ولذلك عطف قوله:(وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) على قوله:(سُبْحَانَ الذِي أَسْرى)وبذلك تتبيّن الصلة بين الآيتين.

ويمكن أن يقال أيضاً: إنّ موقف النبيّين من أُمّتيهما على نمط واحد، ففي الأُمة الإسلامية من يستقبل الدعوة، وفيها من يعاندها، ولذلك لمّا أخبر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عن رحلته الليلية صار الناس فريقين، وهكذا لمّا دعا موسى(عليه السلام) إلى عبادة الله الواحد، انقسم الناس إلى قسمين، ولذلك عطف ذكر رسالة موسى(عليه السلام) على بيان إسراء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وقال: (وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ): أي التوراة (وَجَعَلْنَاهُ): أي التوراة(هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ). قيل: خصَّ بني إسرائيل بالذكر مع أنّ رسالته كانت رسالة عامّة للامتنان عليهم لأنّه بُعث لأجل تحريرهم من عبودية فرعون، وقد أُشير إلى ذلك في آية أُخرى، قال تعالى:(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ).(الصف:٥.)

نعم كون رسالته رسالة عالمية، فيه تأمُّل، وقد أوضحنا الأمر في موسوعتنا «مفاهيم القرآن»(مفاهيم القرآن:٣/٩٠ـ ٩٥، منشورات مؤسسة الإمام الصادق(عليه السلام)، ١٤١٣هـ.) عند الكلام في معنى أُولي العزم من الرُّسل، فلاحظ.

ثمّ إنّ ممّا تضمّنه الكتاب من الأُمور الرئيسية هو أنّ فيه: (أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً) وعلى ما ذكرنا تكون الجملة جملة تفسيرية للفظ الكتاب.وبذلك تنتفي الحاجة إلى تقدير فعل عند قوله: (أَلاَّ تَتَّخِذُوا)كما فعل المفسّرون، نظير قوله: قلنا ألاّ تتّخذوا، والمراد من الوكيل هو مَن يُعتمد عليه، ويُستنصر به.

٣. (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا):

قوله: (ذُرِّيَّةَ) يحتمل أن يكون منصوباً على الاختصاص، وهو خيرة الكشّاف، أو منصوباً على النداء، أي «يا ذريّة من حملنا مع نوح» وعلى كلا الوجهين فهو تفسير لقوله:(لِبَنِي إِسْرَائِيلَ) وأنّهم من (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ): أي أولاد من حملنا مع نوح في السفينة فأنجيناه من الطوفان، فإنّ الناس كلّهم من ذريّة نوح لأنّه كان معه في السفينة أبناؤه الثلاثة: سام، وحام، ويافث، فالناس كلّهم من ذرية أُولئك، ولذلك عرّف بني إسرائيل بأنّهم من (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ).

فإن قلت: إنّ الاتّخاذ يتعدّى إلى مفعولين، فما هو المفعول الآخر؟

قلت: إنّ قوله: (مِنْ دُونِي) ناب مناب المفعول، والمعنى ألاّ تتّخذوا غيري وكيلاً.

ثمّ إنّ وصفهم بأنّهم من ذرية من حملنا مع نوح لغاية تحريضهم على أن يسلكوا مسلك نوح(عليه السلام)الذي من صفاته(إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا): أي كثير الشكر.

روى الطبري بإسناده عن سلمان]المحمّدي[قال: كان نوح إذا لبس ثوباً أو أكل طعاماً حمد الله، فسمّي عبداً شكوراً.(جامع البيان(تفسير الطبري):٩/٢٧ برقم ٢٢٠٤٢. ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين:٢/٣٦٠.)

وروى بإسناده عن سعيد(كذا. وفي الاستيعاب وأُسد الغابة وغيرهما: سعد بن مسعود، وهو الثقفي الصحابي، عمّ المختار بن أبي عبيد الثقفي. وكان والياً من قِبَل عليّ(عليه السلام) على المدائن، وأقرّه الحسن(عليه السلام). انظر: أعيان الشيعة:٧/٢٣٠.) بن مسعود، قال: ما لبس نوح جديداً قطّ، ولا أكل طعاماً قطّ إلاّ حمد الله، فلذلك قال الله: (عَبْدًا شَكُورًا).(جامع البيان:٩/٢٧ برقم ٢٢٠٤٤.)

وروى الكليني والعيّاشي عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر]الباقر[(عليه السلام)، قال: قلت له: فما عنى بقوله في نوح: (إِنَّهُ كَانَ

عَبْدًا شَكُورًا)؟ قال: كلمات بالغ فيهنّ. قلت: وما هنّ؟ قال: كان إذا أصبح قال: أصبحت أُشهدك ما أصبحتْ بي من نعمة أو عافية في دين أو دنيا فإنّها منك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد على ذلك، ولك الشكر كثيراً... .(الكافي:٢/٥٣٤، كتاب الدعاء، قطعة من الرواية ٣٨؛ تفسير العيّاشي:٣/٣٦ برقم ٢٤٦٣.)

وروى نحوه الشيخ الصّدوق عن حفص بن البَختري، عن أبي عبد الله الصادق(عليه السلام).(لاحظ : من لا يحضره الفقيه:١/٢٨٤، الباب(٤٨)، برقم ٢، طبعة دار التعارف، ١٤١١ـ ١٩٩٠م.)

وفي الآية إشارة إلى أنّ بني إسرائيل لم يقتفوا طريقة جدّهم(نوح) في الشكر والتزام خطّ الطاعة لله تعالى، ولذلك صاروا ـ وَفق منطق سنن التاريخ ـ مستحقّين لما تشير إليه الآيات التالية من بلاء وتدمير على يد عباد الله مرّة بعد أُخرى.

سورة الإسراء: الآيات ٤ ـ ٨ (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ... وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا).

الآيات: الرابعة إلى الثامنة

(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا).

المفردات

قضينا: (قضى) فعل يتعدّى بنفسه، كقوله سبحانه:(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ) (الإسراء: ٢٣.) إلاّ أنّه هنا تعدّى بـ «إلى» وقال: (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ) ولعلّه لأجل تضمّنه معنى (أوحينا) بمعنى أعلمنا بالوحي وأخبرنا، نظير قوله: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)(النحل:٦٨.).

لَتُفسدنّ: أُريد من الفساد المعاصي ومخالفة أحكام التوراة، واللام للتأكيد.

ولَتعلُنّ: عطف على (لَتُفسدنّ)، أي لتستكبرنّ عن طاعة الله.

علوّاً: العلوّ: التكبّر والاستعلاء على الناس.

وعد: المراد بالوعد هنا الموعود به.

بأس: البأس: الشوكة والنجدة والقوّة.

فجاسوا خلال الديار: توسّطوها وتردّدوا فيما بينها.

الكَرّة: الغَلَبة.

نفيراً: النَّفير والنافر: من ينفر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته، وأُريد هنا كثرة الأولاد. يقال للخامل: «لا في العير ولا في النفير».

ليسوءوا وجوهكم: ليجعلوا آثار المساءة لائحة على وجوهكم بالإذلال والقهر. ونسبت إلى الوجوه لأنّ الذلّ والانكسار يظهران على الوجه قبل سائر الأعضاء الظاهرية، بظهور الحزن والكآبة فيها، وبدْو آثار الذلّة والمسكنة وصغار الاستعباد عليها. قال الراغب: نُسب إلى الوجه من حيث إنّه يبدو في الوجه أثر السرور والغمّ.

لِيُتبِّروا: التّتبير: الإهلاك، والتَّبار: الهلاك.

حصيراً: أي حاصرة لهم.

التفسير

المراحل الأربع

استعرضت هذه الآيات الكريمة مراحل أربع مرّت بها الأُمة الموسوية، وهي:

الأُولى: أنّ بني إسرائيل يفسدون في الأرض ويستكبرون على الناس.

الثانية: إنّ تماديهم في الإفساد والعلوّ سيجرّ عليهم ـ وفق السنن والقوانين الإلهية التي تحكم التاريخ ـ البلاء والعذاب في الدنيا، وذلك ببعث عباد لله أُولي قوّة شديدة، يجوسون خلال ديارهم ويتردّدون فيها بالعيث والفساد حتى يقضوا على من بقي من بني إسرائيل، ويدخلوا المسجد الذي في بيت المقدس (وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً) (النساء: ٤٧.): أي أمراً قطعياً.

الثالثة: بعد هذه الهزيمة ومضيّ فترة من الزمن تاب بنو إسرائيل ورجعوا عمّا كانوا عليه من الإفساد والعلوّ، فغزوا من حاربهم في المرّة الأُولى واستنقذوا الأسرى والأموال ورجع المُلك إليهم وكثرت أموالهم وأولادهم، وفي هذه المرحلة خيّرهم الله سبحانه بين الإحسان والإساءة وأنّ نتائج كلٍّ منهما ستعود عليهم، ولكنّهم أخذوا بالإفساد ثانياً.

الرابعة: أنّه سبحانه أعاد عليهم العباد الذين استباحوا ديارهم قتلاً ونهباً وتدميراً فأساءوا وجوههم ودخلوا المسجد، ودمّروا ما شادوه.

هذه هي خلاصة ما قضاه الله سبحانه على بني إسرائيل، فإذا عرفت ذلك، فلنعد إلى تفسير الآيات ثم نذكر ما يمكن أن يكون مصداقاً لما مرّ في التاريخ لهاتين الحادثتين.

٤. (وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا):

الآية تحكي عن أنّه سبحانه أخبر بني إسرائيل بمصيرهم السيّئ في مستقبل أمرهم ويقول:(وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ): أي أوحينا إليهم في التوراة وأخبرناهم بأمرين:

١. (لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ).

٢. (وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا).

أمّا فسادهم الأوّل أو الثاني فسيأتي الكلام عنه بعد تفسير الآيات، وأمّا علوّهم فيتمثّل في ظلم الناس ظلماً عظيماً من خلال ممارستهم عمليات القتل والسرقة والبغي والعدوان وغير ذلك. والإخبار عن الإفساد والاستعلاء مقروناً باللام لأجل التأكيد على كونه أمراً محقّقاً.

٥. (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْس شَدِيد فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً):

لمّا أخبر في الآية السابقة عن الإفسادين والاستعلائين، جاء البيان القرآني لذكر المرّة الأُولى من الإفساد، ومن الاستعلاء وقال: (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا): أي أُولى المرّتين من الإفساد والاستعلاء (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ): أي أرسلنا عليكم (عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْس شَدِيد): أي قوماً أُولو نجدة وشدّة ويداً في القتال، وخلّينا بينكم وبينهم خاذلين إيّاكم (فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ): أي تردّدوا وسط الديار. وفي التعبير كناية عن شدّة تعذيبهم حتى أنّ هؤلاء العباد كانوا يتتبّعون اليهود ويبحثون عنهم ليقتلوهم (وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً): أي كان قضاء الله أمراً قطعيّاً لا يقبل النقض.

٦. (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَال وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا):

الآية تخبر عن رجوع الدولة إلى بني إسرائيل وانتصارهم على أعدائهم، يقول سبحانه: (ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ) يعني الرّجعة والغَلَبة عليهم بعد ذلك البلاء الشديد(وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَال وَبَنِينَ) فكثرت أموالكم وأولادكم، ومن ثمّ (وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا): أي أكثر عدداً وأنصاراً. وأُريد هنا كثرة الأولاد.

ثمّ إنّه سبحانه يشير إلى سنّة إلهية في المجتمع كلّه، فيقول:

٧. (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا):

أي من أحسن بفعل الطاعات وعمل الخيرات فقد أحسن لنفسه، وأمّا من أساء بفعل المحرّمات واقتراف المآثم، فإليه ترجع نتائجها الوبيلة.

ثمّ إنّ المترقّب منهم هو الاعتبار بما حلّ بهم في المرّة الأُولى من الهزيمة والعذاب، ولكنّهم ـ يا للأسف ـ لم يتّعظوا بل عادوا لما نهوا عنه (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ): أي المرّة الثانية من إفسادكم واستعلائكم بعثنا عليكم عباداً لنا، فيقومون بـأُمور ثلاثة:

أ. (لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ): أي ليجعلوا آثار المساءة من الذلّ والمهانة بادية على وجوهكم بسبب غلَبتهم عليكم وقهركم.

ب. (وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ).

أي قاهرين فاتحين مذلّين لهم، كما دخلوه أوّل مرّة.

ج . (وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا).

أي يدمّروا ويُهلكوا ما غلبوا عليه من البلاد.

٨ . (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا):

وفي نهاية المطاف يَعِدُهم ويوعدهم، أمّا الأوّل فبقوله: (عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ) بعد البأس الثاني إذا تبتم و اجتنبتم المعاصي فيعزّكم بعد الذلّة، وأمّا الثاني فهو قوله: (وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا): أي إنْ عدتم للفساد والاستعلاء، فنحن نجازيكم بالقتل والسبي وإحلال الذلّ والصغار بكم، كالمرّتين الماضيتين.

ولمّا كان قوله: (وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا) إشارة إلى العذاب الدنيوي، أشار بقوله: (وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا) بأنّ لهؤلاء وراء العذاب الدنيوي عذاباً أُخروياً، وهو أن تكون جهنم حاصرة لهم فلا يستطيعون الإفلات منها.

إلى هنا تمّ تفسير الآيات، وقد عُلم أنّه سبحانه أوحى إلى بني إسرائيل بأنّهم سيفسدون ويستعلون مرّتين، وفي كلّ مرّة يبعث الله تعالى من يجازيهم ويذلّهم ولا يبقى من قوّتهم ودولتهم شيء، وفي نهاية المطاف وعدهم وأوعدهم بمثل المرّتين.

بقي الكلام في تبيين زمن كلّ من هاتين المرّتين، وتعيين العباد الذين بعثهم الله سبحانه لمجازاتهم، وهذا من مشاكل التاريخ.

وقد قيلت هنا وجوه أشهرها بين المفسّرين ما يلي:

إنّ الحادثة الأُولى وقعت بين اليهود والبابليّين.

والحادثة الثانية وقعت بينهم وبين الرومانيّين.

فعبّر عن الأُولى بوعد أُولاهما، وعن الثانية بوعد الآخرة.

لقد ورد في التاريخ أنّ نبوخذ نصّر (بختنصّر) ملك بابل أغار عليهم، فاستولى على القدس عام (٥٨٧ أو ٥٨٦ق. م)، ودمّر المدينة ومعبدها (المسجد الأقصى)، ومارس القتل العام، وأسر جماعات كثيرة من اليهود، وأخذ الذهب الذي في هيكل سليمان وما فيه من الآنية، فهؤلاء هم الذين تردّدوا وسط الديار للقتل والسلب والنهب، وسبَوا منهم عدداً كثيراً، فلم يزالوا في بابل لا يحميهم حام ولا يدفع عنهم دافع طول زمان حياة نبوخذ نصّر، لكن بعد زمن طويل، وهم ما زالوا أسرى في بابل، قصد كسرى(كورش) أحد ملوك الفرس العظام بابل وفتحها، وتلطّف على الأسرى من بني إسرائيل، وأذن لهم بالرجوع إلى الأرض المقدّسة وأعانهم على تعمير الهيكل (المسجد الأقصى) وتجديد الأبنية وأجاز لعزراء أحد كهنتهم أن يكتب لهم التوراة، وعندئذ كثر عددهم وجدّدوا ملكهم

ومسجدهم، وأطلق لهم التصرّف في بلادهم التي غلبهم عليها البابليون. وكانوا تحت نفوذ مملكة فارس... إلى أن دخلت المملكة تحت نفوذ الرومانيين وأقاموا عليها أُمراء من اليهود كان أشهرهم (هيرودس) ثم تمرّدوا على الرومانيين، فأرسل قيصر رومية القائد (سيسيانوس) مع ابنه القائد (طيطوس) بالجيوش في حدود(٤٠م)، فخرّبت القدس واحترق المعبد، وأسر (طيطوس)أعداداً كبيرة من اليهود، وقتل أُخرى، وبقي منهم شرذمة قليلة بها إلى أن وافاهم الامبراطور الروماني(أدريانوس) فهدمها وخرّبها، وذلك في سنة (١٣٥م)، وبذلك انتهى أمر اليهود وانقرضوا، وتفرّقوا في الأرض ولم تخرج القدس من حكم الرومان إلاّ حين فتحها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب سنة (١٦هـ)، صلحاً مع أهلها، وهي تسمّى يومئذ (إيليا).(. انظر: تفسير الطبري:١٥/١٧، الميزان في تفسير القرآن: ١٣ / ٤٤ ، التحرير والتنوير:١٤/٣١ـ ٣٢، وغيرها.)

هذا هو الرأي المشهور الذي اعتمد عليه غير واحد من المفسّرين.

ولكن هذا الرأي لا يخلو من إشكالات نشير إليها:

١. أنّ تعبير: (بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ) إشارة إلى نزاهة المبعوث لانتسابه إلى الله سبحانه، وأين هذا من نبوخذ نصّر الذي كان رجلاً سفّاكاً للدماء، وملكاً مستبدّاً مستكبراً.

٢. قوله:(عِبَادًا لَنَا) مشعر بأنّ المبعوثين من عباد الله الصالحين. ولو استعملت مثل هذه الصيغة في غير الصالحين، فهو قليل، وعندئذ هل يمكن أن نصف نبوخذنصّر بأنّه من عباد الله الصالحين؟

وأقلّ ما نسب إلى ذلك الملك أنّه قتل من بني إسرائيل أربعين ألفاً وأنّه أحرق التوراة وأنّ جيشه تردّد وسط ديار اليهود حتى لا يُبقي أحداً منهم.

٣. أنّ قوله سبحانه:(ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ) يشير إلى أنّ بني إسرائيل تغلّبوا على من غزاهم أوّل مرّة، والحال أنّه لم يسجل في التاريخ أنّ اليهود حاربوا جيش نبوخذنصّر بعد مئة سنة، اللّهُمَّ إلاّ أن يقال: إن الكرّة من بني إسرائيل على البابليين كانت بواسطة ملك فارس، وهو خلاف الظاهر.

٤. الظاهر أنّ الضمائر الأربعة في قوله:

١. (لِيَسُوءُوا) ٢. (وَلِيَدْخُلُوا)

٣. (كَمَا دَخَلُوهُ) ٤. (وَلِيُتَبِّرُوا)

ترجع إلى الذين غزَوهم أوّل مرّة، أعني قوله:(عِبَادًا لَنَا) مع أنّ المفروض أنّ الذين غزَوا بني إسرائيل في المرة الثانية(وَعْد الآخرة)، وهدموا ما كان لهم من المُلك والحضارة، هم الروم، وأين هم من نبوخذنصّر؟

وهذه الوجوه الأربعة تردّ التفسير المشهور.

ثمّ إنّ كثيراً من المفسّرين جعلوا هذه الآيات التي تتضمّن الإفساد مرّتين ومعاقبتهم على ذلك، راجعاً إلى الماضي، وأنّ كلتا الحادثتين قد وقعتا قبل المبعث الشريف، ولذلك حاولوا أن يطبّقوا الآيات على الإفسادين، مع أنّ ظاهر الآيات التفكيك بين المرّة الأُولى والثانية، حيث إنّ قوله في المرّة الأُولى: (وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً) حاك عن تحقّق الحادثة إفساداً وعقاباً قبل نزول الآية، حيث تدلّ على أنّه كان قضاء مقضيّاً متحقّقاً.

وأمّا المرّة الثانية حيث يتخلّل بين رجوع القوّة والقدرة إلى بني إسرائيل وبين معاقبتهم قوله:(إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)فلعلّه يشير إلى أنّ الكرّة الثانية بكلا وجهيها (الإفساد والعقاب) لم تقع بعد، ولم تتحقّق.

ويؤيّد ذلك قوله: (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ) ومن المعلوم أنّ الفعل الماضي المقرون بـ«إذا» ينقلب من المضيّ إلى المستقبل، ولذلك عبّر

سبحانه عن الجزاء والمعاقبة بصيغة المضارع وقال: (لِيَسُوءُوا)و (وَلِيَدْخُلُوا) و (وَلِيُتَبِّرُوا)، ولعلّه سبحانه يُحدث بعد ذلك أمراً.

فلو تحقّقت المرّة الأُولى في الأزمنة السابقة، فإنّ المرّة الثانية بشقّيها غير متحقّقة.

وأمّا سائر الأقوال التي سردها الطبري وغيره من المفسّرين، فأوضح إشكالاً وأقل انطباقاً على الآيات، ولذلك تركنا ذكرها لعدم جدواها.

التفسير العاطفي

نقل الشيخ مغنية(رحمه الله) أنّه دار نقاش هادئ على صفحات جريدة الأخبار المصرية، الصادرة في كانون الثاني من عام (١٩٦٩م)، حول قضاء الله تعالى على بني إسرائيل: (لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ).

وقد انقسم المشتركون في هذا الحوار إلى فريقين:

الفريق الأوّل يقول: إنّ أُولى الضربتين وقعت بيد المسلمين أيام عمر بن الخطاب لأنّه فتح القدس، وجاس هو والمسلمون خلال الديار الفلسطينية، وفسّر هذا الفريق المفسدة الثانية من بني إسرائيل بما فعلته عصابة الصهاينة في حزيران سنة ١٩٦٧م، وما تفعله الآن، وفسّر الضربة الثانية بأن الله سيمكّن في المستقبل العرب والمسلمين من رقاب الصهاينة، فيسترجعون منهم الأرض السليبة التي وثبوا عليها في حمى الاستعمار.. وقال هذا الفريق: إن هذا المعنى هو المراد من قوله تعالى: (وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ): أي أنّ العرب والمسلمين يحرّرون المسجد الأقصى في المستقبل من إسرائيل الحالية كما حرّره المسلمون من قبل.(التفسير الكاشف:٥/١٩.)

وقد ذهب إلى هذا الرأي، بل جزم به عبد الكريم الخطيب .وممّا قاله في هذا المجال: المرة الثانية إذن هي ما فيه إسرائيل الآن من فساد في الأرض، وعلوّ واستكبار.. فساد إلى أبعد مداه، وعلوٍّ واستكبار إلى غاية حدودهما.

أمّا الذي ينتظر بني إسرائيل بعد هذا، فهو ما يقع تأويلاً لقوله تعالى: (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ).

والذي سيتولّى هذا ـ بلا شكّ ـ هم المسلمون، أصحاب المسجد، الذي دخلوه أوّل مرّة، أيام عمر بن الخطّاب، والذين سيدخلونه اليوم ـ إذا شاء الله ـ كما دخلوه أوّل مرّة.(التفسير القرآني للقرآن: ٨ / ٤٥٣.)

ثمّ قال (بعد كلام طويل): وإذن فالجولة التالية بيننا وبين بني إسرائيل، هي لنا، وسندخل المسجد ـ إن شاء الله ـ كما دخلناه أوّل مرّة، وسنخزي القوم ونعرّيهم من كلّ ما ليسوا من أثواب الزهو والغرور.. وسنقضي على هذه الدولة المولودة سفاحاً.. فلن تقوم لها قائمة إلى يوم القيامة.(التفسير القرآني للقرآن: ٨ / ٤٥٥.)

أقول: أمّا تفسير الضربة الأُولى بفتح المسلمين القدس، فلم يحارب المسلمون اليهود، بل كان الروم هم المسيطرون على بيت المقدس، فصالحهم عمر بن الخطاب، ولم يكن أي قتل وتدمير بالنسبة لليهود.

وأمّا تفسير المفسدة الثانية بما فعلته عصابة الصهاينة في حزيران عام١٩٦٧م، فهو استنتاج مستمدّ من رؤية الواقع المعاش، وأمّا تفسير الضربة الثانية بأنّها ستقع في المستقل فقائم على التنبّؤ، وهو ممّا لا يمكن تفسير القرآن به.

أضف إلى ما ذكرنا: أنّ تفسير هذه الآيات على صهاينة اليوم تفسير غير صحيح «لأنّ الذين حاربوا المسلمين ليسوا من نسل إسرائيل بن إسحاق ولا على دينه ودين موسى، وإنّما هم مخلوق جديد عجيب غريب لم يسبق له مثيل لأنّه مكوّن من أشتات لا يربط بينها رابط، ولا يجمعها جامع من وطن أو لغة أو أي مبدأ إلاّ مبدأ العمالة لقوى الشرّ والاستعمار».(انظر: التفسير الكاشف:٥/٢٠.)

سورة الإسراء: الآيات ٩ ـ ١١ (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ ... وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً).

الآيات: التاسعة إلى الحادية عشرة

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَ أَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً).

المفردات

أعتدنا: هيّأنا: أصلها أعددنا، قلبت الدالّ الأُولى «تاء» لسهولة التلفّظ.

يدْعُ: الدعاء هو مطلق الطلب، سواء كان باللسان أم بالعمل.

عجولاً: صيغة مبالغة في عاجل.

التفسير

٩.(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا):

لمّا تقدّم قوله سبحانه:(وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ) أعقب ذلك بذكر إيتاء القرآن للنبيّ الأكرم وإن لم يذكر اسمه(صلى الله عليه وآله وسلم)، وقال: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ): أي القرآن الموجود في صدور المسلمين وبين أيديهم (يَهْدِي لِلتِي): أي للطريق التي (هِيَ أَقْوَمُ) وهي صيغة تفضيل من القويم، فلو كانت التوراة هدىً لبني إسرائيل، فالقرآن الكريم يهدي إلى الطريق الأقوم والأصلح، والدليل على ذلك أنّ كلّ أصل من أُصول الإسلام وكلّ فرع من فروع شريعته يرتكز على الفطرة النقية الصافية، ولذلك تجد أنّ علماء الإسلام منذ العصور الأُولى إلى يومنا هذا يستدلّون على الأُصول والفروع بأُمور توافق الفطرة.

وفي وصف التوراة بقوله:(وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ) ووصف القرآن بقوله: (يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ)دليل على أنّ الشريعة الإسلامية أكمل الشرائع وأصلحها. وكيف لا تكون كذلك وقد اشتملت على كلّ ما في الشرائع السماوية السابقة من قيم ومبادئ ثابتة، بالإضافة إلى ما اتّسمت به من خصائص تجعلها صالحة لكلّ زمان ومكان، منها: الشمولية، حيث تغطّي نصوصها كلّ جوانب الحياة وتعالج جميع شؤون الإنسان، ومنها الواقعية، حيث تلبّي حاجات الإنسان الروحية والمادية، وتؤمّن مصالحه الفردية والاجتماعية على حدّ سواء وبشكل متوازن.

قوله: (وَ) القرآن (يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ) الأعمال (الصَّالِحَاتِ) التي هي ثمرة الإيمان (أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا). الظاهر أنّ المراد بالأجر هو وعد الآخرة من الجنة وما فيها. وفي الوقت نفسه يعدُ الكافرين بالعذاب في الآية التالية.

١٠. (وَ أَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا):

ركّز القرآن على مسألة الإيمان بالآخرة، وأوعد المنكرين لها بالعذاب وقال: (وَ أَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ) ويجحدون البعث والنشور (أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا): أي مؤلماً موجعاً، وذلك لأنّ من لا يؤمن بالآخرة لا يؤمن بقدرة الله تعالى وهو عين الكفر بالله، قال الإمام علي(عليه السلام):«وَعَجِبْتُ لِمَنْ شَكَّ فِي اللهِ، وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللهِ؛ وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ، وَهُوَ يَرَى الْمَوْتَى؛ وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النَّشْأَةَ الأُخْرَى، وَهُوَ يَرَى النَّشْأَةَ الأُولَى».(نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ١٢٦)

ولا يخفى ما في الآية من حديث المقابلة حيث بشّر الصالحين بالأجر الكبير، وهدّد من يكفر بالآخرة بالعذاب الأليم، ولعلّ قوله: (عَذَابًا أَلِيمًا)قرينة على أنّ المراد من قوله:(أَجْرًا كَبِيرًا) هو الجنّة.

١١. (وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً):

تدلّ الآية على أنّ الإنسان بما أنّه لا يعرف الخير والشر ولا يميّز أحدهما عن الآخر، ولا يعرف طريق السعادة والشقاء، ربّما يطلب

الشرّ والشقاء نظير طلبه الخير والسعادة، يقول سبحانه:(وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ): أي يطلبه (دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ): أي طلبه الخير، وما هذا إلاّ لأجل عدم تبصّره كما يقول: (وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً).

هذا هو مفاد الآية وهو ظاهر، إنّما الكلام في صلة الآية بما قبلها، وهنا يمكن أن يقال: إنّه سبحانه أشار في الآية المتقدّمة إلى أنّ القرآن يهدي إلى شريعة قويمة تضمن خير الإنسان وسعادته دنيا وآخرة، إلاّ أنّ الإنسان المعرض عن القرآن لعدم تبصّره ومعرفته الخير والشرّ، ربّما يطلب الشرّ نظير طلبه الخير، فيعبد الأوثان، كما يعبد الموحّدون الله خالق السماوات والأرض، أو يتوهّم أنّ الرّبا مثل البيع ويغفل عن مفاسد الأوّل.

ويمكن أن يقال أيضاً في وجه الصلة: إنّ الآية السابقة تحدّثت عمّن لا يؤمن بالآخرة، ولمّا كان المشركون الجاحدون للبعث والنشور يستعجلون بيوم القيامة و: (يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(يونس:٤٨.)، جاءت هذه الآية لتبيّن أنّ استعجالهم بيوم القيامة هو دعاء بالشرّ وطلب له، لأنّهم يومئذ سيُجزَون عذاب الهون وسيصلَون سعيراً، بسبب تكذيبهم وتماديهم في العصيان، وبذلك صاروا من مصاديق قوله: (وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ).

وفي الختام نقول: كتب الفعل (يَدْعُ) في المصاحف مجرَّداً عن الواو، نظير قوله تعالى:(سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ)(العلق:١٨.)، والصحيح أن يُكتب بالواو: «ندعو»: غير انّهم استمروا في الكتابة على تجريده من الواو تبعاً لخطّ المصاحف الأولى.

هل الإنسان عُجن بالخير والشرّ؟

إنّ الله سبحانه وصف الإنسان في آخر هذه الآية بقوله:(وَكَانَ الإِنْسَانُ عَجُولاً) ووصفه أيضاً بأوصاف ربّما تحطّ من مقامه وكرامته، كالآيات التالية:

١. (إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(إبراهيم:٣٤.).

٢. (وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا)(الإسراء:١٠٠.).

٣. (وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْء جَدَلاً)(. الكهف:٥٤.).

٤. (إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)(المعارج:١٩ـ ٢١.).

٥. (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)(العاديات:٦.).

فلو أخذنا بظاهر هذه الآيات تكون النتيجة أنّ وجود الإنسان عُجن بالشرور والصفات الرذيلة، كما هو لازم كونه «هلوعاً»، «جزوعاً»، «منوعاً»، «قتوراً» إلى غير ذلك من الصفات التي وصف بها.

هذا، ومن جانب آخر نرى أنّ الله سبحانه يصف الإنسان بأسمى الصفات وأعلاها، نظير:

١. قوله تعالى:(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً).(البقرة:٣٠.)

٢. قوله تعالى:(وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا).(البقرة:٣١.)

٣. قوله تعالى:(قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ).(البقرة:٣٣.)

٤. قوله تعالى:(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لاِدَمَ).(البقرة:٣٤.)

٥. قوله تعالى:(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ).(الإسراء:٧٠.)

٦. قوله تعالى:(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيم).(التين:٤.)

٧. قوله تعالى:(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا).(الروم:٣٠.)

فهذه الآيات ونظائرها تدلّ على أنّ الإنسان خليفة الله في أرضه وأنّه سبحانه علّم أبانا آدم الأسماء كلّها، وصار هو معلماً للملائكة

ومسجوداً لهم، وأنّ الله فضّل بني آدم على كثير ممن خلقهم، بل خلقه في أحسن تقويم وقال بعد خلقه:(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون: ١٤.) وفي النهاية خلقه على فطرة التوحيد التي تتضمّن ميولاً إلى الخير والشر، وعند ذلك يجب علينا أن نجد حلاًّ لهذا الذي يظهر أنّه تناقض.

وقد قيل في الجمع بين هذين الصنفين من الآيات، وجهان:

الوجه الأوّل: يؤخذ بظواهر هذه الآيات في كلا الصنفين ويقال بأنّ وجود الإنسان وذاته عُجنا بالخير والشر وبالسجايا الفاضلة والميول الرذيلة، ولكن خُيّر بين تغليب قوى الشرّ على قوى الخير أو بالعكس، ففي ساحة الحياة مَن يقدّم قوى الخير على قوى الشرّ، فمكان أن يكون «كفوراً» يكون «شكوراً» أو مكان أن يكون «يؤوساً»، «قنوطاً»، يكون راجياً «متوكّلا»، ومكان أن يكون «عجولاً» يكون «صبوراً»، إلى غير ذلك، وكأنّ ساحة الحياة قاعة امتحان فالناس يدخلون هذه القاعة بر‌ؤوس أموال متفاوتة، ويخرجون بين خاسر ورابح ولذلك يقول سبحانه:(إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ).(العصر:٢ـ٣.)

وعلى هذا الوجه لا محيص من الالتزام بوجود قوى الشرّ والخير في نفس الإنسان منذ ولد إلى أن يشيب فيموت، غير أنّ السعادة والشقاء رهن كيفية التعامل معهما.

الغرائز الطبيعية كلّها خير عند الاعتدال

الوجه الثاني: أنّ وجود الإنسان كلّه خير وصلاح وأنّ الميول الطبيعية المكنونة في وجوده كلّها ميول نافعة تعتمد حياته عليها، فلو مُحِيَ أحد هذه الميول من حياته لتوقّفت عجلتها. ولأجل إيضاح ذلك نأتي بمثالين:

١.إن حبّ الذات من الميول التي يجدها كلّ إنسان في نفسه، ولو فقد هذا النوع من الميول لفقد الدافع إلى السعي إلى تلبية احتياجاته، ولوقع فريسة للأخطار التي تتهدّده، فالإنسان حينما يدهمه خطر يدافع عن نفسه انطلاقاً من حبّ الذات، ولولا ذلك لسلّم نفسه للخطر.

٢. إنّ حبّ تملّك المال من الغرائز الموجودة في وجود كلّ الناس، ولولاه لفقد الإنسان أساس حياته، فالميل إليه من أركان حياته. ويشهد لذلك تلك التجربة الشيوعية الماركسية الفاشلة في الاتحاد السوفياتي، والتي حاولت بكلّ وسائل القوّة محو الملكية الخاصّة في كلّ المجالات، ولكنّها اضطرت إلى الإقرار بعجزها عن تحقيق ذلك، وإلى إقامة نظام اشتراكيّ (يعترف بالملكية الخاصّة في حدود معيّنة) قبل ذلك.

٣. الغريزة الجنسية: وهي أساس بقاء الإنسان على البسيطة، ولولاها لما بقي للإنسان أثر على وجه الأرض.

وعلى ضوء ما ذكرنا، فلو خرج حبّ الذات عن حدّ الاعتدال صار الإنسان ظلوماً كفّاراً، كما لو تعدّى حبّ تملّك الإنسان للمال عن الوسطية، فإنّه يصبح «منوعاً»، «قتوراً»، وإذا لم يضع حدّاً لإعمال الغريزة الجنسية لأصبح شبيهاً بالوحوش الضارية في الغابات ولضاعت الأنساب. وقس على ذلك سائر الغرائز السامية والدانية، فالكلّ رهن الاعتدال أو الخروج عنه، فالخير والشرّ ينتزعان من كيفية استخدام الغرائز، فالغريزة المعدّلة تلازم الخير والسعادة، والغريزة الثائرة الخارجة عن حدّ الاعتدال ينتج عنها الشرّ والشقاء.

وعلى ضوء ما ذكرنا نقول: كلّ ما يظهر أنّه من الرذائل أو الصفات الدانية أو ممّا يحطّ من قدر الإنسان وجاء ذكرها في الآيات، ليست أُموراً ذاتية وإنّما تنشأ بسبب خروج هذه الميول عن حدّ الوسطية.

والذي يدلّ على هذا الوجه أنّه سبحانه يصف الإنسان بأنّه (لَفَرِحٌ فَخُورٌ) ولكنّه يستثني طائفة ويقول:(إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) هود:١١.)، فإنّ معنى الاستثناء ليس بمعنى عدم وجود الفرح والفخر في الصابرين والعاملين للصالحات، بل أنّ جذور الفرح والفخر موجودة في الناس جميعاً الصالحين والطالحين، ولكن الطائفة الأُولى تفرح إذا ساد العدل على الظلم، والعفاف على الفساد، والكفاف على الفقر. وأمّا الطائفة الأُخرى فإنّما يفرحون إذا سادت الفوضى أو المجون في المجتمع.

وحصيلة الكلام: إنّ مبدأ الوجود هو الله سبحانه وهو خير كلّه، وليس للشرّ طريق إليه ولا يصدر منه إلاّ الخير، والإنسان قد خلق بميول وغرائز لو استخدمها على نحو الوسطية تكون الحياة كلّها خيراً، وأمّا إذا عدل عنها إفراطاً وتفريطاً فسوف يسود الشر في الحياة.

سورة الإسراء: الآية ١٢ (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا ... وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً).

الآية: الثانية عشرة

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً).

المفردات

فمحونا: المحو: إزالة الأثر.

مبصرة: مضيئة.

السنين: جمع السَّنَة، وهي الحول.

فصّلناه تفصيلاً: بيّناه تبييناً. والفصل: إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى تكون بينهما فُرجة.

التفسير

١٢. (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً):

تتضمّن الآية أُموراً خمسة:

١. أنّ الليل والنهار آيتان من آيات الله كما يقول:(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ).

٢. أنّه سبحانه يمحو آية الليل ويجعل مكانها آية النهار مبصرة، كما يقول: (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً).

٣. يذكر حكمة جعل آية النهار مبصرة ويقول:(لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ).

٤. يذكر حكمة ثانية لكلتا الآيتين (النهار والليل)، وهي حكمة حساب السنين ويقول:(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ).

٥. يأتي بضابطة كلّية وهي أنّ الله بيّن كلّ شيء أحسن تبيين وقال: (وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً).

هذه رؤوس الأُمور التي أشارت إليها الآية، وإليك البيان:

١. قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ)

إنّ اختلاف الليل والنهار ومجيء كلٍّ بعد الآخر في زمان محدّد، آية ودليل على أنّ للكون مدبّراً واحداً يدبّر الليل والنهار ويأتي بهما متعاقبين، فإنّ النظام الذي يسود هذه الظاهرة (التبادل بين الليل والنهار) عبْر العصور ولم يحدث فيه أيّ اختلال، هو أفضل دليل على وجود مدبّر حكيم واحد، وقد مرّ في صدر السورة أنّ الغرض هو الدعوة إلى التوحيد تدبيراً وعبادة.

مضافاً إلى أنّ في الليل والنهار مصالح للعباد، فلو لم يتعاقبا ودام أحدهما، ما استقامت الحياة على الأرض. وبذلك صار الليل

والنهار آيتين من آيات الله.

٢. قوله تعالى: (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)

ماذا يريد سبحانه بقوله: (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)؟

هناك وجوه في فهم دلالة هذه الفقرة أهمّها:

الوجه الأوّل: أن تكون إضافة الآية في كلا الموردين إضافة بيانية، ومعنى الآية: فمحونا الآية التي هي الليل وجعلنا الآية التي هي النهار مبصرة. بمعنى أزلنا الظلمة من الأساس وجعلنا آية أُخرى التي هي النهار مكانها مبصرة.. تكشف كلّ شيء للأبصار.

يقول صاحب «الكشّاف» في تفسير هذا الوجه: إنّ الليل والنهار آيتان في أنفسهما، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار للتبيين، كإضافة العدد إلى المعدود، وعلى هذا فيكون معنى الفقرة الثانية أعني: (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً): أي فمحونا الآية التي هي الليل، وجعلنا الآية الّتي هي النهار مبصرة.(انظر: تفسير الكشّاف:٢/٢٢٦.)

وعلى هذا فهنا آيتان:

الأُولى: جعْل الليل والنهار وخلقُهما. وهذا يدلّ على أنّ الظلمة مخلوقة أيضاً كالنور، إذ ليس للنهار والليل حقيقة سوى انتشار الضوء أو الظلمة على الأرض.

الثانية: محو آية الليل وإذهاب الظلمة والإتيان بآية النهار مبصرة، وجعْلهما متعاقبَين.

ثمّ إنّه سبحانه ذكر حكمة جعل آية النهار مبصرة بقوله:(لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ) ولم يذكر حكمة جعل الليل ، ولكن جاءت الإشارة إلى كلا الأمرين في آيات أُخرى، قال سبحانه: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا* وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا)(. النبأ:١٠ـ١١.)، وفي آية أُخرى قال: (وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا)(الأنعام:٩٦.).

إلى هنا تمّ الوجه الأوّل في تفسير هذه الفقرة.

الوجه الثاني: أنّ المراد بقوله:(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ): أي جعلنا نيّرَي الليل والنهار آيتين، وأُريد بالنيّرين: الشمس والقمر.

والفرق بين هذا الوجه والوجه الأوّل هو أنّ الآية على الوجه الأوّل هي الليل والنهار أنفسهما، وعلى الوجه الثاني النيّران فيهما. وعلى ضوء ذلك فيكون معنى قوله تعالى:(فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ): أي طمس نور القمر بطلوع الشمس، أو بما يرى في وجهه من الكلَف، كما أنّ معنى جعل آية النهار مبصرة هو جعل الشمس منيرة ومبصرة وخلوّ وجهها من المحو والسواد.

قال الشريف الرضي(رحمه الله): إنّ معنى كونها مبصرة أي يبصر الناس فيها ويهتدون بها، كما تقدّم قولنا في قولهم: نهار صائم، وليل قائم، أي أهل هذا صيام، وأهل هذا قيام... فعلى هذا يُسمّى النهار مبصراً إذا كان أهله بصراء.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٩٧.)

الوجه الثالث: يتلخّص هذا الوجه الذي قال به أحد المعاصرين، موظّفاً بعض الحقائق العلمية الحديثة في فهم المراد من تلك الفقرة، بما يلي:

من الثابت علمياً أنّ نُطُق الحماية المتعدّدة الموجودة في الغلاف الغازي للأرض (ومنها نطاق الأوزون، وأحزمة الإشعاع، والنطاق المغناطيسي للأرض) لم تكن موجودة في بدء خلق الأرض، بل تكوّنت على مراحل متطاولة من تاريخ الأرض الابتدائية، وعلى ذلك فقد كانت الأشعة الكونية وباقي مصادر النور في صفحة الكون الحالي من مثل توهّج الهواء، وأضواء النجوم، وأضواء المجرّات وغيرها، كانت تصل بكميات هائلة إلى المستويات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض، فتؤدّي إلى إنارتها وتوهّجها ليلاً، وبعد تكوّن نُطُق الحماية المختلفة للأرض أخذت هذه الظواهر في التضاؤل التدريجي حتى اقتصرت على بقايا رقيقة جدّاً وفي مناطق محدّدة للغاية مثل منطقتي قطبي الأرض المغناطيسيّين، لتبقى شاهدة على حقيقة أنّ ليل الأرض في المراحل الأُولى لخلقها كان يضاء

بوهج لا يقلّ عن نور الفجر الصادق، وشاهدة على رحمة الله بنا أن جعل نُطُق حماية متعدّدة للأرض، والتي بدونها تستحيل الحياة عليها.(انظر: من آيات الإعجاز العلمي.. السماء في القرآن الكريم للدكتور زغلول النجّار: ٤٢٩.)

ثمّ إنّه سبحانه يشير بقوله:(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) إلى حكمة الآيتين، فالغرض من جعل الليل والنهار على النحو المذكور هو (لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ) : أي حساب الأيام والشهور والفصول، فجمهور البشر يضبط التاريخ تارة بالليالي والأيام وأُخرى بالشهر والشهور وثالثة بالسنة والسنين، فكلّ ذلك من نتائج خلق الليل والنهار، أو جعل القمر والشمس داخل الآيتين، فلذلك يقال: سنة قمرية أو سنة شمسية.

وهذه الفقرة على خلاف ما سبق لا تختصّ بآية النهار، بل تعمّ كلتا الآيتين لما عرفت من أنّ الضبط تارة بالأيام، وأُخرى بالليالي.

وأمّا قوله: (وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً) فهو ضابطة كلّية تنطبق على جعل الليل والنهار آيتين، وقد عرفت أنّ التفصيل هو التبيين والتمييز حيث إنّه سبحانه فصل الليل عن النهار، ولكنّ الضابطة لا تختصّ بالمورد فنظام الخلق كلّه قد فصّله الله سبحانه وأعطاه خصائصه المميّزة، بل تشمل الضابطة نظام التشريع أيضاً فقد فصل سبحانه الحلال عن الحرام، وبيّن الأحكام كما يقول:(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ).(الرعد:٢.)

سورة الإسراء: الآيات ١٣ ـ ١٥ (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ...مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً).

الآيات: الثالثة عشرة إلى الخامسة عشرة

(وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا * اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً).

المفردات

طائره: حظّ الإنسان من خير وشرّ، أو عمله كذلك. وسيأتي وجه تسمية نصيب الإنسان بالطائر في التفسير.

كتاباً: صحيفة أعماله.

منشوراً: غير مطويّ.

حسيباً: حاسباً.

وِزر: الوِزر: الحمل الثقيل كنّي به عن المسؤولية، ومنه الوزير لأنّه يتحمّل المسؤولية الثقيلة.

التفسير

١٣.(وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا):

الآية الكريمة تتضمّن بيان أمرين:

الأوّل: أن حظّ الإنسان من خير وشرّ لا يفارقه ولا ينفكّ عنه بحال، والعرب تضرب المثل للشيء الذي يلزم بالشيء بقولهم: جعلتُ هذا في عنقك، أي قلّدتك هذا العمل، وخصّوا من بين الأعضاء العنق لأنّه يظهر عليه ما يزيّن المرء كالقلائد والأطواق، أو ما يشينه كالأغلال والأوهاق.(تفسير المراغي:١٥/٢٣.)

وعلى هذا فحظّ الإنسان وعمله وشقاؤه وسعادته لا يفارقه في الآخرة، وأين ما ذهب فهو معه كالعِقد في عنق الفتاة، لا يفارقها، وإليه يشير سبحانه بقوله:(وَ كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ): أي حظّه من خير وشرّ وشقاء وسعادة (فِي عُنُقِهِ). ولماذا عبّر عن حظ الإنسان بالطائر؟

والجواب: إنّ العرب كانت تتفأّل وتتشاءم بالطير، فإن مرّ بهم من اليسار إلى اليمين تيمّنوا به، وسمّوه سانحاً، وإن مرّ من اليمين إلى

اليسار تشاءموا منه وسمّوه بارحاً، فاستعير الطائر في الآية لحظّ الإنسان من العمل، فتارة يُنبئ عن السعادة، وأُخرى عن الشقاء، وكلٌّ معلّق بعنق الإنسان لا يفارقه يوم القيامة.

قال الشريف الرضيّ(رحمه الله): والمراد بالطائر هنا ـ والله أعلم ـ ما يعمله الإنسان من خير وشرّ ونفع وضرّ، وذلك مأخوذ من زجر الطائر على مذاهب العرب، لأنّهم يتبرّكون بالطائر المعترض من ذات اليمين، ويتشاءمون بالطائر المعترض من ذات الشمال، ومعنى ذلك أنّه سبحانه يجعل عمل الإنسان من الخير والشرّ كالطوق في عنقه بإلزامه إياه والحكم عليه به.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٩٨.)

الثاني: أنّ الله سبحانه يخبر أنّ ما هو حظّ الإنسان المعلّق بعنقه (المعبّر عنه بالطائر)، يظهر يوم القيامة بصورة منشور يفصّل ويبيّن ما صدر منه، فلا يدع صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها، كما يقول: (وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ): أي يجده(مَنْشُورًا) لا مطويّاً. والنشر كناية عن اطّلاع الإنسان على ما فيه بسرعة، بخلاف المطويّ.

١٤. (اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا):

هذه الآية تتضمّن أمراً ثالثاً يضاف إلى الأمرين المذكورَين في الآية السابقة، فكأنّ الإنسان يوم القيامة يواجِه أُموراً ثلاثة:

١. (طَائِرَهُ): أي حظّه من العمل (فِي عُنُقِهِ).

٢. كتاباً منشوراً أمامه، مودَعاً فيه ما صدر عنه أيام حياته.

٣. أمراً بقراءته كما يقول: (اقْرَأْ كِتَابَكَ)، وإنّما خصّه بالقراءة لتتمّ الحجة عليه بأجلى مظاهرها، كما يقول: (كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا).

نعم حقيقة ذلك الكتاب تبقى مجهولة عندنا غير معلومة، ولكنّه بالطّبع ليس كاللّوح المكتوب، إذ لا يكون حجّة على الإنسان لإمكان التزوير فيه، وإنّما يُنشر أمام صاحبه بشكل يرى فيه أعماله، حسنةً كانت أم سيئّة، صورة مطابقة لواقع حياته في الدنيا، فيعترف بها ولا يعتريه الشكّ في صحّتها، ولذلك يؤمر بقراءة كتابه، وهو لا يحتاج إلى حسيب، بل يحاسب نفسه بنفسه، ليحكم لها أو عليها.

وإن أردنا التقريب بمثال فنقول: إذا أقرّ الإنسان على شيء وسُجّل، أو ارتكب جريمة وصوّرت بآلة التصوير، فليس له أن ينكر صورته أو عمله، هذا ما نشاهده في حياتنا المعاصرة، ومن المعلوم أنّ الأمر في الآخرة أدقّ وأفضل من ذلك، ولذلك لا يجد المجرم محيصاً من الاعتراف بجرائمه.

١٥. (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً):

الأحكام الجزائية الأربعة

هذه الآية، بالرغم من اختصارها، تضمّنت بيان أحكام أربعة في مورد الجزاء يوم القيامة، ولمّا تقدّم في الآية السابقة قوله: (وَ كُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ)، ناسب أن يذكر تلك الأحكام الأربعة:

١. (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ) ذلك أنّ الهداية نور في داخل المهتدي يسلك الطريق على ضوئها، ولا يراه غيره حتى ينتفع به.

٢. (وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا): أي من حادَ عن قصد السبيل وكذّب الله ورسله فلا يضرّنّ إلاّ نفسه.

وقد مضى مضمون الفقرتين في صدر السورة، قال سبحانه: (إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا)(الإسراء:٧.).

٣. (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى): أي لا تحمل نفس مسؤولية نفس أُخرى، بل على كلّ نفس إثمها ولا تتحمّل إثم غيرها، كما لا يتحمّل الغير إثمَها. ولعلّ الغاية من بيان هذه الضابطة قطع أطماع المشركين حيث كانوا يزعمون أنّهم لو كانوا على الضلال فإثمهم

على آبائهم. روى القرطبي عن ابن عباس: إنّ الوليد بن المغيرة قال: اتّبعوني واكفروا بمحمد وعليّ أوزاركم.(تفسير القرطبي:١٠/٢٣٠.)

فإن قلت: كيف يقول سبحانه: (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى) مع ورود النص به في قوله تبارك وتعالى: (لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْم أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ)(النحل:٢٥.)، وقوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْء إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ).(العنكبوت:١٢ و١٣.)

والجواب واضح: وهو أنّ لهؤلاء إثمين:

أ. ذنب ارتكبوه فيجازون به.

ب. ذنب آخر وهو أنّهم أضلّوا أتباعهم، ومن المعلوم أنّ السبب ربّما يكون أقوى من المباشر، فيُجازى كما يُجازى غيره.

تحمل العاقلة دية الجناية الخطئية

اتّفق الفقهاء على أنّ العاقلة تتحمّل دية خطأ الجاني، روى أبو بصير عن أبي جعفر]الباقر[(عليه السلام)، قال: «لا تضمن العاقلة عمداً، ولا إقراراً، ولا صلحاً».(الوسائل:١٨، الباب٣ من أبواب العاقلة، الحديث١.)

إلاّ أنّ تحمّل العاقلة ليس من مقولة تحمّل الغير وزر الآخر، بل هو مبنيّ على نوع من التعاون بين أفراد الأُسرة والعشيرة، فإنّ الدِّيَة غرامة فادحة ربّما لا يقدر عليها الجاني، بخلاف ما لو قام بأدائها جماعة من العصبة، فيكون ذلك من قبيل التعاون على البرّ والتقوى، أي مواساة المؤمن.

وسيوافيك تفصيل ذلك خلال تفسيرنا لسورة الزمر.(لاحظ : تفسير الآية ٧ من سورة الزمر، قوله سبحانه: (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى).) كما تأتي الإشارة أيضاً إلى مورد آخر، حيث يتوهّم أنّه من قبيل تحمّل الغير وزر الآخرين في هذه السورة.

٤. (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً).

هذا هو المحور الرابع في الآية، فالله سبحانه لا يعذّب الجاهل حتى يبعث له رسولاً يبيّن له أحكامه. ثم إنّ بعث الرسول كناية عن البيان الواصل سواء أكان المبيّن هو الرسول أو خلفاؤه أو علماء الأُمّة الذين يبلّغون رسالات الله.

والفقرة من دلائل القول بالبراءة في الشبهة البدْوية، وليست هي الآية الوحيدة في الموضوع، بل ركّز البيان القرآني على قبح العقاب بلا بيان في آيات أُخرى، نظير قوله تعالى: (وَ لَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَاب مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى)(طه:١٣٤.)، وقوله تعالى:(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَة إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ)(الشعراء:٢٠٨ـ ٢٠٩.)، وقوله تعالى:(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).(القصص:٥٩.)

سورة الإسراء: الآيات ١٦ ـ ٢٢ (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا ... فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً).

الآيات: السادسة عشرة إلى الثانية والعشرين

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوح وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَات وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً * لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً).

المفردات

مُترَفيها: المُترَفون: المنعّمون، وهم معظم أهل الشرك في مكّة.

ففسقوا: الفسق هو الخروج، يقال: فسقت التمرة أي خرجت عن قشرها، وأُريد به هنا الخروج عن طاعة الله.

تدميراً: التدمير: الإهلاك.

القرون: القرن: جماعة يجمعهم زمان واحد.

العاجلة: الدار الدنيا، يقابلها: الآجلة: الدار الآخرة.

يصلاها: يدخل النار، أو يحترق بها.

مدحوراً: مطروداً من رحمة الله.

محظوراً: ممنوعاً.

التفسير

١٦. (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا):

لمّا تقدّم في الآية السابقة أنّ الله سبحانه لا يعذّب قوماً إلاّ بعد إتمام الحجّة عليهم وبيان أحكامه لهم، ناسب أن يذكر مورداً من هذه الضابطة، وهو أنّ المترفين المتنعّمين بضروب النِّعم، إذا خرجوا عن طاعة الله تعالى ونشروا الفساد، عمّهم العذاب (عذاب الاستئصال).

هذا هو مفاد الآية، غير أنّ فيها بعض الإبهامات يجب رفعها:

إبهامات أربعة في الآية يجب رفعها

١. قوله سبحانه: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً) فيُسأل: لماذا عطف بالواو، مع أنّ الأنسب عطفه بالفاء لكونه مترتّباً على الضابطة الكلّية من عدم إهلاك قوم إلاّ بعد البيان لهم؟

ويمكن الإجابة عن ذلك بأنّ عطفه بالواو لإلفات نظر القارئ إلى أنّه مقصود بالذات، باعتبار ما تضمّن من إهلاك القوم بعد البيان، حتى يتنبّه مشركو قريش المتنعّمون إلى أنّ العذاب مترّبص بهم.

٢. إنّ ظاهر قوله تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً) أنّ إرادته الأزلية تعلّقت بإهلاك قوم في الوقت المقدّر!! ومن المعلوم أنّ تعلّق الإرادة الأزلية يلازم وقوع المتعلّق مطلقاً سواء أكان القوم صالحين أم طالحين، وهذا لا ينسجم مع عدله سبحانه.

والجواب: إنّ المراد من الإرادة هو الإرادة الفعلية بمعنى دنوّ وقت العذاب، نظير قوله تعالى: (أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ)(النحل:١.): أي دنا وقت تعلّق إرادتنا بإهلاكهم.

ويوضّحه السيد الطباطبائي بقوله: أي إذا دنا وقت إهلاكهم، من قبيل قولهم: إذا أراد العليل أن يموت كان كذا، وإذا أرادت السماء أن تمطر كان كذا، أي إذا دنا وقت موته، وإذا دنا وقت إمطارها، فإنّه من المعلوم أنّ العليل لا يريد الموت بحقيقة معنى الإرادة، وأنّ السماء لا تريد الإمطار كذلك، وفي القرآن الكريم جاء قوله: (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ)(الكهف:٧٧.).(الميزان في تفسير القرآن:١٣/٥٩.)

٣. إنّ ظاهر قوله: (أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً) هو إهلاك كلّ من فيها مع أنّ سبب الإهلاك هو فسق المترفين وخروجهم عن طاعة الله تعالى، لا كلّ من يسكن القرية من غير المترفين الفاسقين، فكيف ينسجم هذا مع عدل الله وحكمته؟

والجواب: إنّ إهلاك أهل القرية جميعاً بسبب فساد المترفين، يخضع لسنّة الله تعالى التي تحكم ساحة التاريخ، وهي أنّ العذاب

الدنيوي يشمل المجتمع كلّه، إذا استسلم هذا المجتمع ـ بشكل عام ـ للشهوات وعاث في الأرض ظلماً وفساداً، ولا ينزل بالظالمين الفاسقين فقط، وإلى هذا أشار سبحانه بقوله: (وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)(الأنفال:٢٥).

وقد ذكر الشيخ مغنيّة جواباً عن ذلك: أنّ مجموع المجتمع الذي عبّر عنه سبحانه بالقرية، يكون شريكاً للمترفين الفاسقين في جميع جرائمهم وآثارهم ومستحقاً للهلاك والدّمار كالمترفين، وذلك لأنّهم لم يقفوا منهم موقف المقاومين أو المستخفّين بشأنهم، بل أضفوا عليهم ألقاب الشرف والسيادة، واختاروهم لمنصب الحكم والقيادة. وقد ورد في الحديث الشريف: «الراضي بفعل قوم كفاعله» أو «أنّ الساكت عن الحقّ شيطان أخرس»، فكيف إذا كان مناصراً للباطل؟ قال السيد جمال الدين الأفغاني: أيّها الفلاح الذي تشقّ الأرض بمحراثك، لماذا لا تشقّ به قلب من يستعبدك.(انظر: التفسير الكاشف:٥/٣٢).

ويحتمل أنّه سبحانه يُخرج غيرهم عن القرية بشهادة قوله:(فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).(الذاريات:٣٥).

٤. ربّما يتبادر من قوله تعالى: (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا)، وقد رتّب قوله:(فَفَسَقُوا) على قوله:(أَمَرْنَا).. أنّه جلّ وعلا قد أمرهم بالفسق ففسقوا!!

ومن المعلوم أنّهم إذا كانوا مأمورين بالفسق، فقد أتوا بواجبهم، فما هو وجه تعذيبهم؟

والجواب: روي عن ابن عباس أنّه فسّر الآية بقوله: أمرنا مترفيها بحقّ، فخالفوه، فحقّ عليهم بذلك التدمير.(تفسير الدر المنثور:٥/٢٥٤).

فالآية نظير قولنا: أمرته فعصاني، حيث إنّ قولنا: فعصاني، قرينة على كون المأمور به هو الطاعة، والفسق والمعصية أمر واحد، ويكون المعنى: أمرنا مترفيها بالطاعة، ففسقوا عن أمرنا وعصَوه.

وأمّا وجه اختصاص المترفين بالأمر بالطاعة، فلأنّهم ـ كما قيل في الجواب عن ذلك ـ الرؤساء السادة والأئمّة المتبوعون الذين مَن عداهم تبع لهم.

وعلّق سيدنا الطباطبائي على هذا الجواب بقوله: ولا يخلو من سقم.(الميزان في تفسير القرآن: ١٣ / ٦٢ .)

وفي تقديرنا أنّ الجواب المتقدّم ليس ببعيد عن الصحّة، فالمترفون بامتلاكهم للأموال الطائلة واستحواذهم على وسائل الدعاية، يتصدّرون المواقع الاجتماعية المهمة، ويتحكّمون في مصائر عامّة الناس، ومن ثمّ يكون لهم دور كبير في التأثير على نفوسهم وعلى مواقفهم من دعوات المصلحين من الأنبياء وغيرهم، التي يناهضها المترفون المُمعنون في الفساد.

ثم إنّ لصاحب «الكشّاف» رأياً آخر في الإجابة عن هذا السؤال، يقول: (فَفَسَقُوا): أي أمرنا بالفسق ففعلوا، والأمر مجاز، لأنّ حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم: افسقوا، وهذا لا يكون، فبقي أن يكون مجازاً، ووجه المجاز أنّه صبّ عليهم النعمة صبّاً، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتّباع الشهوات، فكأنّهم مأمورون بذلك.(تفسير الكشّاف: ٢/٢٢٧).

أقول: هذا جواب جميل، ولكن لا قرينة عليه من الآية.

قوله تعالى: (فَحَقَّ عَلَيْهَا): أي على القرية (الْقَوْلُ) أُريد بالقول: قول الوعيد، قال سبحانه: (فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ)(الصافّات:٣١).

قوله تعالى: (فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا): أي أهلكناهم وأتينا على بنيانهم من القواعد.

إلى هنا تمّ تفسير الآية وتوضيح ما فيها من الإبهامات، إلاّ أنّه بقي الكلام في أنّه يستفاد من الآية أنّ عذاب الاستئصال رهن أُمور:

١. أمر القوم بالطاعة، كما في قوله تعالى:(أَمَرْنَا).

٢. تمرّد القوم وخروجهم عن طاعة الله سبحانه، كما في قوله تعالى:(فَفَسَقُوا فِيهَا).

٣. استحقاقهم العذاب، كما في قوله: (فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ).
٤. مرحلة التدمير والهلاك، كما في قوله:(فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا).
وأنت ترى ـ عزيزي القارئ ـ أنّ هذه الآية على إيجازها اشتملت على تلك الحقائق الأربع، وهي آية إعجاز القرآن وسموّ بلاغته.
١٧. (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا):
أخبر سبحانه عن ضابطة كلّية وسنّة ربانيّة جارية في التاريخ، وهي أنّ إرادته تتعلّق بإهلاك قوم بعد إتمام الحجّة عليهم، وخروجهم عن طاعة الله، ثم أشار إجمالاً في هذه الآية إلى موارد لهذه الضابطة وتلك السنّة وقال: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ): أي من الأُمم المترفة المكذّبة (مِنْ بَعْدِ نُوحٍ): أي من بعد زمان نوح إلى زمانك هذا.
ولعلّ تأكيد الآية على القرون من بعد نوح، لأنّ الحياة قبله(عليه السلام) كانت حياة بسيطة، لم ينقسم فيها الناس إلى طبقتين متناقضتين: مترفة ومستضعفة، ولذلك لم يشملهم عذاب الاستئصال.
وأمّا قوله سبحانه: (وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)، فلعلّه تطييب لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه مطّلع على ذنوب قومه فلا يفلتون من عذاب الله، فهو سبحانه محيط بظواهر الأعمال وبواطنها فيعاقب عليها. وتقديم الخبير على البصير لتقدّم متعلّقه من الاعتقادات والنيّات التي هي مبادئ الأعمال الظاهرة المبصرة، تقدّماً وجودياً.

من أراد العاجلة

١٨. (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا):
كأنّ هذه الآية إيضاح لما تقدّم من قوله: (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا)(الإسراء:٥.) ببيان أنّ المهتدي عبارة عمّن أراد الآخرة وعمل لها، وأنّ من ضلّ عبارة عمّن يريد الحياة العاجلة ويسعى لها فقط، ولذلك يقول: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ) الحياة (الْعَاجِلَةَ): أي الحياة الدنيوية بقرينة ما يأتي في مقابلها (وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ) ويصرف همّه كلّه إلى نعيمها ومباهجها من الأموال والمناصب والملذّات وغيرها ولا يلتفت إلى غير ذلك، فالله سبحانه يعطيه ما يؤمّن شيئاً من أغراضه كما يقول: (عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا): أي يعطي ذلك في الدنيا قبل الآخرة وهذا هو المراد من التعجيل، فما يعطيه تعجيل بالنسبة إلى الحياة الدنيا.
ثمّ إنّه سبحانه قيّد ما يعجّل بقيدين:
١.(مَا نَشَاءُ)
٢. (لِمَنْ نُرِيدُ)
أمّا القيد الأوّل فأُريد به أنّه سبحانه يعطي بالمقادير التي يشاء لا بالمقادير التي يشاؤها العبد الطالب للدنيا، وأمّا القيد الثاني فهو أنّه سبحانه يعطي لمن يريد لا لكلّ من يريد، فقد يحرم سبحانه العبد المريد للدنيا ولا يعطيه.
فالأمر يعود إلى الله سبحانه في كلتا المسألتين مقداراً وشخصاً.
ثمّ إنّ جزاء من أراد الحياة العاجلة وأنكر الحياة الآخرة هو ما يقوله سبحانه:(ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا): أي يحترق بنارها أو يدخلها (مَذْمُومًا) محتقراً (مَدْحُورًا) مُبعداً مطروداً من رحمة الله.
ثمّ إنّ مَن ينكر الحياة الأُخروية ينكر النبوّة أيضاً وينكر توحيده سبحانه في التدبير والعبادة، ومن ثم فهو يستحق بكفره بالله ورسله ومعاده لأن يحترق بنار جهنم ويوصف بالحقارة والبُعد عن رحمة الله.
ومن هنا يظهر أنّ الآية ناظرة إلى الأُمّة الكافرة من المشركين وغيرهم من الذين يهيمون بحبّ الدنيا ولا يؤمنون بالله ورسله

وجزائه.

ثمّ إنّ من مظاهر رحمته سبحانه في حقّ الكافر أنّه لا يعطيه كلّ ما يريده، بل يعطي حسب مشيئته التي لا تفارق حكمته، كما أنّ من مظاهر رحمته سبحانه أنّه ربّما يعطي إنساناً دون آخر، لعلمه بأنّه ربّما يطغى فيما لو استغنى كما يقول سبحانه:(إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)(العلق:٦ـ٧.)، ويؤيّد ذلك قوله سبحانه: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآْخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ)(هود:١٥ـ ١٦.).

أمّا حرمانهم من الجنة ونعيمها فلأجل أنّهم لم يعملوا لها بل أنكروا وجودها، وأمّا احتراقهم بالنار، فلتجلّي أعمالهم الإجرامية في يوم القيامة بالنار التي يصلونها، فكأنّ النار لازم أعمالهم أو حقيقتها، والآية على القول بتجسُّم الأعمال أكثر انطباقاً.

مَن أراد الآخرة

١٩. (وَمَنْ أَرَادَ الآْخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا):

ما تقدّم آنفاً كان راجعاً لمن أراد العاجلة، وأمّا آيتنا هذه فهي ناظرة إلى من يقابله إرادة وسعياً ومساعياً، أمّا الأُولى فالطائفة المتقدّمة أرادت العاجلة وقصرت همّها عليها، وأمّا هذه كما يقول: (وَمَنْ أَرَادَ الآْخِرَةَ)والتعبير عن إرادة الطائفة الأُولى بصيغة المضارع وعن هذه الطائفة بصيغة الماضي لعلّه إشارة إلى أنّ إرادة الطائفة الأُولى تتجدّد بتجدّد الأيام والليالي، وأمّا إرادة الطائفة الثانية فإرادة واحدة راسخة في قلوبهم.

وأمّا الثاني وهو قوله: (وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا) فالقيد يدلّ على أنّ إرادة خير الآخرة مجرَّداً عن السعي والعمل لا يثمر، وأنّ النجاح في معترك الحياة بالسعي والعمل للغاية المتوخاة.

وأمّا الثالث وهو قوله: (وَهُوَ مُؤْمِنٌ): أي مصدّق بالله سبحانه وأنبيائه ويوم جزائه (فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا): أي طاعتهم مقبولة بل يضاعف حسناتهم ويتجاوز عن سيئاتهم. ولنختم تفسير هذه الآية بما روي عن الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، قال:«الأعمال بالنيّة ولامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوّجها، فهجرتُه إلى ما هاجر إليه».(صحيح البخاري:٢/١٣٦، برقم ٢٥٢٩، كتاب العتق.)

ماذا تستهدف الآية من ذمّ العاجلة؟

بقي هنا كلام وهو أنّه ربّما يتبادر إلى بعض الأذهان أنّ الآية بصدد ذمّ تحصيل المال والمقام، وأنّ لازم هذا الذمّ هو التجرّد عن العمل والسعي للمعاش.

ولكنّه تصور خاطئ فإنّ القرآن يحضّ في غير واحدة من الآيات على العمل وتحصيل المال ويقول: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ)(الجمعة:١٠.)، وفي آية أُخرى، يقول:(خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا)(البقرة:٢٩.) ومع ذلك كيف يكون طلب الدنيا والسعي والكدح أمراً مذموماً؟

والوجه في ذلك واضح، فإنّ الدنيا المذمومة عبارة عن صبّ الاهتمام كلّه على الأموال والمناصب وامتيازاتها وإشباع الغرائز بحيث لا يُتوخّى فيها إلاّ الأهداف المادية، وهذه هي الدنيا المذمومة التي يعبّر عنها سبحانه بقوله:(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ)، وأمّا السعي لكسب المال ودفع الحاجة فهو أمر مطلوب دعا إليه الشرع، وفي الوقت نفسه يجعل ما يكتسبه في الدنيا ويعمل له، مقدّمة للآخرة.

وهنا كلمة جميلة للإمام علي(عليه السلام) يصف بها الدنيا، قال:«وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ».(نهج البلاغة: الخطبة ٨٢.) فمن اتّخذ الدنيا هدفاً فهي دنيا مذمومة، ومن اتّخذها وسيلة للتزوّد من أعمال البرّ وكسب رضا الله سبحانه وتأمين العيش لأجل كسب

الآخرة فهي دنيا ممدوحة.

وعن الإمام الصادق(عليه السلام) قال: إنّ قوماً من أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) لمّا نزلت هذه الآية](وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ)(الطلاق: ٢و٣.)[أغلقوا الأبواب وأقبلوا على العبادة، وقالوا: كُفينا، فبلغ ذلك النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فأرسل إليهم، فقال: «ما حَمَلكم على ما صنعتم»؟ فقالوا: يا رسول الله تكفّل لنا بأرزاقنا، فأقبلْنا على العبادة، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم):«إنّه من فعل ذلك لم يُستجب له، عليكم بالطلب».(الكافي:٥/٨٤، برقم ٥، باب الرزق من حيث لا يحتسب.)

عطاء الله يعمّ الصالح والطالح

٢٠.(كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا):

إنّ عطاء الله سبحانه يعمّ الصالح والطالح، فيصرفه الصالح في كسب الآخرة، والطالح في كسب الدنيا المنقطعة عن الآخرة. والإمداد في قوله: (كُلاًّ نُمِدُّ) بمعنى استرسال العطاء وتعاقبه، وجعل الجديد منه مدداً للسالف بحيث لا ينقطع، وبذلك ظهر معنى قوله:(كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ) فهو إشارة إلى الطائفتين، ثم يعلّله بقوله: (وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا): أي ممنوعاً، بل لكلّ مخلوق نصيبه.

٢١. (انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَات وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً):

تتضمّن الآية التنبيه إلى أُمور ثلاثة:

الأوّل: تفضيل بعض الناس على بعض في العطايا العاجلة، يقول تعالى:(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْض).

فالله سبحانه رفع بعضنا على بعض للاختبار وقال:(وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْض دَرَجَات لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)(الأنعام:١٦٥.).

فأكثر المفسّرين على أنّه سبحانه يفضّل مسلماً على مسلم في عطاء الدنيا ويفضّل كافراً على كافر كذلك، لمصلحة هو أعرف بها، يقول المراغي في تفسير الآية: انظر إلى عطائنا للفريقين في الدنيا كيف فضلنا بعضهم على بعض، فأوصلنا رزقنا إلى مؤمن وقبضناه عن آخر، وأوصلناه إلى كافر ومنعناه من كافر آخر، ولهذا حِكَم وأسباب مذكورة في الكتاب العزيز.(تفسير المراغي:١٥/٢٨.)

ويمكن أن يقال: إنّ الآية ناظرة إلى تفاوت الدرجات بتفاوت المساعي حتى لا يتوهّم أنّ قليل العمل وكثيره على حدٍّ سواء، ويسير العمل والسعي البالغ، لا فرق بينهما.(الميزان في تفسير القرآن:١٣/٦٩.)

ويؤيّد ذلك أنّ الآية ناظرة إلى أنّ اختلاف العطايا في الآخرة بحسب المساعي بالنسبة إليها، فحال الدنيا والآخرة في اختلاف العطايا على حدٍّ سواء.

وبذلك يظهر عدم استقامة ما ذكره السيد الآلوسي في تفسير الآية، حيث قال: انظر بنظر الاعتبار كيف فضّلنا بعضهم على بعض فيما أمددناهم من العطايا العاجلة، فمن وضيع ورفيع، وظالع وضليع، ومالك ومملوك، وموسر وصعلوك، تعرف بذلك مراتب العطايا الآجلة وتفاوت أهلها على طريق الاستدلال بحال الأدنى على حال الأعلى.(روح المعاني:١٥/٤٨.)

يلاحظ عليه: أنّ معنى ذلك أنّ الله سبحانه هو المسؤول عن التمايز الطبقي الراجع إلى الوضع المادي.

الأمر الثاني: قوله تعالى:(وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَات): أي ليس أهل الآخرة في عيشة سواء، فكما أنّ بين أهل الدنيا من التفاضل والاعتبار، فهكذا بين أهل الآخرة من تفاوت الدرجات والتفاضل في المقامات. لكن ملاك الاختلاف في الدنيا يختلف عن ملاك الاختلاف في الآخرة، فالملاك في الدنيا هو المال والجاه والولد والقوة والرئاسة وأمثال ذلك، وأمّا الاختلاف في الآخرة فهو اختلاف النفوس في الإيمان والإخلاص إلى غير ذلك من الكمالات النفسانية التي تترجم عن نفسها في التسليم القلبي لله تعالى وفي القول والفعل والسلوك، وعلى هذا فقوله: (وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَات)يرجع إلى المؤمنين فقط.

وربّما يفسَّر بجعله مشتركاً بين المؤمنين والكافرين ببيان أنّ الأشرار يفترقون عن المؤمنين في الآخرة بالحريق في نار السموم، وأمّا المؤمنون فيفارقون الكافرين بالخلود في النعمة والمسرّة.(التفسير الكاشف:٥/٣٤.)

ولكنّه بعيد.

الأمر الثالث: قوله تعالى (وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً): أي أعظم تفضيلاً في إغداق النعم. والمفضَّل عليه هو نِعَم الدنيا.

٢٢. (لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً):

الظاهر أنّ هذه الآية جزء من المجموعة السابقة، وتتضمّن بيان اختلاف المسلمين والمشركين في الحياة الأُخروية بالتأكيد على أنّ ما أوعد به سبحانه طلاّب الدنيا، في الآية المتقدّمة، من مصير قاتم، أعني قوله سبحانه: (ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا)(الإسراء : ١٨.)، هو لأجل تنكّبهم عن طريق توحيد الله سبحانه عقيدةً وعبادةً، وتمسّكهم بالآلهة المكذوبة، ولذا يخاطب النبيّ لغاية إفهام الآخرين بقوله:(لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ) فإنّ نتيجة ذلك يوم القيامة أمران، كما يقول: (فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً)فعابد الوثن متلبّس بالذمّ حيث عبد موجوداً لا يعقل ولا يسمع، كما أنّه موصوف بالخذلان حيث إنّ الإله المكذوب لا يغني عنه شيئاً، يقول سبحانه: (إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ)(فاطر:١٤.).

وعلى كلّ تقدير فالآية خطاب للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وهي عامّة، وإنّما أراد سبحانه أن يعلّم رسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) ويؤدّبه، ثم يؤدّب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) المسلمين بما أدّبه الله جلّت قدرته.

سورة الإسراء: الآيات ٢٣ ـ ٣٠ (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ ... إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا).

الآيات: الثالثة والعشرون إلى الثلاثين

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَة مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا * وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا).

المفردات

قضى: ذكر اللّغويون للقضاء معانيَ مختلفة، ففي القاموس: القضاء: الحكم، والصنع، والحتم، والبيان، وقضى: مات، وقضى عليه: قتله، وقضى وَطَره: أتمّه وأدامه، وقضى عليه عهداً: أوصاه وأنفذه، وقضى إليه: أنهاه، وقضى غريمه دينه: أدّاه.

ولكن الظاهر أنّ الجميع من طوارئ المعنى الواحد، الذي نصّ عليه ابن فارس في مقاييسه الذي ألّفه لبيان أُصول معاني الألفاظ وجذورها، وقال: له أصل صحيح يدلّ على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه، قال سبحانه:(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَات فِي يَوْمَيْنِ)(فصّلت:١٢.): أي أحكم خلقهنّ، والقضاء:

الحكم، قال سبحانه:(فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاض)(طه:٧٢.): أي اصنع واحكم، وسُمّي القاضي قاضياً لأنّه يحكم الأحكام وينفذها، وسُمّيت المنيّة قضاء، لأنّها أمر ينفذ في بني آدم وغيره من الخلق.(المقاييس، مادة «قضاء».)

أُفّ: اسم فعل يدلّ على التكرّه والتضجّر، قال الإمام علي(عليه السلام): «أُفٍّ لَكُمْ! لَقَدْ سَئِمْتُ عِتَابَكُمْ!».(نهج البلاغة: الخطبة ٨٢.)

تنهرهما: النَّهْر: الزَّجْر بغلظة.

كريماً: جميلاً، فيه تكريم للمخاطب.

اخفض: الخَفْض: ضدّ الرَّفْع.

جناح: جناح الطائر، وسمّي جانبا الشيء جناحاه، فقيل: جناح السفينة.

للأوّابين: الأوّاب: الراجع إلى الله، وهي صيغة مبالغة من قولهم: آب يؤوب: أي رجع يرجع.

المبذِّرين: التبذير: إنفاق المال في غير موقعه.

إخوانَ الشياطين: قرناءهم وأصدقاءهم.

ابتغاء: الابتغاء: الطلب.

ميسوراً: سهلاً ليّناً.

مغلولة: مقيّدة بالغُلّ.

تبسطها: تتوسَّع في الإنفاق.

محسوراً: منهوك القُوَى، يقال: بعير حسير إذا أتعبه السَّير فلم تبق له قوّة. والمراد غير قادر على إقامة شؤونك.

يَقدِر: يُضيِّق، وهو ضدّ يبسط.

التفسير

هذه المجموعة من الآيات وما يأتي بعدها تتضمّن خمسة عشر تشريعاً من أُصول التشريع، ذكرها الوحي المجيد في البيئة المكيّة حين انتشار الإسلام في بيوتاتها وبين أبناء المشركين، فاستعدّوا لتعلُّم شيء من أحكام الإسلام سواء أكان شيئاً من أُصول الإسلام أم من فروعه. وهذه المجموعة وحدها يجمعها بيان سلوك الإنسان مع الله سبحانه، والوالدين، والأقرباء، والفقراء الذين يسألون الناس ويطلبون منهم المال.

وأمّا محتوى المجموعات اللاحقة، فسيوافيك في محلّه.

٢٣. (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا):

الحكم الأوّل: توحيده سبحانه في العبادة

قال تعالى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ) عبّر عن الأمر بتوحيد العبادة بقوله: (قَضى) إشارة إلى أنّه حُكم قطعيّ لا يُبدَّل ولا يتغيّر، وأنّه حُكم لا يُنسخ. والمهمّ في هذه الفقرة هو تعريف العبادة على نحو يكون جامعاً ومانعاً.

العبادة: هي الخضوع اللّفظيّ أو العمليّ الناشئ عن الاعتقاد بربوبيّة المخضوع له، سواء أكانت ربوبيّته أمراً حقيقياً واقعياً، أم كانت أمراً واهياً مزعوماً، فهنا دعويان:

١. الوثنية على وجه الإطلاق (في البيئة المكّية وغيرها كعَبَدة الشمس والكواكب والجنّ) كانوا يعتقدون بربوبيّة معبوداتهم ويصفونها بالآلهة الصغيرة، في مقابل الإله الكبير الذي يسمّونه«الله».

٢. إنّ الظاهر من الآيات أنّ العبادة عبارة عن الخضوع المحكي بالقول والعمل الناشئين من الاعتقاد بربوبيّة المخضوع له.

أمّا الأوّل، أي اعتقاد المشركين بربوبيّة معبوداتهم، فيكفي للتدليل عليه حوار إبراهيم مع عبدة الأجرام السماوية، حيث حاججهم بهذه الافتراضات التي أظهر فيها التسليم مؤقّتاً لمعتقداتهم، والتي حكاها عنه سبحانه بقوله: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي)، (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي)، (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي).

ثمّ لمّا أبطل ربوبيّة الأجرام السماوية (قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ).(الأنعام:٧٦ـ ٧٨)

وهذا هو يوسف(عليه السلام) يحتجّ على رفقائه في السجن بقوله:(أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ).(يوسف:٣٩)

ولا أظن أنّ المسألة تحتاج إلى بيان أكثر.

ومن المعلوم أنّ معنى الربّ عبارة عمّن يتصدّى لتدبير أمر المربوب وإصلاحه، كربِّ الضَّيعة، وربّ البستان، وربّ الدار، وربّ الدابّة.

فالمشركون كانوا يعتقدون بأنّ مصير الإنسان في حياته وموته، وانتصاره وهزيمته، بيد هؤلاء الآلهة.

هذا كلّه يرجع إلى الأمر الأوّل.

وأمّا الأمر الثاني، وهو كون العبادة عبارة عن الخضوع المحكيّ بالقول والعمل الناشئَين عن الاعتقاد بالربوبيّة، فهذا ما يظهر من الآيات التالية حيث يعلّق وجوب العبادة بربوبيّة الله، ويقول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ)(البقرة:٢١). ويقول أيضاً:(ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْء فَاعْبُدُوهُ).(الأنعام:١٠٢)

فقوله: (فَاعْبُدُوهُ) متفرّع على أمرين:

أ. كونه سبحانه ربَّ المشركين.

ب. كونه سبحانه خالقَ كلّ شيء.

وقد قُرّر في محلّه أنّ التوحيد في الخالقيّة لا صلة له بالتوحيد في الربوبيّة، فإنّ التوحيد في الخالقيّة عبارة عن كونه تعالى موجداً للأشياء، وأمّا التوحيد في الربوبيّة فهو عبارة عن كونه سبحانه مدبِّراً.

والذي يوضّح أنّ العبادة عبارة عن الخضوع النابع من الاعتقاد بالربوبيّة، هو الآيات التالية:

قوله تعالى: (وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)(المائدة:٧٢).

وقوله تعالى: (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ).(الأنبياء:٩٢)

وقوله تعالى:(إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ).(. آل عمران:٥١)

فإنّ تعليق الحكم بالوصف مُشعر بالعلّيّة. وعلى ما ذكرنا يظهر أنّ ما يقوم به ضيوف الرحمان في مسجد النبي الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) من تقبيل الأعتاب والجدران، والتوسّل وطلب الحاجة من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) كلّها أُمور لا صلة لها بالعبادة لأنّها ليست نابعة من الاعتقاد بالخالقيّة أو الربوبيّة أو الألوهيّة، وانّما هي نابعة من الاعتقاد بكون صاحب هذا المقام إنساناً كريماً وجيهاً عند الله يقبل دعاؤه إذا دعا، فمثل هذا لا يوصف بالعبادة.

نعم، كونه مشروعاً محتاجاً إلى الدليل، هو أمر آخر إذ ربّما يمكن أن يكون خارجاً عن حدّ العبادة، ولكنّه يُعدّ أمراً غير مشروع كالسجود أمام النبيّ أو الإمام أو المعلم أو الوالدين تكريماً وتعظيماً، فإنّه حرام وإن لم يكن بعبادة.

وبذلك يُعلم أنّ الضجّة التي أثارها كبار الوهابية عبر سنين طويلة من عدّ هذه الأعمال شركاً بتوهُّم أنها عبادة، أمر ناتج من عدم معرفة معنى العبادة، وقد غفلوا أو تغافلوا عن قوله(صلى الله عليه وآله وسلم):«إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إلى قلوبكم ونيّاتكم وأعمالكم».(صحيح مسلم: ١١/٨؛ سنن ابن ماجة:١٣٨٨/٢، برقم ٤١٤٣ .)

كلمة قاسية لمؤسّس الوهابية

اعلم أنّ لمحمد بن عبد الوهاب كلمة غليظة، كفّر بها عامّة المسلمين من غير أتباعه ومقتفي آرائه، قال في «كشف الشبهات»: إنّ شرك الأوّلين أخفّ من شرك زماننا بأمرين:

أحدهما: أنّ الأوّلين لا يُشركون ولا يدْعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلاّ في الرّخاء، وأمّا في الشدّة فيخلصون لله الدعاء، قال تعالى:(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا).(الإسراء: ٦٧.)

إنّ المشركين الذين قاتلهم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يدعون الله تعالى ويدعون غيره في الرّخاء، وأمّا في الضرّاء والشدّة فلا يدعون إلاّ الله وحده.

فتبيّن الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأوّلين.

الأمر الثاني: أنّ الأوّلين يدعون مع الله أُناساً مقرّبين عند الله، إمّا أنبياء وإمّا أولياء وإمّا ملائكة، أو يدعون أحجاراً مطيعة لله ليست عاصية، وأهل زماننا يدعون مع الله أُناساً من أفسق الناس.(كشف الشبهات:١١، تحقيق محبّ الدين الخطيب.)

أقول: إنّ الشيخ خلط بين الدعوتين، دعوة الأوّلين من المشركين ودعوة المسلمين، فالمشركون كانوا معتقدين بربوبيّة وأُلوهية أصنامهم، حيث كانوا يستمطرون بها ويطلبون النصر منها في الحرب، يقول سبحانه حاكياً عن المشركين:(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ)(يس:٧٤، ولاحظ سورة مريم الآية٨١.)، إلى غير ذلك ممّا هي من صفاته سبحانه.

وأمّا المؤمنون فإنّما يدعون نبيّاً أو وليّاً بما أنّه عبد صالح مستجاب الدعوة إذا دعا.

وبعبارة أُخرى: دعوتهم بعد رحيلهم إلى لقاء الله مثل دعوتهم في حال حياتهم التي أُمروا بها في قوله سبحانه: (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا).(النساء:٦٤.)

ولذلك يدعونهم في الرّخاء والشدّة، بخلاف المشركين فإنّهم يدعونهم في الشدّة فقط، فدعوتهم كانت دعوة عبادية لاعتقادهم بأنّهم أرباب فُوِّض إليهم مصير الإنسان في كلّ المواطن أو بعضها، بخلاف المؤمنين فإنّهم منزَّهون عن القول بالتفويض وعن القول بالربوبيّة، وإنّما يدعونهم بما أنّ دعوتهم دعوة مستجابة.

ووجود الفرق بين الدعاءين من وجهتين:

إحداهما: الأوّل دعوة عبادية، والثاني سؤال والتماس.

وثانيهما: وجود الفرق في المدعوّ، فإنّ المدعوّ في نظر المشركين ربٌّ مفوّض إليه الأُمور، وأمّا المدعوّ في نظر المؤمنين فعبد صالح لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، لكن خصّه الله بكرامة، فلو دعا لأُجيب.

والشيخ بهذه المغالطة أباح إراقة دماء المسلمين كلّهم سوى الزُّمرة المؤمنة به .

***

الحكم الثاني: الإحسان بالوالدين

قوله تعالى:(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا): أي قضى ربّك بمعاشرة الوالدين معاشرة حسنة، وقد أوصى الله سبحانه بالوالدين في غير واحدة من الآيات، قال تعالى:(وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا)(العنكبوت:٨.)، وقال تعالى: (وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا)(الأحقاف:١٥.)، إلى غير ذلك من الآيات التي ورد فيها الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

ثمّ إنّ اقتران الأمر بتكريم الوالدين بالأمر بالتوحيد في العبادة، يُعرب عن الأهمية البالغة لهذا الأمر. ولو قُرن الإحسان بالوالدين هنا مع توحيده في العبادة، فقد قُرن في آية أُخرى بين شكرين: الشكر لله، والشكر للوالدين، قال سبحانه:(وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْن وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)(لقمان:١٤.).

من صور الإحسان إلى الوالدين

للإحسان إلى الوالدين صور متعدّدة، ولا يُقتصر ـ كما يُتوهّم ـ على حسن معاشرتهما والتأدّب معهما، ومن تلك الصور أن يوصي من

يترك مالاً بشيء منه للوالدين، قال سبحانه: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ)(البقرة:١٨٠)، ومنها:

الإنفاق عليهما، قال سبحانه: (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)(البقرة:٢١٥). ومنها: أن يَبرَّهما بالدعاء لهما، ولا يقتصر البرّ بهما على حياتهما، بل يمتدّ إلى ما بعد وفاتهما، كأن يقضي دَينهما، ويستغفر لهما، ويترحّم عليهما.

وهذا النوع من البِرّ نجد تطبيقه عند بعض الأنبياء، فنوح(عليه السلام) كان يدعو بهذا الدعاء، الذي حكاه عنه سبحانه بقوله:(رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا)(نوح:٢٨). وأمّا إبراهيم(عليه السلام) فحكى عنه سبحانه هذا الدعاء:(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ)(إبراهيم:٤١).

وأين هذا الذي تقدّم ممّا تنقله لنا وسائل الإعلام عن طبيعة العلاقات بين الوالدين والأولاد في الغرب؟ فكم من ولد لا يزور والده ولا والدته اللّذين يعيشان في دار العجزة إلاّ يوماً واحداً سمّي بيوم الأُم أو يوم الأب، وربّما لا يزورهما في نفس اليوم بل يكتفي بتهنئتهما بالمناسبة عبر الهاتف، أو من خلال رسالة يبعثها إليهما.

وقد حكى لنا غير واحد من الثقات عن فتور العلاقات بين العوائل الصينية حتى أنّ أبناء الأُختين ربّما لا يعرف بعضهم بعضاً، لانقطاع الصلة بين الأولاد والآباء والأُمّهات.

سلوك الأبناء مع الآباء في القرآن الكريم

أكّد القرآن الكريم على التزام حسن السلوك مع الوالدين وإن كانا مشركين، حتى أنّه حرّم أن يقابلهما الولد بكلمة تعرب عن تضجّره منهما وضيقه بهما، يقول سبحانه:(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا) كلمة (إمّا) مركّبة من «إن» الشرطية و«ما» الزائدة، وأُريد من الكبَر الكبَر في السنّ، و (أُفٍّ) كلمة تفيد الانزجار، والنَّهر هو الزَّجْر بالصياح ورفع الصوت والإغلاظ في القول، وتخصيص حالة الكبَر بالذكر لكونها أشقّ الحالات التي تمرّ على الوالدين، حيث يحسّان فيها بالحاجة إلى إعانة الأولاد لهما، وقيامهم بواجبات حياتهما، وفي تلك الحالة يحرم إيذاؤهما حتى بمستوى ما تحمله كلمة أُفّ من المعنى، فضلاً عن النّهر بالصوت الغليظ أو ما هو أشدّ منه كالشّتم والضّرب، فالكلمة ـ كما قيل ـ التي كانت لا تُريحهم حال قوّتِهم.. الآن تجرحهم، والتي كانت تجرحهم.. الآن تذبحهم.

إنّهما يحتاجان في هذه الحالة إلى الكلمة التي تفيض رقّة وعطفاً، وتشفّ عن الاحترام والتكريم، كما يقول تعالى:(وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا) حتى يزيل عن وجهيهما غبار الغمّ.

٢٤. (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا):

هذه الآية تتضمّن لزوم غاية التواضع والتذلّل أمام الوالدين، وتأمر الولد بأن يسلك معهما سلوك الطائر إذا أراد ضمّ فراخه إليه لتربيتهما فإنّه يخفض لها جناحه، فالله سبحانه يأمر الولد برعاية والديه وضمّهما إلى نفسه كما فعلا ذلك بالنسبة إليه حال صغره، كما يقول: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ). ولم يقتصر على ذلك، بل يأمر الولد بالدعاء لهما (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا): أي ادعو لهما بالمغفرة والرحمة في حياتهما وبعد مماتهما جزاء لتربيتهما إيّاك في صباك.

والآية تدلّ على أنّ دعاء الولد في هذه الحالة يستجاب، وإلاّ لم يأمر بدعاء غير مستجاب.

روى ابن ماجة عن أبي أُسيد مالك بن ربيعة[الساعديّ] قال: بينما نحن عند رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، إذ جاءه رجل من بني سَلَمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من برّ أبويّ شيءٌ أبرّهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلاّ بهما».(سنن ابن ماجة: ٨٣٠ ، كتاب الأدب، برقم ٣٦٦٤).

قال قتادة: هكذا عُلّمتم وبهذا أُمرتم فخذوا بتعليم الله وأدبه.(مجمع البيان:٦/٢٧٧.)

ثمّ إنّه سبحانه يقيّد خفض الجناح بالرحمة، ليبيّن أنّ سبب الذلّ هو الرحمة والرأفة لئلاّ يقدَّر أنّه الهوان والضراعة، وهذا من الأسرار اللطيفة.(انظر:تلخيص البيان في مجازات القرآن:٢٨.)

٢٥. (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا):

الآية ترشد إلى أنّه سبحانه يعلم الأقوال والأفعال كما يعلم بما في النفوس من النوايا الصالحة أو الطالحة، فربّما يقوم شخص بأداء حقوق الوالدين لكنّه في الوقت نفسه غير مرتاح لوجودهما.

وبالجملة: يعرف سبحانه ما تُضمرون من البرّ والعقوق، فمن بدرت منه بادرة وهو لا يضمر عقوقاً، غفر الله له، كما يقول: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ) فإذا كانت نيّته صالحة ولكن صدر منه ما لا يُحمَد، فالله سبحانه يغفر له كما يقول:(فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا) لأنّ صاحب النيّة السليمة إذا عمل عملاً غير صالح سوف يتوب إلى الله منه ويرجع إليه نادماً عازماً على تركه.

تمّ الكلام في ما ورد حول الوالدين من لزوم التكريم والتعظيم وتحريم أقل كلمة مؤذية لهما، فضلاً عمّا فوقها، ولنذكر بعض الروايات التي تؤكّد ما ورد في هذه الآيات:

١. روى الكليني بسنده عن منصور بن حازم، عن أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام) قال: قلت: أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصلاة لوقتها، وبرّ الوالدين، والجهاد في سبيل الله عزّ وجلّ».(الكافي:٢/١٥٨، برقم٤، كتاب الإيمان والكفر.)

٢. وروى بسنده عن معمر بن خلاّد، قال: قلت لأبي الحسن الرضا(عليه السلام): أدعو لوالديّ إذا كانا لا يعرفان الحقَّ؟ قال:«ادع لهما وتصدّق عنهما؛ وإن كانا حيّين لا يعرفان الحقّ فدارهما، فإنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال:إنّ الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق».(الكافي:٢/١٥٩، برقم ٨ ، كتاب الإيمان والكفر.)

٣. وروى بسنده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله(عليه السلام) قال:«جاء رجل إلى النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله من أبرّ؟ قال: أُمّك، قال: ثم مَنْ؟ قال: أُمّك، قال: ثم مَنْ؟ قال: أُمّك، قال: ثم مَنْ؟ قال: أباك».(الكافي:٢/١٥٩، برقم٩.)

وروى نحوه البخاري بإسناده عن أبي هريرة، عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).(لاحظ : صحيح البخاري:٤/٨٠، برقم ٥٩٧١، كتاب الأدب.)

وفي ذلك غنىً وكفاية، ومن أحبّ التفصيل فليرجع إلى الكتب الروائية.

٢٦ و ٢٧. (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا):

تتضمّن الآيتان حكمين من الأحكام الشرعية:

١. إعطاء المكلّف حقّ القريب منه والمسكين وابن السبيل، وإمداد الجميع بالمال وسدّ خَلَّتهم.

٢. النهي عن التبذير، لأنّ المبذّرين إخوان الشياطين.

وهما يشكّلان الحكمين الثالث والرابع في هذه المجموعة، وإليك بيانهما:

الحكم الثالث: إيتاء ذوي الأرحام وغيرهم حقوقهم

ينبغي للمؤمن الإهتمام بقرابته ومن عُطف عليهم من المساكين وأبناء السبيل، فإنّه من مظاهر الرحمة والشفقة الّتي يتصف بها المؤمن، قال سبحانه:(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ). وهذا من شُعَب صلة الأرحام.

وقد بلغ الاهتمام بصلة الأرحام إلى حدّ أنّ الإنسان يُسأل عنه يوم القيامة، قال تعالى:(وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ

كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)(النساء:٢).

روى الكليني بسنده عن إسحاق بن عمّار قال: بلغني عن أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام) أنّ رجلاً أتى النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال: يا رسول الله، أهل بيتي أَبَوا إلاّ توثّباً عليّ وقطيعة لي وشتيمة، فأرفضهم؟ قال: «إذاً يرفضكم الله جميعاً»، قال: كيف أصنع؟ قال: «تَصِلْ مَن قطعك، وتُعطي من حَرمَك، وتعفو عمّن ظلمك، فإنّك إذا فعلت ذلك كان لك من الله عليهم ظهير».(الكافي:٢/١٥٠، برقم٢.)

ومن هنا يعلم أنّ المراد من إعطاء الحقّ للقربى لا ينحصر بالمال، بل له معنى واسع يعادل صلة الأرحام.

نعم الخطاب في الآية للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن المقصود عامّة المسلمين، وحكم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وحكمهم في مطلق الأحكام على حدّ سواء. روى الصدوق في ذكر مجلس الرضا(عليه السلام) مع المأمون قال(عليه السلام):«والآية الخامسة قول الله تعالى:(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) فالآية خصوصية خصّهم العزيز الجبّار بها واصطفاهم على الأُمّة، فلمّا نزلت هذه الآية على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: ادعو لي فاطمة فدُعيت له، فقال(صلى الله عليه وآله وسلم): يا فاطمة، قالت: لبّيك يا رسول الله، فقال: هذه فَدَك هي ممّا لم يوجَف عليه بخيل ولا ركاب وهي لي خاصّة دون المسلمين، وقد جعلتها لكِ لما أمرني الله تعالى به، فخذيها لك ولولدك».(عيون أخبار الرضا(عليه السلام):١/٢١١، باب (٢٣).)

وليس الشيعة هم الوحيدين في نقل نزول الآية في حقّ السيدة الزهراء(عليها السلام)، فقد أخرج ابن جرير الطبريّ عن علي بن الحسين (رضي الله عنه) أنّه قال لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: أفما قرأت في «بني إسرائيل»:(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ) قال: وإنّكم للقرابة التي أمر الله أن يؤتى حقّه؟ قال: نعم.(جامع البيان (تفسير الطبريّ): ٩/٩٢، برقم ٢٢٢٤٥؛ تفسير الدر المنثور:٥/٢٧١.)

وروى الطبرسي بسند متّصل عن أبي سعيد الخدري، قال: لمّا نزل قوله:(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ)أعطى رسول الله فاطمة فدكاً، قال عبد الرحمن بن صالح: كتب المأمون إلى عبد الله بن موسى يسأله عن قصة فدك، فكتب إليه عبد الله، بهذا الحديث، رواه الفضيل بن مرزوق عن عطية، فردّ المأمون فدكاً إلى ولد فاطمة(عليها السلام).(مجمع البيان:٦/٢٧٩.)

نعم نزول الآية في شأن فاطمة لا يعني اختصاص الحكم بها مثل بقية أسباب النزول، حيث إنّ نزول آية في مورد لا يعني اختصاصها به.

وقد أُثير هنا سؤال، وهو أنّ السورة مكية والآية كذلك، وأمّا فدك فإنّما اصطلح أهلها مع النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)في العام السابع من الهجرة.

والجواب: يمكن أن تكون هذه الآية مدنيّة، ويؤيّده قول محمد عزّة دَروزة (السنّي): والمصحف الّذي اعتمدناه ذكر في عنوان سورة الإسراء أن آية الإسراء الّتي نحن في صددها مدنيّة.(التفسير الحديث: ٣ / ٣٨٤.) وأمّا المصحف الّذي اعتمده دَروزة في تفسيره الّذي رتِّب فيه السُّوَر حسب النزول، فهو مصحف الخطّاط قدروغلي (التركي)، وعلّل اعتماده عليه بقوله: لأنّه ذكر فيه أنّه طُبع تحت إشراف لجنة خاصّة من ذوي العلم والوقوف .(التفسير الحديث: ١ / ١٣.)

ويمكن أن يجاب عن السؤال المتقدّم بنزول الآية مرّتين، الأُولى في مكّة المكرمة، والأُخرى في المدينة المنورة التي لم يبق فيها من قرباه إلاّ بنته فاطمة(عليها السلام).

وأمّا ما جرى على فدك بعد رحيل النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) فحدّث عنه ولا حرج فقد صارت أمراً سياسياً يتداولها الحكام واحداً بعد الآخر، وبما أنّ القصة ذات شجون نترك البحث عنها إلى موضع آخر.

هذا كلّه حول حقّ ذي القربى، وقد عطف عليه حقّ المسكين وابن السبيل.

الإسلام يحارب الطبقية

كان احتقار الفقراء وأبناء السبيل من شعارات الجاهلية ولذلك طلب غير واحد من أشراف قريش من النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يردّ مَن حوله من الفقراء حتى يقتربوا ويسمعوا الوحي منه، فجاءت الآية ناهية عن هذا العمل، قال تعالى:(وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْء وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْء فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ)(الأنعام:٥٢).

ويؤيّد هذا المعنى ما رواه الكليني بسنده عن عثمان بن عيسى، عمّن ذكره، عن أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام)قال: «جاء رجل موسر إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)نقيّ الثوب، فجلس إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فجلس رجلٌ معسر درن الثوب فجلس إلى جنب الموسر، فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه، فقال له رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): أخِفْتَ أن يمسّك من فقره شيء؟ قال: لا، قال: فخفت أن يصيبه من غناك شيء؟ قال: لا، قال: فخفت أن يوسّخ ثيابك؟ قال: لا، قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله إنّ لي قريناً يزيّن لي كلّ قبيح ويقبّح لي كلّ حسن، وقد جعلت له نصف مالي. فقال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)للمعسر: أتقبل؟ قال: لا، فقال له الرجل: ولِمَ؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخلك».(الكافي:٢/٢٦٢ـ ٢٦٣، كتاب الإيمان والكفر.)

ثمّ إنّ المفسّرين قد اختلفوا في معنى المسكين، والمشهور أنّ المسكين أسوأ حالاً من الفقير، فإنّ الفقير هو الذي له بُلغة من العيش، والمسكين الذي لا شيء له، وقيل غير ذلك.(لاحظ : مجمع البيان: ٥/ ٨٠ . وقد ذكر فيه الفرق بين الفقير والمسكين.)

وأمّا ابن السبيل فهو المسافر المنقطع به، يعطى من الزكاة وإن كان غنيّاً في بلده ذا يسار، وإنّما سمّي ابن السبيل للزومه الطريق.

الحكم الرابع: النهي عن التبذير

قال تعالى:(وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا). لمّا انتهى البيان القرآني من ذكر البذل المحمود، بدأ بالكلام عن البذل المذموم الرائج عند العرب يوم ذاك، وهو التبذير والذي يعرّف بأنّه التفريق، وأصله أن يفرّق ماله كما يفرّق البذر، إلاّ أنّه يختصّ بما كان على سبيل الإفساد والمعصية وصرف المال في غير وجهه.

والآية تتضمّن أُموراً ثلاثة:

١. النهي عن التبذير.

٢. وصف المبذّرين بأنّهم إخوان الشياطين.

٣. وصف الشيطان بأنّه لربّه كفوراً.

أمّا الأوّل، فقال:(وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا): أي لا تفرّق ما أعطاك الله من المال في الفساد والمعصية، كصرفه في الخمر واللّذات المحرّمة وليالي السمر، إلى غير ذلك من الموارد التي يصرف المال فيها ولا يعود بخير على الفرد ولا على المجتمع.

ووجه النهي واضح، لأنّه سبحانه جعل المال لرفع الحاجات والضروريات وما يقع في حدود تطوير وسائل العيش، فصرفُه في غير هذه المواضع إضاعة للمال وموجب للحرمان، ولذلك تؤكّد الآية وتقول:(وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا).

وربّما يفسّر التبذير بالإسراف، والظاهر أنّ الثاني أعمّ من الأوّل، فكلّ تبذير إسراف، وصرف المال في اللّهو والشهوة والخمر والميسر تبذير وإسراف، ولكن بعض الإسراف ليس تبذيراً كما إذا اشترى ثوباً بمئة دينار للُّبس مع إمكانه أن يشتري ثوباً بخمسين ديناراً، وكلّ من الثوبين يؤمّن حاجاته الفردية والاجتماعية، غير أنّ شراء الثوب الغالي إسراف وخروج عن الاعتدال إن لم يكن تبذيراً وإضاعة للمال، لأنّ ما اشتراه يعادل الثمن الذي بذله في مقامه.

وأمّا الأمر الثاني ـ أعني قوله تعالى:(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) ـ : فكأنّ وجه المؤاخاة بينهم أنّ الواحد منهم يصير ملازماً لشيطانه وبالعكس. وظاهر صيغة الجمع في قوله:(إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) هو أنّ لكلّ مبذِّر أخاً خاصّاً به من الشياطين، وهذا ما يستفاد من بعض الآيات، قال تعالى: (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ)(فصّلت:٢٥).

وأمّا وجه التنزيل أو الاشتراك فهو أنّه سبحانه أعطى كل شيطان نِعماً ليصرفها في طاعة الله، ولكنّه يجحد نعمة الله ويصرفها في سبيل إغواء الناس وحملهم على المعصية، فيعد مبذِّراً للنعمة، ويكون أخاً لمن يصرف المال في غير وجهه.

وأمّا الأمر الثالث ـ أعني: كون الشيطان كفوراً ـ : فواضح بنفس البيان، حيث إنّ أخا الشيطان يصرف ما أُوتي من القوى في غير طاعة الله، فأخو الشيطان وأولاده كلّهم قد جحدوا نعمة الله بصرفها في غير محلّها.

يقول الإمام أمير المؤمنين علي(عليه السلام): «أَلاَ وَإِنَّ إِعْطَاءَ الْمَالِ فِي غَيْرِ حَقِّهِ تَبْذِيرٌ وَإِسْرَافٌ، وَهُوَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ فِي الدُّنْيَا وَيَضَعُهُ فِي الآخِرَةِ، وَيُكْرِمُهُ فِي النَّاسِ وَيُهِينُهُ عِنْدَ اللهِ».(نهج البلاغة: الخطبة ١٢٦)

٢٨. (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا):

مقابلة السائل بكلام ليّن

الظاهر أنّ الآية ناظرة إلى قوله سبحانه:(وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ) وكأنّها إكمال لما تقدّم، وهو أنّه ربّما يكون الإنسان مُعدِماً لا يستطيع أن يبذل لهؤلاء ما لهم من حقّ عليه، فلو أراد أن يُعرض عنهم ولم يقدّم لهم شيئاً من المال الذي يسألونه، فلا مانع من ذلك كما يقول: (وَ إِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ): أي إن تعرضنّ عن هؤلاء، فقوله:(إمّا)مركّب من «إنْ» الشرطية و«ما» الزائدة، للتأكيد، وجواب الشرط ما يأتي من قوله: (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا).

ثمّ إنّ الإعراض عنهم مشروط بشرطين:

١. أن يكون طلباً لرحمة من ربّه يأملها، لا تعبيراً عن بغض لهم أو تجاهل أو إذلال، كما قال: (ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا) فالذي لا يملك المال، ويأمل ـ بإذن الله ـ أن يتمكّن منه في المستقبل وأن يوسَّع عليه الرزق، وعندئذ سينفقه في رفع حاجة السائل، فله أن يصرف وجهه بهذه النيّة. والمراد بالرحمة الرزق.

٢. أن يُحسن إليهم، إذا أعرض عنهم، بكلام ليّن سهل لا يخدش في عواطفهم، كما يقول: (فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُورًا).

هذا هو أدب القرآن في تنظيم العلاقات بين الفقراء والأغنياء، حتى أنّ مَن كان ذا عُسرة تدفعه إلى أن يُعرض عن إعطاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل، فليكن ذلك بأُسلوب حسن، راجياً من الله تعالى في قلبه أن يمنّ عليه بالرزق فيسدّ به خلّتهم، مضافاً إلى المحافظة على كرامة الفقير واحترامه في حالة الخطاب.

٢٩. (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا):

الاعتدال في الإنفاق

الظاهر أنّ الآية ناظرة إلى قوله تعالى: (وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ) وليست لها صلة بالتبذير والمبذّرين، وإنّما تستهدف تحديد العطاء المحمود، وهو أن يكون العطاء واقعاً بين طرفي الإفراط والتفريط. أمّا التفريط، فأشار إليه بقوله:(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ) وهو كناية عن البخل والشُّحّ، أي لا تكن ممّن لا يعطي شيئاً ولا يهب، فتكون بمنزلة من كانت يده مغلولة إلى عنقه، فهو لا يقدر على الإعطاء والبذل. والتعبير مبالغة عن البخل والشُّحّ.

وأمّا الإفراط، فهو الذي يشير إليه بقوله:(وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) وهو كناية عن إعطاء الجميع، بحيث لا يبقى في يده شيء، فكلا

الأمرين غير مطلوبين من أوساط الناس. أمّا الأوّل أي قبض اليد والإمساك المطلق فيسبّب الملامة كما يقول:(فَتَقْعُدَ مَلُومًا)، حيث إنّ الناس يلومونه على شُحّه وبخله. قال زهير بن أبي سلمى:

ومَن يكُ ذا فضل فيبخلْ بفضله *** على قومه يُستغنَ عنه ويُذمَمِ

وأمّا الثاني، أي إعطاء جميع ما عنده، فيجعله (مَحْسُورًا): أي منهوك القوى عارياً عن كلّ شيء، فالاعتدال هو المطلوب من عامّة الناس. وسيوافيك الكلام حول هذا الموضوع عند تفسير قوله تعالى: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا)(الفرقان:٦٧).

يقول الشريف الرضيّ(رحمه الله) حول هذه الآية: وهذه استعارة وليس المراد بها اليد التي هي الجارحة على الحقيقة، وإنّما الكلام الأوّل كناية عن التقتير، والكلام الآخر كناية عن التبذير، وكلاهما مذموم حتى يقف كلٌّ منهما عند حدّه، ولا يجري إلاّ إلى أمده، وقد فسّر هذا قوله سبحانه:(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا).(تلخيص البيان في مجازات القرآن:٩٨ـ ٩٩)

روى الشيخ الطوسي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام) في قوله تعالى: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ) قال: ضمّ يده، فقال: هكذا، (وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) قال: بسط راحته، وقال: هكذا.(تفسير نور الثقلين:٣/١٥٩)

وروى علي بن إبراهيم في تفسيره عن أبي عبد الله(عليه السلام) في حديث طويل يقول فيه: ثمّ علّم الله جلّ اسمه نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) كيف ينفق، وذلك أنّه كانت عنده أوقيّة من الذهب فلم يكن عنده ما يعطيه، فلامه السائل واغتمّ هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه، وكان(صلى الله عليه وآله وسلم) رحيماً رفيقاً، فأدّب الله عزّ وجلّ نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) بأمره فقال:(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)، يقول: إنّ الناس قد يسألونك ولا يعذرونك، فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حسرت من المال.(تفسير نور الثقلين:٣/١٥٨)

***

بقي هنا سؤال، وهو إذا كان المتّبع هو الاعتدال في الإنفاق، فلماذا نرى أنّه سبحانه يمدح قسماً من الأنصار المؤثرين على أنفسهم ويقول:(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)(الحشر:٩) كما أنّ سورة «هل أتى» تشتمل على مدح من (يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)(الإنسان:٨) وقد ورد في أسباب النزول أنّ أهل البيت كانوا صائمين ولم يكن عندهم إلاّ طعام ليلة واحدة فأعطوه للمسكين واليتيم والأسير في ثلاث ليال متوالية وباتوا بلا طعام.

أقول: أمّا الآية الأُولى فقد ورد في أسباب نزولها أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) خصّ المهاجرين بأموال بني النضير، ومع أنّ طبيعة هذا العمل من شأنها تثير الحقد والغيظ في نفوس الآخرين، ولكن الأنصار كانوا على خلاف ذلك، لأنّهم كانوا في غنى فرضوا بذلك، بينما كان المهاجرون في حاجة لأنّهم كانوا غرباء، فالإيثار هنا إيثار نسبيّ لا إيثار مطلق حتى لا يبقى للمنفق شيء، بل غضّوا أبصارهم عمّا يرجع إليهم من سهم الغنائم، وهذا النوع من الإيثار غير الإيثار الذي نحن بصدده.

وأمّا ما يرجع إلى إيثار أهل البيت(عليهم السلام) من علي وفاطمة والحسنين(عليهم السلام)فهو من خصائصهم ولا ينافي أن يكون الحكم العام هو الاعتدال، غير أنّه يجوز للشخصيات السامية الإيثار بكلّ ما لديها.

٣٠. (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا):

بسطة الرّزق وتقديره بيد الله

الظاهر أنّ الآية في مقام التعليل لما تقدّم من النهي عن الإفراط والتفريط في إنفاق المال وبذله، حيث قال:(وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ)، فإذاً تكون الآية مشيرة إلى أنّ سنّة الله تعالى في أمر الرزق أيضاً هي الاعتدال، يبسطه لمن

شاء ويقدر لمن يشاء، ومع ذلك فلا يبسطه كلّ البسط ولا يمسكه كلّ الإمساك، فليكن هذا أيضاً ميزاناً للإنفاق عندكم.

والآية تعليل للأمر بالاعتدال، وأمّا ما قيل من أنّها تعليل للنهي عن التبذير، فبعيد. ومعنى الآية: (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ): أي يوسّعه على بعض الناس (وَيَقْدِرُ): أي ويضيّق على آخرين، كلّ ذلك لمصلحة يراها مع سعة خزائنه، ومع ذلك لا يحرم عباده من عطائه، ولا يعطيهم كلّ العطاء، وإنّما هم يتفاوتون في السَّعة والضِّيق.

ثمّ إنّه يصف نفسه بوصفين:(إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا) بأحوالهم (بَصِيرًا) بمصالحهم وما يحتاجون إليه.

سورة الإسراء: الآيات ٣١ ـ ٣٣ (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ... فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا).

الآيات: الحادية والثلاثون إلى الثالثة والثلاثين

(وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا * وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً * وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا).

المفردات

إملاق: فقر وحاجة.

خِطأً: الخِطء، كالإثم لفظاً ومعنى. ويقال: خطئ خِطأً كأثِم إثماً، وخَطَأً وهو ضدّ الصواب اسم من أخطأ.(تفسير الكشّاف:٢/٢٣٢).

فاحشة: الفاحشة: الفعلة القبيحة.

سلطاناً: قدرة واستيلاء.

فلا يسرف: لا يتجاوز الحدّ.

منصوراً: مؤيَّداً، حيث إنّ الله سمح للوليّ أن يقتصّ أو يأخذ الدّيَة.

التفسير

الحكم الخامس: النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر

٣١.(وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا):

من الخصال المذمومة التي تكشف عن قسوة القلب، قتل الأولاد ـ ذكوراً كانوا أم إناثاً ـ خوفاً من الإملاق والفقر، وهذا هو الذي يذكره سبحانه في هذه الآية. ويقول في آية أُخرى:(وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ)(الأنعام:١٥١). وكان الباعث على قتل الأولاد هو الخوف من أن يعانوا، إذا ما أنفقوا عليهم، من مشكلة الفقر في المستقبل، والذي عبّر عنه بقوله: (خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ) والله سبحانه يصحّح ما غزا عقولهم من أوهام وتصوّرات سقيمة، بقوله:(نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ)فالله هو الرزاق ذو القوّة المتين.

ثمّ إنّه سبحانه يصف عملهم هذا بقوله:(إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا): أي إثماً كبيراً، فمَن يقتل ولده خشية حدوث فقر في المستقبل، فقد أساء الظن بالله تعالى، فعملهم هذا يكشف عن قساوة في القلب وجهل بالله سبحانه وصفاته.

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي في شرح كلمة «التغريق»: كان إذا اشتدّ الزمان فولدت المرأة ولداً غرّقته القابلة في ماء السَّلى،(السَّلى: غطاء رقيق يكون فيه الجنين في بطن أُمّه.) ثم تخرجه ميّتاً، ذكراً كان أم أُنثى. فأنزل الله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ)، قال:

أطورَينِ في عام: غَزاة ورحلةٌ *** ألا ليتَ قيساً غَرّقته القَوابلُ[1] [2]

[1] البيت للأعشى في قيس بن مسعود الشَّيباني.

[2] كتاب العين: ٤ / ٣٥٤، مادّة «غرق».

وقد كان لهم عمل شنيع آخر، وهو وأد البنات، أي دفنهنّ في التراب بعد ولادتهنّ، غَيرةً عليهنّ. وهذا العمل يصفه سبحانه بقوله:(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ).(التكوير:٨ و٩.)

وإلى هذا القسم من الجنايات يشير قوله سبحانه: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)(النحل:٥٨ و٥٩.)، فعُلم من ذلك أنّ بعض العرب في الجاهلية كانوا يرتكبون جريمتين، والأُولى غير الثانية. وبذلك يظهر ضعف ما في «الكشّاف» حيث خلط بين الجريمتين وقال: قتلهم أولادهم هو وأدهم بناتهم، كانوا يئدونهنّ خشية الفاقة وهي الإملاق، فنهاهم الله وضمن لهم أرزاقهم.(تفسير الكشّاف:٢/٢٣٢.)

وقد تبعه محمود شكري الآلوسي(المتوفّى ١٣٤٢هـ) في كتابه «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب»، حيث قال: وظاهر لفظ الآية (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ) النهي عن جميع أنواع قتل الأولاد ذكوراً كانوا أو إناثاً مخافة الفقر والفاقة، لكن روي أنّ من أهل الجاهلية مَن كان يئد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهنّ، فنهى في الآية عن ذلك، فيكون المراد بالأولاد البنات، وبالقتل الوأد.(بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب:٣/٤٤.)

أقول: قد مرّ آنفاً قول الخليل أنّهم كانوا يقتلون الولد (ذكراً كان أم أُنثى) عند اشتداد الزمان، ثمّ إنّه لو كان الداعي للوأد خشية الإملاق، لماذا يخصّ الأُنثى بالذّكر ويقول: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا)(النحل:٥٨.) فإنّ الإملاق لا فرق فيه بين الأُنثى والذّكر. أضف إلى ذلك أنّه عندما يُخبَر بكون الوليد أُنثى يتغيّر وجهه من الغمّ والغيظ، فكأنّه يتلقّاه عاراً، ولذلك يختبئ ويختفي من القوم من سوء ما بُشّر به.

على أنّ في تاريخ العرب قرائن قطعية على أنّ الداعي للوأد هو إحساس الغَيرة والعار.

والعجب أنّ الآلوسي ينقل في بعض الصفحات المتقدّمة ما يخالف مختاره السابق، ويقول: ومنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهنّ، وهم بنو تميم وكندة وقبائل آخرون. قال الميداني: وكان السبب في ذلك أنّ بني تميم منعوا الملك ضريبة الإتاوة التي كانت عليهم، فجرّد إليهم النعمان أخاه الريّان مع دَوْسر«ودوسر إحدى كتائبه» وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل فاستاق نَعمهم وسبى ذراريهم. وفي ذلك يقول أبو المُشَمْرَج اليشكري:

لمّا رأوا رايةَ النعمان مُقْبِلة *** قالوا: ألا ليتَ أدنى دارِنا عَدَنُ

يا ليتَ أُمَّ تميم لم تكن عَرَفَتْ *** مُرّاً وكانت كمن أودى به الزمنُ

إن تقتلونا فأعيارٌ مُجَدَّعَةٌ *** أو تُنعموا فقديماً منكم المِنَنُ

فوفدت وفود بني تميم على النعمان بن المنذر وكلّموه في الذراري، فحكم النعمان بأن يجعل الخيار في ذلك إلى النساء، فأية امرأة اختارت زوجها رُدّت عليه، فاختلَفْنَ في الخيار وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم فاختارت سابيها على زوجها، فنذر قيس بن عاصم أن يدّس كل بنت تُولد له في التراب، فوأد بضع عشرة بنتاً. وبصنيع قيس بن عاصم وإحيائه هذه السنّة نزل القرآن في ذمّ وأد البنات.(بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب:٣/٤٢.)، وقد مرّ تفصيل ذلك في تفسير سورة النحل، فلاحظ.

تبرير الجريمة بأُسلوب علمي

عادت الجاهلية الأُولى إلى الشرق بلباس الثقافة الغربية ،ومن مقرّراتها تجويز إسقاط الجنين برضا الوالدين.

إنّ الوأد عند بعض العرب كان يجري بعد الولادة إذ لم يكن عندهم شيء من الوسائل العلمية لإسقاط الجنين قبل ولادته، ولذلك كانوا ينتظرون الولادة، وعند ذاك فإذا كان المولود أُنثى يئدونها بأبشع الطرق.

ولمّا تجهّز الإنسان الغربي أو المغترب بجهاز علمي استطاع به قتل الجنين في الرّحم في بدايات حياته، وكلا العملين ناتج عن القسوة

في القلب حيث إنّ الأبوين اللّذين فُرض عليهما تربية الوليد عادا يعملان على ضدّ ما فرض عليهما حيث يقتلان ولدهما في أوليات حياته قتلاً ذريعاً ويقطعونه إرباً إرباً، ولو كان لهم قلب واع لسمعوا حنين الوليد حين تقطيعه، حيث إنّه يخاطب أُمّه بصوت حزين ويقول: يا أُمّاه مكان أن ترضعيني وتربيني وتبعثيني إلى المدارس والجامعات قمتِ بقتلي وإخفاء صوتي.

كان وأد البنات عند بعض عرب الجاهلية لا يتجاوز الأب فقط وكان هو المسؤول عن هذا الأمر الفظيع، ولكنّه صار في حياتنا المعاصرة عملاً يشترك فيه الأب والأُمّ والطبيب ومساعده.

ثمّ إنّ بعض المستغربين الذين خُدعوا بما يُلعب من وراء الستار، يبرّرون عملهم الجنائي بقلّة الإمكانيات الاقتصادية، وأخذوا يدعون إلى تقليل عدد السكان وذلك عن طريق تحديد النسل، في الوقت الذي نرى فيه الدول الغربية تروّج وتشجّع كثرة النسل وتعيّن جوائز خاصّة لمن يولد له مولود، على عكس ما يجري في بعض الدول الإسلامية حيث يدعون إلى تحديد النسل ويحرمون من له أكثر من ثلاثة أولاد من بعض المزايا.

وأنا ـ كاتب هذه السطور ـ أوّل مَن أهاب بأنّ قانون تحديد النسل هنا على خلاف مبادئ الإسلام أوّلاً، وتكريس لرغبات وخطط الاستعمار ثانياً، فهذا هو نبيّ الله نوح يبشّر المستغفرين بقولهم:(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا).(نوح: ١٠ـ ١٢.)

وهذا هو النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «تناكحوا تكثّروا فإنّي أُباهي بكم الأُمم ولو بالسقط».(بحار الأنوار: ١٠٠ / ٢٢٠ برقم ٢٤؛ معرفة السنن والآثار للبيهقي: ٥ / ٢٢٠.)

وقد كتب أحد الأخصّائيين الاقتصاديين أنّ الموارد المتوفرة في إيران كفيلة بأن يعيش بها ١٥٠ ميليون نسمة. وقد كتب هذا التقرير وأرسله إلينا لنشره في مجلة «مكتب إسلام» قبل ٤٠ سنة أو أكثر، إلاّ أنّ بعض المسؤولين عندنا خُدعوا بالدعايات الغربية التي تنشرها المنظمات العالمية والتي كانت تحذِّر من حصول انفجار سكاني ومجاعة شاملة، فصاروا بدل أن يروّجوا كثرة النسل يضعون العقوبات على مَن تجاوز نسله ولدين اثنين.

وفي الختام نشكر الله تعالى على ما وفّق سماحة قائد الجمهورية الإسلامية حفظه الله إلى إبداء التوجيهات اللاّزمة، والتي دعا فيها إلى إلغاء عامّة العقوبات التي صارت عراقيل بين كثرة النسل والأُمّة الإسلامية. شكر الله مساعيه.

الحكم السادس: النهي عن الزنا

٣٢. (وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً):

قال الراغب: الزّناء: وطء المرأة من غير عقد شرعي، وكان عليه أن يعطف عليه قوله: ولا أَمَة بغير مُلك لأنّها لا تحتاج إلى عقد. وقد يعبّر عن الزنا بالبغاء، والثاني مختصّ بمجامعة الأمة غير المملوكة للرجل، وأمّا الزنا فهو مجامعة الرجل للحرّة غير المعقودة له.

وقد عُطِف تحريم الزّنا في الآية على قتل الأولاد، والجامع بينهما هو إضاعة النسل، حيث إنّ الوائد يقتل نسله وذاك يضيع نسله؛ لأنّه لا يعرف أباه حتى يأوي إليه ويستظلّ تحت ظلّه، فالزنا جريمة فظيعة، شعر النوع البشري من أوّل عهده بالحياة الاجتماعية بفظاعتها، ووضع العقوبات الصارمة على مَن يرتكبها.

ثمّ إنّه سبحانه يؤكّد على تحريم هذا العمل القبيح في آيات مختلفة، حيث يقول في المقام:(وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنى) فهو ينهى عن القرب منه فضلاً عن ممارسة العمل.

وقال في آية أُخرى مؤكِّداً:(وَلاَ تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)فإنّ قسماً من الناس يتحاشَون من التردّد على بيوت الدّعارة في الظاهر، ولكنّهم في الخفاء يمارسون العمل بشكل سرّي. والآية تنهى عن كلتا الممارستين.

ولمّا كان الزّنا جريمة كبرى وفاحشة عظيمة، فقد فرض الله سبحانه على الزاني والزانية حدّاً وعقوبة خاصّة بهما، وقال: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)(النور:٢).

ولم يقتصر على ذلك بل ندّد بمَن يحبّ أن تشيع الفاحشة وقال:(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(النور:١٩)، وفي مقابل ذلك جعل صيانة الفروج من علامات المؤمنين، وقال: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ).(المؤمنون:١ـ٥).

وأخذ يمدح مريم بنت عمران (عليها السلام)بخصلة العفاف وقال:(وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا).(التحريم:١٢).

الإسلام يحثّ على الزواج

لا شكّ أنّ الله سبحانه جهز كلاًّ من الذكر والأُنثى بقوة خاصّة، تبعث كلاًّ إلى الجنس المخالف في سنّ معيّنة، ولولا هذه القوّة الشهوية والجذب والانجذاب لانقطع نسل الإنسان، ولأجل ذلك دعا الإسلامُ إلى النّكاح والزواج، ونهى عن العزوبة.

١. قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«ما بُنيَ بناء في الإسلام أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من التزويج».(الوسائل:١٤، الباب ١ من أبواب مقدّمات النكاح، الحديث ٤.)

٢. قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«مَن تزوّج فقد أحرز نصف دينه، فليتّقِ الله في النصف الآخر».(الوسائل:١٤، الباب١ من أبواب مقدّمات النكاح، الحديث ١٢ و١٣.)

٣. قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«ركعتان يصليهنّ متزوّج أفضل من رجل أعزب يقوم ليله ويصوم نهاره».(الوسائل:١٤، الباب٢، من أبواب مقدّمات النكاح، الحديث١.)

٤. وقال أمير المؤمنين(عليه السلام): «تزوّجوا فإنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: من أحبّ أن يتّبع سنّتي فإنّ من سنّتي التزويج».(الوسائل:١٤، الباب١ من أبواب مقدّمات النكاح، الحديث١٦.)

٥. وقال الإمام الصادق(عليه السلام): «ركعتان يصلّيهما المتزوّج أفضل من سبعين ركعة يصلّيها أعزب».(الوسائل:١٤، الباب٢ من أبواب مقدّمات النكاح، الحديث١.)

سبب شيوع الزّنا في المجتمعات

إنّ أحد الدواعي إلى شيوع تلك الجريمة هو التبرّج والاختلاط والمعاشرة الحرّة بين الجنسين في المجامع العلمية والدوائر والمعامل، ففي مثل هذه الأجواء تسهل إقامة علاقة بين الجنسين(الذكر والأُنثى) وكلّما اشتدّت العلاقة بينهما، كلّما انتهى الأمر إلى ما لا يُحمد عقباه.

ونعمَ ما قال القائل:

نظرة فابتسامة فسلام *** فكلام فموعد فلقاءُ

إنّ لقاء الجنسين عن طريق اتّخاذ الخِدْن يجعل الطرفين بمقربة من هذا الإثم الفظيع، ولذلك نهى عنه سبحانه، قال تعالى:(فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَات غَيْرَ مُسَافِحَات وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَان).(النساء:٢٥.)

ويا للأسف صار اتّخاذ الخِدْن شعاراً للتقدّمية، والإعراض عنه آية الرجعية، وغير خفيّ على العارف أنّ اتّخاذ الخِدْن كثيراً ما ينتهي إلى علاقة جنسيّة غير مشروعة، فكلّ منهما يلتذّ بذلك لفترة محدّدة، ولكنّ الشابّ كثيراً ما يصرف وجهه عن خدنه عندما يُقدم على الزّواج، بحجة أنّها غير عفيفة، وعندئذ لا تجد الأُنثى مأوى لها إلاّ الانسلاك في عداد الزّانيات والتردّد على بيوت الدَّعارة.

فعلى المسؤولين إذا أرادوا تطهير المجتمع من هذه الخصال الرذيلة، أن يفصلوا بين الذكور والإناث في تلك المراكز.

ومن المضحك ما نسب إلى الفيلسوف الانجليزي راسل، حيث صوّب المعاشرة الحرّة بين الشباب والشابات بشرط أن لا يتعدّى الأمر ويصل إلى المقاربة الجنسيّة، وكأنّه يتصوّر أنّ الشابَّين وهما في حالة طغيان الغريزة الجنسية، مع توفّر بواعث الإغراء والإثارة، يستطيعان كبح جماح شهوتيهما وضبط إرادتيهما من الوقوع في وحل الفاحشة، غافلاً عن أنّ الشهوة الجنسية تصدّ الإنسان، عند ثورانها، عن التفكير في العواقب الوخيمة لهذا الفعل الشنيع، ولا ينتبه إلاّ بعد الفراغ منه.

علاج هذا الداء

وما ذكرنا من مسألة التفريق بين الجنسين، هو أحد العوامل التي تمنع من ارتكاب الجريمة، ولكنّ العمل السلبيّ وحده لا يفيد ما لم يكن هناك عمل إيجابيّ، وهو تعبئة الجهود للتشجيع على الزواج بالدّعم المادّي والمعنوي، ورفع العراقيل المانعة من الزّواج، وتأكيد وسائل الإعلام على إيجابيات الزّواج المقترن بنفقات قليلة، واجتناب التكاليف الباهظة لمراسم الزّفاف، أو طلب المهور العالية.

وعلى الآباء والأُمّهات تشجيع أولادهم على الزواج في أوّليات حياتهم، قبل أن يفسد الأمر، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «مَن أدرك له ولد، وعنده ما يزوّجه، فلم يزوّجه، فأحدث، فالإثم بينهما».(مجمع البيان: ٧ / ٢٤٥.)

وهنا كلمة لفريد وجدي في دائرة معارفه يقول فيها: في الهيئة الاجتماعية التي يحيق بها ويل هذا الإثم الفظيع أن تنظر في علاج هذا الداء الوبيل الذي ما فشا في أُمّة إلاّ ضربها الله بالهوان، وأذاقها الذلّ والخسران، وليس يبعد على الأُمّة الرشيدة أن تضع من القوانين ما يرد الفاسقين عن غيّهم ويحفظ على الأُسر كرامتها.(دائرة معارف القرن العشرين:٨/٦١٩.)

الآثار السلبية للزنا

إنّ الغرب وإن أباح الزّنا إذا لم يكن عن عنف، تمسّكاً بحرية الإنسان في حياته الفردية والاجتماعية، لكنّه غفل أو غضّ النظر عن الآثار السلبية للزّنا الذي كان من أقبح الأُمور عند عامّة الأُمم قديمها وجديدها، وإليك الإشارة إلى جانب قليل من المفاسد المترتّبة على الزّنا:

الأوّل: أثبت العلم أنّ إشاعة الزّنا هي السبب لكثير من الأمراض والمآسي الصحّية، حتى أنّ المرض الخطير (الإيدز) هو من آثار العلاقات الجنسية الحرّة.

الثاني: إنّ الوليد من الزّنا بعد ما يشبّ لا يعرف أباه بل لا يعرف أُمّه، خصوصاً إذا طرحه الزّانيان على قارعة الطريق حتى تأخذه الدولة وتربّيه في دور الحضانة. وبما أنّ هذا الوليد يعيش محروماً من العاطفة، فمن المتوقّع أن يتحوّل إلى إنسان مجرم لا يعرف الرحمة ولا العاطفة.

وقد أثبتت التجارب أنّ أغلب المجرمين المحترفين هم من أولاد الزّنا الذين حُرموا من عطف الوالدين، وصارت قلوبهم مليئة بالقسوة.

الثالث: إنّ شيوع الزّنا في الزمن الحاضر صار مؤدّياً لإسقاط الجنين وقطع النسل، لأنّ العاهرات لا يرضين بتربية الأطفال، لأنّها تشكّل عائقاً كبيراً لحرّيتها في معاشرة الرجال.

الرابع: إنّ شيوع الزّنا يوجب اختلاط الأنساب في المجتمع وفسادها، حيث إنّ صلة المولود تكون منقطعة عن الزاني والزانية، فيصبح المجتمع مجتمعاً بهيميّاً متقطع الصلات.

الخامس: إنّ شيوع الزّنا ينتهي إلى انقطاع النسل، فتنقطع الرّغبات في النّكاح والزّواج، فإنّ في إشباع الغريزة الجنسية بالطرق غير

الشرعية لا يلازمه مشقّة النفقة ومعاناة تربية الأولاد وتحمّل الشدائد في رعايتهم وصيانتهم، فينتهي ذلك إلى تقليل النّسل، أو حتى إلى انقطاعه.

وهناك آثار سلبية أُخرى كشف عنها علماء الطبّ والاجتماع وأصحاب الاختصاص، تُراجع في مظانّها.

وفي نهاية المقام نذكر ما نقله ابن الأثير في ترجمة تميم بن جُراشة الثّقفي قال: ذكر ابن ماكولا أنّه وفد على النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)وروى عنه أنّه قال: قدمت على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في وفد ثقيف فأسلمنا وسألناه أن يكتب لنا كتاباً فيه شروط فقال: اكتبوا ما بدا لكم ثم إيتوني به، فسألناه في كتابه أن يُحلّ لنا الرّبا والزّنا، فأبى علي(رضي الله عنه)أن يكتب لنا، فسألناه خالد بن سعيد بن العاص فقال له عليّ: تدري ما تكتب، قال: أكتب ما قالوا ورسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)أَولى بأمره، فذهبنا بالكتاب إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فقال للقارئ: اقرأ، فلمّا انتهى إلى الرّبا قال: ضع يدي عليها في الكتاب، فوضع يده فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا)(البقرة: ٢٧٨ .) الآية، ثم محاها وألقيت علينا السكينة فما راجعناه، فلما بلغ الزّنا وضع يده عليها وقال: (وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً)الآية ثم محاه، وأمر بكتابنا أن ينسخ لنا.(أُسد الغابة:١/٢١٦.)

الحكم السابع: النهي عن قتل النفس بغير حقّ

٣٣. (وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا):

الآية تنهى عن قتل النفس المحترمة، وتقول:(وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللهُ) حيث إنّه سبحانه كرّمها وجعلها محترمة. وكيف لا ينهى عن ذلك وقد قال: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْس أَوْ فَسَاد فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا)(المائدة:٣٢.). ولعلّ قوله: (حَرَّمَ اللهُ)إشارة إلى تحريم القتل في عامّة الشرائع السماوية.

ويدلّ عليه قوله: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا) حيث جاء قبلها قوله تعالى:(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا).

واستثنى سبحانه من النهي المطلق عن القتل صورة واحدة، وهي قوله: (إِلاَّ بِالْحَقِّ): أي إلاّ أن يكون القتل مصحوباً وملابساً للحقّ، كالقتل لقوَد أو غيره من الأسباب الشرعية.

ولعلّ أوّل جريمة صدرت من بني آدم هي جريمة القتل عن ظلم، كما قال سبحانه في حقّ قابيل:(فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ)(المائدة:٣٠.).

ثمّ إنّ قتل النفس المحترمة على قسمين: قتل خطائي، وقتل عمْدي.

أمّا الأوّل: فبما أنّ القاتل لم يكن بصدد القتل وإنّما أصابه بلا سبق إصرار، فالله سبحانه عوّضه بالدّيَة تدفع إلى أهل المقتول وورثته، وقال: (وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَة مُؤْمِنَة وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا)(النساء:٩٢.)، فعلى القاتل أن يقوم بأمرين:

الأوّل: تحرير رقبة من الرّقاب، فبما أنّه بعمله هذا سبّب نقصاناً في بنية المجتمع من الأحرار، فتحريره رقبة نوع من التعويض عمّا سبّبه.

الثاني: دفع الدّيَة التي تعادل ألف دينار إلى ورثة المقتول. والغاية من ذلك جبران خسارة اقتصادية وردت على أهل المقتول، وليس عوضاً عن دم المقتول، فإنّ دم المسلم فوق أن يقدّر بثمن.

وأمّا القسم الثاني: وهو القتل عن عمْد وإصرار، فالله سبحانه سلّط الوليّ على القاتل وخيّره بين تحريره بلا عوض، أو أخذ الدّيَة، أو القصاص منه، وقال: (وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا): أي بلا سبب (فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا):

أي قدرة واختياراً، فهو مخيّر بين الأُمور الثلاثة، كلّ ذلك لأجل قوله: (وَجَزَاءُ سَيِّئَة سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ)(

الشورى:٤٠)، فقوله:(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا) ربّما يشير إلى القصاص أو الدّيَة، ووصفها بالسيِّئة من باب المشاكلة، وقوله:(فَمَنْ عَفَا) إشارة إلى العفو.

بقي هنا أمران:

الأوّل: الجزاء على قدر الجريمة

إنّ الإسلام، مع تأكيده على حرمة دم الإنسان، فإنّه يؤكّد أيضاً على أن يكون الجزاء على قدْر الجريمة، ويقول:(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ)(النحل:١٢٦) ويقول في آيتنا هذه: (فَلاَ يُسْرِف فِي الْقَتْلِ)والضمير في (يُسْرِف)يرجع إلى الوليّ، وهذا الحكم شُرّع ردّاً على ما كان شائعاً في الجاهلية، حيث كان من عادة عدد من القبائل آنذاك أن يقتل الوليّ غير القاتل، أو يقتل معه غيره، ولذلك يقول:(فَلاَ يُسْرِف فِي الْقَتْلِ).

ثمّ إنّه سبحانه يعلّل إعطاء السلطة للوليّ بقوله: (إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا): أي نصرناه وأعطينا له السلطة في القصاص. ويحتمل أن يكون تعليلاً للنهي عن الإسراف، أي أنّ وليّ المقتول منصور بحكم القوَد، فلماذا يتجاوز الحدّ من النصر إلى الاعتداء؟ قال الزمخشري: حسْبُه أنّ الله قد نصره بأن أوجب له القصاص، فلا يستزد على ذلك.(تفسير الكشّاف:٢/٤٣٢).

موقف خالد لأمير المؤمنين(عليه السلام)

من مناقب الإمام علي السنيّة، تلك الوصيّة التاريخية التي سجّل فيها أروع موقف ينطق بعدله وإنصافه، وتحكيمه للقيم والمبادئ التي آمن بها حتى مع عدوّه اللّدود، الذي فلق رأسه الشريف بسيفه الغادر المسموم، قال(عليه السلام) من وصيّة له لمّا ضربه ابن ملجم لعنه الله:«يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لاَ أُلْفِيَنَّكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً، تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ».

أَلاَ لاَ تَقْتُلُنَّ بِي إِلاَّ قَاتِلِي. انْظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَة، وَلاَ تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ(صلى الله عليه وآله وسلم) يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالْمُثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ».(نهج البلاغة، قسم الرسائل، برقم ٤٧).

هذا، ولعلّ في قوله تعالى:(فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا) دون أن يقول: وله أن يقتل، إشارة إلى أنّ وليّ المقتول لا يقوم بذلك بنفسه وإنّما ينفّذ هذا الحكم مَن بيده السلطة والقدرة لإجراء الأحكام في مواضع مختلفة، وليس ذلك إلاّ الحاكم صاحب القدرة والسلطة والدولة، ولا يخفى أنّ قيام الوليّ بنفسه لأخذ الثأر فيه من الفساد ما لا حدود له، ويؤدي إلى نشر الفوضى في المجتمع.

أين منطق الإسلام الظاهر في قوله:(مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْس أَوْ فَسَاد فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا)(المائدة:٣٢)، من الأمر الرائج هذه الأيام من بدايات القرن الحادي والعشرين إلى يومنا هذا من جريان أنهار الدماء في الشوارع والسجون والأماكن العامّة، والحروب المصطنعة، حيث يُقتل في كلّ يوم المئات من البشر بأنواع وسائل القتل، وما ذلك إلاّ بتخطيط الدول الاستكبارية وصنائعها لضرب المسلم بالمسلم وتخريب المنشآت الحيوية من أجل أن تبقى المجتمعات الإسلامية متقهقرة في كافّة المجالات العلمية والاقتصادية وغيرها.

الأمر الثاني:إنّ في القصاص حياة

تقدّم في قوله سبحانه:(فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا) أنّ للوليّ أن يختار أحد الأُمور الثلاثة التي منها القصاص، وقد علّله سبحانه بقوله:(وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ)(البقرة:١٧٩)، ومفاد الآية أمر واضح، فلو حُذف القصاص من قانون العقوبات وأيقن المجرم بأنّه لا يُقتل وإنْ قتل العشرات من الناس، فإنّه سوف يتجرّأ على قتل الأكثر، كيف وقد قال الإمام علي(عليه السلام):«رُدُّوا الْحَجَرَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ، فَإِنَّ الشَّرَّ لاَ يَدْفَعُهُ إِلاَّ الشَّرُّ».(نهج البلاغة: قصار الحكم ، برقم ٣١٤) ومن المعلوم أنّ تسمية الثاني بالشرّ من باب المشاكلة.

وهذا هو الإمام الطاهر عليّ بن الحسين(عليهما السلام) يقول في تفسير قوله سبحانه:(وَ لَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ):«ولكم يا أُمّة محمّد في القصاص حياة، لأنّ مَن همّ بالقتل فعرف أنّه يقتصّ منه فكفّ لذلك عن القتل، كان ذلك حياة الّذي همّ بقتله، وحياة لهذا الجاني الذي أراد أن يقتل، وحياة لغيرهما من الناس إذا علموا أنّ القصاص واجب، لا يجترون (لا يجسرون) على القتل مخافة القصاص».(الوسائل:١٩، الباب١٩ من أبواب القصاص في النفس، الحديث٦، لاحظ الاحتجاج:٣١٩.)

منطق المخالف

أصدرت عدد من الدول الغربية وغيرها قانوناً ألغت بموجبه عقوبة الإعدام، وحجّة المقنّنين في ذلك أنّ المجرم بقتله قد أعدم إنساناً، فلو قلنا بالقصاص فقد قمنا بمثل عمله، أي أعدمنا إنساناً ربّما يكون مفيداً. هذه حجّتهم بدون أن يحلّلوا منطق القائلين بصحّة القصاص. وهذه الحجّة واهية فإنّ معنى ذلك إعطاء الضوء الأخضر للمجرم لأن يعدم إنساناً ثانياً وثالثاً ورابعاً إلى ما شاء، فكيف لا ترضون بإعدام إنسان واحد، وتسمحون بقتل أُناس كثيرين؟!

الأحكام الإقتصادية

الآيتان ٣٤ ـ ٣٥ (وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ ... ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً).

الآيتان: الرابعة والثلاثون والخامسة والثلاثون

(وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً).

المفردات

اليتيم: اليتيم في الناس من قبَل الأب، وفي البهائم من قبل الأُمّ.(مجمع البحرين: ٦ / ١٩١، مادة «يتم»، نقلاً عن الجوهري.) وقد يقال: إنّ اليتيم مَن فقد الأب، واللّطيم مَن فقد الأبوين.

وعلى كلّ تقدير: اليتيم يُجمع على أيتام ويتامى، فاليتامى: جمع يتيم ويتيمة، وأمّا أيتام فجمع يتيم لا غير كشريف وأشراف.

أشدّه: قال الراغب: الشدّة تستعمل في العقد وفي البدن وفي قوى النفس.(المفردات في غريب القرآن: ٢٥٦، مادة «شد».) وفي المجمع: استحكام قوة الشباب والسنّ، كما أنّ شدّ النهار هو ارتفاعه .(مجمع البيان: ٢١٣/٤.)

والظاهر أنّه كناية عن البلوغ مضافاً إلى الرُّشد المالي، إذ لا يرتفع اليتيم بالبلوغ في الأُمور المالية ما لم يبلغ حدّ الرشد في مصرفها.

العهد: ما يُتعاهد عليه.

الكَيل: تحديد مقدار المبيع وأمثاله بآلة معدّة لذلك كالصّاع والكُرّ، وربّما يعطف عليهما الذّراع أيضاً.

وزنوا: الوزن: معرفة ثقل الشيء وخفّته، وامتحانه بما يعادله ليُعرف وزنه. يقال هذا يزن رطلاً، أي يعدِل رطلاً.

القسطاس: اسم للميزان، أي آلة الوزن.

تأويلاً: التأويل: عاقبة الشيء وما يؤول إليه.

التفسير

٣٤. (وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالتي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً):

الحكم الثامن: النّهي عن إتلاف مال اليتيم

لمّا نهى سبحانه عن إتلاف النفوس، عطف على هذا الحكم حكماً آخر، وهو المنع من إتلاف الأموال، وخصّ بالذكر مال اليتيم لأنّه أَولى بذلك حيث فقد من يحميه ويدير شؤونه، ولذلك أكد الإسلام على الاحتياط التام في مال اليتيم. ويظهر من بعض الآيات أنّ

الإحسان إلى اليتيم الذي يعدُّ حفظ ماله من أظهر مصاديقه قد ورد في التوراة أيضاً، قال تعالى:(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ)(البقرة:٨٣.) فالتشريع القرآني استمرار لما شرّعه الله سبحانه في الشرائع السابقة. إنّ اليتيم من مصاديق المستضعف الواضحة، ولذلك يحثّ الإسلام على إيوائه حتى أنّه سبحانه يعدّ إيواء رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) من النّعم التي أفاضها الله عليه يوم كان يتيماً، وقال: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى)(الضحى:٦.).

إنّ في إيواء اليتيم تكريماً له وهو أيضاً ممّا يؤكّد عليه القرآن الكريم ويقول: (كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ)(الفجر:١٧.) ويندّد سبحانه بمَن يطرد اليتيم ويقول:(أَرَأَيْتَ الذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)(الماعون:١ و٢.). وفي هذا الصّدد يأتي قول الإمام علي(عليه السلام): «أدِّب اليتيمَ ممّا تؤدِّب به ولدَك».(الوسائل:١٥، الباب٨٥ من أحكام الأولاد، الحديث١.)

ويكفي في الحثّ على تكريم اليتيم قول النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم): «من مسح يده على رأس يتيم، ترحّماً له، كتب الله له بكلّ شعرة مرّت عليها يده حسنة».(مستدرك الوسائل: ١٥ / ١٢٢، برقم ١٧٧٢٦ .)

هذا كلّه حول أهميّة إيواء اليتيم وتكريمه على نحو لا يحسّ فيه بأثر اليُتم، إنّما الكلام في الأموال التي يرثها اليتيم وهو بعد صغير غير رشيد، فالتعدّي على ماله من الكبائر الموبقة التي هدّد الله عليها بالنار، وقال:(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا).(النساء:١٠.)

ويظهر من بعض الآيات أنّ بعض المسلمين في العصر المدني كانوا يخلطون أموال اليتامى بأموالهم وبذلك كانوا يتجاوزون على أموالهم، فنزل قوله سبحانه:(وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا).(النساء:٢.)

نعم، ربّما يكون الخلط بين المالين بنيّة صالحة، كما إذا كان عدم التمييز لمصلحة اليتيم، ولذلك يقول سبحانه:(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ).(البقرة:٢٢٠.)

وقد قيل: إنّه لمّا نزلت هذه الآية اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) فكانوا لا يخالطون اليتامى في طعام وغيره، فأنزل الله سبحانه:(وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)(البقرة:٢٢٠.) فكانت لهم فيها رخصة.(مجمع البيان:٢/١١٤.)

الحكم التاسع: الوفاء بالعهد

قال تعالى:(وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً).

العهد عبارة عمّا يتعاهد به الإنسان مع الله سبحانه أو مع غيره في مسألة من المسائل، فقوله سبحانه:(إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً) ظاهر في لزوم الوفاء بالعهد، وتقدير الآية (إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً)عنه، أي يسألكم الله عنه، فالمسؤول هو المتعهّد نفسه.

إنّ حسن الوفاء بالعهد وقبح نقضه ممّا يستقلّ العقل بحكمه بلا استعانة بالشرع. وبما أنّ الصغرى والكبرى كليهما من مدركات العقل، يوصف بأنّه من المستقلاّت العقلية، ويقال: هذا عهد ـ لكلّ عهد ـ يجب الوفاء به فهذا يجب الوفاء به.

إنّ الوفاء بالعهد دليل على احترام المعاهد لنفسه حيث يُعدّ العمل به نوع صيانة لشخصيته، ولذلك أصبح نقض العهد أمراً قبيحاً بين عامة الأُمم، وهذا دليل على أنّ لحكم العقل جذوراً في خلقة الإنسان.

وبما أنّ العهد مع الله أو مع الناس يُعدّ أمانة للمتعهَّد له عند المتعهِّد، عطف سبحانه رعاية العهد على الأمانة وقال:(وَالَّذِينَ هُمْ لاِمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)(المؤمنون:٨، المعارج:٣٢.).

وقد بلغ اهتمام القرآن الكريم برعاية العهد حدّاً أوجب على النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)وعامّة المسلمين رعايته حتى مع المشركين، يقول سبحانه:(إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)(التوبة:٨.).

وممّا يؤسف له أنّ كثيراً من الناس لا يقيمون لعهودهم ووعودهم وزناً ولا قيمة، وكثيراً ما يعِدون زملاءهم ثم لا يفون، ولا يعتذرون عن خُلف العهد، وكأنّ نقض الوعد المنهيّ عنه هو فقط إذا كان مع الله سبحانه، الذي يورث نقضه التكفير، مع أنّه روي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليفِ إذا وعد»(أُصول الكافي:٢/٣٦٤، برقم٢.)، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم): «وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» .(صحيح البخاري:٢/٣٢٧، برقم ٣١٨٦، ٣١٨٧. وانظر: نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٠.)

وكان الإمام علي(عليه السلام) يحذّر من الغدر ويقول:«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الْوَفَاءَ تَوْأَمُ الصِّدْقِ، وَلاَ أَعْلَمُ جُنَّةً أَوْقَى مِنْهُ، وَمَا يَغْدِرُ مَنْ عَلِمَ كَيْفَ الْمَرْجِعُ. وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا فِي زَمَان قَدِ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِهِ الْغَدْرَ كَيْساً(الكَيْس: الفطنة والذكاء.)، وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فِيهِ إِلى حُسْنِ الْحِيلَةِ. مَا لَهُمْ! قَاتَلَهُمُ اللهُ! قَدْ يَرَى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ(الحُوّل القلّب: البُصراء بتحويل الأُمور وتقليبها.) وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وَ نَهْيِهِ، فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْن بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لاَ حَرِيجَةَ(الحريجة: التحرّج والتحرّز من الآثام.) لَهُ فِي الدِّينِ».(نهج البلاغة: الخطبة ٤١.)

وفي نهاية المطاف ننقل كلمة له(عليه السلام) في وقعة صفين، وحاصلها:

لمّا تمّت الاتفاقية بين الإمام علي(عليه السلام) ومعاوية، بضغط من المحكّمة، أرادوا أن يرجعوا عنها، وقالوا لعليّ: إنّ التحكيم كان منّا زلّة حين رضينا بالحَكمين فرجعنا وتُبنا، فارجع أنت يا عليّ كما رجعنا وتب إلى الله كما تبنا، وإلاّ برئنا منك، فقال علي(عليه السلام):«ويحكم أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع؟! أو ليس الله تعالى قال:(أَوْفُوا بِالْعُقُودِ)وقال:(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ)(النحل:٩١.)؟!».(انظر: وقعة صفّين:٥٨٩.)

٣٥. (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً):

الحكم العاشر والحادي عشر: إيفاء الكَيل، والوزن بالميزان الصحيح الذي لا غُبن فيه

هذه الآية تتضمّن حكمين: الأوّل: حرمة التطفيف في الكيل، يقول تعالى: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ)وأُريد من الكيل المكيال الذي يُكال به أمثال الحنطة والشعير وبقية الحبوب.

والحكم الثاني: الأمر بوزن الأشياء بالقسطاس المستقيم، أي بالميزان الصحيح السالم من العيوب، فإنّ الميزان إذا كان معيباً لا يعرف به الوزن الواقعي للأشياء.

وقد روي أنّ الإمام الباقر(عليه السلام) فسّره بالميزان الذي له لسان(انظر: تفسير القمّي:٢/١٩.)، إذ مع عدم وجود اللسان لا يستطيع الميزان أن يوضّح حركة الكفَّتين بشكل دقيق، وأمّا مع وجوده فإنّ أقلّ حركة للكفّتين تنعكس في الميزان.

ثمّ إنّ الأمر بإيفاء الكيل أو الوزن بالميزان المستقيم كلّها من شُعب العدل، الذي لا مناص منه لسلامة المجتمع في الجانب المالي والاقتصادي، والحياة الاجتماعية لا تنتظم إلاّ بذلك، ولذلك نرى أنّ الشرائع السماوية تنادي بإيفاء الكيل منذ القدم.

وهذا هو نبيّ الله شعيب(عليه السلام) يهيب بقومه ويقول:(فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ).(الأعراف:٨٥.)

والقرآن يحثّ على رعاية العدل وإيفاء الحقّ في غير واحدة من الآيات، ومنها قوله سبحانه:(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ)(المطففين:١ـ٣.).

ثمّ إنّه سبحانه يعلّل لزوم إيفاء الكيل ورعاية العدل في الوزن بقوله: (ذَلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً): أي ذلك خير لكم من التطفيف وأحسن إرجاعاً ومآلاً، أي عاقبة في الدنيا والآخرة.

التأويل مأخوذ من قوله: آل، يؤول، إذا رجع، فالتأويل: إرجاع الشيء إلى مآله وحقيقته، وهذا يختلف حسب اختلاف موارده:

١. فإذا كان المورد من الأُمور التكوينية، فيراد بالتأويل المصالح أو المفاسد التي تترتّب عليه، نظير المقام، والله سبحانه يقول: إنّ إيفاء الكيل والوزن بالميزان الصحيح أحسن تأويلاً: أي مآلاً لما يترتّب عليه من المصالح والغايات الصحيحة، بخلاف التطفيف في الكيل والوزن فإنّه يورث العداء والخصام بين البائع والمشتري.

ومصاحب موسى(عليه السلام) حيث قام بأعمال مبهمة ومريبة، من خرق السفينة وقتل الصبي وبناء الجدار الذي كادّ ينقضّ مع أنّ أهل القرية أبوا أن يضيفوهما، فحاول موسى(عليه السلام) أن يقف على أسرار ما قام به مصاحبه، فاستجاب المصاحب وقال: (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)(الكهف:٧٨.) فأراد من التأويل: رفع الإبهام وبيان الأسرار، فصارت مصالح أعماله تأويلاً لما فعل من الأفعال العجيبة التي لا يتحمّلها الإنسان عادة.

٢. إذا كان المورد رؤيا الإنسان، فتأويلها عبارة عن إرجاعها إلى واقعها، فإنّ الرؤيا الصادقة على أقسام، منها ما تتّصل به نفس النائم بالواقع، غير أنّ النفس تتصرّف فيما تراه قبل أن يستيقظ النائم من نومه فتختلف الرؤيا عن واقعه، فالتأويل عندئذ عبارة عن إرجاع الرؤيا إلى الأصل الذي رآه في المنام، وذلك علم خاص يرزقه الله تعالى من يشاء، من عباده، كما يقول: (وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ)(يوسف:٦.) والتأويل الوارد في سورة يوسف في عدة موارد، عبارة عن إرجاع الرؤيا الصادقة الّتي تصرّفت فيها النفس إلى واقعها الذي تحوّلت عنه، كما هو الحال في الموارد التالية:

١. رؤيا يوسف سجود أحد عشر كوكباً مع الشمس والقمر له.

٢. رؤيا أحد صاحبَيه في السجن أنّه يعصر خمراً.

٣. رؤيا صاحبه الآخر أنّه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل منه الطير.

٤. رؤيا الملك سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف، وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات.

فالتأويل في هذه الموارد عمل تكويني وإرجاع للرؤيا إلى واقعها.

وأمّا إذا كان مورد التأويل الآية المتشابهة في مقابل الآية المحكمة، فالتأويل فيها عبارة عن إرجاع الآية إلى واقعها بالإمعان في الآية والقرائن الحافّة بها منضماً إلى ما ورد في الآيات المحكمة في الموضوع ذاته، فيرتفع التشابه وتنسلك الآية في عداد المحكمات.

وقد مرّ تفصيل ذلك في سورة آل عمران عند البحث في تقسيم الآيات إلى محكمة ومتشابهة، فالتأويل في هذا المورد، عبارة عن إرجاع الظاهر البدْوي من الآيات أو الظهور غير المستقرّ إلى الظاهر المستقرّ بالإمعان في نفس الآية والقرائن الحافّة بها.

وأمّا تفسير التأويل بحمل الظاهر المستقرّ على غير ظاهره وصرف الكلام عن ظاهره، فهو مصطلح حديث ظهر بين المتأخّرين، وحاشا لمفسّر أن يؤوّل ظهور الآية التي استقرّ ظهورها، والتفصيل في محلّه.

الآيات ٣٦ ـ ٣٩ (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ... فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا).

الآيات: السادسة والثلاثون إلى التاسعة والثلاثين

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً * وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا).

المفردات

ولا تقفُ: من قفا يقفو قَفْواً، وهو اتّباع الأثر.

مَرَحاً: فخراً وكِبْراً واستكباراً.

تخرق: من الخَرْق، بمعنى تمزيق القِشر.

طولاً: تطاولاً وارتفاعاً.

سيِّئه: معصيتُه.

مكروهاً: يكرهها ولا يريدها لأنّها من المقبّحات.

التفسير

الحكم الثاني عشر: النهي عن اتّباع غير العلم

٣٦.(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً):

تتضمّن الآية حكماً وتعليلاً، أمّا الحكم فهو قوله:(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)، وأمّا التعليل فقوله:(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً).

والتفسير للفقرة الأُولى يجب أن يكون على نحو تصلح به الفقرة الثانية تعليلاً للحكم فيها. وقبل أن نذكر بعض الآراء، نشير إلى أمر يرجع إلى الجانب الأدبيّ في الآية:

الظاهر أنّ الضميرين في قوله:(كَانَ عَنْهُ) راجعان إلى (كُلُّ)، كما أنّ قوله:(عَنْهُ) في موضع نصب (مفعول ثان) متعلّق بقوله:(مَسْئُولاً) ونائب الفاعل ضمير يرجع إلى اسم كان، وهو المكلّف المدلول عليه بالمعنى، والتقدير: مسؤولاً هو، أي المكلّف.(انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه لمحيي الدين الدرويش: ٥ / ٤٤٢) والتعبير عن أدوات المعرفة بلفظة «أُولئك» لأنّها أدوات للعقل فعوملت معاملة العقلاء.

التفسير الأوّل

ربّما يقال: الآية ناظرة إلى النهي عن القذف ورمي المحصنين والمحصنات بالأكاذيب، وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها في الهجاء ويبالغون فيه. بل ربّما يشهدون زوراً بما ليس لهم به علم، فجاءت الآية ناهية عن هذه الخصال القبيحة وأن لا يتكلّم إنسان وراء إنسان إلاّ بعد العلم، ولا يتّهم إنساناً بمساوئ الأخلاق، ولا يطعن بالأنساب ولا يشهد الزور، وهذا هو مفاد الفقرة الأُولى كما يقول:(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ).

إنّما الكلام في وجه أنّ قوله: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) علّة لهذا الحكم، إذ بظاهره لا صلة بين معنى الفقرة الأُولى وهذا التعليل، إذ يأمر باقتفاء العلم من جانب ثم يذكر: إنّ كلاًّ من أدوات المعرفة مسؤولاً عنه يوم القيامة.

نعم يظهر من السيد الطباطبائي وجه الصلة، حيث قال: فيُسأل السمع: هل كان ما سمعه معلوماً مقطوعاً به؟ ويُسأل البصر: هل كان ما رآه ظاهراً بيّناً؟ ويُسأل الفؤاد: هل كان ما فكّر به وقضى يقينياً لا شكّ فيه؟ وهي لا محالة تجيب بالحقّ، وتشهد على ما هو الواقع، فمن الواجب على الإنسان أن يحترز عن اتّباع ما ليس له به علم، فإنّ الأعضاء ووسائل العلم التي معها، ستُسأل فتشهد عليه فيما اتّبعه ممّا حصّلته ولم يكن له به علم ولا يقبل حينئذ له عذر.(الميزان في تفسير القرآن:١٣/٩٥)

أقول: إنّ ما ورد في كلام السيد الطباطبائي يوافق تفسير الآية على عمومها (أي النهي عن اتّباع ما لا علم به)، دون تفسيرها بما تقدّم، أعني: النهي عن تلك الخصال الفاسدة الشائعة بين الناس في عصور الجاهلية، وهي رمي المحصنين والمحصنات بالزّنا، والاغتياب، وشهادة الزور، إلى غير ذلك ممّا يرجع قبحه إلى المتكلّم، ففي مثله لا دَور لسمع المتكلّم وبصره. نعم، يمكن أن يكون

لفؤاده دور، حيث جزم بشيء ولم يكن جازماً به.

وبعبارة أُخرى: إنّ الحقد و العداء هو الذي يدفع الأشخاص إلى اتّهام الأبرياء، دون أن يكون لأدوات المعرفة دور فيه، فإذا كان النهي متوجّهاً إلى هؤلاء الأشخاص فلا يصحّ تعليل النهي بأنّ تلك الأدوات من السمع والبصر والفؤاد مسؤولة عنه.

التفسير الثاني

إنّ الغرض من النهي عن اقتفاء غير العلم هو البعث على تحصيل العلم في العقائد والأحكام، ومن ثمّ نهي المشركين عن المذاهب التي كانوا يعتقدونها في الإلهيات والنبوّات بسبب تقليد أسلافهم، لأنّه تعالى نسبهم في تلك العقائد إلى اتّباع الهوى فقال:(إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَان إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ)(النجم:٢٣.)، وقال في إنكارهم البعث: (بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الأَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ)(النمل:٦٦.)، وحكى عنهم أنّهم قالوا:(إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)(الجاثية:٣٢.)، وقال: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ)(القصص:٥٠.) وقال:(وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ)(النحل:١١٦.) الآية، وقال: (هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْم فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ)(الأنعام:١٤٨.).(تفسير الرازي:٢٠/٢٠٧.)

هذا ما نقله الرازي، إنّما الكلام في صلة الفقرة الثانية بالفقرة الأُولى، ويمكن أن يقال: إنّ الفقرة الأُولى بمعنى: لا تقل سمعتُ ولم تسمع، ولا رأيتُ ولم ترَ، ولا علمتُ ولم تعلم، كما هو المرويّ عن ابن عباس، لأنّ كلاًّ من السمع والبصر والفؤاد مسؤول عنه.(مجمع البيان:٦/٢٨٨.)

وهذا هو الظاهر ممّا روي عن الإمام علي بن الحسين(عليه السلام)، قال: «ليس لك أن تتكلّم بما شئت ؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)، ولأنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)قال: رحم الله عبداً قال خيراً فغَنِم، أو صمتَ فسَلِم، وليس لك أن تسمع ما شئت لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً)».(علل الشرائع:٦٠٥، باب (٣٨٥)، برقم ٨٠ ؛ تفسير نور الثقلين: ٣/١٦٥.)

كلام للرازي في كون النهي كلّياً

ثمّ إنّ للرازي كلاماً في المقام، وحاصله: إنّ الحكم في الدين بمجرّد الظنّ جائز بإجماع الأُمّة في صور كثيرة:

١. العمل بالفتوى، عمل بالظنّ، وهو جائز.

٢. العمل بالشهادة، عمل بالظن، وهو جائز.

٣. الاجتهاد في طلب القبلة لا يفيد إلاّ الظن، وهو جائز.

٤. قيم المتلفات وأُروش الجنايات لا سبيل إليها إلاّ الظن.

٥. كون هذه الذبيحة ذبيحة للمسلم، مظنون لا معلوم، وبناء الحكم عليه جائز.

٦. الحكم على الشخص المعيّن بكونه مؤمناً، مظنون، ثم نبني على هذا الظنّ أحكاماً كثيرة، مثل حصول التوارث والدفن في مقابر المسلمين.

٧. قال(صلى الله عليه وآله وسلم):«نحن نحكم بالظاهر، والله يتولّى السرائر».

ثمّ إنّه أجاب عن كلّ واحد منها على الطريقة التي يرضاها(تفسير الرازي:٢٠/٢٠٨.) ولكنّ الحقّ في الجواب، هو: أنّ المراد من قوله: (مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)الأُمور الواهية التي هي أشبه بالخَرْص والتخمين، وإظهار النظر من غير دليل مقنع، كما كان كذلك حال المشركين، حيث كانوا يسمّون الملائكة تسمية الأُنثى والله تعالى يردّ عليهم بقوله:(وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْم إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ

(الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً)(النجم:٢٨.)، مع أنّه ليس لهم أيّ دليل على أنّهم إناث سوى توهُّم كونهم بشكل الأُنثى.

ويشهد لِما قلنا من أنّ المراد من قوله:(مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)، هو الظنّ المعتمد على الخَرص والتخمين، قوله سبحانه:(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ)(الأنعام:١١٦.)،ترى أنّه سبحانه أتى بعد قوله: (إلاّ الظنّ) بقوله: (إِلاَّ يَخْرُصُونَ)تفسيراً للظنّ.

وعلى هذا فالمراد من النهي هو الاعتماد على الخيالات والأوهام، فخرجت الأُمور التالية:

١. الاعتماد على الاطمئنان الذي هو فرع علم عند العُرف، نظير قول المقوّم لقيم المتلفات وأُروش الجنايات، أو الحكم بكون الذبيحة ذبيحة المسلم إذا اشتراها من المسلم أو من سوق المسلمين، إلى غير ذلك من الموارد التي يعتمد فيها الإنسان على الظنّ، وهو نوع اطمئنان عُرفاً.

٢. ما قام الدليل الشرعي القطعيّ على العمل به، كالعمل بالفتوى، وقول صاحب البيت في جهة القبلة، إلى غير ذلك.

٣٧. (وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً):

الكبْر والغرور من الخصال المذمومة، وقد ورد النهي عنهما في غير واحدة من الآيات والروايات، وهو مرفوض في عامّة الحالات من غير فرق بين حالة التكلّم والجلوس والمشي وغيره، وقد أشار سبحانه في هذه الآية إلى أحد مظاهره، وهو أن يمشي الإنسان بطراً يدقّ الأرض بقدميه ليُري بذلك قدرته وقوّته، ويرفع رأسه وعنقه ليُري بذلك تفوّقه على غيره من الناس، والله سبحانه ينهى عن كلا الأمرين، ويقول:(وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا): أي بَطِراً(إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ)مهما دقّقتَ بقدميك (وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً) وإن كنت طويلاً. ولذلك نرى أنّ الإمام عليّاً(عليه السلام) يصف مشيَ المتقين في خطبته بقوله: «وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ».(نهج البلاغة: الخطبة ٩٣.)

هذا ومن نصائح لقمان لابنه، قوله:(وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَال فَخُور).(لقمان:١٨.)

ثمّ إنّ السبب الوحيد للفرح والتكبّر، ما جاء في كلام الإمام الصادق(عليه السلام): «ما مِنْ رجل تكبّر أو تجبّر إلاّ لذلّة يجدها في نفسه».(الكافي:٢/٣١٢.)

وبما أنّ المتكبّر يجد في صميم ذاته حقارة، فيعود لعلاجها عن طريق غير مشروع، وهو أن يسلك سلوك المعجَب بنفسه، والمتعالي على غيره، وبذلك يصدّق ما يؤذيه في ذاته من إحساس بالحقارة والذلّة، وإلاّ فلو لم يشعر الإنسان بالنقيصة في ذاته، لعاشر الناس كواحد منهم، ولذلك كان التواضع شعار الأنبياء والأولياء. وسيوافيك شيء من آثار الكبر عند تفسير سورة لقمان، التي حكى فيها سبحانه نصائحه لابنه.

٣٨. (كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا):

قوله تعالى:(كُلُّ ذَلِكَ) إشارة إلى جميع ما تقدّم من المنهيّات، فمعنى الآية (كُلُّ ذَلِكَ): أي كلّ ما مرّ عليك من المنهيّات (كَانَ سَيِّئُهُ): أي معصيته (عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا): أي مكروهاً عند ربّك غيرَ محبوب، يكرهها ولا يُريدها ولا يرضاها.

٣٩. (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا):

قوله:(ذَلِكَ) إشارة إلى ما جاء في قوله سبحانه: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ) إلى قوله: (وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً) من الأحكام التي أوحى الله بها إلى نبيّنا (صلى الله عليه وآله وسلم) كما يقول:(مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ)فالتشريع حكيم مبنيّ على المصالح والمفاسد، لا يزعزعه اختلاف الأزمنة والأمكنة.

ثمّ إنّه سبحانه ختم كلامه بما بدأ به من قوله:(لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً)(الإسراء:٢٢.) فقال هنا: (وَلاَ تَجْعَلْ

مَعَ اللّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا) لإتيانك هذا المنكر(الشرك)، والملوم: الذي يُنكر عليه ما فعله (مَدْحُورًا): أي مُبعَداً من رحمته تعالى. وإنّما كرّر ذلك إيعازاً بشأن التوحيد وإلماعاً إلى تفخيمه، لأنّه الأساس لما أوحى به سبحانه من الحكمة التي تُعدّ الأوامر والنواهي المتقدّمة بعضاً منها.

الآيات ٤٠ ـ ٤٤ (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ ..كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا).

الآيات: الأربعون إلى الرابعة والأربعين

(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا * قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا * تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا).

المفردات

صرّفنا: كرّرنا.

نفوراً: بُعداً عن الحق.

ذي العرش: مالك العرش.

لابتغوا: ابتغاء الشيء: طلبه.

سبيلاً: السبيل: الطريق.

تفقهون: الفقه: الفهم.

التفسير

٤٠.(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا):

لمّا تقدّم في الآية السابقة النهي عن اتّخاذ إلٰه غير الله سبحانه، فرّع عليه نسبة البنات إلى الله واتّخاذ الملائكة آلهة لغاية عبادتهم.

توضيح ذلك: أنّ فريقاً من العرب خُيّل إليهم ـ من دون برهان ودليل ـ أمران:

١. أنّ الملائكة إناث.

٢. أنّهم بنات الله سبحانه.

وفرّعوا على الثاني عبادتهم واتّخاذهم آلهة، وأنّ الله شاء عبادتهم.

وقد حكى الله سبحانه هذه الأُمور الثلاثة عنهم.

أمّا الأمر الأوّل، فقال فيه سبحانه:(وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا).(الزخرف:١٩.)

وأمّا الأمر الثاني، فقال فيه:(وَيَجْعَلُونَ للهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ)(النحل:٥٧، ولاحظ: الزخرف:١٦.).

وأمّا الأمر الثالث، فيدلّ عليه قوله سبحانه:(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ).(الزخرف:٢٠.)

ثمّ إنّه سبحانه يردّ على كلّ هذه الأُمور.

أمّا الأوّل، أي أنّه سبحانه خلق الملائكة إناثاً فردّ عليه بقوله:(أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)(الزخرف:١٩.)، ويقول في موضع آخر:(إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنْثَى * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)(النجم:٢٧ـ٢٨.).

وأراد سبحانه من الظنّ: الخَرص والتخمين المبني على التوهّم والتخيّل، ولذلك قال:(مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ)(

الزخرف:٢٠).

وأمّا الأمر الثاني ـ أعني: كون الملائكة بنات لله ـ وهو من فروع وجود الولد لله سبحانه من غير فرق بين كونه من البنين أو البنات، فهو من أتفه العقائد وأخرفها، ومَن يتفوّه به فهو لم يتصوّر معنى الإله، وواجب الوجود الذي لا يتطرّق إليه العدم، فكيف يكون معدوماً ثم يولد؟

ولمّا كان اتّخاذ الولد على وجه الإطلاق عقيدة تضادّ التوحيد الذي جاء به عامّة الأنبياء، فإنّه سبحانه يهدّد كلّ مَن يذهب إلى تلك العقيدة ويقول:(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا).(مريم: ٨٨ ـ ٩٥).

وفي الآية برهان فلسفي على إبطال الولد لله، وهو أنّ ما سوى الله عبداً لله، فكيف ينقلب ما هو عبد إلى كونه إلهاً واجب الوجود؟ وسيوافيك توضيح الآيات عند تفسيرنا لسورة مريم.

وإن أرادوا من اتّخاذ الولد، الولد التشريفي، فهو أيضاً باطل، لأنّ الغاية من اتّخاذ الولد ـ ولو تشريفاً وتبنّياً ـ هي الحاجة إليه في أثناء حياته أو أُخرياتها، والله هو الغنيّ المطلق. وسيوافيك توضيح ذلك في تفسير الآية الثانية من سورة الفرقان.

ثمّ إنّه سبحانه يردّ على اتّخاذ البنات بوجه آخر ويقول:(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ إِنَاثًا)(الإسراء:٤٠).

توضيحه: أنّه سبحانه يقول: كيف تقولون إنّه آثركم بكرامة لم يتكرّم بها على نفسه؟ وخصّكم بالبنين الذين هم أَولى مكانة عندكم، واختار لنفسه البنات اللاّتي ليس لهنّ قدر وقيمة عندكم؟ بشهادة أنّ أحدكم يحزن ويمتلئ غيظاً إذا وُلدت له بنت، كما حكى سبحانه عنهم ذلك بقوله: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ)(النحل:٥٨)؟!

فعلى زعمكم اختار لنفسه الأدنى وخصّكم بالأعلى، وذلك قول عظيمٌ إثمه، شديد جزاؤه.

لا شكّ في أنّ الاحتجاج في المقام احتجاج جدليّ والله سبحانه يحاججهم حسب عقيدتهم، وإلاّ ففي منطق القرآن أنّ الأولاد كلّهم من عطاياه ومواهبه على الوالدين، فلا مزيّة لجنس على جنس وصنف على صنف آخر.

وأمّا الأمر الثالث، أي عبادتهم الملائكة فقد كانت نابعة من الاعتقاد بكونهم بنات الله فصاروا أحقّ بالعبادة، والله سبحانه يخاطب عامّة الناس بقوله:(لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ) وإنْ فعلتَ ذلك(فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا).

٤١. (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا):

التصرّف هو التغيير والتحويل، وبما أنّه سبحانه يستخدم البراهين المختلفة والمتنوّعة لحصر العبادة بالله سبحانه ونفي الألوهية عن غيره، يقول في المقام:(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ): أي سلكنا طرقاً مختلفة وأتينا بأساليب متنوّعة لتذكير الناس وهدايتهم حتى ضربنا لهم الأمثال(لِيَذَّكَّرُوا)ما هو مرتكز في فطرتهم، فإنّه سبحانه خلق الناس على فطرة التوحيد كما قال: (فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)(الروم:٣٠) ولكن ـ للأسف ـ ما كانوا يزدادون بتصريف القرآن إلاّ صدّاً وابتعاداً عن الحقّ، كما يقول: (وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا).

وربّما يقال: إذا كان مسلك التكرير والتصريف سبباً للبُعد من الواقع، فلماذا يسلك القرآن هذا المسلك؟

والجواب بوجهين:

١. إنّ القرآن لم ينزل لخصوص هؤلاء المشركين الذين إذا ذُكّروا بآيات الله أعرضوا عنها وهربوا منها ونفروا كنفور الدوابّ، وإنّما نزل إلى الناس كافّة، وهم ـ بحسب طبيعتهم ـ مختلفون، فربّما لا يكون التذكير الأوّل نافعاً، ولكن إذا تكرّر عليهم انتبهوا،

ولذلك يقول:(فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ).(الذاريات:٥٥.)

٢. إنّ الغاية من التصريف في القرآن، وإظهار الدليل تلو الدليل بأوجه مختلفة حتى يتبيّن الحقّ، هي لإتمام الحجّة عليهم، ولقطع أعذارهم التي يتشبّثون بها لتبرير عدم استجابتهم لدعوة الحقّ.

٤٢ و ٤٣. (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً * سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا):

لمّا تقدّم النهي عن اتّخاذ إله غير الله في قوله سبحانه:(لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ) جاء البيان القرآني لإقامة برهان على إبطال وجود آلهة غير الله سبحانه في صحيفة الوجود.

كان الخطاب في الآيات السابقة للمشركين كما قال: (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ) وانتقل البيان في هذه الآية إلى خطاب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، حيث يأمره بتفنيد مزاعم المشركين، كما يشير إليه قوله:(قُلْ) حتى يُفهمهم ما تتضمّن الآية من البرهان الدقيق على بطلان وجود أي آلهة تتولّى أمر التدبير في السماء والأرض.

قلنا: إنّ الآية ناظرة إلى إبطال توهّم الشرك في التدبير، لِما مرّ كراراً من اتّفاق المشركين على التوحيد في الخالقية وكان اختلافهم مع الموحّدين في أمر التدبير، فالمدبِّر عند الموحّدين هو الله سبحانه فقط، وأمّا عند المشركين فهناك أكثر من مدبّر واحد، كلٌّ يتكفّل بتدبير جزء من العالم، وبذلك يستحقّ كلٌّ أن يوصف بالإله.

إذا عرفت ذلك، فإنّ الله سبحانه يستدلّ على بطلان تعدّد الآلهة بالبرهان التالي:

لو كان لله في صحيفة الوجود شركاء في أمر التدبير كما يقول:(لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ) فطبع الحال يقتضي أن يكون لذي العرش (أي الله سبحانه) مكاناً خاصّاً لتدبيره، ولهؤلاء الآلهة مواضع أُخرى، لكن لا يبقى الحال على هذا المنوال، بل مقتضى حبّ المُلك والسلطنة يبعث هؤلاء الآلهة إلى أن ينازعوا الله تعالى في تدبيره وسلطنته حتى ينتزعوا أمر التدبير من يده، ويتفرّدوا أو يتفرّد واحد منهم بالملك والسلطنة، ويتعيّن بالعزّ والهيمنة، ونزول الإله الأكبر عن مقامه.

والذي يدلّ على هذا التفسير أمران:

١. أنّه سبحانه قال:(إِذًا لاَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ) الظاهر في صاحب القدرة والتدبير، ولم يقل: إلى الله أو إلى الرحمن، لعدم إشعارهما بالمنازعة.

٢. قوله تعالى:(سَبِيلاً) والمراد سبيل السعي إلى الغلبة والقهر.

وبما أنّ الثاني باطل، فإنّ الله سبحانه مستقرّ على عرش التدبير لم ينازعه أحد في ملكه وتدبيره، فدلّ ذلك على توحّده في الأُلوهية وعدم المشاركة له. وسيوافيك في الآية التالية برهان آخر على عدم وجود غيره.

وبذلك يُعلم أنّ ما تضمّنته الآية برهان خاص لا صلة له بقوله سبحانه:(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاّ اللهُ لَفَسَدَتَا)(الأنبياء:٢٢.) فإنّ هذه الآية تعتمد على أنّ تعدّد الآلهة موجب للفساد، بخلاف آيتنا هذه فإنّها لا تعتمد على وجود الفساد في صحيفة الكون، بل تعتمد على المنازعة مع ذي العرش والسعي في الوصول إليه وأخذ القدرة من يده، فلا صلة لها بلزوم الفساد في صحيفة الكون، بل تسوق برهاناً آخر.

كما أنّ قوله سبحانه:(وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَه إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَه بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض)(المؤمنون:٩١.) برهان آخر ستقف عليه في محلّه.

وبما تقدّم من البيان يظهر أنّ ما ذكره الرازي في تفسير الآية لا صلة له بها، حيث قال: لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى لغلب بعضهم بعضاً، وحاصله يرجع إلى دليل التمانع.(تفسير الرازي:٢٠/٢١٧.)

يلاحظ عليه: أنّه لو كان هذا هو المراد، لأصبح قوله:(إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً) أمراً زائداً؛ بل يجب أن يكتفى بقوله: (إِذًا لاَبْتَغَوْا) بينهم.

ويظهر أيضاً أنّ ما ذكره الرازي وجهاً ثانياً للآية غير منطبق على ظاهرها، يقول: إنّ الكفّار كانوا يقولون (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)، فقال الله لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنّها تقرّبكم إلى الله زلفى لطلبت لأنفسها أيضاً قربة إلى الله تعالى وسبيلاً إليه، ولطلبت لأنفسها المراتب العالية، والدرجات الشريفة من الأحوال الرفيعة، فلمّا لم تقدر أن تتّخذ لأنفسها سبيلاً إلى الله، فكيف يُعقل أن تقرّبكم إلى الله؟(تفسير الرازي:٢٠/٢١٧.)

يلاحظ عليه: بأن لو كان هذا هو المراد، لكان أن يقول:إلى الرحمن سبيلاً.

أضف إلى ذلك: أنّه لو فرضنا أنّه مفاد الآية فلم يُقم على بطلانه شيء، إلاّ أن يقال إذا كان هؤلاء الآلهة طالبين التقرّب إلى الله سبحانه فأَولى أن نترك عبادتهم ويعبد الله وحده.

ولعلّه إلى هذا يشير قوله سبحانه فيما يأتي في هذه السورة:(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)(الإسراء:٥٧.).

وعلى كلّ تقدير، فالله سبحانه ينزّه نفسه عن هذه المقولات والمجادلات، وأنّه أعلى منزلة من أن يكون له شركاء كما يقول:(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا).

٤٤.(تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْء إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا):

تفسير الآية رهن بيان أُمور ثلاثة:

١. الفرق بين مفهومَي التسبيح، والتحميد.

٢. وجه صلة الآية بما قبلها.

٣. كيفية تسبيح ما في الكون لله سبحانه.

أمّا الأوّل، فالتسبيح بمعنى التنزيه وهو تنزيهه سبحانه عن الشِّرك وعن كلّ ما لا يليق به من الجهل والظلم والجسم والجهة، وغير ذلك، وهذا ما يعبّر عنه بالصفات السلبية.

وأمّا التحميد، فهو وصفه سبحانه بكلّ وصف يُعدّ كمالاً للموجود بما هو موجود كالعلم والقدرة وغير ذلك. وقد تضمنت الآية كلا الأمرين، فقد جاء في ذيلها: (وَإِنْ مِنْ شَيْء إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ): أي مع حمده، فالتسبيح مقرون بالتحميد.

هذا كلّه حول الأمر الأوّل.

وأمّا الأمر الثاني، أعني صلة الآية بما قبلها، فيمكن أن يقال: إنّ الآية السابقة برهان على نفي الشريك لله سبحانه بما حاصله بأنّه لو كان هناك آلهة تشاركه في أمر التدبير لكان مُلكه في معرض المنازعة والمغالبة، فجاءت هذه الآية بصورة القياس الاستثنائي إكمالاً للبرهان، موضّحه بأنّ التالي باطل لأنّ المُلك كلّه(من السماوات والأرض وما فيهن) يسبّحه، وينزّهه عن الشَّريك، ويشهد على أن لا شريك له في الملك، كيف؟ والله سبحانه هو المبدأ للملك كلّه، وإليه منتهاه، والكلّ قائمون به، فكيف يمكن أن يكونوا شركاء له في أمر التدبير؟!

وأمّا الأمر الثالث، أي كيفية تسبيح ما في الكون لله تعالى وتنزيهه عن الشِّرك، فهناك وجوه من البيان:

١. إنّ ما في الكون كلّه ممكن، بمعنى أنّه فاقد في ذاته كلّ كمال وجمال، فما في الكون من مظاهر الجمال والجلال فهو من الله

سبحانه، فإذا كان كذلك فكيف يمكن أن يكون شريكاً مع الله في أمر التدبير تدبيراً نابعاً عن إرادة الشريك مستقلاً عن إرادة الله سبحانه؟! إذ معنى ذلك انقلاب الممكن إلى الواجب.

وإن شئت قلت: إنّ مثل العالم الإمكاني إلى الواجب، كمثل المعنى الحرفي إلى الاسمي، فهو ابتداءً وبقاءً رهن التعلّق بالمعنى الاسمي، فكيف يمكن أن يستقلّ بالتدبير مع أنّ التعلّق والتدلّي جوهر ذاته وواقع وجوده؟!

أقول: هذا البيان صحيح في نفسه، وأمّا كونه تفسيراً للتسبيح في الآية، فبعيد جدّاً، لأنّ معنى ذلك أنّ الإنسان بالتأمّل في واقع الكون يسبّح الله تعالى عن الشريك، لا أنّ الكون بنفسه يسبّح الله تعالى وينزّهه كما هو مفهوم الآية.

٢. إنّ مطالعة كلّ صفحة من صفحات هذا الكتاب التكويني العظيم تقودنا إلى نظام موحّد، وكأنّ أوراق الكتاب التكويني ـ على غرار الكتاب التدويني ـ شُدّت بعضها إلى بعض بيد واحدة، وأُخرجت في صورة واحدة.

إنّ القوانين والسنن الحاكمة على الموجودات الطبيعية كلّية وشاملة، بحيث لو أُتيح لأحد أن يكتشف بالتجربة سنّة في نقطة خاصّة من نقاط الكون، أمكنه أن يكتشف قانوناً كلّياً وشاملاً، ويهتدي إلى سنّة كونية عموميّة، وهذا هو أفضل دليل على وحدة النظام الحاكم على العالم الطبيعي.

إنّ وحدة النظام الكوني، «وعموميّة» السُّنن والقوانين الطبيعية تقودنا إلى موضوعين:

١. أنّه ليس للعالَم إلاّ خالق واحد.

٢. أنّه ليس للعالَم إلاّ مدبِّر واحد.

وبعبارة أُخرى: إنّ وحدة النظام والسُّنن الكونية لدليل واضح على صحّة ما جاء في القرآن الكريم:

(أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)(الأعراف:٥٤).

إنّ جملة: (لَهُ الْخَلْقُ) إشارة إلى التوحيد في الخالقية.

وجملة: (وَالأَمْرُ) إشارة إلى التوحيد في التدبير، الذي هو نوع من الحاكميّة على عالم الوجود.

وهنا يُطرح سؤال، وهو: كيف تدلّ «وحدة القوانين» وعموميّتها على «وحدة المدبِّر»؟

والجواب: أنّه عندما يحكم على الكون نوعان من الرأي والحاكمية يصبح من الطبيعي والحتمي عدم وجود أي أثر لهذا النظام الواحد. إنّ وحدة النظام لا تتحقّق ولا تكون إلاّ إذا كان الكون بأجمعه تحت نظر حاكم ومدبِّر واحد، ولو خضع الكون لإدارة حاكمَين ومنظّمَين ومدبِّرَين لَمَا كان للنظام الموحّد أيّ أثر، لأنّ تعدّد المدبِّر والمنظِّم ـ بحكم اختلافهما في الذات أو بعض الجهات منهما ـ يستلزم بالضرورة الاختلاف في التدبير والإرادة، وتعدّد التدبير يؤدّي ـ بالضرورة ـ إلى فناء النظام الموحّد، وغيابه.

وبعبارة ثالثة: إنّ المدبِّرَين إنْ كانا متساويين من كلّ الجهات لم تصدق هناك اثنينية قهراً، وإنْ كانا مختلفين في جهة أو جهات، فمن المعلوم أنّ اختلافاً ـ كهذا ـ يؤثّر لا محالة في تدبير المدبِّر.

***

ويمكن بيان هذا البرهان بصورتين:

١. أن نلتفت ـ في بيان البرهان ـ إلى الجوانب الإيجابية فيه ونقول: إنّ ترابط أجزاء الكون، وتأثيرها في بعضها يدلّ على خضوعها لحاكميّة حاكم واحد على جميع العالم يقودها تحت نظام واحد وخطّة واحدة.

وقد تمّ التأكيد في أحاديث أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) على هذه النقطة أحياناً، قال الإمام جعفر الصادق(عليه السلام):

«فلما رأينا الخلق منتظماً، والفُلك جارياً، واختلاف الليل والنهار، والشمس والقمر، دلّ صحّة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أنّ

المدبّر واحد».(التوحيد للصدوق:٢٣٨، باب الردّ على الثنويّة والزنادقة، برقم ١.)

٢. وربّما أُشير إلى الجوانب السلبية في هذا البرهان، وأنّ تعدّد التدبير يوجب فساد النظام الكوني.

وقد استند القرآن الكريم إلى هذا الجانب، إذ قال:(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)(الأنبياء:٢٢.).

وربّما ورد في بعض نصوص أهل بيت الرسالة الإشارة إلى كلا الجانبين في هذا البرهان، إذ يقول الإمام جعفر الصادق(عليه السلام) في جواب هشام بن الحكم، الذي سأل عن دليل وحدانيّة الربّ:

«اتّصال التدبير وتمام الصنع، كما قال الله عزّ وجلّ:(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا).(انظر: التوحيد للصدوق:٢٤٤، باب الردّ على الثنويّة والزنادقة، برقم ٢.)

أقول: إنّ هذا البيان في حدّ نفسه متين جدّاً ويصلح لأن يكون تفسيراً لآيتنا لولا قوله:(وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)، فإنّ ظاهر هذه الفقرة أنّ هذا النوع من التسبيح أمر لا يفقهه ولا يفهمه البشر على وجه الإطلاق، وتصور أنّه خطاب للمشركين وأنّهم لا يفقهون دون غيرهم، غير صحيح لتوسّط الخطاب الموجّه إلى النبيّ، أعني قوله:(قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ) بين الخطاب للمشركين في قوله: (أَفَأَصْفَاكُمْ)(الإسراء:٤٠.) وهذه الآية، وعلى هذا فهذا النوع من التسبيح ممّا لا يقف عليه الإنسان بأدوات المعرفة، لا بأدوات الحسّ ولا بأدوات التفكير، وعلى هذا فالوحي يكشف عن الأدوات من سريان الشعور والعلم إلى كافّة الموجودات حسب حظوظهم من الوجود، فكلّما كان الوجود أقوى درجة يكون الشعور كذلك، وكلّ ما تنزّل تنزّل معه الشعور.

وقد أُشير إلى هذا النوع من التسبيح في غير واحدة من الآيات، نظير:

١. قوله تعالى:(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً) .(الأحزاب:٧٢.)

فإنّ ظاهر الآية أنّه سبحانه عرض على الكائنات الأمانة عرضاً حقيقياً، فأبين إباءً واقعياً وأشفقن إشفاقاً حقيقياً، وحَمْل الآية على القضية الشرطية، بمعنى أنّه لو كان لها عقل وشعور لأبَين الحمل، تأويل بلا دليل.

٢. قوله تعالى:(وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ).(البقرة:٧٤.)

فإذا كانت خشية الله سبباً لهبوط الحجارة، فهو أكبر دليل على وجود الخشية فيها، وهي السبب لهبوطها وسقوطها.

هذا وسيوافيك تفصيل ذلك في تفسير سورة الحديد، فانتظر.

الآ يات ٤٥ ـ ٤٨ (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ ... فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً).

الآيات: الخامسة والأربعون إلى الثامنة والأربعين

(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً).

المفردات

حجاباً: الحجاب: الشيء المانع من رؤية ما وراءه أو المانع من الوصول إلى الشيء.

مستوراً: أي مستوراً عن الحواسّ. وربما يفسّر بالساتر، كما يفسَّر الدافق بالمدفوق في قوله تعالى:(مَاء دَافِقٍ).(الطارق: ٦ .)

أكنّة: أغطية، جمع كِنان .

وقراً: الوقر: الصّمَم والثقل في الأذان.

نفوراً: يمكن أن يكون جمع نافر، كسجود جمع ساجد، ويمكن أن يكون مصدراً بمعنى نافراً، ومعناه الانزعاج.

نجوى: مصدر يوصف به الواحد والاثنان والجمع والمذكر والمؤنث، أي متناجون. ويُطلق لفظ «نجوى» على الإسرار بالحديث.

مسحوراً: قد سُحر فاختلط عليه أمره. وأمّا تفسيره بكونه ساحراً فهو بعيد عن مساق الآية.

التفسير

قد سبق في صدر السورة قوله تعالى:(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) (الإسراء:٩)، فالآية تتضمّن أنّ المؤمنين هم الذين يستهدون بالقرآن وهو يهديهم للتي هي أقوم دون غيرهم من المشركين، فلعلّ هذه المجموعة من الآيات معطوفة على تلك الآية لتبيّن وجه عدم اهتداء المشركين بالقرآن الكريم.

وتُعدّ هذه المجموعة كسبيكة واحدة، إذ تستهدف أمراً واحداً ـ خلافاً لأكثر المفسّرين ـ وهو وجه حرمانهم من هداية القرآن الكريم.

٤٥. (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا):

فسّرت هذه الآية على وجهين:

الأوّل: ما عليه كثير من المفسّرين، وهو أنّ أبا سفيان والنضر بن الحارث وأبا جهل وأُمّ جميل (امرأة أبي لهب)، حجب الله رسولَه عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يأتونه ويمرّون به ولا يرَونه. (مجمع البيان:٦/٢٩٤، ولاحظ: تفسير الرازي:٢٠/٢٢٠.)

ولهذا ذهبوا إلى أنّ قوله: (مَسْتُورًا) بمعنى ساتراً، فيكون معنى الآية: (وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ) يا محمد فلا تخَفْ فقد (جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ)ـ يعني المشركين ـ (حِجَابًا مَسْتُورًا)، أي حجاباً ساتراً لا يرَونك، وربّما لا يسمعون صوت قراءتك ومن ثمّ لا يؤذونك.

وهذا الوجه يستلزم تفسير المستور بالساتر، وهو خلاف الظاهر، مضافاً إلى أنّه يفقد صلته بالآية التالية التي تحكي عن حصول الوقر في أسماع المشركين.

الثاني: أنّ حالة هؤلاء بسبب تماديهم في الغيّ والعناد، كحالة المُسدَل بينه وبين الحقّ حجاب، فلا يتمكّن من رؤيته. وهذا الوجه فصّله السيد الطباطبائي، وحاصله: إنّ الله سبحانه جعل بين النبيّ وقراءته القرآن وبين هؤلاء المنكرين للآخرة حجاباً مستوراً عن الحواسّ على خلاف الحجب المتداولة بين الناس، فهو حجاب معنويّ بينهما، يحجبه عنهم فلا يستطيعون أن يفقهوا حقيقة ما عنده من معارف القرآن ويؤمنوا به، ولا أن يذعنوا بأنّه رسول من الله جاءهم بالحقّ، ولذلك لمّا سمعوا قرآنه تولّوا نافرين، والتعبير عن المشركين بمنكري المعاد لأنّ إنكاره يستلزم إنكار الرسالة وتوحيد العبادة والمعارف كلّها.

وأمّا ما هو هذا الحجاب الذي يصدّهم عن الاهتداء بهدي القرآن، فهو ما تذكره الآية التالية.

ما هو الحجاب الذي يصدّهم عن الاهتداء ؟

٤٦. (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا):

كرّر سبحانه الفعل أعني: (جَعَلْنَا)، فقال في الآية السابقة:(جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا) وقال في هذه الآية: (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ)، والفقرتان تدلاّن على بيان ما هو السبب لحرمانهم من الاهتداء.

توضيح ذلك: تضمّنت الآية الأُولى بيان السبب، وهو وجود الحجاب، وهذه الآية تفسّر واقع الحجاب (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً): أي

أغطية (أَنْ يَفْقَهُوهُ): أي أن يفهموا القرآن، ويدركوا دلالات ما فيه من حكم وأحكام، كما(وَ) جعل:(فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا): أي صَمَماً، فإذا كانت قلوبهم مغطّاة، وآذانهم فيها صمم، فمن الطبيعي أن يكونوا محرومين من سماعه أوّلاً، ومن فهمه ثانياً، ومن ثمّ لا ينتفعون بالقرآن وما فيه من البيّنات الهادية إلى الحقّ.

ولأجل انغمارهم في الشرك، فإنّهم إذا سمعوا رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «لا إله إلاّ الله» نفروا مستدبرين، مُعرضين عنه كما يقول:(وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا).

أخرج البخاري في تاريخه، عن أبي جعفر محمد بن علي (عليه السلام)أنّه قال: لِمَ كتمتم(بسم الله الرحمن الرحيم) فنعمَ الاسم والله كتموا! فإنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) كان إذا دخل منزله، اجتمعت عليه قريش، فيجهر بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» ويرفع صوته بها، فتولّي قريش فراراً، فأنزل الله (وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا).(تفسير الدر المنثور:٥/٢٩٨.)

أقول: يُظهر هذا الخبر المروي عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام)(المتوفّى ١١٤هـ) أنّ المنع من الجهر بالبسملة مسألة قديمة، وهي التي ثارت بسببها الفتنة في بغداد عام (٤٤٧هـ) بين الحنابلة والشافعية، فقد ذكر ابن الأثير أنّ مقدّم الحنابلة أبا علي بن الفرّاء، وابن التميمي، وتبعهم من العامّة الجمّ الغفير، أنكروا الجهر ببسم الله الرّحمن الرّحيم. ثم قال: وأتى الحنابلة إلى مسجد باب الشعير، فنهَوا إمامه عن الجهر بالبسملة، فأخرج مصحفاً، وقال: أزيلوها من المصحف حتى لا أتلوها!!(الكامل في التاريخ:٩/٦١٤.)

٤٧. (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا):

الآيتان المتقدّمتان توهمان أنّه سبحانه جعل على قلوبهم ستراً حسّيّاً، وفي آذانهم صمماً، والمراد غير هذا، فجاء البيان القرآني هنا لتبيين ما هو المراد منهما وقال:(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ)المراد من الموصول، هو القلوب، والضمير المجرور يرجع إليه، والمعنى: والله سبحانه أعرف بقلوبهم التي يستمعون بها (إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ): أي حين يصغون إلى سماع قراءتك إنّما يستمعون بقلوب مقفلة، ونفوس خبيثة، فلا يهتدون، ثمّ هم حينما يستمعون كانوا يتسارّون فيما بينهم (وَإِذْ هُمْ نَجْوَى): أي متناجون متسارّون، فيقول بعضهم: هو ساحر، وبعضهم: هو كاهن، وبعضهم: هو شاعر، ثم استقرّ نظرهم على أنّه مسحور، كما يقول:(إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورًا): أي رجلاً قد سُحر واختلط عليه أمره.

٤٨. (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً):

الخطاب للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وهو نوع تطييب لنفسه:(انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ): أي انظر كيف وصفوك بما أنت في منأى عنه. والفقرة دليل على أنّ ضرب المثل في القرآن الكريم، بمعنى وصف الموضوع بشيء، كوصفه(صلى الله عليه وآله وسلم) بكونه مسحوراً (فَضَلُّوا)بهذا القول عن الطريق (فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ) لا يجدون إلى تكذيبك (سَبِيلاً): أي طريقاً ودليلاً وسبباً، وقد وصفوك بوصف تشهد حياتك عبر سنين على نزاهتك عنه.

***

بقي هنا شيء وهو أنّه إذا كان الله سبحانه هو الذي جعل بين النبيّ والمشركين حجاباً مستوراً، وجعل في قلوبهم أكنّة وفي آذانهم وقراً، فما ذنب هؤلاء المشركين؟ لأنّ هذه الأُمور تصدّ كلّ إنسان عن الاهتداء بهدي القرآن، سواء أكان مؤمناً أم مشركاً، فللمشركين أن يحتجّوا يوم القيامة بأنّ فعله سبحانه صار سبباً لشركهم وعدم هدايتهم، ولولاه لكانوا من المهتدين.

والجواب: إنّ لله سبحانه هدايتين: هداية عامّة تشمل الناس كلّهم حتى الفراعنة والجبابرة والمترفين، وهي تتحقّق بإمكان الاستنارة بنور العقل، والاهتداء بدعوة الفطرة، والإجابة لدعوة الأنبياء والعلماء، والناس أمام هذه الهداية العامّة على صنفين:

فمنهم مَن يجعل نفسه في مهبّ هذه الموهبة السماوية، وعندئذ تشمله الهداية الثانية الخاصّة التي توصله إلى ما هو المقصود والغاية

القصوى، يقول سبحانه:(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)(محمد:١٧)، فقوله:(اهْتَدَوْا)إشارة إلى مَن استنار بالهداية الأُولى العامّة، كما أنّ قوله:(زَادَهُمْ هُدًى)إشارة إلى الهداية الخاصّة التي توصل العبد إلى ما هو المطلوب.

ومنهم مَن يعرض عن الاهتداء بالهداية الأُولى، بل يعاند روّادها ويتّهم أنبياء الله بأنواع التُّهم، فيشتدّ عناده للرسول يوماً فيوماً، ويستمع إلى كلامه بقلب مليء بالغيظ والغضب، والحقد والعناد إلى حد يجعل على القلب غطاءً وفي السمع وقراً. والسبب الواقعي للغطاء والوقر هو المشرك واقعاً.

وأمّا نسبة الجعلين إلى الله سبحانه، فلأجل أنّه حرم المشركين من الهداية الخاصّة بسبب إعراضهم عن الأُولى، فانتهت حياتهم إلى أن صاروا ذوي قلوب مقفلة، وآذان غير صاغية، يقول سبحانه: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)(الصف:٥). وسيوافيك تفصيل ذلك عند تفسير الآيتين(٣٦ و ٣٧) من سورة الزُّمر.

الآيات ٤٩ ـ ٥٢ (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا ... وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً).

الآيات: التاسعة والأربعون إلى الثانية والخمسين

(وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّة فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً).

المفردات

رُفاتاً: الرُّفات: ما بلِيَ من كلّ شيء وتكسّر. وكلّ ما تحطّم وترضّض يجيء أكثره على «فُعال»، مثل: «حُطام» و«دُقاق» و «تُراب». وقال المبرّد: كلّ شيء مدقوق مبالغ في دقّه حتى انسحق فهو رفات.(انظر: التبيان في تفسير القرآن:٦/٤٨٦).

لَمبعوثون: البعث في الأصل: الإرسال، وأُطلق على إحياء الموتى، لأنّ فيه إرسال الماكث في قبره إلى خارجه.

فَسَيُنغضون: فَسَيُحركون رؤوسهم. والإنغاض، تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجّب منه.

التفسير

اهتمّ القرآن الكريم في أغلب سوره بأمرين أكثر من غيرهما، وهما: توحيد المبدأ، والمعاد، لأنّهما رأس كلّ المعارف، فكان المشركون ينكرونهما أشدّ الإنكار. وكان النزاع بين النبي وبينهم في ذينك الأمرين على قدم وساق، وكلّما حدّث النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عن توحيد الإله وأنّه لا ربّ ولا إله إلاّ الله (وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا)(الإسراء:٤٦)، وكلّما أخبر عن الساعة، والحياة بعد الموت، والحساب والجزاء وفق الأعمال، يقولون:(إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)(الأنعام:٢٩).

ولذلك يركّز سبحانه في هذه المجموعة على الأسئلة الثلاثة لمنكري المعاد. وأمّا وجه صلتها بما قبلها فلعلّ الوجه أنّه تقدّم وصف المشركين بأنّ على قلوبهم أغطية أن يفقهوه، فجاءت الآيات أُنموذجاً لما قال: وذلك بردّ الجواب عن أسئلتهم الثلاثة الناشئة عن الغفلة:

الإجابة عن أسئلتهم المنكِرة للبعث والنشور

السؤال الأوّل: كيف يمكن إحياء العظام المتناثرة على شكل ذرات صغيرة؟ أين هذه العظام النخِرة المتشتّتة في البرّ والبحر من الإنسان الحيّ؟

وإلى هذا السؤال يشير بقوله:

٤٩.(وَقَالُوا أَإذا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا):

لم يكن السؤال أو الاستبعاد أمراً جديداً، فقد كانوا يتفكّهون به مرّة بعد أُخرى في مجالسهم وأنديتهم كما حكاه سبحانه عنهم في سورة «يس» وقال:(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)(يس:٧٨). والعجب أنّ هذا النوع من الاستبعاد حلّ محلّ البرهان، كما في نفس آيتنا هذه:(أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) لَمُحيَون (خَلْقًا جَدِيدًا) حياة جديدة؟! ومنشأ الاستبعاد عدم التعرّف على سعة قدرة الله تعالى، وقياس قدرته سبحانه على قدرتهم (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ)(الأنعام:٩١)، فوافاهم الجواب بشكل جديد لم يرد في سائر السور.

٥٠. (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا):

أي إنّ إحياء العظام النَّخِرة المتناثرة المتبدّلة إلى التراب أسهل من إحياء الإنسان المتبدّل إلى الحجارة أو الحديد أو شيء أكبر من ذلك، ولذلك لأنّ التراب فيه خلايا حيّة وأنّ الزرع والأشجار تُنبت منها بخلاف الحجارة والحديد فلا ينبت منها شيء، وعلى هذا فمعنى الآية:(قُلْ) إنّكم لمبعوثون حتى لو كنتم حجارة أو حديداً بعد موتكم، كما قال: (كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا): أي التي تفقد الحياة بتاتاً فإنّكم أيضاً مبعوثون، فإنّ قدرة الله تسع كلّ شيء، ولا يَعصى عليه شيء. وقد جاء التعبير بصيغة الأمر(كُونُوا) لأنّه أبلغ في الإلزام، كأنّ أكثر ما يكون منهم مطلوب حتى يروا أنّه هيّن حقير.(انظر: التبيان في تفسير القرآن:٦/٤٨٧)

٥١. (أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا):

أي قل لهم إنّكم مبعوثون (أَوْ) كنتم (خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ): أي شيء يكبر في أذهانكم وأفكاركم، ففي جميع الحالات (إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ)(هود: ٧ .)، وإن كان التراب أقرب إلى الحياة من الفلزات أو جسماً، لكن كما قال الإمام علي(عليه السلام):«وَمَا الْجَلِيلُ وَاللَّطِيفُ، وَالثَّقِيلُ وَالْخَفِيفُ، وَالْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ، فِي خَلْقِهِ إِلاَّ سَوَاءٌ».(نهج البلاغة: الخطبة ١٨٥)

إلى هنا تمّت الإجابة عن السؤال الأوّل، وإن شئت قلت: دفع الاستبعاد عن إعادة الحياة، بأنّ قدرة الله سبحانه فوق ما يتصوّره المشركون.

السؤال الثاني:(فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا):

كان السؤال الأوّل يركّز على استبعاد أصل الإعادة، وأمّا هذا السؤال فيركّز على المعيد، من هو؟ والله سبحانه بدل أن يجيب عن السؤال بقوله: الله يعيدكم، يجيب بقوله:(قُلِ الذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)إشارة إلى أنّ الذي يعيدهم هو الذي خلقهم أوّل مرّة، فساق الجواب بالدليل والبرهان على إمكان الإعادة، لأنّها أسهل من الإيجاد ابتداءً، وهو نظير قوله:(وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ).(الروم:٢٧)

ولمّا كان الجواب قاطعاً ومسكتاً ولم يجد المشركون فيه مجالاً للاعتراض، أخذوا يحرّكون رؤوسهم إشعاراً بالتعجب والاستهزاء، كما قال: (فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ).

السؤال الثالث:(وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ):

هذا السؤال يركّز على طلب تعيين الوقت، أي بعدما سلّمنا إمكان الإعادة وأنّ الله الذي خلق الإنسان أوّل مرّة سيعيده يوم القيامة، فمتى يأتي زمان هذه الحياة الجديدة؟ وبما أنّ العلم بوقت القيامة ممّا استأثر الله به لنفسه أجابهم بقوله:(قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا): أي لا يبعد أن يكون قريباً، فبدّل سبحانه المخاطب وقال: (قُلْ)راجياً تحقّقه قريباً. وهذا النوع من الجواب يكفي في الاتّعاظ.

٥٢. (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً):

لمّا سأل المشركون عن وقت القيامة، أجاب عنه سبحانه بجوابين:

الأوّل: ما مرّ من قوله:(عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا): أي لا يبعد أن يكون متحقّقاً قريباً.

الثاني: وصف القيامة بقوله: (يَوْمَ يَدْعُوكُمْ) والدعوة هذه دعوة تكوينية نظير قوله سبحانه:(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)(يس:٨٢.) فعندئذ يقوم المبعوثون، من غير فرق بين المؤمن والمشرك، بأُمور:

١. (فَتَسْتَجِيبُونَ) لدعوته بالحضور للحساب والجزاء.

٢. تكون استجابتكم مقرونة (بِحَمْدِهِ) سبحانه، فيكون الجميع حامدين لانكشاف الحقائق، فينطلق من كلّ نفس الحمدُ استشعاراً بعظمته.

٣. (وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً): أي تحسبون أنّكم ما لبثتم في الأرض إلاّ قليلاً. وأمّا وصفه بالقلّة مع أنّهم لبثوا في القبور قروناً متطاولة، فلعلّ ذلك بالقياس إلى لبثهم بعد يوم القيامة الذي لا أمد له.

الآيات ٥٣ ـ ٥٥ (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا).

الآيات: الثالثة والخمسون إلى الخامسة والخمسين

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا التي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً * وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا).

المفردات

ينزغ: يُفسد، ويهيّج الشرّ.

وكيلاً: الوكيل: هو المفوَّض إليه الأمر.

التفسير

٥٣. (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا التي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا):

في تفسير الآية وجهان متفرّعان على ما هو المراد من قوله(وَقُلْ لِعِبَادِي) .

الوجه الأوّل: الخطاب لعامّة العباد

لمّا كان النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) مرسلاً لجميع عباد الله، كما يدلّ عليه قوله سبحانه:(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)(الأعراف:١٥٨.) كلّفه سبحانه بأن يأمرهم بضبط ألسنتهم وأن ينطقوا دائماً بالحسنى، قال سبحانه: (وَقُلْ)أيّها النبيّ (لِعِبَادِي) الذين تبلغهم دعوة القرآن (يَقُولُوا) المقولة (التي هِيَ أَحْسَنُ)المقولات، أي التي هي الغاية في الحُسن، سواء عند التخاطب فيما بينهم، أم عند المحاورة والنقاش وهم يضطلعون بمسؤولية الدعوة إلى الله وتوحيده وشريعته الغرّاء، وهداية الزائغين عن الحقّ.

إنّ للكلمات الطيّبة التي يتفوّه بهاالإنسان في حواراته ومناظراته أو في مخاطباته، تأثيراً إيجابياً في تعزيز العلاقات الاجتماعية وإقامتها على أساس الأُلفة والاحترام، الأمر الذي ينعكس إيجابياً على بناء المجتمع قوّة وتماسكاً لشيوع الأمن والتعايش السلميّ بين أفراده.

إنّ (الحوار والتفاهم بدل الاشتباك والتصادم، لغة إنسانية مثلى)(التعايش السلميّ للسيد محمود الموسوي:٧.) قد وصّى بها القرآن في مواضع عديدة منه، وحذّر من المخاشنة واستعمال الكلمات الجارحة والألفاظ النابية، التي يستغلها الشيطان فيثير بوساوسه

الشّقاق والخلاف بين الأفراد، ومن ثمّ في إفساد العلاقات بينهم، كما قال تعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ): أي يُفسد (بَيْنَهُمْ) ويغري بعضهم ببعض ويُلقي بينهم العداوة، وليس ذلك ببدع منه، فـ (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ)منذ عصر آدم إلى يومنا هذا (لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا): أي إنّ بين الشيطان والإنسان عداوة قديمة مستحكمة، كما قال تعالى حكاية عن الشيطان(ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ)(الأعراف:١٧)، وقال: (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)(الحشر:١٦).

الوجه الثاني: الخطاب للمؤمنين

هذا، وقد ذهب عدد من المفسّرين إلى اختصاص الآية بالمؤمنين، بحجّة أنّ كلمة العباد في قوله: (لِعِبَادِي) تختصّ بهم كما هو المعروف في اصطلاح القرآن في هذا العنوان، حسب تعبير الشيخ ابن عاشور.(لاحظ: التحرير والتنوير:١٤/١٠٥).

أقول: هناك عدّة آيات استُعملت فيها هذه الكلمة دون اختصاص بالمؤمنين، مثل قوله تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ)(الحجر:٤٢)، وقوله تعالى: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)(الفرقان:١٧).

٥٤. (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً):

كلّ نفس مسؤولة عن هدايتها وغوايتها

لمّا أمر سبحانه عباده في الآية السابقة بأن ينطقوا بالحسنى بعيداً عن الأقوال السيّئة، جاء البيان القرآني ليؤكّد أنّ ذلك يخضع لعلم الله تعالى بأحوالهم وما يصلحهم أو يفسدهم كما قال: (رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ)، وبمقتضى علمه سبحانه الذي لا ينفصل عن عدله وحكمته يرحم من يمتثل أمره، ويعذّب من خالفه وعصاه، كما قال: (إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ).

ولمّا كان الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) مسؤولاً عن أداء رسالته فقط، وليس عليه أن يُجبر الناس على الإيمان والتزام خطّ الطاعة، وجّه سبحانه خطابه إليه وقال: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً): أي لم نفوّض إليك مسؤولية هدايتهم وغوايتهم، بل عليك أن تبلّغهم رسالة ربّك، فإن أجابوك، وإلاّ فلا شيء عليك، واللائمة والعقوبة يحلاّن بهم.(انظر: التبيان في تفسير القرآن:٦/٤٩٠).

٥٥. (وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْض وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا):

في تفسير الآية وجهان:

الأوّل: أنّ الآية بصدد بيان سعة علمه تعالى بالنسبة إلى الآية السابقة، فإنّها تضمّنت علمه بحال العباد، وأمّا آيتنا هذه فقد تضمّنت علمه بمن في السماوات والأرض، وقال:(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) فكأنّه قيل: كيف لا يكون أعلم بكم وهو أعلم بمن في السماوات والأرض وأنتم منهم؟

ثمّ إنّ القائل بهذا الوجه يفسّر بقية الآية بالنحو التالي: قوله:(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْض)تمهيد لقوله: (وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا) والغاية من ذكر الزّبور لأجل أنّه يتضمّن أحسن الكلمات في تسبيحه وحمده تعالى، وفيه تحريض للمؤمنين أن يرغبوا في أحسن القول ويتأدّبوا بالأدب الجميل بالمحاورة والكلام.(الميزان في تفسير القرآن:١٣/١٢٠).

يلاحظ عليه: أوّلاً: أنّ الخطاب في الآية السابقة موجّه إلى الجمع، كما هو ظاهر في قوله:(رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ) وأمّا الخطاب في آيتنا هذه فموجَّه إلى الفرد، أعني: النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، فلو كانت الآية تتعلّق بالآية السابقة، فلماذا تغيّر عنوان الخطاب؟

ثانياً: أنّ قوله:(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْض) يكون أجنبيّاً عمّا تقدّم، فما هي الصلة بين سعة علمه، وتفضيل بعض النبيّين على بعض؟

الوجه الثاني: أنّ هذه الآية بصدد إبطال بعض شبه المشركين، حيث إنّهم تارة أحالوا إرسال رسول من البشر، وأُخرى أحالوا إرسال رسول ليس من عظمائهم، فقد كانوا يقولون:(لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)(الزخرف:٣١.) فكانوا يطعنون في نبوّة رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بأنّه يتيم من أيتام بني هاشم، فلماذا انتُخب للنبوة والرسالة؟! وكان اليهود ربّما يتفكّهون بهذا الطعن، والله سبحانه يردُّ عليهم بقوله:(أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا).(النساء:٥٤.)

وفي آيتنا هذه ردٌّ على مثل هذه الطعون، فقوله:(وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ): أي أعرف بتفاضل بعضهم على بعض، فليس من البدع أن يختارك للنبوّة دون غيرك لما فيك من فضائل جمّة أهّلتْك لأن تكون مستعدّاً لتقبّل الرسالة والوحي. ولأجل هذا العلم الوسيع فضّلنا كذلك بعض النبيين على بعض. وعلى هذا فلا بدع أن يكون النبيّ محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) أفضل الأنبياء، وأُمّته أفضل الأُمم.

ولأجل نقد نظريتهم الباطلة من أنّ النبوّة شأن العظماء، يذكر الله سبحانه داود فإنّه كان راعياً من رعاة الغنم في بني إسرائيل، فاختاره الله للنبوّة والرسالة، ولم يكن ذا عظمة وسيادة.

وأمّا ذكر زبور داود، فلعلّ الوجه ما ذكره صاحب الكشّاف بقوله: إنّه مكتوب في زبور داود: أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون وهم محمد وأُمّته.(تفسير الكشاف:٢/٢٣٦.)، فيكون ذلك تحذيراً للمشركين بأنّه قد سبق في الكتب السماوية انتشار الإسلام في الأرض كلّها.(التحرير والتنوير:١٤/١٠٩، بتلخيص وتصرّف.)

الآيتان ٥٦ ـ ٥٧ (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ ... إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا).

الآيتان: السادسة والخمسون والسابعة والخمسون

(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا).

المفردات

زعمتم: قال الراغب: الزعم: حكاية قول يكون مظنة للكذب، ولهذا جاء في القرآن في كل موضع ذمُّ القائلون به.(المفردات للراغب:٢٦٥، مادة «زعم».) قال الإمام الباقر(عليه السلام) ـ كما في رواية الكليني ـ : «أما علمتَ أنّ كلّ زعم في القرآن كذب».(الكافي:٢/٣٤٢.)

الضُّرّ: سوء الحال.

تحويلاً: التحويل الإخراج من حال إلى حال آخر.

يدعون: الدعاء في المقام دعاء عبادة، لا سؤال مطلق، لأنّهم يسألونهم بما أنّهم آلهة لهم قدرة التصرّف في الكون.

الوسيلة: القربة.

محذوراً: من الحَذر، وهو الخوف، أي واجب الاتّقاء والحَذَر.

التفسير

قد تقدّم في أوّل هذه السورة أنّ الغرض الأساسي لها هو ردّ الشرك والدعوة إلى التوحيد، وتقدّم آنفاً قوله سبحانه:(لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ)(الإسراء:٣٩.) كما تقدّم قوله:(وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا)(الإسراء: ٤٦.) ولذلك عاد إلى نقد آراء المشركين الذين كانوا يعبدون القدّيسين: الملائكة والمسيح وعُزيراً، حتى الجنّ.

وأمّا كيفية نقد عملهم هذا، فهذا ما تبيّنه الآية التالية:

٥٦. (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً):

الآلهة المكذوبة لا يملكون كشف الضرّ عنكم

قوله:(قُلِ): أي يا رسول الله(ادْعُوا) الأمر بدعاء الآلهة المكذوبة للتهكّم(الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) أنّها آلهة (مِنْ دُونِهِ)عند كلّ ضُرّ ينزل بكم ليكشفوا ذلك عنكم أو يحوّلوا تلك الحالة إلى حالة أُخرى، لكن دعوتكم هذه غير نافعة لكم، لماذا؟ لأنّهم كما يقول سبحانه: (فَلاَ يَمْلِكُونَ): أي لا يستطيعون (كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ) من المرض والفقر (وَلاَ تَحْوِيلاً): أي إخراجكم من حال إلى حال. فمن كان هذا شأنه لا يستحقّ العبادة، فكيف تعبدونه؟

وحاصل الكلام: إنّ اللائق بالعبادة هو من تكون له قدرة التصرّف في الكون، كلّه أو بعضه، وأمّا من لا يملك شيئاً بالنسبة للعابد، فلا يستحقّ العبادة، لأنّ العبادة خضوع أمام من هو ربُّ الخاضع والمتصرّف فيه، فالمعبود العاجز على وجه الإطلاق غير لائق بها.

ثمّ إنّ هذا الاستدلال تكرّر ذكره في القرآن في موضع آخر.(لاحظ: سورة الزمر:٣٨.)

٥٧. (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا):

قبل الدخول في تفسير الآية نشير إلى إعرابها:

١. قوله:(أُولَئِكَ) مبتدأ.

٢. قوله:(الَّذِينَ يَدْعُونَ) صفة للمبتدأ، حذف ضمير المفعول أي الذي يدعونهم.

٣. قوله: (يَبْتَغُونَ) خبر المبتدأ.

والمعنى:(أُولَئِكَ الَّذِينَ)اعتقدوا فيهم أنّهم أرباب كالملائكة والمسيح وعُزير والجنّ (يَدْعُونَ): أي يعبدهم المشركون، فهؤلاء فيهم الأوصاف التالية الدالّة على أنّهم عباد الله المخلصون:

١. (يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) : أي يطلبون القُربة بعبادتهم وطاعتهم، فأنتم أيّها المشركون أَولى بالاقتداء بهم، فاعبدوا الله طلباً للقُربة ولا تعبدوا هؤلاء الذين يعبدون الله.

٢. (أَيُّهُمْ أَقْرَبُ): أي يستعلمون ويبحثون عن(أَيُّهُمْ) من بينهم (أَقْرَبُ) إلى الله حتى يسلكوا سبيله ويقتدوا بأعماله ليتقرّبوا إليه تعالى كتقرُّبه.

٣. (وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ): أي يرجون رحمة الله سبحانه.

٤. (وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ) ويطيعونه ولا يعصونه (إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا): أي ينبغي أن يُحذر منه ويُتّقى وقوعُه.

فقد وصف آلهة المشركين بأوصاف المخلصين من العباد فهم يعبدون الله لغاية التقرُّب ويبحثون عن أقربهم إلى الله حتى يقتدوا به، كما يرجون رحمة الله ويخافون عذابه.

فإذا كانت آلهتهم المكذوبة بهذه الصفات فأَولى لهم أن يكونوا مثلهم.

فالضمائر الستة ترجع إلى الآلهة المكذوبة التي دلّ عليها لفظ (أُولَئِكَ)إلاّ ضمير (يَخَافُونَ)يرجع إلى المشركين.

ما ذكرناه من التفسير هو الذي عليه أكثر المفسّرين، فقالوا :إنّ (أُولَئِكَ)إشارة إلى المعبودين للمشركين، وإنّ قوله: (يَدْعُونَ) بمعنى يعبدونهم، غير أنّ الرازي ذكر وجهاً آخر وتبعه ابن عاشور، فقال: إنّ قوله:(أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ) هم الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى بقوله:(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْض)وتعلّق هذا الكلام بما سبق، هو أنّ الذين عظمت منزلتهم وهم الأنبياء لا يعبدون إلاّ الله تعالى ولا يبتغون الوسيلة إلاّ إليه، فأنتم بالاقتداء بهم أحقّ فلا تعبدوا غير الله تعالى.(تفسير الرازي:٢٠/٢٣٢.)

وأوضحه ابن عاشور بقوله: (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ) إشارة إلى النبيّين، والمعنى أُولئك الذين إن دعوا يُستَجب لهم ويُكشف عنهم

الضُّرّ، وليسوا كالذين تدعونهم فلا يملكون كشف الضُّرّ عنكم بأنفسهم ولا بشفاعتهم عند الله. ثمّ إنّه يفسر قوله سبحانه(أَيُّهُمْ أَقْرَبُ) بأنّه بدل بعض من ضمير (يَبْتَغُونَ)، والمعنى: الذي هو أقرب من رضى الله يبتغي زيادة الوسيلة إليه، أي يزداد عملاً للازدياد من رضى الله عنه واصطفائه.(التحرير والتنوير:١٤/١١١ـ١١٢.)

والذي يؤيِّده وحدة مراجع الضمائر الستّة، على هذا التفسير.

ومع ذلك فما ذكره من التفسير بعيد عن الأذهان الصافية، كيف؟ والقرآن نزل بلسان عربيّ مبين.

الآيات ٥٨ ـ ٦٠ (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ... فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا).

الآيات: الثامنة والخمسون إلى الستين

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا * وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَ مَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا * وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا).

المفردات

قرية: القرية (في مصطلح القرآن): اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس، ولو كان مدينة كبيرة. وربّما تطلق ويراد أهلها، كما في قوله سبحانه:(وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ).(يوسف:٨٢.)

مهلكوها: الهَلاك: الموت، الفناء. والإهلاك هنا يراد به الإهلاك بعذاب الاستئصال، كالزلزال المدمّر، والصواعق، والريح العقيم.

مسطوراً: مكتوباً.

منَعَنا: المَنْع بمعناه الحقيقي غير متصوَّر في حقّه سبحانه، فأُريد به الانصراف عن الفعل وعدم إيقاعه، إذ ليس لموجود أن يمنع القادر المختار عن شيء.

مبصرة: بيّنة واضحة الدلالة، من أبصر بمعنى جعل غيره مبصراً.

التفسير

٥٨. (وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا):

مصير القرى الظالمة

قيل في تفسير الآية: إنّ المراد من القرية، بشهادة لفظة (مِنْ)، مطلق القرية، سواء أكانت صالحة موحّدة أم كانت ظالمة مشركة، فالله سبحانه يهلك القرى الصالحة بالموت الطبيعي، والقرى الظالمة بإنزال العذاب سماوياً أو أرضياً، فيكون المعنى:

(وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ) في الأرض (إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا): أي مُميتوها بآجال أهلها (قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) بالموت الطبيعي إذا كانت صالحة (أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا): أي نهلكها بالعذاب السماويّ أو الأرضيّ إذا كانت ظالمة.(انظر: تفسير الرازي:٢٠/٢٢٣.)

يلاحظ على هذا التفسير أنّ الآية بصدد تحذير المشركين لغاية صدّهم عن كفرهم وطغيانهم، فالبحث عن إهلاك القرى الصالحة أو الظالمة بأحد الوجهين لا يناسب سياق الآية، إذ عندئذ يكون وزان الآية وزان قوله سبحانه:(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ).(الرحمن:٢٦.)

وعلى هذا، فالأرجح أن يكون المراد من قوله:(مِنْ قَرْيَةٍ)هو القرى التي يتمادى أهلها في الظلم والفساد والمعاصي، وهي إمّا أن تكون مستحقّة للإهلاك بعذاب الاستئصال كالزلزال المدمّر والصواعق، وإليه يشير قوله: (إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ)، أو تكون مستحقّة لعذاب دون عذاب الاستئصال، ومنه القحط، والنّزوح والجلاء، وتسلّط الجبابرة، وسفك الدماء، وإليه يشير قوله: (أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا).

هذا، ويرى الشيخ محمد جواد مغنيّة أنّ الآية ترتبط بما قبل عصر المهديّ المنتظر، حيث لا يبقى في عصره(عليه السلام) وأيّام دولته المباركة إلاّ الصالحون، الذين يعيشون في طاعة الله مؤمنين، آمنين على أنفسهم، وجميع أشيائهم، بعد أن يمحو الله المفسدين والظالمين من وجه الأرض.

قال: وفي ذلك أحاديث كثيرة عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وذكر منها حديثين في المهديّ المنتظر، روى أحدهما أبو داود السجستاني في «سننه»، والآخر ابن ماجة في «سننه».(انظر: التفسير الكاشف:٥/٥٨.)

مستقبل المجتمعات الظالمة

وممّا يعزّز ما تقدّم، أعني تعرّض المجتمعات الظالمة، في مستقبل البشرية، للإهلاك والعذاب، ما يلي:

١. عن أبي سعيد الخُدري، قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «يخرج رجل من أهل بيتي، عند انقطاع من الزمان، وظهور من الفتن، يكون عطاؤه حَثياً».(المصنَّف لابن أبي شيبة: ٨ / ٦٧٨، برقم ١٨٥، تحقيق: سعيد اللحّام.)

٢. عن أبي سعيد الخدري، قال: قال نبيّ الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «ينزل بأمّتي في آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم لم يُسمع بلاء أشدّ منه، حتى تضيق عنهم الأرض الرّحبة، وحتى يملأ الأرض جوراً وظلماً، لا يجد المؤمن ملجأ يلتجئ إليه من الظلم، فيبعث الله عزّ وجلّ رجلاً من عترتي، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً...».(المستدرك على الصحيحين:٤/٤٦٥.)

٣. عن حذيفة، قال: سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) يقول: «... لو لم يبقَ من الدنيا إلاّ يوم واحد، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يملك رجل من أهل بيتي، تجري الملاحم على يديه ويُظهر الإسلام، لا يُخلف وعده، وهو سريع الحساب».

قال يوسف بن يحي المقدسي السّلَمي الشافعي: أخرجه الحافظ أبو نُعيم الأصبهاني في «صفة المهديّ».(عِقد الدرر في أخبار المنتظر:٩٥، تحقيق: د. عبد الفتّاح الحلو.)

٤. عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام)، قال: «لا يقوم القائم إلاّ على خوف شديد من الناس، وزلزال وفتنة، وبلاء يصيب الناس، وطاعون قبل ذلك، وسيف قاطع بين العرب، واختلاف شديد في الناس...».(الغيبة للنعماني:١٢٢. وانظر: عِقد الدرر:٩٧.)

وأمّا قوله تعالى: (كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا)فمعناه أنّ إهلاك القرى بالاستئصال أو تعذيبها عذاباً شديداً كان قضاء محتوماً. وأريد من الكتاب اللّوح المحفوظ الذي يذكر القرآن أنّ الله كتب فيه كلّ شيء، قال سبحانه:(وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّة فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَاب مُبِين).(يونس:٦١.)

وجه المنع عن إرسال الآيات المعجزات

٥٩. (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالاْيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَ مَا نُرْسِلُ بِالاْيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا):

كان كبراء مشركي قريش قد اقترحوا على رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يُجري الله تعالى على يديه بعض الآيات الخوارق، فأبان سبحانه في هذه الآية عن علّة عدم استجابته لما اقترحوه.

وتفسير الآية على وجه واضح يتوقّف على بيان أُمور:

الأوّل: أنّ المراد بالآيات هو الآيات الستّ المقترحة من جانب المشركين، حيث طلبوا من النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)أن يأتي بها، وقد ذُكرت هذه الاقتراحات في سورتنا هذه في قوله تعالى حاكياًعن المشركين:

١. (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا).

٢. (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيل وَعِنَب فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا).

٣. (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا).

٤. (أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً).

٥. (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُف).

٦. (أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ).(الإسراء:٩٠ـ ٩٣.)

هذه هي المعجزات أو الآيات الخارقات، التي اقترح المشركون على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يأتي بها حتى يؤمنوا به. وهذه الآيات على أصناف أربعة، فقسم منها لا يدلّ على صدق نبوّته واتصاله بالله، كما هو الحال في وجود جنّة من نخيل أو عنب أو بيت من زخرف، فلو كان أمثال هذه الآيات دليلاً على النبوّة فالفراعنة والجبابرة كانوا متمكنين من ذلك بل أكثر منه. وقسم منها يخالف غرض الدعوة، فإنّ الدعوة لغاية هدايتهم وصدّهم عن الشرك، وهو فرع بقائهم على الحياة، فإسقاط السماء عليهم كسفاً قضاء عليهم بالموت، وإنهاء لحياتهم.

وقسم ثالث أمر محال، وهو الإتيان بالله والملائكة حتى يرونهم بعيونهم.

وقسم رابع يدلّ على أنّ هذا الاقتراح ليس لغاية الاهتداء بل نابع عن العناد واللّجاج، حيث إنّهم لا يؤمنون برقيّه حتى يكون مقروناً بكتاب من الله في يده حتى يقرأوه.

وبذلك يُعلم أنّ استدلال بعض المعاندين من الزنادقة على أنّه لم يكن للنبيّ الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) أية معجزة سوى القرآن الكريم، بشهادة أنّه انسحب أمام اقتراح القوم وقال:(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً)، ليس له اعتبار، فقد عرفت أنّ اقتراحاتهم لا تدل على أنّهم ينشدون الحقّ، وأنّ عدم إستجابته لهم كانت لأجل أسباب مختلفة قد وقفت عليها. وسيوافيك شرح ذلك.

الأمر الثاني: أنّ الله سبحانه وإن أخبر عن إبادة الأُمم المكذّبة السابقة، ولكنّه سبحانه أخبر في هذه الآية عن عدم إهلاك مشركي عصر الرسالة، لماذا؟ لأنّه سبحانه أخبرنا بأنّ وجود النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم) أمان لأهل الأرض، كما قال تعالى:(وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)(الأنفال:٣٣.) مضافاً إلى أنّ الله يعلم أنّ فيهم من سيؤمن أو من سيؤمن أولاده، فلم يجبهم إلى ما طلبوا ولم ينزل عليهم العذاب.

الأمر الثالث: جرت سنّة الله تبارك وتعالى على أنّ تكذيب الآيات المقترحة التي يجريها سبحانه لأنبيائه يوجب نزول العذاب على المكذّبين بها، ويشهد لذلك ما في ذيل آيتنا من قصة ناقة ثمود.

إذا وقفت على هذه الأُمور، فاعلم أنّ الآية تتشكّل من فقرات ثلاث:

الأُولى: يبيّن وجه عدم إرسال ما يقترحه مشركو قريش من الآيات الخوارق ويقول:(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ).

الثانية: يستشهد على ما ذكر من الفقرة الأُولى بنزول العذاب على قوم ثمود ويقول:(وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا).

الثالثة: يبيّن ما هي الحكمة من إرسال الخوارق ويقول: (وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا).

وإليك تفسير الفقرات الثلاث:

أمّا الأُولى، فبيانها: أنّ الإصرار على الكفر سجيّة راسخة في أخلاق المشركين لا يقلعها إظهار الآيات. هذا من جانب ومن جانب آخر أنّه لو أرسلت ولن يؤمنوا سينزل عليهم العذاب وفقاً لسنّة الله تعالى، وبما أنّه سبحانه جعل الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) أماناً لأهل الأرض فلم يُنزل الآيات التي اقترحوها، فظهر معنى قوله تعالى:(وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ) ولو أُرسلت إليهم لوقفوا منها الموقف ذاته الذي وقفه الأوّلون، وعندئذ يحلّ الهلاك بهم كما حلّ بسابقيهم، ولكنّ الله سبحانه لا يُريد

أن يستأصلهم لأنّه تعالى جعل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أماناً لأهل الأرض، مضافاً إلى أن فيهم من سيؤمن أو سيؤمن أولادهم، فصار ذلك سبباً لعدم نزول الآيات.

أمّا الفقرة الثانية، أعني قوله:(وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا). فهي كالدليل على ما سبق في صدر الآية، وهو تعلّق سنّة الله تعالى باستئصال المكذّبين بالآيات، بشهادة أنّ قوم ثمود اقترحوا على نبيّهم صالح(عليه السلام)ناقة خاصّة فجاء بها نبيّهم، ولمّا كذّبوا بالمعجزة عمّهم العذاب، وبما أنّ سجية قريش هي سجية قوم ثمود نفسها، فلو قام النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بإجابة بعض مقترحاتهم الممكنة لكذّبوا بها مثل قوم ثمود، وبما أنّ نزول العذاب مُناف لكون النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أماناً لأهل الأرض، لم تنزل آياتهم المقترحة.

وبذلك ظهر معنى الفقرة:(وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ) كما سألوها من صالح(عليه السلام)فازدادوا كفراً، مع أنّها كانت (مُبْصِرَةً): أي مفيدة البصيرة واليقين (فَظَلَمُوا بِهَا): أي كفروا بتلك الآية، فيكون الظلم بمعنى الجحد، أو ظلموا الناقة بالاعتداء عليها.

أمّا الفقرة الأخيرة، أعني قوله:(وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا) فهي بيان لحكمة أُخرى في عدم إرسال الآيات إلى قريش، فإنّ الغاية هي التحذير وهؤلاء لم يكونوا متحذّرين، ولأجل ذلك لم نرسل الآيات.

تفسير الرؤيا الّتي رآها النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)

٦٠.(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا التِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا):

الآية تتضمّن بيان أُمور ثلاثة:

الأوّل: الإخبار عن إحاطة الله سبحانه بالناس، كما يقول:(وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ).

الثاني: الإخبار عن أنّه تعالى جعل الرؤيا التي أراها للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)والشجرة الملعونة في القرآن فتنة للناس، كما يقول: (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا التِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ)، فهذا الأمران من وسائل الاختبار.

الثالث: الإخبار عن أنّ الناس ما يزدادون بالتخويف الإلهي إلاّ طغياناً كبيراً، كما يقول:(وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا).

والآية من الآيات التي أحاطها الإجمال والإبهام ولا يمكن تفسيرها إلاّ بآية مثلها أو برواية صحيحة، وأكثر المفسرين قاموا بتفسير هذه الآية انطلاقاً من عقيدة راسخة عندهم، فقد أعرضوا عن الروايات المتضافرة فيها، ونحن نفسر كلّ فقرة على حدة.

أمّا الأُولى، أعني قوله تعالى:(وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)فالظاهر أنّه لا إجمال فيها، فالله سبحانه يشدّ عزم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في مواجهة الأعداء، فإنّ علمه سبحانه بهم، علماً محيطاً، مكشوفاً لديه ما يحدث لهم ويصدر منهم في الحاضر والمستقبل من مواقف تستهدف النيل منك ومن رسالتك، فامضِ في طريق تبليغ دعوتك، ولا تأبه بمن يبغي الغوائل لها، فما يعزب عن علمه شيء من ذلك، وهم في قبضته وتحت قدرته.

وأمّا الفقرة الثانية، فالله سبحانه يخبر بأنّه جعل شيئين فتنة واختباراً للناس:

أوّلهما: الرؤيا التي أراها تعالى لنبيّه.

ثانيهما: الشجرة الملعونة في القرآن.

وإليك تفسيرهما.

حول الرؤيا التي رآها النبيّ

أمّا الأُولى، فيقول فيها سبحانه:(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا التِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ)، ولكنْ ما هذه الرؤيا التي رآها النبيّ(صلى الله عليه

وآله وسلم)وتحكي عن افتتان الناس في المستقبل؟ فهنا أقوال:

١. المراد رؤياه التي رآها بأنّه يدخل مكّة وأخبر بذلك أصحابه، فصدّهم المشركون عام الحديبية، وكان ذلك فتنة لهم حيث شكّ رجال من أصحابه ودخلت عليهم الشبهة، وقالوا: يا رسول الله أليس قد أخبرتنا أنّا ندخل المسجد الحرام آمنين(انظر: زاد المسير لابن الجوزي:٥/٤٠؛ التحرير والتنوير:١٤/١١٧؛ مجمع البيان:٦/٣٠٥.)، وأنزل الله تعالى:(لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ).(الفتح:٢٧.)

وهذا الاحتمال فاسد جدّاً، لأنّ الرؤيا التي أراها الله تعالى لنبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم)كانت في السنة السادسة للهجرة، وظاهر الآيات أيضاً في سورة الفتح أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) رآها في نفس السنة السادسة للهجرة، وظاهر آيتنا أنّه رآها في الفترة المكيّة.

٢. ما حكاه سبحانه بقوله:(إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ)،(الأنفال:٤٣.) وهذا الاحتمال كسابقه، إذ أنّ الآية ناظرة إلى رؤيا النبيّ جيش مشركي قريش قليلاً، وهي مدنيّة وآيتنا هذه مكيّة. وبعبارة أُخرى: هذه الرؤيا ممّا رآها النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بعد الخروج من المدينة لمواجهة المشركين، وأين تلك ممّا في سورتنا هذه؟ وهذا الاحتمال لم يقل به أحد وإنّما ذكرناه استطراداً للرؤيا الّتي رآها النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم).

٣. ما ذكره في الكشّاف، وهو أنّ الله سبحانه أرى نبيّه محمّد مصارع كفّار قريش، فحين ورد ماء بدر قال: «والله كأني انظر إلى مصارع القوم» ثم أخذ يقول:«هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان» فلما سمعت قريش ذلك جعلوا رؤياه سخرية، وكانوا يستعجلون بما وعدهم به رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).(تفسير الرازي: ٢٠/٢٣٦.)

وهذا القول لا دليل عليه، ولذلك نرى أنّ صاحب الكشاف ينقله على وجه الاحتمال ويقول: ولعلّ الله تعالى أراه مصارعهم في منامه، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر:«والله لكأنّي أنظر إلى مصارع القوم».(تفسير الكشّاف:٢/٢٣٧.)

أقول: قال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ذلك عندما ورد ماء بدر، وأين هذا من الفترة المكيّة التي نزلت فيها سورة الإسراء؟

٤. المراد ما أراه الله تعالى ليلة الإسراء من العجائب السماوية والأرضية، فلمّا قصّ على قريش ما رآه أنكرتها وسخرت منه. قال الرازي: وكفر به كثير ممّن كان آمن به، وازداد المخلصون إيماناً، فلهذا السبب كان امتحاناً.(تفسير الرازي: ٢٠/٢٣٦. وانظر: في رحاب التفسير لعبد الحميد كُشك:٣/٢١٧٣.)

وهذا الوجه الذي رجّحه أكثر مفسّري السنّة، وجه غريب، لأنّ الإسراء كان في اليقظة وليس في النوم، فما رآه (صلى الله عليه وآله وسلم) كان رؤية عيانيّة لا رؤيا مناميّة.

وما نُقل عن ابن عباس من أنّ الرؤيا تستعمل في رؤية العين وقال: هي رؤيا عين أُريها النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)ليلة أن أُسْريَ به إلى بيت المقدس، لا يمكن تصديقه إذ لم يرد في اللغة الرؤيا بمعنى المشاهدة بالعين، كما لم ترد في القرآن إلاّ بمعنى الرؤيا المناميّة.(انظر: الصافات:١٠٢ـ ١٠٩؛ يوسف:٤ـ٥ و ٤٣ و ١٠٠؛ الفتح:٢٧.) والقائل بهذا القول لمّا رأى عدم انطباقه على ما رآه النبيّ في الإسراء حاول تصحيحه بالقول: إنّ التعبير بها إمّا مشاكلة لتسميتهم (قريش) له رؤيا، أو جار على زعمهم، كتسمية الأصنام آلهة، فقد روي أنّ بعضهم قال للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لمّا قصّ عليه الإسراء: لعلّه شيء رأيته في منامك، إلى غير ذلك من الوجوه الواهية(روح المعاني:١٥/١٠٧.)، حيث إنّ معنى ذلك أنّ القرآن الكريم تبع في التعبير زعمهم الباطل، ذلك أنّ قريشاً نسبوا ما رآه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)بعينه إلى المنام!!

ثمّ إنّ الواقع التاريخي لا يثبت ارتداد عدد ممّن آمن بالرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)في العهد المكّي (قلّ أو كثر) بسبب قصة الإسراء، ولم يذكر لنا أحد من المفسرين ممّن قال بهذا الرأي أو رجّحه، اسم واحد من المرتدّين، فأين مورد الفتنة والامتحان؟!

٥. المراد ما روي عن سهل بن سعد الساعدي، وسعيد بن المسيّب، ومفاده أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) رأى في منامه بني أُمية ينزون على منبره نزو القردة، فساءه ذلك. وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء، والرؤيا مكيّة وإن كان المرئيّ قد حصل بعد رحيل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)بكثير.

يقول الآلوسي: وكان هذا بالنسبة إلى خلفائهم الذين فعلوا ما فعلوا، وعدلوا عن سنن الحق وما عدلوا، وما بعده بالنسبة إلى ما عدا خلفاءهم منهم ممّن كان عندهم عاملاً وللخبائث عاملاً، أو ممّن كان من أعوانهم كيفما كان، ويحتمل أن يكون المراد: ما جعلنا خلافتهم وما جعلناهم أنفسهم إلاّ فتنة(روح المعاني:١٥/١٠٧). وسيأتي بقية كلامه في تفسير الشجرة الملعونة.

وأمّا الروايات، فنذكر منها ما نقله الآلوسي في تفسيره، قال:

أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد قال: رأى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات عليه الصلاة والسلام وأنزل الله تعالى هذه الآية:(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا).

وأخرج ابن أبي حاتم(تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٧ / ٢٣٣٦، برقم ١٣٣٢٣، تحقيق: أسعد محمد الطيّب.)، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل(دلائل النبوة:٦/٥٠٩. وفيه رواية أُخرى عن القاسم بن الفضل الحُدّاني، حدّثه بها يوسف بن مازن الراسبي، وفيها قول الحسن بن علي رضي الله عنهما: «إنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قد رأى بني أمية يخطبون على منبره رجلاً فرجلاً، فساءه ذلك».)، وابن عساكر، عن سعيد بن المسيّب قال: رأى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بني أمية على المنابر فساءه ذلك، فأوحى الله تعالى إليه، إنّما هي دنيا أُعطوها، فقرّت عينه، وذلك قوله تعالى:(وَمَا جَعَلْنَا).(روح المعاني:١٥/١٠٧.)

وأخرج ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرّة قال: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): «رأيت بني أُميّة على منابر الأرض وسيملكونكم فتجدونهم أرباب سوء» واهتمّ عليه الصلاة والسلام لذلك فأنزل الله سبحانه: (وَمَا جَعَلْنَا).

وأخرج عن ابن عمر أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنّهم القردة وأنزل الله تعالى في ذلك (وَمَا جَعَلْنَا) إلخ، والشجرة الملعونة الحكم وولده» وفي عبارة بعض المفسرين هي بنو أُمية.(روح المعاني:١٥/١٠٧.)

أقول: وروى أبو يعلى الموصليّ بإسناده عن أبي هريرة: أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) رأى في منامه كأنّ بني الحكم ينزون على منبره وينزلون، فأصبح كالمتغيّظ، فقال: ما لي رأيت بني الحكم ينزون على منبري؟! قال: فما رؤي رسول الله مستجمعاً ضاحكاً بعد ذلك حتى مات(صلى الله عليه وآله وسلم).(مسند أبي يعلى: ١١/٣٤٨، برقم ٦٤٦١.)

قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير مصعب(توفّي سنة (٢٣٦هـ) عن ثمانين عاماً، وهو عمّ الزُّبير بن بكّار. انظر ترجمته في: تهذيب الكمال: ٢٨/٣٤، برقم ٥٩٨٧.) بن عبد الله بن الزبير، وهو ثقة.(مجمع الزوائد: ٥ / ٢٤٣ ـ ٢٤٤.)

وبهذا يتبيّن مدى جهل محمد عزّة دَرْوَزة بروايات أهل مذهبه، ومدى تحامله البغيض على الشيعة، حيث قال معقّباً على رواية نقل مفادَها عن الطبري، ورواية أُخرى نقلها عن تفسير الخازن والكشّاف، حول رؤيا النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) بتداول ولد الحكم بن أُميّة منبره، قال:

«ونحن نعتقد أنّ الرواية من مصنوعات الشيعة. وفي تفسير الطبرسي الشيعي رواية عن الإمامين أبي جعفر وأبي عبد الله أنّ الشجرة الملعونة في القرآن هي بني أُميّة، والهوى الحزبيّ والتعسّف بارزان على هذه الروايات شأن كثير ممّا يرويه مفسّرو الشيعة».(التفسير الحديث:٣/٤٠٤.)

فمن هو أَولى بهذين الوصفين: الهوى الحزبي، والتعسّف؟ ولكن التعصّب داء عضال لا دواء له.

هذا وسيوافيك وجود بعض القرائن على صحّة هذا القول وراء الروايات.

حول الشجرة الملعونة

تمّ الكلام في الرؤيا، وإليك الكلام في الشجرة الملعونة فنقول: إنّ (الشَّجَرَةَ) في قوله سبحانه:(وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ)، عطف على الرؤيا، وتقدير الكلام: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة في القرآن إلاّ فتنة للناس.

ثمّ إنّه يقع الكلام في ما هو المراد من الشجرة التي لُعنت في القرآن الكريم، فقد ذهب قسم من المفسرين إلى أنها هي شجرة الزقوم المذكورة في القرآن في سورتين:

١. قال تعالى:(أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ).(الصافات:٦٢ـ ٦٥.)

٢. قوله تعالى:(إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ).(الدخان:٤٣ـ٤٦.)

وأمّا وجه كون هذه الشجرة سبباً للفتنة، فهو ما روي أنّ أبا جهل قال:

زعم صاحبكم بأنّ نار جهنم تحرق الحجر، حيث قال:(وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)(البقرة:٢٤.) ثم يقول: بأنّ في النار شجراً والنار تأكل الشجر، فكيف تولّد فيها الشجر. (تفسير الرازي: ٢٠ / ٢٣٧.)

واعتُرض عليه أنّه ليس في القرآن لعن هذه الشجرة، فأجيب بوجوه متكلّفة:

١. المراد لعن الكفار الذين يأكلونها.

٢. العرب تقول لكلّ طعام مكروه ضار، أنّه ملعون.

٣. إنّ اللعن في أصل اللغة هو التبعيد، فلمّا كانت هذه الشجرة الملعونة في القرآن مبعدة عن جميع صفات الخير سمّيت ملعونة.

أقول: أنت ترى أنّ هذه الوجوه ليست إلاّ تفسيراً بالرأي.

أمّا الأوّل فلأنّ الظاهر أنّ نفس الشجرة التي يفتتن بها الناس ملعونة لا آكلوها.

وأمّا الثاني، أعني أنّ الوحي سمّى كل غذاء مكروه ملعوناً، فمعنى ذلك أنّه أُطلقت الشجرة وأريدت الثمرة مجازاً ثم جعلت ملعونة لكونها مكروهة ضارة، فهو من مقولة سبك مجاز عن مجاز، وهو بعيد عن مفاد الآية.

وأمّا الثالث، أعني كونها ملعونة لأجل أنّها مبعدة عن جميع صفات الخير، فمعنى ذلك أنّ جهنم وما أعدّ الله فيها من العذاب وملائكة النار وخزنتها ملعونون مبعدون عن الرحمة.

والقارئ الكريم جدّ عليم بأنّ هذه التوجيهات بعيدة عن بلاغة القرآن وأدبه، وإنّما ذكروها لأجل الفرار عن القول المقابل، وهو أنّ المراد من الشجرة الملعونة بنو أُميّة، وكونها ملعونة لما قام به هؤلاء من الظلم والاستئصال وقتل النفوس الطاهرة واغتصاب الحكم بأساليب البغي والمكر والخداع، والاجتهاد في نقض السنّة، وتغيير معالم الإسلام إلى غير ذلك من الجرائم والموبقات، وقد افتتن بهم كثير من الناس.

قال الشيخ محمد أبو زهرة المصريّ، معقّباً على ما روي من أنّ رسول الله رأى في منامه بني أُميّة ينزون على منبره:«إنّ ذلك يؤيده التاريخ، فقد صيّروا الحكم ملكاً عضوضاً، وذهبت الشورى، وقد قال الحسن(في المصدر: الحسن البصري، ولعلّه من سهو القلم، والصواب الحسن بن علي(عليهما السلام)، سبط رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).) في شأن بيعة معاوية:(وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ)(الأنبياء:١١١.).(زهرة التفاسير:٨/٤٤١١.)

وعلى هذا فالرؤيا كانت في مكّة وإن كان المرئيّ متحقّقاً في المدينة بعد رحلة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم).قال الرازي: وممّا يؤكد هذا القول قول عائشة لمروان: لعن الله أباك وأنت في صلبه، فأنت بعض من لعنه الله.(تفسير الرازي:٢٠/٢٣٧.)

أقول: وعن محمد بن زياد]القرشي[أنّ عائشة قالت: إنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) لعن أبا مروان، ومروان في صلبه، فمروان فَضضَ(فضض: قطعة.) من لعنة الله عزّ وجلّ .(المستدرك على الصحيحين:٤/٤٨١، وصحّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، لكنّه قال:«فيه ٢ انقطاع، محمد لم يسمع من عائشة»، مع أنّ روايته عنها موجودة في سنن النسائي. انظر: تهذيب الكمال:٢٥/٢١٨، الترجمة ٥٢٢٢.)

هذا، وينبغي الكلام في أمرين:

١. إطلاق الشجرة على العائلة.

٢. كون الشجرة ملعونة في القرآن.

أمّا الأوّل: فيكفي في ذلك ما ذكره السيد الطباطبائي بقوله: والشجرة كما تطلق على ذي الساق من النبات، كذلك تستعمل في الأصل الذي تطلع منه وتنشأ عليه فروع بالنَّسب أو بالاتّباع على أصل اعتقادي، قال في «لسان العرب» : ويقال: فلان من شجرة مباركة أي من أصل مبارك.(. لسان العرب: ٤/٣٩٨، مادة «شجر».)

وقد ورد ذلك في لسانه(صلى الله عليه وآله وسلم) كثيراً،كقوله:«أنا وعليّ من شجرة واحدة»، ومن هذا الباب قوله في حديث العباس:«عمّ الرجل صنو أبيه» والصنوان هما النخلتان تطلعان من عِرق واحد.(الميزان في تفسير القرآن:١٣/١٣٨.)

وورد في «لسان العرب» أيضاً: تقول: طوبى لفرع فلان وفلان من شجرة مباركة.(لسان العرب:٧/٣١١، مادة «سبط».)

وأمّا الثاني: فإنّه سبحانه قد لعن أصنافاً من الناس، ومنهم:

١. الكافرون، قال:(إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا)(الأحزاب:٦٤.)

٢. اليهود بالخصوص، قال: (فَبِما نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً)(المائدة:١٣.).

٣. الذين يؤذون الله ورسوله، قال:(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَ الآخِرَةِ).(الأحزاب:٥٧.)

٤. المنافقون، قال:(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا).(الفتح:٦.)

والذي يمكن أن يكون مصداقاً للشجرة الملعونة، هم المنافقون الذين آمنوا بلسانهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، أولئك الذين يصفهم الله سبحانه بقوله:(لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ)(التوبة:٤٨.).

الآية تحكي عن وجود شجرة خبيثة لها جذور وعروق وشعب وفروع تكون فتنة للناس، وسبباً للاختبار، وما ذُكر ينطبق على قوم من المنافقين المتظاهرين بالإسلام يتغلغلون في المجتمع الإسلامي إمّا بالنسل أو بالعقيدة. ويدلّ على ما ذكرنا الفقرات التالية:

١. قوله تعالى:(وَ إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ): أي إحاطة علمية مسيطراً عليهم، ويكون هذا تطييباً لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وتسلية له، لئلاّ يحزن كثيراً.

٢. قوله تعالى:(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا التي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ): أي ما رآه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يكون اختباراً للمسلمين، بين تابع خاسر، وبين مدبر عنه.

٣. قوله تعالى: (وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا): أي لا يزيد تخويفنا المفتونين إلاّ تمادياً في الطغيان وإفراطاً في الظلم والعدوان لأجل عنادهم وإصرارهم على بلوغ مآربهم الشّريرة.

وهذه الفقرات الثلاث تؤيّد أنّ المراد من الشجرة جماعة تظهر بعد رحيل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) يصيرون مبدأً ومنشأً لهذه الأُمور، وأنّ تطبيق هذه القيود على شجرة الزقّوم التي استهزأ بها أبو جهل وأقرانه، دون أن يكون للفتنة استمرار حتى يكون التخويف سبباً للطغيان، بعيد عن سياق الآية.

هذا ما يعطيه ظاهر الآية، وأمّا بالنظر إلى الروايات، فالآية أكثر انطباقاً على حكم الأمويين الذي استمرّ قرابة قرن واحد، يقول السيد الآلوسي في تفسيره: ومعنى قوله:(وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا التِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ)على حذف مضاف: أي وما جعلنا تعبير الرؤيا، أو (الرُّؤْيَا) فيه مجاز عن تعبيرها، ومعنى جعل ذلك فتنة للناس، جعله بلاء لهم ومختبراً، وبذلك فسّره ابن المسيّب... إلى أن قال: إنّ المراد بها بنو أُميّة، ولعنهم لما صدر منهم من استباحة الدماء المعصومة والفروج المحصنة وأخذ الأموال من غير حلّها ومنع الحقوق عن أهلها وتبديل الأحكام، والحكم بغير ما أنزل الله على نبيّه (عليه الصلاة والسلام) إلى غير ذلك من القبائح العظام، والمخازي الجسام، التي لا تكاد تنسى مادامت الليالي والأيام.(روح المعاني:١٥/١٠٧.)

الآيات ٦١ ـ ٦٥ (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ ... وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً).

الآيات: الحادية والستون إلى الخامسة والستين

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً).

المفردات

أرأيتك: مركب من همزة استفهام وفعل «رأى» الذي هو بمعنى علم، و«تاء» الخطاب، والغاية من إلحاق «التاء» التأكيد. ثم يزاد على ضمير الخطاب كاف خطاب تُشبه ضمير الخطاب نظير قوله:(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ)(الأنعام:٤٠.)، والغاية من إضافة كاف الخطاب تعيين المخاطب من حيث كونه واحداً أو متعدداً.

لأحتنكنّ: لأقودنّ، مأخوذ من تحنيك الدابة، إذا وضع الحبل أو اللّجام في حَنَكها يقودها به.

قال الشريف الرضي: الاحتناك هاهنا افتعال من الحَنَك، أي لأقودنّهم إلى المعاصي كما تُقاد الدابّة بحَنَكها غير ممتنعة على قائدها، وهو عبارة عن الاستيلاء عليهم والمَلَكة (المُكنة) لتصريفهم كما يملك الفارس تصريف فرسه، يثني العنان تارة، ويكبح اللجام مرّة.(تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٠٠.)

موفوراً: الموفور: المكمَّل، التامّ.

استفزز: الاستفزاز: الاستنهاض على خفّة وإسراع.

أَجلِب: الإجلاب: جمع الجيش وسَوقه. مشتقّ من الجَلَبَة وهي الصياح، لأنّ قائد الجيش إذا أراد جمع الجيش صاح بهم للنفير. أي صحْ بخيلك ورجلك للنَّفْر إلى ما شئت. ويحتمل أن يكون «اجلب» متضمناً معنى الغزو: أي اغز بخيلك ورجلك.

بخيلك: الخيل: اسم جمع للفرس، والمراد هنا الفرسان.

ورَجِلِك: الرَّجِل: جمع راجِل، كرَكْب وراكب، وشرْب وشارب، وهو من يمشي على رجليه إلى غايته، سواء في قتال أم غيره.

غروراً: الغُرور: تزيين الباطل بما يُظن أنّه حقّ.

وكيلاً: الوكيل: الحافظ والرقيب.

التفسير

تحدّث سبحانه عن قصة آدم في سبع سور: البقرة، الأعراف، الحجر، الإسراء، الكهف، طه، ص، وقد تحدّث في كلّ هذه السور لأغراض مختلفة، وسيأتي وجه ذكر قصته في المقام.

٦١. (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِادَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا):

قوله:(إِذْ) متعلق بمحذوف، أي اذكر ربك إذ قال:(لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِادَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ)، ولمّا كان هنا مظنّة سؤال: لماذا لم يسجد؟ جاءت الفقرة التالية مبيّنة للسبب، فقال: (أَأَسْجُدُ) الاستفهام هنا استفهام إنكاري (لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا)؟ فقوله: (طِينًا) منصوب بنزع الخافض أي من طين. ويحتمل أن يكون حالاً من الموصول أي «الذي»، والمعنى: كيف أسجد له وأنا أفضل منه؟

وظاهر الاستثناء أنّ إبليس من الملائكة، ولكن دلّت الآيات الصريحة على أنّه لم يكن منهم بل كان من الجنّ، كقوله تعالى:(إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ)(الكهف:٥٠). ثم إنّ إبليس استهان بالطين والتراب، ومن ثمّ استهان بآدم، غير أنّه غفل أو تغافل عن أنّ التراب مبدأ النبات والحياة، وأنّ قوام الحياة على البسيطة من التراب المستعدّ للنمو والإنبات.

على أنّ الافتخار أو الاستهانة بالأصل من عمل النّوكى، بل يجب أن يلاحظ ما هو الحاصل من التراب، وهذا هو الإنسان خلق من ماء دافق ولكن وصل إلى مقام كرّمه سبحانه وفضله كما سيأتي في نفس السورة.

ثمّ إنّ مناسبة ذكر قصة آدم في المقام، هي لوجود الصلة بين الشجرة الملعونة وإبليس، من حيث إنّ كلاًّ منهما سبب للافتتان والاختبار، ومن ثمّ سبب لإضلال الناس إلاّ من أخلص لله تعالى منهم وثبت على إيمانه.

إيعاد إبليس ذرية آدم

٦٢. (قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَاحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً):

الآية تدلّ على أنّ إبليس حلف أن يغوي ذرّية آدم، وهذا يكشف عن أنّ إبليس لأجل تركه السجود لآدم، صار من المرجومين، وشمله غضب الله تعالى، فلذلك حلف أن يغوي ذرّية آدم إلى يوم القيامة كردّة فعل لطرده من رحمته تعالى، ولذلك قال: (أَرَأَيْتَكَ): أي أعلمتَ يا الله أنّ(هَذَا الذِي)يعني آدم، ولم يذكر اسمه تحقيراً (كَرَّمْتَ عَلَيَّ) فضّلته عليّ، وصار نتيجة ذلك ما يقول:(لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَاحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ): أي أُسيطر عليهم كما يسيطر الراكب على دابّته إذا وضع الحبل في حَنَكها وقادها به، والمعنى:لأقودنّهم إلى المعاصي(بتزيينها لهم) كما تقاد الدابّة بحَنَكها (إِلاَّ قَلِيلاً) منهم، أي من ذرّية آدم، وهم عباد الله المخلَصون.

٦٣. (قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا):

لمّا سأل إبليس التأخير إلى يوم القيامة، أجاب سبحانه سؤاله بقوله: (اذْهَبْ): أي افعلْ ما شئت ممّا نويته، فإنّه لا يضرّني (فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ)واقتفى أثرك، فمصيره كمصيرك، وهو (فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ) من القائد والمقود والتابع والمتبوع (جَزَاءً مَوْفُورًا): أي جزاء تامّاً غير منقوص.

٦٤. (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا):

لمّا خاطب سبحانه إبليس في الآية المتقدّمة بقوله:(اذْهَبْ) وجعله مطلق العنان، تحدّث في هذه الآية عن أنواع الحيل التي يمكن أن يستخدمها إبليس، وهي أُمور أربعة:

١. (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ): أي أنهِض من استطعت منهم بدعائك ووسوستك. وربّما يفسَّر بالغناء والمزامير والملاهي، والجميع من مصاديق مطلق الصوت.

قال الشريف الرضيّ: وجعل الملاهي والمغاني صوتاً له، من حيث كان الداعي إليه والحامل عليه، وهذا التفسير أفضل من تفسير

الصوت بالوساوس الخفيّة. (انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن:١٠١.)

٢. (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ): أي واجمعْ عليهم بعامة جيشك فرساناً ومشاة، أي كلّ أعوانك وذرّيتك على إغوائهم. إنّ الراعي إذا أراد جمع أغنامه يصيح عليها بنحو خاص، وعلى هذا فالمراد: صحْ بفرسانك (بِخَيْلِكَ) ومُشاتك (وَرَجِلِكَ)للاجتماع على إضلال الناس. ويحتمل تضمُّن الفعل معنى «الغزو»: أي اغزُ بخيلك ورجلك بني آدم. وعلى هذا «فالباء» للتعدية.

وهذه الفقرة ـ كسابقتها ـ تدخل في باب المجاز. قال الشريف الرضيّ:

لا اعتبار بقول من قال إنّ لإبليس على الحقيقة خيلاً ورَجِلاً يبعثهم على الناس، لأنّه لا سلطان له ولا لأحزابه من الشياطين علينا إلاّ بالدعاء والوسوسة، ولو كان له خيل ورَجِل يكافحنا بهم ويلقانا بجمعهم لوجب أن نحسّ بوقائعهم، ونألم (لقوارعهم). (انظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١٣٥.)

تفسير مشاركة إبليس في الأموال والأولاد

٣. (وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ).

ولعلّ المشاركة في الأموال كناية عن كلّ مال يؤخذ من غير حقّ، كالسَّلب والنَّهب والرِّبا والغُشّ وثمن الخيانة، أو كلّ مال يُنفق في غير وجهه كالإسراف وفي الخمر والميسر، أي ادعهم بندائك وخيلك ورجلك إلى تحصيل الأموال بطرق محرَّمة، وأمّا المشاركة في الأولاد فهي كناية عن الزّنا.

٤. (وَعِدْهُمْ) بالتغرير، كأن يقول لهم: لا تخف من المعصية، فإنّ الله كريم وغفّار.

ثمّ يعقّب الله تعالى بقوله:(وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا): أي وعداً خاوياً ليس له حقيقة.

ولقد حفل التاريخ بعدّة وعود خاوية للشيطان غرّ بها محبّي السلطة وأوردهم النار، ومن هذه النماذج، قضية عمر بن سعد في واقعة الطفّ، حيث عزم على قتال سبط نبيّه الذي يعلم أنّ في قتله دخول النار، ولكن رغبته في ملك الرَّيّ صارت سبباً لاغتراره، وكأن الشيطان يَعِده وينطق بلسانه حين يقول:

دعاني عُبيدُ الله من دون قومه *** إلى خطّة فيها خرجتُ لِحَيني
فوالله لا أدري وإنّي لَواقفٌ *** أُفكّر في أمري على خَطَرَين
أأترك مُلكَ الرَّيِّ والرَّيّ رغبة *** أمَ ارجِعُ مذموماً بقتل حسينِ
وفي قتله النارُ التي ليس دونها *** حجابٌ، ومُلك الرَّي قرّةُ عَينِ[1]

[1] كتاب الفتوح لابن أعثم:١٧٣/٥؛ أعيان الشيعة:٥٩٨/١؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير:٥٣/٤(وفيه البيتان الأخيران فقط).

نظر كيف زيّن له الشيطان حبَّ الدنيا والرئاسة حتى استحوذ عليه، فلم يكترث لمصيره، وهو يعلم أنّ مأواه، إذا قتل الحسين، النار، وبئس المصير.

تحليل أساليب الشيطان

بقي الكلام في تحليل أساليب الشيطان لإغواء الناس والتي أخبر عنها سبحانه، وربما يتصوَّر أنّ إبليس يقوم بها بنفسه أو بذرّيته، لكن من المحتمل جدّاً أنّه يقوم بذلك عن طريق أعوانه من البشر، فيمكن تفسير هذه الأساليب الأربعة عن هذا الطريق أيضاً دون الاقتصار على دور إبليس وذرّيته على الإغواء وإعمال الأساليب الإغرائيّة لإضلال العباد مباشرة، بل مباشرة وتسبيباً.

الأسلوب الأوّل: الاستنهاض بالصوت، كما قال تعالى:(وَاسْتَفْزِز)وفُسّر بالأغاني وإعمال آلات اللّهو، وقد قلنا إنّ الشيطان يقوم بالإغواء بالتسبيب، وقد يشمل هذا وسائل الإعلام الصوتية والبصرية، التي تستخدمها الدول الاستكبارية والمؤسسات التي تخدم

أهدافها للسيطرة على الشرق من خلال بثّ الأكاذيب، والأفكار الهدّامة، والخطاب الذي يفرّق ويشتّت أبناء المجتمع ويُذكي الصراع بينهم، وعرض الأفلام الماجنة، والأغاني الساقطة ولإغواء أهله وتجريدهم من المثل الأخلاقية.

الأسلوب الثاني: الاستعانة بالقوّة العسكرية أعني: خيله ورجله، فإبليس يستعين بهما لسوق الناس إلى ما يريد.

ويمكن تطبيق الآية على ما تقوم به الدول الاستكبارية، فإنّهم لأجل السيطرة على ما في الشرق من منابع حياتية واقتصادية يجمعون قواهم للسيطرة، ولذلك نرى أنّ لكلّ دولة استعمارية جيشاً مستعدّاً للنهوض لمجرد صدور أمر من القائد يدعوهم إلى النهوض.

الأسلوب الثالث: التدخّل في البنية الاقتصادية والاجتماعية، قال تعالى عن الوجه الأوّل:(وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ) وقد فُسّر بالرّبا والمعاملات المحرّمة، فهو يُنهض ذرّية آدم للارتزاق منها، غير أنّ لهذا الأسلوب مظهراً آخر لأنصار الشيطان في مجتمعنا، وهو إيجاد شركات عمرانية واقتصادية بذريعة تنمية الاقتصاد للدول النامية، ولكنّها في الحقيقة سبب لامتصاص خيرات الشعوب والبلاد تحت هذا الغطاء. وأمّا الاجتماعية فهو المشاركة في الأولاد وقد فُسّر بالزّنا، ولعلّ من هذا الأسلوب هو ما يقوم به الغرب من تأسيس منظمات إنسانية وثقافية في الشرق، ولكنّه في الحقيقة أسلوب لتهويدهم أو تنصيرهم أو تجريدهم من المُثل والأخلاق ومن الإرادة القويّة، ليتحوّلوا إلى قطيع يسهل سَوْقه.

الأسلوب الرابع: وهو قوله:(وَعِدْهُمْ) وفُسّر بالتغرير، حيث يوسوس في نفس الإنسان بأنّ الله غفور رحيم، يغفر لك ما ترتكب من المعاصي، ولكنْ له مظهر آخر من أعوان الشيطان في بلادنا وهو الوعود لرفع مستوى الاقتصاد، والتقدّم العلمي، ولكنّها ليست سوى وعود خاوية لا ثمرة لها على أرض الواقع.

٦٥. (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً):

إنّه سبحانه وإنْ بيّن الأساليب الشيطانية لإغواء الناس، ولكنّه سبحانه تقوية لقلوب المؤمنين يخبرهم بأنّه ليس للشيطان سبيل على عباده، كما يقول:(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ): أي قدرة تجبرهم بها على اتّباعك، فلست تملك إلاّ الوسوسة بالباطل، والإغراء بالفساد(وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً)حافظاً لعباده الذين لا يستسلمون لإغوائك، والباء زائدة.فهم في ظل اعتقادهم بالله سبحانه ووعده ووعيده لا ينهضون بانهاضك ولا ينزعجون بإزعاجك، ويبقون صامدين أمام مشاتك وفرسانك، فيحلّون ما أحلّ الله ويحرّمون ما حرّم الله، فلا تستطيع مشاركتهم في الأموال والأولاد، ولا إغراءهم بمواعيدك الخاوية، فعدم سبيلك عليهم أمر مستمر إلى يوم القيامة.

الآيات ٦٦ ـ ٦٩ (رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ... أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً

الآيات: السادسة والستون إلى التاسعة والستين

(رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا * أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً * أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا).

المفردات

يُزجي: يُجري ويسيّر بسهولة.

حاصباً: ريحاً تحمل الحصباء وترميها. والحصباء: الحصى الصِّغار.

قاصفاً: القاصف: الكاسر بشدّة.

والفرق بين عاصف وقاصف بأنّ القاصف لا يهلك السفن إلاّ وهي عاصفة. والعاصفة قد تسلم منها السفن فلا تهلكها، فكأنّه قال قاصفاً مهلكها من الريح، فاجتمع في الأوّل وصفان، وفي الثاني وصف واحد.(المصابيح في تفسير القرآن: ٦٧٧.)

تَبيعاً: مُطالِباً.

التفسير

وجه صلة الآية بما قبلها

لمّا تقدّم قوله سبحانه في حقّ المشركين:(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً)(الإسراء:٥٦.) جاء البيان القرآني ليبيّن نموذجاً من ذلك، حيث إنّ ركّاب البحر عندما تشتدّ الرياح العاصفة التي تدفع سفينتهم من جانب إلى جانب، يحسّون في صميم ذاتهم أن آلهتهم المكذوبة لا تكشف عنهم الضُرّ، ولذلك تستيقظ فطرتهم فيتوجّهون إلى كاشف الضُّرّ حقيقة، وهو الله سبحانه.

وأمّا وجه صلة الآية بما قبلها، فلأجل أنّه تقدّم في الآيات السابقة ذكر إبليس وأنّه وذرّيته يفتن الناس، فيدعوهم إلى عبادة الأصنام والأوثان، فجاء البيان القرآني لنقد تلك الفكرة وذلك عن طريق الوجدان ومخاطبة الإنسان من الداخل، فيذكر أوّلاً النِّعمة العظيمة التي أنعم الله سبحانه بها على عباده، وهو البحر كما يقول:

٦٦. (رَبُّكُمُ الذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا):

ابتدأ سبحانه هذه الآية بالربّ مشعراً بأنّ ما يأتي من آثار الربّ الذي هو المدبّر في البرّ والبحر، والخطاب لجماعة المشركين، وأنّ (رَبُّكُمُ) هو (الذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ): أي يجري لكم السفن، وذلك بفضل أمرين:

١. جعل الماء على وجه يمكن معه جري السفن فيه واستقرارها فوقه، وذلك أنّ الشكل الذي تُصمّم عليه السفينة يكون بحيث تطفو على سطح الماء ولا تغرق.

٢. خلق الـرياح التي هي المحرّكة للسفن في العصور السابقة قبل استخدام الإنسان البخار والغاز، فتلك نعمة، والغاية من هذا قوله سبحانه:(لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)، فيما يخصّ أُمور دنياكم ودينكم، فإنّ للسفن دوراً عظيماً في نقل ما يحتاج إليه الإنسان من قارّة إلى أُخرى، من غير فرق بين العصر الحاضر والغابر. وكلّ ذلك من مظاهر رحمته كما يقول:(إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)ولو ارتفعت مظاهر رحمته لضاقت الحياة على البشر جميعاً.

٦٧. (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا):

كان المترقّب من الإنسان الذي تفضّل الله عليه بهذه النعمة الكبرى أن يتوجّه إليه في الشدّة والرخاء، ولكنّه ـ يا للأسف ـ أخذ يعبد الأصنام في وقت الرخاء ويعبد الله في أوقات الضُّرّ والشدّة، كما يقول:(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ): أي سوء الحال وخوف الغرق (ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ): أي نُسِيَ من تدعون وغاب عنكم ذكر كلّ معبود (إِلاَّ إِيَّاهُ)فلا ترجون النجاة إلاّ من عند الله فتدعونه ولا تدعون غيره. وتلك خصيصة الإنسان لأنّه بالفطرة موحِّدٌ خالقاً ومدبّراً، غير أنّ العوارض والدعاوى الكاذبة ربّما تُلقي السِّتر على فطرته فينسى ما تحكم به الفطرة، وحينما تواجهه الشدّة تُظهر الفطرة نفسها من بين الأستار، ثمّ إذا انكشف عنه الضُّرّ عادت الأستار على الفطرة فينسى الله تعالى ويعبد الأوثان والأصنام كما يقول:(فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ)وآمنكم من الغرق (أَعْرَضْتُمْ) عن الإيمان بالله وصرتم كفّاراً للنعمة كما يقول:(وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا): أي كثير جحود النِّعمة.

إصابة الضُّرّ في البرّ

٦٨. (أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً):

قلنا إنّ الله سبحانه يخاطب الإنسان في داخله ويُنهض وجدانه، فإنّ هؤلاء يتصوّرون أنّ الضُّرّ ينحصر في الغرق في البحر وأنّهم لو نزلوا البرّ لأمنوا من كلّ شرّ وضرّ، ولكنّهم غفلوا عن أنّ البرّ كالبحر، فإنّهم غير آمنين من البلاء في البرّ أيضاً بنحوين:

١. أن يخسف الله بهم الأرض ويغيّبهم في أعماقها، كما يشير إليه قوله:(أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ)؟ فالخروج من البحر إلى البرّ لا يلازم الأمن، والنجاة من الأخطار.

٢. أن يسلّط عليهم ريحاً تحمل الحصى الصِّغار فيهلكهم بها، كما يشير إليه قوله: (أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا)فيكون أشدّ عليكم من الغرق (ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً): أي حافظاً يحفظكم من بطش الله، ودافعاً عنكم.

وعلى كلّ تقدير فالإنسان محاط بالبلاء في البحر والبرّ، والحافظ هو الله سبحانه، والتفريق بين البحر بالإنابة إلى الله فيه، والبرّ بالرجوع إلى الشرك ناتج عن الجهل، فالإنسان المؤمن يتوجّه إلى الله في كلتا الحالتين.

٦٩. (أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا):

أي كيف أمِنتم بعد نزولكم في البرّ من الانتقام الإلهي مع أنّه يمكن أن تدعوكم الحاجة إلى الرجوع إلى البحر؟ كما يقول:(أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ): أي في البحر (تَارَةً أُخْرى) وعندئذ لا ينفع دعاؤكم ورجوعكم إلى الله لأنّكم كفرتم بعد الإيمان: (فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ): أي ريحاً شديدةً كاسرة للسفينة (فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ)بنعم الله (ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا)والتبيع هو من يطالب بالدماء، أي ولكن لا يكون هناك من يطالب بدمائكم المراقة، ويأخذ لكم بالثأر لعجزه عن ذلك، فإنّه تعالى (لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)(الأنبياء:٢٣).

ترى أنّه سبحانه يستنطق وجدان الكافر ويوقظ روحه وفكره ويرشده إلى السبيل الحقّ، ويبطل سبيله الذي يسير عليه على نحو لا يثير ثائرته، بل يعتنق الحقّ إذا كان راغباً فيه.

بقي هنا كلام، وهو أنّ المادّيّين إذا درسوا سبب وجود الاعتقاد بالله سبحانه في الأُمم الغابرة واللاّحقة ربّما يجعلون الخوف من الشرور والآفات سبباً لوجود الاعتقاد عند الإنسان حتى يتفيّأ ظلالَه ويأمن من لقاء هذه الشرور، ثم يستنتجون منه بأنّه ليس للاعتقاد بالعوالم غير الطبيعية أيُّ جذور في خلقة الإنسان، وإنّما طرأ هذا النوع من الاعتقاد لأجل هذه العارضة.

لكنّ هذا المادّيّ غفل أو تغافل عن أنّ الاعتقاد بتعلّق الصنع بصانع عالم قدير، مركوز في فطرة الإنسان وصميم ذاته، غير أنّ استغراقه في الأُمور المادّية وانشغاله بآماله الخادعة، يوجد سِتراً على الفطرة، فإذا سارت الحياة على وفق مراد الإنسان ورغباته يغفل عن تلك الفطرة، وعندما ينزل به البلاء ويتعرّض للأخطار التي تهدّد استمرار حياته، انكشف عن وجه الفطرة ذلك السِّتر، وظهر ما في صميم ذاته من الإيمان بالله تعالى.

الآيات ٧٠ ـ ٧٢ (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ... فَهُوَ فِي الاْخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً).

الآيات: السبعون إلى الثانية والسبعين

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِير مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً * يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاس بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً * وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الاْخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً).

المفردات

كرّمنا: التكريم: تخصيص الشيء بالعناية وتشريفه بما يختصّ به ولا يوجد في غيره.

فضّلنا: التفضيل: تخصيص الشيء بزيادة العطاء بالنسبة إلى غيره مع اشتراكهما في أصل العطيّة.

بإمامهم: الإمام: مَن يُقتدى به .

فتيلاً: الفتيل: الخيط المستطيل في شِقّ نواة التمر، ويضرب به المثل في الشيء الحقير التافه، ومثله النَّقير والقِطمير.

أعمى: أي أعمى بصيرة لا بصراً.

التفسير

تكريم بني آدم وتفضيله على كثير من المخلوقات

٧٠. (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً):

لقد منّ الله سبحانه على بني آدم من حيث هم بخمس مِنَن:

١. التكريم.

٢. تسخير المراكب في البرّ.

٣. تسخير المراكب في البحر.

٤. الرزق من الطيِّبات.

٥. التفضيل على كثير من المخلوقات.

وإليك دراسة كلّ واحدة منها تباعاً:

أمّا الأُولى: فقد قال سبحانه:(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)، وقد سبق منا في تفسير المفردات أنّ التكريم أمر نفسي وهو جعله شريفاً ذا كرامة خاصّة لا يتعدّى إلى غيره، وأريد به في الآية تكريمه بالعقل الذي يميّز به الخير من الشرّ، والنافع من الضارّ، والحَسَن من القبيح، وتتفرّع عليه مواهب أُخرى كالتسلّط على غيره واستخدامه في سبيل مقاصده وإبراز ما في ذهنه بالنطق والخطّ وغيرهما.

والحاصل: كلّ ما يترتّب على العقل من الكمالات النفسانية وما يترتّب عليها من الأُمور التي تُعدّ حضارة وتقدّماً في الحياة، ولن يقف ذلك التقدّم عند حدّ، بل الإنسان يسعى عبر الزمان لتطوير حياته.

وأمّا التفضيل، فسيوافيك أنّه أمر إضافيّ، بمعنى أنّ الإنسان يشارك غيره في أصل العطيّة، ولكنْ فُضِّل على غيره بشيء من الزيادة.

هذا ما اختاره صاحب الميزان(لاحظ : الميزان في تفسير القرآن: ١٥٦/١٣ـ ١٥٨.)، وذكر المفسرون هنا أقوالاً واحتمالات سنتعرض لذكرها بعد الفراغ من تفسير الآية.

وأمّا الثانية، فقوله: (وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ) فقد سخّر لهم الرَّواحل وألهمهم استعمالها.

وأمّا الثالثة، فقوله:(وَالْبَحْرِ): أي تسخير المراكب في البحر، فقد هدى الله الإنسان، بما منحه من قدرة على التفكير، إلى صنعها منذ أن أمر نوحاً(عليه السلام)بصنع الفُلك، حيث تطفو على سطح الماء دون أن ترسب فيه وتسقط إلى أعماقه،بسبب السُّنن التي وضعها سبحانه في الفُلك وفي الماء الذي جعل طبيعته وخواصه على نحو يحمل الفُلك وتجري فوقه.

فالانتفاع بالرواحل البرّية والبحرية والسيطرة عليها من نتائج العقل وشؤونه، ويُعدّ نوع تَوضيح للتكريم، وهذا هو الإنسان الذي يقود، بفكره، المواشي في البرّ والسُّفُن في البحر.

وأمّا الرابعة، فقد قال تعالى: (وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ)، فالله سبحانه ألهم الإنسان أن يَطعَم ما يشاء ممّا يروق له من اللّحوم

والفواكه والخضروات، بخلاف الحيوان فإنّه لا يأكل إلاّ ما اعتاده.

وأمّا الخامسة، أعني التفضيل فقد عرفت أنّه أمر إضافيّ، بمعنى أنّ الإنسان يشارك غيره في أصل العطيّة بزيادة له منها، وذلك أنّ الحيوان يتغذّى بما وجده من لحم أو فاكهة أو حَبّ أو عُشب ونحو ذلك على وجه ساذج، والإنسان يتغذّى على ذلك ويزيد عليه بما يجده من أنواع الغذاء المطبوخ وغير المطبوخ على أنحاء مختلفة وفنون مبتكرة وطعوم مستطابة لذيذة لا تكاد تحصى ولا تزال تزداد نوعاً وصنفاً، وقِسْ على ذلك الحال في مَشربه ومَسكنه ونكاحه وغير ذلك.(الميزان في تفسير القرآن:١٣/١٥٨.)

إلى هنا تمّ الكلام حول المِنَن الخمس المذكورة في الآية.

بقي الكلام في قوله:(وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً) فقد يتبادر منه أنّ الله سبحانه خلق خلقاً أفضل من الإنسان لأنّه سبحانه يقول: (وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا) فيكون غير الكثير أفضل من الإنسان وهم الملائكة، فعند ذلك يطرح هذا الموضوع: هل الملائكة أفضل من الإنسان أو لا؟ قولان، ولكلٍّ منهما دلائل وآراء.

ولكنّ الظاهر أنّ الآية ليست بصدد بيان هذا المعنى، أي تفضيل الإنسان على كلّ مَنْ خلقه سبحانه أرضياً كان أم سماوياً، ومادّياً كان أم نورانياً، أي ليست بصدد بيان الأفضل فالأفضل عند الله، والأقرب إليه. يُعلم ذلك ببيان أمرين:

١. أنّ محور البحث عبارة عن الإنسان ومن يخضع لقوانين النظام الحاكم على عالم المادّة من الحيوان والجنّ، وأمّا الملائكة فهم خارجون عن محلّ الكلام، لأنّها موجودات نورانية لا صلة لها بمن يعيش على الأرض.

٢. أنّ ملاك التفضيل هو النّعم التي أنعم بها الله على تلك الموجودات، فالله سبحانه كرّم الإنسان بنعمة العقل وما يترتّب عليه وحرم الآخرين منه، وشاركه في قسم من المطعومات مع الحيوانات، ولكنّه فضّله في هذا العطاء على غيره. وعلى هذا يكون المراد من الكثير هو أنواع الحيوان والجنّ، فالإنسان كُرّم عليهم نفسياً، وفضّل عليهم بالإضافة إلى العطاء المشترك.

وبهذا يظهر أنّ البحث عن أفضلية الإنسان على المَلك أو بالعكس، خارج عن مفاد الآية، ولا صلة له بمفادها.(الميزان في تفسير القرآن:١٣/١٥٧ـ١٥٨، بتلخيص وتصرّف.)

وحاصل الآية: إنّه سبحانه خصّ الإنسان بتكرمة دون غيره، وهي العقل وما يتفرّع عليه، وفضّله على الموجودات الكونية أعني سائر الحيوانات والجنّ تفضيلاً، بمعنى أنّ الإنسان شارك الجميع في ما أُفيض عليهم من النّعم الإلهية، وفُضِّل بشيء عليهم، فمحور البحث هو الموجودات الكونية المذكورة، وملاك التفضيل النّعم التي أوتيها الجميع، فالإنسان فُضِّل من بين الجميع على كثير منهم.

أقوال المفسّرين حول الآية

ثمّ إنّ للمفسّرين حول التكريم أوّلاً، والتفضيل ثانياً، أقوالاً نشير إلى بعضها:

١. ما روي عن ابن عباس في تفسير الآية، قال: كلّ شيء يأكل بفيه إلاّ ابن آدم فإنّه يأكل بيديه.

ويلاحظ عليه مضافاً إلى أنّ هذا من فروع العقل، بأنّ القردة تأكل بيديها، كما أنّ تفسير الآية بما ذُكر بعيد عن بلاغة القرآن.

٢. ما روي عن الضحاك بالنطق والتمييز ولا يخفى أنّه من شُعب العقل، فإنّ الإنسان بنطقه يُعرب عمّا في ضميره من الأفكار.

٣. فُسّر بامتداد القامة، وهو مروي عن عطاء، وهو سخيف جدّاً، لأنّ الأشجار أطول من قامة الإنسان.

٤. فُسّر بحسن الصورة، مستدلين بقوله تعالى:(وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ)(غافر:٦٤.). وقوله: (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)(المؤمنون:١٤.).

ولا يخفى أنّه بعيد عن بلاغة القرآن.

٥. قال بعضهم أنّ من كرامات الآدميّ أن أعطاه الله تعالى الخطّ. وفيه أنّه من شؤون العقل ومن فروعه.

٦. أنّ أجسام هذا العالم إمّا بسائط أو مركّبات، أمّا البسائط فهي الأرض والماء والهواء والنار، والإنسان ينتفع بكلّ هذه الأربع ؛ وأمّا المركّبات فهي إمّا الآثار العلوية وإمّا المعادن والنباتات، فهذا العالم بأسره جار مجرى قرية معمورة وجميع منافعها ومصالحها مصروفة إلى الإنسان، والإنسان فيها كالرئيس المخدوم، والملك المطاع، وسائر الحيوانات بالنسبة إليه كالعبيد. وكلّ ذلك يدلّ على كونه مخصوصاً من عند الله بمزيد التكريم والتفضيل.(تفسير الرازي:٢١/١٤.)

وهناك وجوه أُخرى لم نذكرها، ولا يخفى أنّ قسماً منها يرجع إلى العقل وليس شيئاً مستقلاً، وقد أنهى الرازي تلك الوجوه إلى أحد عشر وجهاً، فمن أراد فليرجع إليه.

هذه أقوالهم حول التكريم، وأمّا التفضيل، فقد قال فيه الرازي: لابدّ من الفرق بين هذا التكريم والتفضيل وإلاّ لزم التكرار، والأقرب أن يقال: إنّه تعالى فضّل الإنسان على سائر الحيوانات بأُمور خلقية طبيعية ذاتية مثل العقل والنطق والخطّ والصورة الحسنة والقامة المديدة، ثم إنّه تعالى عرضه بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقّة والأخلاق الفاضلة، فالأوّل هو التكريم، والثاني هو التفضيل.(تفسير الرازي:٢١/١٦.)

ولا يخفى أنّ قسماً منها يرجع إلى التكريم.

تأثير القيادة في الدعوة يوم القيامة

٧١. (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاس بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً):

أُريد من اليوم يوم القيامة وصلة الآية بما قبلها، واضحة لأنّ الموضوع فيما سبق هو التهديد بعاجل العذاب في الدنيا في البرّ والبحر، وأمّا الموضوع في هذه الآية فهو التهديد بعذاب يوم القيامة، وأُريد من الإمام: المُقتدى به، من غير فرق بين كونه إمام هدىً أو إمام ضلالة. نعم استُعمل الإمام في الكتاب الكريم، كقوله سبحانه:(وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً)(هود:١٧.) حتى سُمّي اللوح المحفوظ إماماً، قال سبحانه: (وَكُلَّ شَيْء أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَام مُبِين)(يس:١٢.) ومع ذلك، أُريد بالإمام في آيتنا هو المُقتدى به لا الكتاب، وذلك لأنّ أوّل الكتب السماوية المشتملة على شريعة هو كتاب نوح ولم ينزل قبله كتاب في هذا الشأن، فلو أُريد بالإمام الكتاب يلزم خروج من كان قبل نوح(عليه السلام) حيث لم يكن لهم كتاب حتى يدعون به.

ثمّ إنّ الدليل على أنّ المراد بالإمام هو أعمّ من أن يكون إمام هدىً أو ضلال، هو ما يأتي فيما بعد من تقسيم الناس إلى قسمين: (مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) ومن أُوتي كتابه بشماله، ثمّ إنّ القسم الثاني وإن لم يذكر في آيتنا لكنّه مذكور في سورة الحاقة، قال تعالى:(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ)(الحاقة:٢٥.)، ولعلّه ترك ذكره في المقام لأجل ما يأتي من حديث عميان القلوب الذين هم ممن يؤتَون كتبهم بشمائلهم.

على أنّه سبحانه يذكر فرعون، وأنّه يقدم قومه يوم القيامة مثل ما كان في هذه الدنيا، ويقول: (يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ)(هود:٩٨.). فهو الإمام في الدنيا والآخرة للفراعنة

ثمّ إنّ في معنى الدعوة في الآية احتمالين:

١. أُريد المعنى اللغويّ، بأن يقال: يا أُمّة إبراهيم، يا أمّة موسى، يا أُمّة محمد، وهكذا.

٢. أُريد الإحضار، فيحضرون بإمامهم ثم يأخذ من اقتدى بإمام حقٍّ كتابَه بيمينه، كما يقول:(فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ وَلاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)، ويؤيّده ما رواه محمد بن مسعود العيّاشي عن إسماعيل بن همّام، قال: قال الرضا(عليه السلام) في قول الله: (يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاس بِإِمَامِهِمْ)، قال: «إذا كان يوم القيامة قال الله عزّ وجلّ: أليس عدلٌ من ربّكم أن نولّي كلّ قوم من تولّوا؟ قالوا: بلى، قال: فيقول: تميّزوا، فيتميّزون».(تفسير العيّاشي: ٣/٦٦ (وفيه: تَولّوا بدل نولّي)؛ بحار الأنوار:٨/١٤، برقم ١٧.)

ويظهر من بعض المفسّرين أنّ الدعوة بمعناها اللغوي، وفائدة ندائهم بمتبوعيهم التعجيل بالمسرّة لأتباع الهداة، وبالمساءة لأتباع الغواة لأنّهم إذا دُعوا بذلك رأوا متبوعيهم في المقامات المناسبة لهم فعلموا مصيرهم.(التحرير والتنوير:١٣٣/١٤.)

ويظهر من بعض الروايات أنّ للقيادة أثراً في الدنيا وأثراً في الآخرة، قال الطبرسي: روي عن الصادق(عليه السلام) أنّه قال:«ألا تحمدون الله؟ إذا كان يوم القيامة، فدعا كلَّ قوم إلى من يتولّونه، ودعانا إلى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، وفزعتم إلينا، فإلى أين ترَون يذهب بكم؟ إلى الجنّة وربّ الكعبة» قالها ثلاثاً.(مجمع البيان:٣١٦/٦.)

٧٢. (وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً):

الآية كأنّها إكمال للآية المتقدّمة، حيث تحدّثت عمّن أوتيَ كتابه بيمينه، وأمّا عميان القلوب فهم الذين يؤتَون كتبهم بشمائلهم، ويصفهم الإمام الباقر(عليه السلام) بقوله:«من لم يدلّه خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ودوران الفَلك والشمس والقمر والآيات العجيبات على أنّ وراء ذلك أمر عظيم، فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً».(تفسير نورالثقلين:١٢٩/٣.)

وعلى هذا فالمراد بالأعمى الأعمى القلب، المطموس البصيرة، لا يبصر دلائل الحقّ ولا يسلك سبيله، ومن كان كذلك لا يهتدي إلى سبيل السعادة والنجاة من العذاب، والذي لا يناله (الاهتداء إلى ذلك السبيل) إلاّ من شملته المغفرة والرحمة الإلهية، فعماه في هذه الدنيا بمعنى أنّه لا يعرف الحقّ ولم يتّبع سبيله، الأمر الذي يتجلّى في الآخرة بصورة عمىً عن الاهتداء إلى طريق السعادة والرحمة الإلهية.

والآية من شواهد تجسّم ما في هذه الدنيا من العقائد والأفعال في الآخرة بشكل يناسب ذلك الموطن، فمن لا يعرف الحقّ في هذه الدنيا لا يعرف آثار الحقّ في الآخرة أيضاً.

ثمّ إنّ الآية من أوضح الشواهد على وجود المجاز في القرآن الكريم خلافاً لابن تيمية وابن القيّم ومن تبعهما من الوهابيين، حيث نفوا وجود المجاز في القرآن، ليسهل لهم إجراء الصفات الخبرية بمعانيها اللغوية، مثل قوله سبحانه:(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْد وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)(الذاريات:٤٧.) إلى غير ذلك من تلك الصفات، فإنّ القوم مجسّمة جدّاً، وإن كانوا يتبرّأون منه، ولكنّه تبرّؤ باللسان واعتقاد به في الجَنان. وعلى كلّ تقدير فليس لمن يفسّر القرآن بُدٌّ من أن يحمل لفظ الأعمى في هذه الدنيا على الأعمى بصيرة ومعرفة، لا على الأعمى بصراً وعضواً.

وللإمام عليّ(عليه السلام) كلمات كثيرة في هذا المجال، منها:

ـ وَالأَمَانِيُّ تُعْمِي أَعْيُنَ الْبَصَائِرِ.(نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٢٧٥.)

ـ وَمَنْ كَثُرَ نِزَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ عَمَاهُ عَنِ الْحَقِّ.(نهج البلاغة: قصار الحكم، برقم ٣١.)

ـ وَدُعِيتُمْ إِلَى الأَمْرِ الْوَاضِحِ؛ فَلاَ يَصَمُّ عَنْ ذلِكَ إِلاَّ أَصَمُّ، وَلاَ يَعْمَى عَنْ ذلِكَ إِلاَّ أَعْمَى.(نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦.)

ـ إِنَّ مِنْ أَحَبِّ عِبَادِ اللهِ إِلَيْهِ عَبْداً أَعَانَهُ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ، وَتَجَلْبَبَ الْخَوْفَ؛ فَزَهَرَ مِصْبَاحُ الْهُدَى فِي قَلْبِهِ، وَأَعَدَّ الْقِرَى لِيَوْمِهِ النَّازِلِ بِهِ، فَقَرَّبَ عَلَى نَفْسِهِ الْبَعِيدَ، وَهَوَّنَ الشَّدِيدَ. نَظَرَ فَأَبْصَرَ، وَذَكَرَ فَاسْتَكْثَرَ، وَارْتَوَى مِنْ عَذْب فُرَات سُهِّلَتْ لَهُ مَوَارِدُهُ، فَشَرِبَ نَهَلا، وَسَلَكَ سَبِيلا جَدَداً. قَدْ خَلَعَ سَرَابِيلَ الشَّهَوَاتِ، وَتَخَلَّى مِنَ الْهُمُومِ، إِلاَّ هَمّاً وَاحِداً انْفَرَدَ بِهِ، فَخَرَجَ مِنْ صِفَةِ الْعَمَى، وَمُشَارَكَةِ أَهْلِ الْهَوَى.(نهج البلاغة: الخطبة ٨٧.)

الآيات ٧٣ ـ ٧٧ (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ... وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً).

الآيات: الثالثة والسبعون إلى السابعة والسبعين

(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَ إِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ

شَيْئًا قَلِيلاً * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا * وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً * سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً).

المفردات

ليفتنونك: ليوقعونك في الفتنة، ويصرفونك عمّا أوحينا إليك من الأحكام.

تركن: تميل إليهم. ورُكن الشيء: جانبه الذي يسكن إليه.

لَيستفزُّونك: الاستفزاز:الحمل على الترحّل، أي يزعجونك من أرض مكّة بالإخراج.

لا يلبثون: لا يبقَون.

خلافك: بعدك.

تحويلاً: تغييراً.

التفسير

٧٣ و٧٤. (وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَ إِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً):

الآيتان تدلّان على أنّ كبراء المشركين حاولوا فتنة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)بصرفه عمّا أوحي إليه، وكانت الغاية هي أن يفتري النبيّ على الله. وأمّا ما هي الفتنة، فهذا ما لم تتحدّث عنه الآية، وإنّما يعلم من قوله:(أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ): أي من القرآن وما فيه من الأحكام التي كان المشركون يتأذّون منها أشدّ الأذى، حتى حاولوا صرف النبيّ عن ذكرها.

ذكر الطبرسيّ: أنّ المشركين قالوا للنبي(صلى الله عليه وآله وسلم): كُفَّ عن شتم آلهتنا، وتسفيه أحلامنا، واطرد هؤلاء العبيد والسِّقاط الذين رائحتهم رائحة الصُّنان(الصُّنان: نتن الإبط.) حتى نجالسك ونسمع منك، فطمع في إسلامهم، فنزلت الآية.(مجمع البيان: ٦ / ٣١٩ .)

وهناك روايات أُخرى ذكرها المفسّرون في أسباب النزول، لا تنسجم مع ظاهر الآيتين، ولا تناسب ساحة النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم).

ولتوضيح مفاد الآيتين نبحث عن أُمور:

دلالة الآيتين على عصمة النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)

١. أنّ الآيتين ـ كما سيتضح ـ تشير إلى عصمته، ومع ذلك استدلّت المخطّئة بالآية الأُولى على خلافها، وهذا من عجائب الأُمور، إذ لا غرو في أنّ تتمسك كلّ فرقة بقسم من الآيات على ما تتبنّاه، وإنّما العجب أن تقع آية واحدة مطرحاً لكلتا الفرقتين، فيفسرها كلٌّ حسب ما يتوخّاه، مع أنّ الآية لا تحتمل إلاّ معنىً واحداً لا معنيين متخالفين.

٢. أنّ الضمير في كلا الفعلين (كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ) يرجع إلى المشركين، ويدلّ عليه سياق الآيات. والمراد من (الذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) هو القرآن بما يشتمل عليه من الأحكام، والمراد من الفتنة في (لَيَفْتِنُونَكَ)هو الإزلال والصرف، كما أنّ الخليل من الخُلَّة بمعنى الصداقة لا من الخَلّة بمعنى الحاجة.

٣. أنّ قوله:(وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) يخبر عن دنوّ المشركين من إزلاله وصرفه عمّا أُوحي إليه، لا عن دنوّ النبيّ وقربه من الزلل والانصراف عمّا أُوحي إليه، وبين المعنيين فرق واضح.

٤. أنّ قوله سبحانه: (وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً)مركّب من جملتين، إحداهما شرطية، والأُخرى جزائية، أمّا الأُولى فقوله:(وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ)، وأمّا الأُخرى فقوله:(لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ)، وبما أنّ لولا في الآية امتناعية(يقول ابن مالك:

لولا ولوما يلزمان الابتدا *** إذا امتناعاً بوجود عقدا

والشرط في الآية مؤوّل إلى الاسم، أي: لولا تثبيتنا، لقد كدت تركن إليهم.) تدلّ على امتناع الجزاء لوجود التثبيت، مثل قول عمر: لولا عليّ لهلك عمر، فامتنع هلاكه لوجوده.

٥. ليس الجزاء هو الركون بمعنى الميل، بل الجزاء هو القرب من الميل والانصراف كما يدلّ عليه قوله:(لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ)، فامتنع(صلى الله عليه وآله وسلم) من مقاربة الميل، فضلاً عن الميل نفسه، لأجل تأييده تعالى له وتثبيته.

٦. أنّ تثبيته سبحانه لنبيّه لم يكن أمراً مختصّاً بالواقعة الخاصّة، بل كان أمراً عامّاً لجميع الوقائع المشابهة لتلك الواقعة، لأنّ السبب الذي أوجب إفاضة التثبيت عليه فيها، يوجب إفاضته عليه في جميع الوقائع المشابهة، ولا معنى لخصوصية المعلول والمسبّب مع عمومية العلّة، وعلى ذلك تكون الآية من دلائل عصمته في حياته، وسداده فيها، على وجه العموم.

وتوهُّم اختصاصها بالواقعة التي تآمر المشركون فيها لإزلاله، من كلمات رُماة القول على عواهنه.

٧. أنّ التثبيت في مجال التطبيق فرع التثبيت في مجال التفكير، إذ لا يستقيم عمل إنسان ما لم يستقم تفكيره، وعلى ذلك يفاض على النبيّ السَّداد بدءاً من ناحية التفكّر وانتهاءً بناحية العمل، فهو في ظلّ هذا السَّداد المفاض، لا يفكّر بالعصيان والخلاف، فضلاً عن الوقوع فيه.

وعلى ضوء ما ذكرنا، فالآية شاهدة على عصمته، ودالّة على عنايته سبحانه برسوله الأكرم، فيراقبه ويرعاه ولا يتركه بحاله، ولا يكِلُه إلى نفسه، كلّ ذلك مع الحفاظ على حرّيته واختياره في كلّ موقف.

فقوله سبحانه:(وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ) نظير قوله: (وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ)(النساء:١١٣.) لكنّ الأوّل راجع إلى صيانته من العصيان، والثاني ناظر إلى سداده وعصمته من السهو والخطاء في الحياة.

وسيوافيك توضيح الآية الثانية في البحث الآتي.

وفي الختام نذكر ما أفاده الرازي في المقام: قال: احتج الطاعنون في عصمة الأنبياء بهذه الآية بوجوه:

الأوّل: أنّها دلّت على أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) قرُب من أن يفتري على الله، والفرية على الله من أعظم الذنوب.

الثاني: أنّها تدلّ على أنّه لولا أنّ الله تعالى ثبّته وعصمه لقرُب أن يركن إلى دينهم.

الثالث: أنّه لولا سبق جرم وجناية لم يحتج إلى ذكر هذا الوعيد الشديد.

والجواب عن الأوّل: أنّ «كاد» معناها المقاربة، فكان معنى الآية: قرُب وقوعه في الفتنة، وهذا لا يدلّ على الوقوع.

وعن الثاني: أنّ كلمة (لَوْلاَ) تفيد انتفاء الشيء، لثبوت غيره، نقول:«لولا عليٌّ لهلك عمر» ومعناه أنّ وجود علي(عليه السلام) منع من حصول الهلاك لعمر، فكذلك هاهنا فقوله:(وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ) معناه: لولا حصل تثبيت الله لك يا محمد، فكان تثبيت الله مانعاً من حصول ذلك الركون.(والصحيح أن يقول: من حصول القرب إلى الركون.)

وعن الثالث: أنّ التهديد على المعصية لا يدلّ على الإقدام عليها، والدليل عليه آيات، منها قوله تعالى:(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لاَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ)(الحاقّة:٤٤ـ ٤٥.) الآيات، وقوله تعالى: (لَئِنْ أَشْرَكْتَ)(الزمر: ٦٥ .) وقوله: (وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ)(الأحزاب: ١ و ٤٨ .).(تفسير الرازي:٥/٤٢٠.)

٧٥. (إِذًا لاَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا):

ما هو المراد من الضعفين في الآية؟
ربما يُتوهَّم أنّ العصمة الإلهية إذا صارت سبباً لعدم قُرب النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)من الميل والركون إليهم، إذاً يكون العصيان والمخالفة أمراً ممتنعاً، ولكنّه توهُّم باطل لأنّ العصمة لا تسلب الاختيار عن المعصوم، فهو بعدُ في مفترق الطرق، غير أنّ كشف

الواقع للمعصوم بعامّة وجوهه يصدّه عن الخلاف، وهذا نظير من عَلِم لو أنّه مسّ السلك الكهربائي المجرّد عن العازل، لحلّ به الموت والهلاك، فهو قطعاً ـ لو كان إنساناً عاقلاً ـ لا يمسّه، ومع ذلك فهو مختار في عمله هذا، لكن يرجّح أحد الطرفين على الطرف الآخر، فهكذا النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)وكلّ معصوم مثله. والشاهد على ذلك أنّه سبحانه توعّده في هذه الآية بقوله:(إِذًا): أي لو فعلت ذلك (لَأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ): أي لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات وضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة، نظير ذلك ما جاء في نساء النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم):(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ)(الأحزاب:٣٠.). فإذا كان ضعف الشيء ما زاد عليه بمقداره يجب أن يُعيّن ما هو الأصل الذي يزاد عليه بمثله، وهذا ما يذكره السيد الطباطبائي بقوله: والمعنى: لو قاربت أن تميل إليهم بعض الميل لأذقناك الضعف من العذاب الذي نعذّب به المجرمين في حياتهم، والضعف ممّا نعذّبهم به في مماتهم أي ضعف عذاب الدنيا والآخرة.(الميزان في تفسير القرآن:١٣/١٧٣.)

ويظهر من صديقنا الشيخ مغنية(رحمه الله) اختيار هذا المعنى فقال: والمعنى:

لو ركنت إلى المشركين يا محمد لعذّبناك بمثلَي عذاب غيرك في الدنيا والآخرة لو فعل ذلك، لأنّ عقوبة العظماء تكون على مقدار عظمتهم ومكانتهم... هذا مجرّد فرض، وفرض المحال ليس بمحال (ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا) يدفع عنك العذاب، وفي نهج البلاغة: «يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ الْجَائِرِ وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلاَ عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا».(نهج البلاغة:الخطبة١٦٤؛ التفسير الكاشف:٥/٧٢.)

قوله تعالى: (ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا): أي ناصراً ينصرك. نُقل عن ابن عباس أنّه قال: لمّا نزلت هذه الآية قال النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم): «اللّهُمَّ لا تَكِلْني إلى نفسي طرفة عين أبداً».(مجمع البيان: ٦ / ٢٧٨.)

٧٦. (وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً):

لمّا فرغ القرآن عن الكلام في مورد النبيّ على ما مرّ، توعّد المشركين بأنّهم لو همّوا بإخراج الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) لعمّهم العذاب، وهذا يدلّ على عظم قدر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بحيث يلازم استخدام أساليب الضغط عليه لإخراجه نزول العذاب بهم، يقول المفسّرون: نزلت الآية في أهل مكة لما همّوا بإخراج النبيّ من مكّة، قال سبحانه:(وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ): أي يحملونك على الترحّل على خلاف رغبتك (لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا): أي من مكة (وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ): أي لايبقون بعدك (إِلاَّ قَلِيلاً): أي إلّا زمناً يسيراً. ولا شكّ في أنّهم قد همّوا بإخراج الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) كما يقول سبحانه: (أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ)،(التوبة:١٣.) ولكن لم ينزل عليهم العذاب لأنّ نزوله متفرّع على الهمّ الذي يعقبه الإخراج، والمفروض عدم وقوع الإخراج.

وربما يجاب بأنّهم أخرجوا النبيّ من مكّة ليلة المبيت، ولذلك لم يلبثوا بين تلك الليلة وقتلهم يوم بدر إلاّ زماناً يسيراً.

٧٧. (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً).

قوله:(سُنَّةَ) إمّا مصدر أو اسم مصدر منصوب على الحالية، أي عدم لبثهم إلاّ يسيراً سنّة من سنن الله. ويحتمل أن يكون مفعولاً لفعل محذوف، أي: سَنَّ الله ذلك سنّة، فإذا حذف الفعل أضيف المصدر إلى المتعلّق بالفعل.

قوله: (سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا): أي طريقته تعالى أن يُنزل العذاب الدنيوي بكلّ قوم يخرجون رسلهم من بين أظهرهم. وهذه السنّة لا تتغيّر ولا تتبدّل، بل هي على وتيرة واحدة، كما قال:(وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً).

الآيات ٧٨ ـ ٨٢ (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَ ... وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا).

الآيات: الثامنة والسبعون إلى الثانية والثمانين

(أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا * وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْق وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْق وَاجْعَل لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا * وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا).

المفردات

لدلوك: الدلوك: الزوال، وهذا هو المعروف. وعن المبرّد: دلوك الشمس من زوالها إلى غروبها.

غسق الليل: ظهور ظلامه، يقال: غسقت القرحة: إذا انفجرت فظهر ما فيها. وربّما يفسّر بانتصاف الليل. وسيوافيك تفصيل القول عند تفسير الآية.

قرآن الفجر: منصوب بفعل مقدّر، أي أقم قرآن الفجر، والمراد به صلاة الصبح تسميةً للشيء ببعض أجزائه، أعني: قراءة القرآن فيها. ولا منافاة مع لزوم قراءة القرآن في سائر الصلوات.

مشهوداً: اسم مفعول من شَهِد، بمعنى حضر.

فتهجّد به: التهجّد هو التيقّظ والسّهر بعد النوم، والضمير في «به» يرجع إلى القرآن المذكور في قوله:(وَقُرآنَ الْفَجْرِ).

نافلةً: النافلة: الزيادة من الأمر المحبوب.

مقاماً: منصوب على الظرفية، أي يبعثك مقاماً.

مُدخَل و مُخرَج: اسم مكان الإدخال والإخراج. وسيوافيك تفسيرهما.

زهق: قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: كلّ شيء هلك وبطل فقد زَهَق، وزَهَقت نفسُه تزهَق زُهوقاً أي خرجت.(العين:٣/٣٦٣.)

التفسير

٧٨. (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا):

الآية تتضمّن بيان أوقات الصلوات الخمس، وبما أنّ الصلاة شرّعت للأُمّة ليلة الإسراء وجاء حديث الإسراء في هذه السورة، ناسب ذلك أن يذكر فيها أوقات الصلوات الخمس. وهناك وجه آخر لذكرها فيها وهو أنّه سبحانه امتنّ على نبيّه بالعصمة وبالنصر فذكر أوقات الصلاة بأن يقيمها شكراً لتلك النعمة، وإليك تفسير الآية على ضوء توضيح مفرداتها.

١. اللام في قوله: (لِدُلُوكِ الشَّمْسِ) إمّا لام التعليل أي بسبب زوال الشمس، أو بمعنى «عند» نظير قول القائل: كتبته لخمس خلَون من شهر كذا، أي عند الخمس.

٢. الدلوك، بمعنى زوال الشمس عن كبد السماء، وهو قول الأكثر. وحكى القرطبي عن ابن عطية: الدلوك هو الميل في اللغة، فأوّل الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب، ومن وقت الزوال إلى الغروب يُسمّى دلوكاً لأنّها في حالة ميل.(الجامع لأحكام القرآن:١٠/٣٠٤، نشر دار الفكر.)

فعلى القول الأوّل يختصّ الدلوك بأوّل الظهر، وعلى الثاني يمتد إلى الغروب، لأنّ الشمس في حالة الميل.

٣. الغسق، ربّما يُفسّر بوجوه ثلاثة:

أ. ظلمة أوّل الليل، قاله في «القاموس»، وجعله في «اللسان» أوّل القولين، ونقل الشيخ الطوسي في «التبيان» عن ابن عباس وقتادة أنّهما قالا: هو بدء الليل.(التبيان:٦/٥٠٩.)

ب. الظلمة، ذكره قولاً واحداً في «مقاييس اللغة»، وفي «اللسان» جعله أحد القولين. وحكى الشيخ الطوسي في «التبيان» عن الجُبّائي أنّ غسق الليل ظلمته. والفرق بين المعنيين واضح، فإنّ بدء الليل لا يلازم الظلمة الكاملة التي يشير إليها المعنى الثاني.

ج. الظلمة الشديدة التي تمتدّ إلى نصف الليل، وهو خيرة الأزهري، قال: غسق الليل: تراكم الظلمة واشتدادها.(نقله الرازي في تفسيره: ٢١ / ٢٧ .)

واختاره الراغب(المفردات في غريب القرآن: ٣٦٠، مادة «غسق».) أيضاً، وهو المرويّ عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) فقد روى ابن إدريس الحلّي عن محمد الحلبي عن أبي عبد الله(عليه السلام) في قوله: (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)قال: «دلوك الشمس زوالها، وغسق الليل انتصافه، وقرآن الفجر ركعتا الفجر».(الوسائل:٤، الباب١٠ من أبواب أوقات الصلاة الخمسة، الحديث١٠.)

وروى الشيخ الطوسي بسند صحيح عن زرارة عن أبي جعفر الباقر(عليه السلام)قال: سألته عمّا فرض الله من الصلاة؟ فقال: «خمس صلوات في الليل والنهار»، فقلت: هل سمّاهنّ الله وبيّنهنّ في كتابه؟ فقال: «نعم، قال الله عزّ وجلّ لنبيّه:(أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) ودلوكها زوالها، ففي ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل أربعة صلوات سمّاهن وبيّنهنّ ووقّتهنّ، وغسق الليل انتصافه، وقال:(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا)».(تهذيب الأحكام:٢/٢٤، الباب١٢، الحديث٢٣.)

٤.(قُرْآنَ الْفَجْرِ): أُريد به صلاة الفجر. هذا ما يرجع إلى بيان مفردات الآية وتوضيحها.

إذا عرفت مفاد المفردات، فاعلم أنّ في الآية دلالة على امتداد وقت الصلوات الأربع من الزوال إلى الغسق، فتكون أوقاتها موسّعة ؛ لأنّ اللام في قوله:(لِدُلُوكِ) بمعنى «عند» و (إلى) في قوله: (إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ)«للإنتهاء» فيكون معنى الآية: إنّ وقت الصلوات ممتدّ من الزوال إلى ذهاب الشفق أو إلى نصف الليل على الخلاف في معنى الغسق، وقد عرفت ما عليه أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) في معناه، فتكون النتيجة أنّ إتيان الصلوات الأربع أداءً بين الحدّين، وأنّ كلّ جزء منه صالح له.

وبعبارة أُخرى: إنّ الزمان المحدّد بين زوال الشمس إلى غسق الليل وقت للصلوات الأربع، فله أن يصلّي الظهر في أية ساعة من ساعات الحدّ المذكور، كما له أن يأتي بالعصر كذلك. هذا هو ظاهر الآية، وهو حجّة للفقيه ما لم يدلّ دليل على التضييق، فينتهي مثلاً وقت الظهرين بغروب الشمس فعندئذ تُرفع اليد بمقدار الدليل، وفي غيره يكون الظاهر حجّة ومرجعاً.

دلالة الآية على جواز الجمع بين الصلاتين

ثمّ إنّ الآية دليل على جواز الجمع بين الصلاتين: الظهرين والمغربين، وأنّ الجمع بينهما إتيان لهما في أوقاتهما.

بيان ذلك

إنّ قوله سبحانه:(أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) يدلّ بظاهره على أنّ الوقت المحدّد بالدلوك إلى الغسق هو وقت للصلوات الواجبة فيه، فكلّ جزء منه صالح لصلاتي الظهر والعصر فللمصلّي أن يفرّق بينهما كما أنّ له أن يجمع بينهما، لصدق إقامة الصلاة بين الدلوك والغسق على الجمع والتفريق فلا تُرفع اليد عن هذا الظهور إلاّ بمقدار ما دلّ على التحديد والتضييق، وليس إلاّ اختصاص مقدار أربع ركعات من دلوك الشمس للظهر، واختصاص وقت أربع ركعات للعصر.

نعم لكلّ صلاة وقت إجزاء ووقت فضيلة، أمّا وقت الفضيلة فهو ما أخرجه مسلم عن سليمان بن بُريدة عن أبيه عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم): أنّ رجلاً سأله عن وقت الصلاة، فقال له: «صلّ معنا هذين» ـ يعني اليومين ـ ، فلمّا زالت الشمس أمر بلالاً فأذّن، ثم أمره فأقام الظهر، ثمّ أمره فأقام العصر، والشمس مرتفعة بيضاء نقيّة، ثم أمره فأقام المغرب حين غابت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق، ثم أمره فأقام الفجر حين طلع الفجر.(صحيح مسلم: باب أوقات الصلوات الخمس، رقم الرواية ١٢٧٧.)

وجاء نظيره عن أئمّة أهل البيت(عليهم السلام) فقد حدّدوا أوّل وقت فريضة الظهر وأوّل وقت فريضة العصر، تارة بصيرورة الظلّ قامة وقامتين، وأُخرى بصيرورته ذراعاً وذراعين، وثالثة بصيرورته قدماً وقدمين، ومرجع الجميع واحد.

وقد تضافرت الروايات عنهم(عليهم السلام) بأنّ التحديد المذكور في الظهرين والعشاءين تحديد لوقت الفضيلة دون وقت الإجزاء، وأنّ بين الزوال والعصر وقت مشترك للظهرين، تجزئ الصلاة فيه مطلقاً مختاراً كان أو مضطراً سوى أربع ركعات من الزوال وأربع ركعات قبل المغرب، إذ هما وقت اختصاصيّ لكلّ من الظهر والعصر.

ويدلّ على صحّة الجمع لزوم الجمع بين الصلاتين في عرفة والمزدلفة، فتُصلّى العصر في وقت الظهر في عرفة، وتُصلّى المغرب في وقت العشاء في المزدلفة، وكلٌّ يصلّى في وقته، وقت الإجزاء للصلاة الثانية في عرفة حيث تُصلّى العصر بعد الظهر متعاقباً، وللصلاة الأُولى في مزدلفة، حيث تصلّى المغرب مع العشاء عند زوال الشفق، وهذا جمع حقيقي لا جمع صوري، غاية الأمر يفوت وقت الفضيلة في عرفة للعصر، ووقت الفضيلة للمغرب في مزدلفة.

ثمّ إنّه تضافرت الروايات عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه جمع بين الصلاتين في وقت واحد في غير خوف ولا سفر، وقد أوردنا في رسالتنا «الجمع بين الصلاتين على ضوء الكتاب والسنّة» ثلاثين رواية جمعناها من صحاح محدّثي السنّة وسننهم ومسانيدهم، نذكر منها عدداً يسيراً.

الجمع بين الصلاتين

١. روى مسلم عن أبي الزبير عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال:

صلّى رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) الظهر والعصر جميعاً بالمدينة في غير خوف ولا سفر. فقال أبو الزبير: فسألت سعيداً: لِمَ فعل ذلك؟ فقال: سألت ابن عباس كما سألتني فقال: أراد أن لا يُحرج أحداً من أُمّته.(صحيح مسلم: ٢ / ١٥١.)

٢. روى مسلم عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جمع رسول الله بين الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالمدينة في غير خوف ولا مطر، قال: قلت: لابن عباس: لِمَ فعل ذلك؟ قال: كي لا يُحرج أُمّته.(صحيح مسلم: ٢ / ١٥١.)

وفي حديث أبي معاوية: قيل لابن عباس: ما أراد إلى ذلك؟ قال: أراد أن لا يُحرج أُمّته.(صحيح مسلم: ٢ / ١٥٢.)

٣. أخرج الترمذي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: جمع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء بالمدينة من غير خوف ولا مطر، قال: فقيل لابن عباس: ما أراد بذلك؟ قال: أراد أن لا يُحرج أُمّته.(سنن الترمذي:١/٣٥٤، برقم ١٨٧، باب ما جاء في الجمع في الحضر.)

قال الترمذي بعد نقل الحديث: حديث ابن عباس قد روي عنه من غير وجه، رواه جابر بن زيد، وسعيد بن جبير، وعبد الله بن شقيق العقيلي.

٤. أخرج النسائي عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنّ النبي(صلى الله عليه وآله وسلم)كان يصلّي بالمدينة يجمع بين الصلاتين بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، من غير خوف ولا مطر. قيل له: لِمَ؟ قال: لئلاّ يكون على أُمّته حَرَج.(سنن النسائي:١/٢٩٠، الباب الجمع بين الصلاتين في الحضر.)

٥. أخرج أحمد عن قتادة قال: سمعت جابر بن زيد، عن ابن عباس قال: جمع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء بالمدينة، في غير خوف ولا مطر. قيل لابن عباس: وما أراد إلى ذلك؟ قال: أراد أن لا يحرج أُمّته.(مسند أحمد:١/٢٢٣.)

٦. أخرج الطبراني عن عبد الله بن مسعود، قال: جمع رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)بين الأُولى والعصر، وبين المغرب والعشاء، فقيل له في ذلك، فقال: «صنعت ذلك لئلاّ تُحرج أُمّتي».(المعجم الكبير:١٠/٢١٨، برقم ١٠٥٢٥.)

أمّا قوله سبحانه:(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ) فهو عطف على قوله: (أَقِمِ الصَّلاَةَ)أي أقم صلاة الفجر بالقرآن عملاً بقوله سبحانه: (فَاقْرَؤُا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ)(المزمل:٢٠.).

قوله:(إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) قال أكثر المفسّرين ـ استناداً إلى عدد من الروايات التي رواها الفريقان ـ أنّ المراد بقوله تعالى: (مَشْهُودًا) أنّ ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون ليشهدوا (أي ليحضروا) صلاة الصبح.

روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمسٌ وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الصبح»، يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم:(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا).(صحيح البخاري:٣/٢٢٥، كتاب التفسير، برقم ٤٧١٧.)

وروى إسحاق بن عمّار قال: قلت لأبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام): «أخبرني بأفضل المواقيت في صلاة الفجر، فقال: «مع طلوع الفجر إنّ الله يقول:(وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) يعني صلاة الفجر تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فإذا صلّى العبد الصبح مع طلوع الفجر أثبتت له مرّتين، أثبتها ملائكة الليل وملائكة النهار».(الكافي:٣/٢٨٢، كتاب الصلاة، باب صلاة الفجر، برقم ٢.)

ولم يرتضِ الشيخ محمد جواد مغنية هذا المعنى، وفسّر (مَشْهُودًا)بحضور الحواسّ، وقال: لأنّ الإنسان عند الصباح يكون حاضر الحواس بعد أن أخذت قسطاً من الراحة بالنوم، وبقيت أمداً بلا عمل.(التفسير الكاشف:٥/٧٥.)

وهناك أقوال أُخرى في معناه.(انظر: التبيان للشيخ الطوسي:٦/٥١٠؛ التفسير الكبير للرازي:٢١/٢٨.)

٧٩. (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا):

قوله:(وَمِنَ اللَّيْلِ) الواو عاطفة، و (مِنْ) للتبعيض، والجملة عطف على قوله: (أَقِمِ الصَّلاَةَ) والضمير في (بِهِ) يرجع إلى القرآن، أي تهجّد بالقرآن بعض الليل، وقد مرّ أنّ التهجّد هو القيام بعد النوم.

ثمّ إنّه سبحانه يصف الأمر بالتهجّد في بعض الليل بقوله: (نَافِلَةً لَكَ): أي زيادة لأجلك، وهذا دليل على أنّ الأمر بالتهجّد وجوباً خاصّ بالنبيّ، وهو من خصائصه(صلى الله عليه وآله وسلم).

ومع ذلك فإنّه مستحبّ لجميع المسلمين. ثمّ إنّه سبحانه يعلّل قوله:(فَتَهَجَّدْ بِهِ) بقوله: (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا). وفي الكشاف: (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ) يوم القيامة فيقيمك (مَقَامًا مَحْمُودًا)، أو ضمّن (يَبْعَثَكَ)معنى: يقيمك.(تفسير الكشّاف:٢/٢٤٣.)

وتوضيح كلامه:

إمّا أن يكون المقام مصدراً بمعنى البعث بقرينة قوله: (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ) فيكون المعنى: عسى أن يبعثك يوم القيامة بعثاً أنت محمود فيه، أو يمكن أن يُضمَّن البعث معنى الإقامة كما يقال: بعثت بعيري أي أقمته، فيكون معناه: يقيمك ربّك مقاماً محموداً يحمدك فيه الأوّلون والآخرون.

وقد أجمع المفسّرون على أنّ المقام المحمود هو مقام الشفاعة، وهو المقام الذي يشفع فيه للناس، والذي يؤتى فيه لواء الحمد فيوضع في كفّه ويجتمع تحته الأنبياء والملائكة، فيكون(صلى الله عليه وآله وسلم) أوّل شافع وأوّل مشفّع.(مجمع البيان:٦/٣٢٦ـ ٣٢٧.)

٨٠ .(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا):

قوله:(مُدْخَلَ) و (مُخْرَجَ) كلاهما مصدران ميميان، وإضافتهما إلى الصدق من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة أو إضافة بيانية. وقد ا ختلف المفسّرون في تفسير الآية على وجوه، ذكر منها الطبرسي أربعة. ولعلّ المراد هو سؤاله سبحانه أن يوفّقه في كلّ عمل يدخل فيه لا يدخل إلاّ بالصدق، ولا يخرج منه إلاّ بالصدق، بأن يكون الصدق والإخلاص والأمانة وهي الركن الأساس في البداية والنهاية لكلّ عمل. ولعلّ إلى هذا يشير الطبرسي بقوله: أدخلني في جميع ما أرسلتني به إدخال صدق وأخرجني منه سالماً إخراج صدق.(مجمع البيان:٦/٣٢٧.)

ثمّ أمره سبحانه أن يطلب أمراً آخر، ويقول: (وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) فقوله: (سُلْطَانًا)مفعول لقوله: (وَاجْعَلْ)، و(نَصِيراً) صفة لسلطان، أي اجعل لي قدرة أنتصر بها على الأعداء وأتغلّب بها على الضغوط والتحدّيات.

وفي المجمع: اجعل لي عزّاً امتنع به ممن يحاول صدّي عن إقامة فرائضك، وقوّة تنصرني بها على من عاداني فيك.(مجمع البيان:٦/٣٢٧.)

روى إبراهيم بن نُعيم عن أبي عبد الله]الصادق[(عليه السلام): «إذا دخلت مدخلاً تخافه، فأقرأ هذه الآية:(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) فإذا عاينت الذي تخافه، فاقرأ آية الكرسي».(تفسير نور الثقلين: ٣ / ٢١٢.)

٨١ . (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا):

وفي نهاية المطاف يأمره سبحانه بأن يخبر الناس بقوله: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) واضمحلّ، لأنّ من طبيعة الباطل أن يأتي عليه الفناء والدمار كما يقول: (إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا).

وفي الآية تطييب لنفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وتقوية لروحه وعزمه، وفيها إخبار ضمنيّ بأنّ دعوته إلى الحقّ ستنتصر، وأنّ الباطل الذي يدأب على مقارعته سيضمحلّ. وقد ورد أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ الآية عندما فتح مكّة، فقد روى الترمذي عن ابن مسعود، قال: دخل النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) مكّة وحول البيت ثلاثمائة وستون نُصُباً، فجعل النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) يطعنها بمخصرة في يده، وربّما قال بعود، ويقول:(جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا)و(قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ)(سبأ:٤٩.).(سنن الترمذيّ:٨٩٦، كتاب تفسير القرآن، برقم ٣١٤٩؛ تفسير الدر المنثور: ٥/٣٢٩.)

ولعل قوله: (وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ) إجابة من الله سبحانه لدعائه، أعني قوله: (وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا) فوعده سبحانه بأنّه سوف ينتصر على الوثنية وعلى المترفين الطغاة، وتكون راية الحق خفّاقة في سماء الجزيرة العربية.

روى أبو حمزة الثُّمالي عن أبي جعفر]الباقر[(عليه السلام) في قوله:(قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ) قال: «إذا قام القائم(عليه السلام)ذهبت دولة الباطل».(تفسير نور الثقلين: ٣ / ٢١٢.) والرواية من قبيل تطبيق الكلّي على أحد مصاديقه الواضحة.

والقائم هو المهدي المنتظر الذي بشّر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بظهوره في آخر الزمان وأنّه يملأ الأرض عدلاً، وقد ورد التعبير عنه بالقائم حتّى في كلمات محدّثي السنّة، قال البَربَهاري الحنبلي(المتوفّى ٣٢٩هـ)، وهو يذكر الإيمانيات:... والإيمان بنزول عيسى بن مريم(عليهما السلام)... ويصلّي خلف القائم من آل محمد(صلى الله عليه وآله وسلم).(طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى:٢/١٨، الترجمة ٥٨٨.)

***

ثمّ إنّ التدبّر في آيات هذه المجموعة يرشدنا إلى أنّ سرّ انتصار القيادة يكمن في أمرين:

١. أن يكون القائد صادقاً في أمره دوماً في مدخله ومخرجه، وهذا هو الذي أشارت إليه الآية:(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ).

٢. أنّ القائد مهما كان صادقاً في قوله وفعله لا يستغني عمّن يؤيده وينصره في كافة مواقفه، وإلاّ فإنّ اليد الواحدة لا تصفّق، وقد رزق الله سبحانه نبيّه الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) كلا الأمرين، فقد كان صادقاً في كافة الأحوال، ورزقه من المؤمنين رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

صلاة الليل في الذكر الحكيم

إنّ الله سبحانه أوجب على نبيّه(صلى الله عليه وآله وسلم) القيام بالليل، وهو مستحبٌ لغيره من المسلمين، وقد عقد الشيخ الحرّ العامليّ في كتابه «الوسائل» باباً بعنوان: (تأكد استحباب المواظبة على صلاة الليل)، فنقل فيه إحدى وأربعين رواية، واستدرك عليه الميرزا حسين النوري، فنقل في كتابه(مستدرك الوسائل: ٦، الباب ٣٣ من أبواب بقية الصلوات المندوبة.) خمساً وثلاثين

رواية، كلّها تتضمّن أنّ صلاة الليل تؤثّر في حياة الإنسان دنيوياً وأُخروياً. وإليك عدداً من هذه الروايات الّتي نُقلت في «الوسائل»:

١. عن محمد بن إسماعيل بن بزيع، عن أبي عبدالله]الصادق[(عليه السلام) في وصية النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي(عليه السلام): «وعليك بصلاة الليل» يكرّرها أربعاً.

٢. عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله(عليه السلام)، قال:«شرف المؤمن صلاته بالليل، وعزّ المؤمن كفّه عن أعراض الناس».

٣. عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله(عليه السلام) في قول الله عزّ وجلّ:(إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً)قال: «يعني بقوله: (وَأَقْوَمُ قِيلاً) قيام الرجل عن فراشه يريد به الله عزّ وجلّ لا يريد به غيره».

٤. عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) أنّه قال: «من صلّى بالليل حسن وجهه بالنهار».

٥. عن علي بن محمد النوفلي، قال: سمعته(عليه السلام)] يعني أبا الحسن الهادي [يقول: «إنّ العبد ليقوم الليل فيميل به النعاس يميناً وشمالاً وقد وقع ذقنه على صدره، فيأمر الله تعالى أبواب السماء فتفتح، ثمّ يقول للملائكة: انظروا إلى عبدي ما يصيبه في التقرّب إليّ ما لم أفترض عليه راجياً مني لثلاث خصال: ذنباً أغفره له، أو توبة أُجدّدها له، أو رزقاً أزيده فيه، اشهدوا ملائكتي أنّي قد جمعتهنّ له».(الوسائل : ٥، الباب ٣٩ من أبواب بقية الصلوات المندوبة، أرقام الروايات على التوالي: ٤٠، ٢، ٥، ٨ ، ١٦.)

٨٢ . (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا):

تقدّم ذكر القرآن في نفس السورة مرّة بعد أُخرى، فقال: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلتي هِيَ أَقْوَمُ) (الإسراء:٩.) وقال:(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا)(الإسراء:٤١.).

إلى غير ذلك من الآيات، وفي هذه الآية تطرّق إلى بيان ما للقرآن من أوصاف، فذكر له أوصافاً ثلاثة:

١. كونه شفاء، قال تعالى: (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ).

٢. كونه رحمة للمؤمنين، قال: (وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ).

٣. يزيد الكافرين خسارة كما قال: (وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا).

وإليك تفسير هذه الأوصاف الثلاثة:

أمّا الأوّل: فالشفاء يستعمل في البُرء من المرض، والمرض إمّا جسماني وإمّا روحي. فالقرآن يشفي من الأمراض الروحية والفكرية الموجودة في نفوس وعقول الناس من العقائد والأخلاق والآداب، وتشمل الكفر والشرك بأنواعه من عبادة الأصنام والخضوع للحجر والشجر والأوثان، فمن تدبّر القرآن وعمل به يبرأ من هذه العقائد المنحطّة الّتي لا تقوم على حجّة ولا على برهان، كما أنّه يشفي من الأمراض الّتي تعتري الناس في سلوكهم وعاداتهم وأخلاقهم، كوأد البنات عند بعض القبائل في العصر الجاهلي، والأنكحة الفاسدة، والشحّ والحسد والشَّرَه. قال الإمام علي (عليه السلام)من خطبة له يبيّن فيها فضل القرآن: «فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لاَوَائِكُمْ (اللاّواء: الشدّة.)، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ وَالضَّلاَلُ».(نهج البلاغة: الخطبة ١٧٦ .)

وبما أنّ التحدّث عن تلك الأمراض يستلزم الخروج عن موضوع الكتاب، نكتفي بالإشارة المختصرة إلى عقيدة الشرك الفاسدة، أعني عبادة الأوثان والأصنام السائدة في العصر الجاهلي.

لقد كانت الأصنام جميعها أو أغلبها معظّمة عند العرب، يتقرّبون لها بالذبائح والقرابين، وجرت عادة بعض القبائل آنذاك أن تختار من بين أفرادها كلّ سنة شخصاً في مراسيم خاصّة، ثمّ تذبحه عند أقدام أصنامها، ويُقبر جسده على مقربة من المذبح.

هذا العرض المختصر يكشف لنا كيف أنّ أرض الجزيرة العربية برمّتها كانت قد أصبحت مسرحاً للأصنام ومستودعاً ضخماً

للأوثان، وكيف تحوّلت هذه البقعة من العالم ببيوتها وأزقّتها وصحاريها وحتى بيت الله الحرام كان قد تحوّل قُبيل بعثة النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى مستودع للنُّصب المؤلّهة، والتماثيل المعبودة، ويتجلّى هذا الأمر من قول شاعرهم الذي استنكر ما كانوا عليه من عبادة الأصنام الكثيرة الخارجة عن الإحصاء والعدّ، إذ وصفها حينما كان يعبدها في فترة ثم وحّد ربّه، بقوله:

أرَبّاً واحداً أم ألفَ ربٍّ *** أدينُ إذا تقسّمت الأُمورُ

عزلت اللاّتَ والعزّى جميعاً *** كذلك يفعل الجَلد الصبورُ

فلا عُزّى أدين ولا ابنتيها *** ولا صنَمَي بني عمرو، أزورُ

ولا غنماً أدين وكان ربّاً *** لنا في الدهر إذ حلمي يسيرُ

ولكن أعبد الرحمان ربّي *** ليغفر ذنبيَ الربُّ الغفورُ[1]

[1] بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب:٢/٢٤٩. وللأبيات صلة يُرجع إلى مصدرها.

وقد حدثت بسبب الاختلاف و التعدّدية في عبادة الأصنام والأوثان المؤلّهة السخيفة الباطلة، تناقضات وصراعات وحروب ومناحرات، قد جرّت إلى ويلات و مآس وخسائر مادّية ومعنوية كبيرة على تلك الجماعة المتوحشة الضالّة.

ومن أراد معرفة عقائدهم الفاسدة، فليرجع إلى كتاب «بلوغ الأَرب» تأليف السيد محمود شكري الآلوسي، وكتابنا «سيد المرسلين»، الجزء الأوّل.

هذا كلّه حول الشفاء، وأمّا الثاني: أي الرحمة، فهي ترجع إلى ما يتمّ به النقص بعد ما برأ من المرض، فمنزلة الرحمة منزلة التحلية، كما أنّ منزلة الشفاء منزلة التخلية، يقول السيد الطباطبائي في هذا الصدد: إنّ القرآن ينوّر القلوب بنور العلم واليقين ويحلّيها بالملكات الفاضلة والحالات الشريفة الزاكية، فهو بما أنّه شفاء يزيل عنها أنواع الأمراض والأدواء، وبما أنّه رحمة يعيد إليها ما افتقدته من الصحة والاستقامة الأصلية الفطرية، فهو بكونه شفاءً يطهّر المحلّ من الموانع المضادّة للسعادة، ويهيئها لقبولها، وبكونه رحمة يلبسه لباس السعادة، وينعم عليه بنعمة الاستقامة.(الميزان في تفسير القرآن:١٣/١٨٤.)

ثمّ إنّ لفظة (مِن) في قوله:(مِنَ الْقُرآنِ) بيانية، وتقدير الآية: وننزل ما هو شفاء ورحمة من القرآن للمؤمنين، وليست تبعيضية، ليكون قِسم منه كذلك دون الجميع.

وأمّا الثالث: أي قوله:(وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا) أُريد من الظالمين الكفّار، والخسارة عبارة عن النقص في رأس المال، فبما أنّ هؤلاء موحّدون حسب الفطرة، فإذا سمعوا القرآن الذي يهديهم إلى فطرتهم أعرضوا عنه وبعدوا منه، فيكون خسارة أي نقصاً في رأس المال، فالقرآن بالنسبة للمؤمنين شفاء، وخسارة بالنسبة للظالمين. وربما يتوهّم الجبر من الآية وأنّ المؤمنين يساقون إلى الإيمان والكافرين إلى الكفر بعامل داخلي يسوقهما إلى السعادة والشقاء.

ولكن هذا التوهّم باطل، ويكمن وجه بطلانه في إقبال المؤمن على القرآن فيزيده هدى، يقول تعالى:(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)(الكهف:١٣.)وأمّا الكافر فبسبب إعراضه عن الاهتداء بالقرآن يزيده القرآن خسراناً، يقول سبحانه:(وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ)(التوبة:١٢٥.).

هذا ولنبيّنا الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) ووصيّه وأولاده المطهرين(عليهم السلام) كلمات نورانية حول القرآن الكريم نأتي ببعضها:

١. قال رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم):«فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».(مستدرك وسائل الشيعة:١/٢٨٨.)

٢. وقال (صلى الله عليه وآله وسلم):«إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفّع، وماحِلٌ مصدَّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلّ على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل، وبيان

وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لا تُحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليُجلْ جال بصره، وليبلغ الصفة نظره، يَنجُ من عطب، ويتخلّص من نشب». (الكافي:٢/٢٣٨).

٣. قال الإمام عليّ (عليه السلام): «وَ أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ، وَ الْعَلَمِ الْمَأْثُورِ، وَ الْكِتَابِ الْمَسْطُورِ، وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللاَّمِعِ، وَالأَمْرِ الصَّادِعِ، إزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ، وَاحْتِجَاجاً بِالبَيِّنَاتِ، وَتَحْذِيراً بِالآيَاتِ، وَتَخْوِيفاً بِالْمَثُلاَتِ». (نهج البلاغة: الخطبة٢).

٤. وقال الإمام علي بن الحسين، زين العابدين (عليه السلام): «وجَنِّبْنا به] أي بالقرآن [الضرائب (الضرائب: جمع ضريبة، وهي الطبيعة والسَّجيّة) المذمومة، ومَداني الأخلاق، واعصمنا به من هُوّةِ الكفر ودواعي النفاق، حتّى يكون لنا في القيامة إلى رضوانك وجِنانك قائداً، ولنا في الدنيا عن سُخطك وتعدّي حدودك ذائداً، ولِما عندك بتحليل حلاله وتحريم حرامه شاهداً». (الصحيفة السجادية: دعاؤه (عليه السلام)عند ختمه القرآن).

الآيات ٨٣ ـ ٨٩ (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا ... فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا).

الآيات: الثالثة والثمانون إلى التاسعة والثمانين

(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا * قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً * وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً * وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً * إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا * قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا).

المفردات

نئَا: النَّأْي: البُعْد.

يئوسًا: اليَؤوس: القَنوط، المنقطع الأمل. وهي صيغة مبالغة.

شاكلته: الشاكلة: الطريقة والمذهب. وعن الإمام الصادق، وقتادة : النيّة.

وكيلاً: مدافعاً.

ظهيرًا: معيناً، وأصله من الظَّهر كأنّ كلّ واحد يسند ظهره إلى ظهر صاحبه فيتقوّى به.

صرّفنا: رددنا القول فيه بوجوه مختلفة، والصرف هو التغيير.

التفسير

٨٣ و ٨٤ .(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا * قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً):

لمّا تقدّم في الآية السابقة أنّ القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين ومُزيدُ الظالمين خسراناً، جاء البيان القرآني لتبيين ما هو السبب في أنّ القرآن لا يزيد الظالمين إلاّ خساراً، وتوضيحه:

أنّ الإنسان المنقطع عن الله سبحانه، ينظر إلى الأسباب ويخلد إليها، فإن كانت الأسباب مثمرة للخير فرح بها، ومن ثمّ يبتعد عن الله سبحانه لافتراض أنّه منقطع عنه سبحانه ومتوجّه إلى الأسباب بما هي هي، فمثل هذا إذا أنعم الله عليه غفل عن المنعم الواقعي، ولذلك يبتعد عنه كما يقول:(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ): أي الإنسان الغارق في الأسباب المادّية، كان له موقفان:

١. التولّي وعدم الإقبال، كما قال: (أَعْرَضَ) كأنّه نسي الله سبحانه.
٢. التباعد وثَنيُ العِطْف، كما يقول: (وَنَئَا بِجَانِبِهِ) قلنا: النأي: البُعد، فقوله:(وَنَئَا بِجَانِبِهِ): أي اتّخذ لنفسه جهة بعيدة منّا، وعلى هذا فالباء في قوله: (بِجَانِبِهِ) للمصاحبة، أي بَعُدَ مصاحباً لجانبه، أو مبعِداً جانبَه. ومن المعلوم أنّ المُعرض عن الله والمبتعد عنه يغفل عن عبادة الله وشكره. وأفضل كلمة تعبّر عن حال هذا الإنسان، قوله سبحانه:(وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ) ولم ير في صحيفة الوجود مؤثراً إلاّ الأسباب، هذا حاله.

ثم إذا سقطت الأسباب عن التأثير غلبه اليأس كما يقول:(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ) كالموت والمرض والجدب والطوفان (كَانَ يَئُوسًا)، وقد ذكر سبحانه يأس هذا الإنسان في موضع آخر، قال تعالى:(لاَ يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ).(فصّلت:٤٩.)

وبذلك عُلم ما هو الوجه في كون القرآن سبباً للشفاء والرحمة للمؤمنين، ومزيداً الكافرين خسارة، لافتراض أنّ الكافر أخلد إلى الأرض وتبنّى الأسباب ولا يرى لما وراءها سبباً آخر، فمثل هذا الإنسان لا ينتفع بنور القرآن ولا يستنطق ما أودعه الله تعالى في ذاته من فطرة التوحيد وغيرها.

وبما ذكرنا يُعلم مفاد قوله سبحانه:(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ)والشاكلة هي السيرة التي اعتادها صاحبها والطريقة الّتي نشأ عليها، وأُريد من السيرة ما ينطبع في النفس بمزاولة الأفعال، ويكون طبيعة ثانوية له، مثلاً: الإنسان إذا كذب يوماً بعد يوم تحصل له في النفس ملكة الكذب، فيتعذّر عليه أن ينقل قصة لا يكذب فيها، على خلاف من حصلت له ملكة الصدق، وهكذا سائر الملكات، فالآية القرآنية تعلّل عدم انتفاع الكافرين بنور القرآن ـ بل يزيدهم القرآن ظلمة وخسارة ـ هو أن هذا الإنسان عبر حياته قام بمزاولة أفعال أحدثت فيه الخلود إلى الأرض والانقطاع عن السماء، بخلاف المؤمن فإنّه على العكس من ذلك:(قُلْ كُلٌّ) من المؤمن والكافر (يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) وسيرته التي اعتادها صاحبها ونشأ عليها عبر حياته، فيعمل المؤمن وفق شاكلة الإيمان فيعبد الله ويشكره، ويعمل الكافر وفق طريقته الّتي اتّخذها في حياته، فيعرض عن ذكر الله ويبتعد عنه، فيزيده عمله هذا خسارة.

والله سبحانه يعرف شاكلة كلّ إنسان، ويعرف المستعدّ للهداية وغير المستعدّ، كما يقول:(فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً) والفقرة خطاب للمؤمن والكافر.

ثمّ إنّ هنا سؤالين:

الأوّل: إنّه سبحانه وصف المخلد إلى الأرض بقوله:(وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا) وجاء هذا الوصف في سورة فصلّت أيضاً، قال سبحانه:(وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ)(فصلت:٤٩.)، ولكنّه سبحانه يصفه عند مسّ الشر بالدعاء والتوجّه إليه، ويقول:(وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَئَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيض)(فصلت:٥١.).

وجه الإشكال: أنّه كيف يجتمع قوله: (يَئُوسًا) وقوله: (فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ)في كلا الموضعين مع قوله: (فَذُو دُعَاء عَرِيض)؟

ويمكن الجواب، كما سيوافيك إجمال ما نذكره في سورة فصّلت ، بأنّ الإنسان المنكبّ على الدنيا، المؤْثِر للذّاتها له حالتان، ففي الحالة الأُولى إذا تقطّعت الأسباب يعرض له اليأس والقنوط فيمضي على هذه الحالة، ثم إنّه بعد فترة يتنبّه وينقلب عما كان عليه، فيصبح ذو دعاء عريض، فإنّ طوارئ الزمان وحوادثه تؤثّر في تفكير الإنسان وتصرفه عن الكفر والإعراض إلى الإيمان والإقبال.

ويمكن أن يجاب بأنّ اليأس والقنوط شأن نوع من جنس الإنسان، وأنّ التوجّه إلى الله بالدعاء العريض شأن نوع آخر، وإنْ كان كلاهما غير مؤمنيَن . أمّا الأوّل فهو المتوغّل في الكفر أو الشرك إلى حدٍّ اتّخذ لنفسه سجيّة أُخرى وراء الفطرة التي فطره الله عليها، فكانت الفطرة الصالحة مغمورة مستورة بالسجيّة الثانية، فهذا هو الذي إذا مسّه الشرّ يصبح يؤوساً قنوطاً لغفلته عن

الطبيعة الأُولى، وأمّا الثاني فهو الكافر أو المشرك الذي لم يكتسب سيرة وسجيّة تضادّ الفطرة إلى درجة كبيرة، بل ربما يغفل عنها، فعند سقوط الأسباب يلتفت إلى الفطرة الطاهرة، فيصبح ذا دعاء عريض.

السؤال الثاني: إنّ مقتضى قوله سبحانه:(قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ) هو أنّ الإنسان مسيّر لا مخيّر، يقول الرازي: المراد أنّ كلّ أحد يفعل على وفق ما شاكل جوهر نفسه ومقتضى روحه، فإنْ كانت نفسُه نفساً مشرقة خيّرة طاهرة عُلوية، صدرت عنه أفعال فاضلة كريمة.

وإن كانت نفسُه نفساً كدرة نذلة خبيثة مضلّة ظلمانية، صدرت عنه أفعال خسيسة فاسدة، وأقول: العقلاء اختلفوا في أن النفوس الناطقة البشرية، هل هي مختلفة بالماهيّة أو لا؟ منهم من قال إنّها مختلفة بالماهيّة، وإنّ اختلاف أفعالها وأحوالها لأجل اختلاف جواهرها وماهيّاتها، ومنهم من قال إنّها متساوية في الماهيّة، واختلاف أفعالها لأجل اختلاف أمزجتها، والمختار عندي هو القسم الأوّل، والقرآن مشعر بذلك.(تفسير الرازي: ٢١ / ٣٦ .)

وهنا يرِدُ هذا السؤال: إنّ خسّة الأفعال وشرافتها إذا كانتا تابعتين لخسّة النفس وشرافتها ـ وهما أمران خَلْقيان لا مدخل للاختيار فيهما ـ فعلام المدح والذمّ، والثواب والعقاب؟(روح المعاني:١٥/١٥٠.)

أقول: قد أجاب الحكماء عن هذا السؤال أو الإشكال بوجوه غير ناهضة، والصحيح أن يقال: إنّ الطبيعة البشرية تُطلق ويراد بها أحد معنيين:

المعنى الأوّل: الفطرة التي خلق الله سبحانه الإنسان عليها، وهي في الجميع على حدٍّ سواء، كما يقول: (فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ)(الروم:٣٠.). وتقسيم ذلك إلى مشرقة طاهرة عُلوية وإلى كدرة خبيثة ظلمانية، لا أساس له. وما تلهج به الألسن من سعادة ذاتية وشقاوة كذلك، ممّا لا أساس له، فالناس كلّهم قد خلقوا على فطرة التوحيد، ثم هم يكسبون السعادة أو الشقاء بأعمالهم.

المعنى الثاني: العادة التي يكتسبها الإنسان بأعماله وممارسته لأفعال خاصّة تورث مَلَكة في نفس الإنسان، فمن اعتاد على الإحسان منذ نعومة أظفاره إلى شبابه يعسر عليه البخل، على خلاف البخيل، فكلٌّ يكتسب إحدى تلك الملكتين المتضادّتين بأعماله، وقس على ذلك سائر الملكات.

وبالجملة: الملكات التي تصدر عنها الأفعال الحسنة أو القبيحة كلّها مخلوقة للإنسان ومصنوعة له، فالإنسان بممارسة الأعمال المتضادّة يكتسب تلك الملكات، وإلى ذلك يشير قوله سبحانه:(ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوآى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ)(الروم:١٠.)، فالآية صريحة في أنّ مزاولة الأعمال السيئة التي تُعدّ من المعاصي تجرّ الإنسان إلى الإلحاد وتكذيب آيات الله والاستهزاء بها، ومن المعلوم أنّ مثل هذا الإنسان أبّان شبابه لم يكن غارقاً في التكذيب والاستهزاء، ولكن ممارسته للمعاصي والسيئات تولِّد في نفسه جرأة على التكذيب بآيات الله والاستهزاء بها، وقد لمسنا نحن ذلك في واقعنا ، فرُبّ إنسان كان عالماً صالحاً في أوائل عمره، ولكن بعد أن خالط الفاسدين فترة من الزمان تغيّرت حالته الأُولى فأخذ يكتب ردّاً على الشرائع السماوية وإنكاراً لما وراء الطبيعة.

ثمّ إنّ الحكيم السبزواري يشير إلى ما ذكرناه من أنّ السيرة والشاكلة التي يسير عليها الإنسان ممّا يكتسبها الإنسان عبر أفعاله وأعماله، بقوله:

إذ خُمّرت طينتنا بالمَلَكةْ *** وتلك فينا حصلت بالحركةْ(١)

(١)منظومة السبزواري: ٢٧٥.

٨٥ .(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً):

ذكر المفسّرون أنّ قريشاً أرسلت إلى أحبار اليهود جماعة حتى يسألونهم عن محمد؛ لأنّ عند هؤلاء من علم الأنبياء ما ليس عند قريش، فخرجوا حتى قدموا المدينة، فقال أحبار اليهود: اسألوه عن ثلاث، فإن أخبركم فهو نبيٌّ مرسَل، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل، فروا فيه رأيكم، سَلُوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ما كان أمرهم؟ فإنّه قد كان لهم حديث عجيب، وسَلُوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبأُه؟ وسَلُوه عن الرُّوح ما هو؟(مجمع البيان:٣٦٠/٦. وانظر: السيرة النبويّة لابن هشام: ١ / ٣٠١ ـ ٣٠٢.)

وقد اشتملت سورة الكهف على سؤالين منها مع الإجابة عنهما، وسيوافيك الكلام في محلّهما، وأمّا سورتنا هذه فقد تضمّنت السؤال عن الرُّوح والإجابة عنه، وقد ا ختلف المفسّرون في ما هو المراد من الروح في الآية الكريمة، وما هو المراد من قوله:(قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)، فيقع الكلام في مقامين:

١. ما هو المراد من (الرُّوحُ) في الآية؟

٢ .ما هو المراد من قوله سبحانه:(قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)؟

أمّا الأوّل، فقد أُطلقت الرُّوح في القرآن الكريم على موارد:

١. الروح الإنسانية، كما في قوله سبحانه:(ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ)(السجدة:٩.). وإضافة الروح إلى الله سبحانه إضافة تشريفية.

٢. القرآن الكريم والشريعة المقدسة، كما في قوله تعالى:(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا)(الشورى:٥٢.). فإنّ وحيَ هذا، من شأنه وحده سبحانه وتعالى.

٣. القوة الإلهية المعنوية التي تقوّي المؤمنين، كما في قوله:(أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ)(المجادلة:٢٢.).

٤. جبرئيل (عليه السلام)، الذي يتوسط بين الله ونبيّه في إنزال الوحي بأمانة على قلب سيد المرسلين، كما قال تعالى:(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)(الشعراء:١٩٣ـ ١٩٤.).

وقد اختلف المفسّرون فيما هو المراد من الروح في آيتنا إلى أقوال وآراء، ونحن نرجّح أنّ المراد هو أمين الوحي، ونكتشف ذلك من دراسة حال السائل، وكما يلي:

استكشاف المراد من دراسة حال السائل

إنّ السائل أو السائلين هم اليهود حسب ما اتّفقت عليه كلمات مؤلّفي السيرة والمفسّرين، وأنّ اليهود هم الذين طرحوا الأسئلة الثلاثة التي منها السؤال عن الروح، ونصّ عليه ابن هشام في سيرته، فإذا تبيّن ذلك نقول:

كان اليهود يكنّون العداء لجبرئيل (عليه السلام)لسبب ذكره المفسّرون عند تفسيرهم لقوله تعالى:(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)(البقرة:٩٧.).

قال الطبرسي: كان سبب نزول هذه الآية ما روي أنّ ابن صوريا وجماعة من يهود أهل فدك، لمّا قدم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) المدينة سألوه... (إلى أن قال): فقال له ابن صوريا : خصلة واحدة إن قلتَها آمنت بك واتّبعتك، أيّ مَلَك يأتيك بما ينزل الله عليك؟ قال: فقال: جبرئيل، قال: ذاك عدوّنا، ينزل بالقتال والشدّة والحرب، وميكائيل ينزل باليسر والرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمنّا بك.(مجمع البيان: ١٦٧/١؛ ولاحظ : الدر المنثور: ٢٢٢/١، وغير ذلك من المصادر.)

فالآية وما ورد حولها من المأثورات أدلّ دليل على أنّ اليهود كانوا يكنّون العداء لجبرئيل، وعلى ضوء ذلك فيصحّ أن يقال: إنّ اليهود المكرة طرحوا هذا السؤال قبل الهجرة ليستكشفوا معتقد نبيِّنا حول جبرئيل (عليه السلام)، فإن كان موافقاً لما يعتقدونه فقد وجدوا شاهداً على معتقدهم، وإن كان مخالفاً يبقون على خلافهم لرسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ولذلك جاء الجواب مطابقاً للسؤال.

أمّا الثاني، أي المراد من قوله: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) فهو الروح الأمين المأمور من جانب الله، وهو من جنوده تعالى، والروح مأمور فلا يُبيد ولا يُهلك إلاّ بأمره سبحانه.

وعلى ضوء ما ذكرنا، نستبعد تفسير (الروح) بالنفس الإنسانية المجرّدة، فإنّ هذه مسألة فلسفية بعيدة عن أذهان أُولئك الذين لا يفكرون إلاّ في المادّة والدنيا.

فإن قلت: ذكر ابن عاشور في كتابه بأنّه ورد في سِفر التكوين من التوراة: «وروح الله يرفّ على وجه الحياة» (التحرير والتنوير: ١٤ / ١٥٥.) فيحتمل أن يكون السؤال عن سرّ هذا الروح، ولم تكن مسألة فلسفية بعيدة عن الأذهان .

قلت: لو كان المراد ما ذُكر لكان الجواب أجنبيّاً عن السؤال؛ لأنّ الجواب مركّز على أنّ الروح مأمور من جانب الله تعالى، فانطباق ذلك على السؤال بعيد جداً .

ثمّ إنّه سبحانه أمر نبيّه أن يخاطب اليهود أو قريش بقوله:(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ) المعلومات (إِلاَّ قَلِيلاً)فكان اليهود يفتخرون بأنّهم قد أُوتوا علماً كثيراً، فالله سبحانه أخبر في هذه الآية بأنّ علمهم ـ ولو كان في ظلّ التوراة ـ بالنسبة إلى جهلهم، شيءٌ ضئيل.

٨٦ و ٨٧. (وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً * إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا):

صلة الآية (٨٦) بما قبلها واضحة، فإنّه سبحانه لمّا تحدّث عن القرآن وقال:(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) ثم تحدّث عمّا أُوتي اليهود من العلم وقال: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)، جاء البيان القرآني ليؤكّد بأنّ مبدأ هذه العلوم كلّها هو الله سبحانه، حتى ما أُوتي النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) من القرآن الكريم الذي فيه معظم العلوم، فإذا كان هذا مفاضاً من الله سبحانه فما حال ما عند اليهود المقتبس من التوراة؟ وقال مقسماً بشهادة حرف اللاّم التي هي موطّئة للقسم: (وَلَئِنْ شِئْنَا) يا رسول الله(لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)فقوله:(لَنَذْهَبَنَّ)جواب القسم المقدّر، أي آخذ ما أعطيتك من القرآن (ثُمَّ)بعد ذلك (لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ): أي بالإذهاب (عَلَيْنَا وَكِيلاً)يستوفي ذلك منّا، والوكيل: من تُفوَّض إليه الأُمور.

نعم، الآية تتحدّث عن شأنه سبحانه وأنّه لو فعل ذلك لم يكن هناك من يمنعه عن فعله، لكنّه أخبر عن عدم فعله قائلاً(إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)الظاهر أنّ الاستثناء منقطع، والمعنى: ولكن رحمة من ربّك تركه سبحانه ولن يُذهب بما أعطاه لك. وكأنّ الآية امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً باقياً إلى يوم القيامة.

ثمّ إنّه سبحانه يعلّل الاستثناء بقوله: (إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا): أي تخصيصك بالقرآن وحفظه لأجل أنّ فضل الله سبحانه كان من لدن ولادتك (عَلَيْكَ كَبِيرًا). والفقرة تدلّ على سعة علمه على نحو وصفه سبحانه بالكبَر ويقول: (إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا) والفضل وإن كان واسع المفهوم كثير المصداق، لكنّ العلم من أفضل مصاديقه.

٨٨ . (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض ظَهِيرًا):

لمّا وصف سبحانه فضله على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بكونه كبيراً، جاء بدليل واضح وهو أنّه خصّه بكتاب فيه شفاء ورحمة وقد بلغ من العظمة مكانة أن لو اجتمعت الإنس والجنّ على تحدّيه لا يأتون بمثله، قال: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ) وتعاونوا وتآزروا (عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ) في فصاحته وبلاغته وسمّو معانيه (لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ)وهذا جواب للقسم المقدّر (وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض ظَهِيرًا): أي مُعيناً، فلو تعاون الإنس والجنّ على التحدّي لما أتَوا بمثله، إذ لا تستهدف الآية بيان قصور كلّ فرد بنفسه على التحدّي، حتّى إذا اجتمعوا وتعاونوا تجاوزوا ذلك، بل يكمن الأمر في كلام الله تعالى نفسه، فهو يفوق بأسلوبه الرفيع ومضامينه العميقة قدراتهم، فيقفون عاجزين أمام هذا التحدّي.

٨٩ . (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَل فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا):

لمّا وصف القرآن بأنّه الكتاب الذي يَعجز عن الإتيان بمثله الإنس والجنّ ثم ذكر وصفه وقال:(وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ):

أي بكلّ مثل يقرّب المقصود إلى ذهن السامع، فإنّ الأمثال القرآنية توضّح المقصود وتوطّئ الطريق للإيمان والشكر، ويا للأسف (فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا) فهم مكان الشكر والتقدير، كفروا بالقرآن وما شكروه بالقبول والإذعان.

كلام موجز حول إعجاز القرآن

القرآن كتاب سماويّ لا يستطيع الإنسان مهما عظمت طاقاته على الإتيان بمثله، ولكن عندما يُسأل عن سر إعجازه يتوقّف الكثير منهم في ذلك، ولا يأتون بكلمة شافية تغني السائل.

فمنهم مَن ذهب إلى أنّ إعجاز القرآن يدُرَك ولا يوصف كالملاحة، ومنهم مَن يحيل سبب الإعجاز إلى فرط الفصاحة والبلاغة، من دون أن يشرح وجه فصاحته وبلاغته، وأكثر ما عندهم قولهم عجز أساطين البلاغة عن الإتيان بمثله.

وهناك جماعة من المحقّقين بحثوا حتى رفعوا اللثام عن وجه إعجازه، وها نحن نذكر شيئاً موجزاً من إعجازه، ويمكن بيان ذلك في جهات:

الأُولى: فصاحة ألفاظه وجمال عباراته، وبلاغة معانيه وسموّها، وروعة نظمه وتأليفه، وبداعة أُسلوبه، وكلام قد اجتمعت فيه هذه الأُمور الأربعة ليس له مثيل في كلام العرب، خصوصاً من حيث روعة النظم وبداعة الأُسلوب، فإنّ لكلٍّ من الشعراء والكتّاب أُسلوباً وسبكاً خاصّاً، والقرآن على أُسلوب لا يماثل واحداً من الأساليب الكلامية والمناهج الشعرية، وهذه الدعائم الأربع إذا اجتمعت تخلق كلاماً له تأثير في القلوب والنفوس، فإذا قرع السمع ووصل إلى القلب يحسّ الإنسان فيه لذة وحلاوة في حال، وروعة ومهابة في أُخرى، تقشعرّ منه الجلود، وتلين له القلوب، وتنشرح به الصدور، وتغشى النفوس خشية ورهبة ووجداً وانبساطاً، ويحسّ البليغ بعجزه عن المباراة والمقابلة.

ولأجل ذلك، كم من عدوّ للرسول من رجال العرب وفتّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم، أن تحوّلوا عن رأيهم الأوّل، وركنوا إلى مسالمته، ودخلوا في دينه، وانقلبت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيماناً، يقول سبحانه:(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ)(الحشر:٢١).

ويقول: (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ)(الزمر:٢٣)، ويقول تعالى:(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ)(المائدة:٨٣).

هذا ما يثبته تحليل كلّ من هذه الأُمور، فليس المدّعى كون كلّ واحدة منها وجهاً مستقلاً للإعجاز، وإنّما المراد أنّ كلّ واحدة منها توجِد أرضية خاصّة، يتشكّل باجتماعها كلامٌ معجز خارق، مبهر للعقول، ومدهش للنفوس، فيجد الإنسان في نفسه العجز عن المباراة، والضعف عن التحدّي.

هذا كلّه يرجع إلى جانب الفصاحة والبلاغة، وأمّا ما يرجع إلى المزايا الأُخرى التي جعلت القرآن معجزة فوق المعارضة، فنشير إلى عناوينها:

الثانية: إعجازه من ناحية التشريع والتقنين.

الثالثة: هيمنة القرآن على الكتب السماوية، وخلوّه عمّا في سرد القصص من الخرافات، ممّا لا يليق بمقامه سبحانه ومقام رسله.

الرابعة: الإخبار عن الغيبيّات المتحقّقة في عصر النزول وبعده.

الخامسة: الإخبار عن الظواهر والقوانين الكونية التي كشف العلم عنها فيما بعد.

السادسة: الدعوة إلى فضائل الأخلاق ومكارمها بعيداً عن الإفراط والتفريط.

السابعة: خلوّه عن الاختلاف في الأُسلوب والمضمون.

الثامنة: أُميّة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وعدم معرفته القراءة والكتابة قبل بزوغ فجر دعوته والإتيان بهذا الكتاب.

وهذه الوجوه وغيرها أفضل دليل على أنّ القرآن كتاب سماويّ نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين، ويبقى طريّاً عبر الزمان إلى يوم القيامة.

وأمّا شرح هذه الجهات السبع وغيرها، فخارج عن موضوع كتابنا، فمن أراد التفصيل فليرجع إلى محاضراتنا باسم «الإلهيات»، الجزء الثالث، فقد بلغنا النهاية في تلك المواضيع.

الآيات ٩٠ ـ ٩٣ (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ ... هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً).

الآيات: التسعون إلى الثالثة والتسعين

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيل وَعِنَب فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُف أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً).

المفردات

تَفجُر: الفَجْر: شقّ الشيء شقّاً واسعاً، يقال: فجَرته فانفجر، وفجّرته فتفجّر.(مفردات الراغب:٥٦٠، مادة «فجر».)

ينبوعاً: الينبوع: العين التي لا ينضب ماؤها.

جنة: بستان، تستر أشجارُه ما تحتها من الأرض.

كِسَفاً: واحدها كِسْفة، كقطع وقطعة لفظاً ومعنى.

قَبيلاً: أي مقابلاً بالرؤية العيانية.

زخرف: المراد بالزُّخرف هنا: الذهب.

ترقى: تصعد.

التفسير

إنّ صفحات التاريخ تشهد بوجود أُناس ادّعوا، كذباً ودَجَلاً، السفارة من الله والإنباء عنه، ولم يكن لديهم بضاعة إلاّ الافتراء والتزوير، ولا هدف لهم سوى التسلّط وتحقيق طموحاتهم وأطماعهم.

ومن هنا لابدّ من معايير وضوابط لتمييز النبيّ عن المتنبّي،ومن جملتها لزوم أن تظهر على يد المدّعي معجزة وأن يأتي بخوارق العادة، متحدّياً بها غيره على وجه لا يقدر أحد على معارضته، حتى نوابغ البشر.

ويظهر من الآيات الواردة في القرآن الكريم أنّ طلب المعجزة دليلاً على صدق المدّعي، كان أمراً فطرياً يطلبه الناس من الأنبياء ومن مدّعي النبوّة، يشهد لذلك أنّه لمّا ادّعى صالح(عليه السلام) النبوّة قوبل بجواب قومه:(مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَة إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)،(الشعراء:١٥٤.) ولذلك كان الأنبياء مزوّدين بأنواع المعاجز التي تناسب بيئة كلّ واحد منهم، فمعاجز موسى(عليه السلام) التسع غير ما أُوتي عيسى(عليه السلام) من المعاجز كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وذلك لأنّ لكلّ نبيّ بيئة خاصّة، فالمعجزة الّتي يتزوّد بها يجب أن تكون منسجمة مع مقتضيات عصره ومجتمعه، ولذلك جعل سبحانه معجزة نبيّنا القرآنَ الكريم لإثبات صلتهما (النبيّ وكتابه) بالله تعالى، لأنّه ينسجم مع بيئته التي راج فيها سوق الشعر والكلام الفصيح والبليغ، ومع ذلك كان

له معاجز أُخرى كالإسراء والمعراج، وسعي الشجرة إليه(انظر: نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢ (المسمّاة بالقاصعة).)، وغيرها.

ثمّ إنّ بعض المحدَثين والجُدد يتمسّكون بما ورد في هذه المجموعة من الآيات ويستدلّون بها على أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) كان غير مزوّد بمعجزة بشهادة أنّه يقول:(قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً) وها نحن نفسّر هذه الآيات ليُعلم أنّ ما أجاب به النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) لا صلة له بما ألصقوه به من التُّهم.

إنّ تحليل هذا الاستدلال ونقده، يتوقّف على دراسة كلّ مقترح من المقترحات المذكورة في الآيات المتقدّمة، وهي:

١. أنْ يَفْجُرَ لهم من الأرض يَنبوعاً.

٢. أن يكون للنبيّ جنّة من نخيل وعنب، وتجري الأنهار خلالها بتفجير منه.

٣. أن يُسقط السماء عليهم كسفاً.

٤. أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً.

٥. أن يكون للنبيّ بيت من زخرف.

٦. أن يرقى النبيّ في السماء، ولا يكفي ذلك في إثبات نبوّته حتى يُنزِّل عليهم كتاباً من السماء يقرأوه.

هذه هي مقترحات القوم، ونحن نجيب عنها بجوابين: إجماليّ، وتفصيليّ.

أمّا الأوّل فلأنّ النبيّ إنّما لم يأتِ بها لعدم استجماعها لشروط الإعجاز، إذ ليس الإتيان بالمعجزة من الأُمور الفوضوية، بل يخضع لشرط عقليّ أو شرعيّ، وهذه المقترحات فاقدة لها.

وأمّا الثاني، فسيوافيك عند ذكر اقتراحاتهم.

٩٠.(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا):

الاقتراح الأوّل أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً

هؤلاء المشركون المعاندون طلبوا من النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يفجر لهم من الأرض ينبوعاً وعلّقوا إيمانهم به، مع أنّ طلبهم مخالف لسنّة الله الحكيمة في الحياة البشرية، حيث استقرّت على أن يصل الناس إلى معايشهم ومآكلهم ومشاربهم عن طريق السعي والجدّ، تكميلاً لنفوسهم وتربية لعزائمهم.

فإذا كان مطلوب القوم أن يُفَجِّر لهم النبيّ ينبوعاً وعيناً لا ينضب ماؤها، ليستريحوا بذلك من عناء تحصيل الماء، فهو على خلاف تلك السنّة الحكيمة.

نعم، ربّما تقتضي بعض الظروف ـ كإبقاء حياة القوم ـ قيام النبيّ بذلك، كما فعل موسى (عليه السلام)عندما شكا إليه قومه الظمأ، فاستسقى الله تعالى لهم، فأوحى إليه أن يضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً،(لاحظ : البقرة: ٦٠ .)ولكن مثل هذا لا يعدُّ نقضاً للسنّة العامّة، كما أنّ الظروف في مكة لم تكن ظروفاً اضطرارية.

٩١. (أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيل وَعِنَب فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيرًا):

الاقتراح الثاني علّق المشركون إيمانهم على أن يكون النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) رجلاً ثريّاً،

علّق المشركون إيمانهم على أن يكون النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) رجلاً ثريّاً، وذلك بأن تكون له جنة من نخيل وعنب ويُجري فيها الأنهار بقوّة!! وكأنّ هؤلاء يستدّلون بامتلاك الثروة على عظمة الإنسان، وبالفقر وفقدان المال والإملاق على حقارته، ولذا قالوا، كما يحكيه عنهم تعالى:(لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُل مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم).(الزخرف:٣١.)

وعلى هذا، فإجابة هذا الطلب يكون فيها نوع اعتراف بهذه المزعمة، إذ ليس هناك رابطة عقلية بين كون الرجل صاحب ثروة،

وكونه متّصلاً بالغيب. وإلاّ لوجب أن يكون أصحاب الثروات أنبياء، إذا ادّعوا النبوّة.

٩٢. (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ قَبِيلاً):

الاقتراحان: الثالث والرابع هو إهلاكهم بإسقاط السماء عليهم قِطَعاً.

لقد طلب هؤلاء القوم أمراً ثالثاً وعلّقوا عليه إيمانهم، وهو إهلاكهم بإسقاط السماء عليهم قِطَعاً. ومن المعلوم أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم) لا يقوم به ولا تتعلّق إرادة الله به، لأنّ إسقاط السماء يضادّ هدف الإعجاز، حيث إنّ الغاية منه الهداية لا إبادتهم وإهلاكهم. كما أنّ لهم اقتراحاً رابعاً وهو الإتيان بالله والملائكة مجتمعين ليشهدوا له بنبوّته ورسالته، وقد حكاه عنهم سبحانه في آية أُخرى، بقوله:(وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنَا).(الفرقان:٢١.)

ومن المعلوم أنّ هذا المقترح محال عقلاً، وممتنع بالذات، فكيف يقوم به النبي؟!

٩٣. (أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُف أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً):

الاقتراحات: الخامس والسادس والسابع

الطلب الخامس للمشركين هو أن يكون صاحب بيت من زخرف، أي من ذهب، وقد مرّ أنّ كون الرجل ثرياً لا يدلّ على كونه رسولاً من الله سبحانه، فكم من الأثرياء في المجتمع البشري وهم بعيدون عن الله سبحانه.

وأمّا الاقتراح السادس، فهو أن يصعد في السماء وهم يشاهدون صعوده فيها، كما حكى عنهم سبحانه ذلك بقوله: (أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ). وهذا الطلب يدلّ على عنادهم وتعنّتهم، إذ لو كان الهدف هو الاهتداءلاكتفوا برؤية رُقيّه في السماء، ولكنّهم علّقوا إيمانهم بأمر آخر أيضاً أعني الاقتراح السابع: وهو ما تضمّنه قوله تعالى:(وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ).

إنّ مجموع ما ذكرناه حول هذه الاقتراحات يوقفنا على أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله وسلم)لم يستجب لمطالبهم إمّا لأجل فقدان المقتضي أو لوجود المانع، ولذلك أجاب بما أمره سبحانه أن يجيبهم به، قائلاً:(سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً).

وهو في هذا الجواب يعتمد على لفظين: (بَشَرًا) و (رَسُولاً). والمراد أنّ هذه الطلبات التي طلبتموها منّي إمّا لكوني بشراً، أو لكوني رسولاً. وعلى الأوّل فقدرة البشر قاصرة عن القيام بهذه الأُمور، وعلى الثاني، فهو موقوف على إذنه سبحانه، لأنّ الرسول لا يقوم بشيء إلاّ بإذن مُرسِله، وليس هاهنا إذنٌ، لعدم استجماع هذه الطلبات شروط الإجابة.

وبالإجابة التي ذكرناها عن هذه الآيات، تقدر على الإجابة عن كثير من الآيات التي اتّخذها نفاة المعجزة ذريعة لنظريتهم.

أضف إلى ذلك: أنّه كيف يمكن لأحد أن ينكر معاجز النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم)، مع أنّ القرآن الكريم يخبر عن بعضها أوّلاً(لاحظ في ذلك الآيات التالية:

آل عمران:٦١ و ٨٦؛ الأنعام:١٢٤؛ الإسراء:١؛ الروم:١ـ٣؛ الصافات:١٤ـ١٥؛ القمر:١ـ٤، ولاحظ في تفصيل هذه الآيات: مفاهيم القرآن:٤/٧٥.)، والسنّة متواترة بها، ثانياً.

وليس إنكار المعاجز وغيرها ممّا يرتبط بالغيب ـ كالملائكة والجن ـ إلاّ لفقدان الهوية الإسلامية، والشعور بالضعف والخَوَر في ساحة المواجهة مع الأفكار المادّية، التي أصبحت بحمد الله تعالى، وبفضل بحوث العلماء الغيارى، سراباً في صحراء.

الآيات ٩٤ ـ ١٠٠ (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ... وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا).

الآيات: الرابعة والتسعون إلى]الآية[المئة

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ

لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً * قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا * قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا).

المفردات

مطمئنِّين: ساكنين مقيمين فيها.

المهتدِ: اللام للجنس، وأصله «المهتدي» حذفت الياء لغاية التخفيف، نظير قوله: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ)(الفجر: ٤ .)، وقوله تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ).(الرعد: ٩ .)

نحشرهم: الحشر: جمع الناس من مواضع متفرّقة وسَوْقهم إلى مكان واحد.

عُميًا وَبُكماً وصمّاً: جمع أعمى وأبكم وأصمّ. والأبكم هو العاجز عن النُّطق، والأصمّ هو الّذي لا يسمع الأصوات.

خبت: سكن لهبها.

سعيراً: السعير: النّار، وقيل: لهب النّار.

كُفوراً: جحوداً للحق والنِّعمة.

أجلاً: الأجل: الغاية الّتي يبلغها الموجود، وفي الإنسان وقت الموت.

خشية الإنفاق: خوف النفاد (أي نفاد الخزائن)، يقال نفقت نفقات القوم إذا نَفَدتْ. وقيل: خوف الفقر.

قَتوراً: شديد البخل.

التفسير

٩٤. (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً):

شبهة امتناع كون البشر رسولاً من الله

تتحدّث الآية عن أقدم شبهة مثارة للوثنيّين حول الرسالات الرّبّانية، فإنّهم وإن كانوا مؤمنين بالله سبحانه بَيْد أنّهم كانوا ينكرون أن يختار لها من جنس البشر. والشبهة عبارة عن أنّ مقام الرسالة من الله مقام سام، يتكفّلها ملك من ملائكة الله دون الإنسان الأرضي. وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذه الشبهة في مواضع أُخرى، فهؤلاء قوم هود يقولون:(مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)(المؤمنون:٣٣.)، وهؤلاء قوم صالح(عليه السلام)يجترّون هذه الشبهة أيضاً ويخاطبون نبيّهم صالح(عليه السلام) بقولهم:(مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا)(الشعراء:١٥٤.)، ويحكي عن قوم شعيب نفس هذه الشبهة حيث يخاطبونه بقولهم:(مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا)(الشعراء:١٨٦.) إلى غير ذلك من الآيات، حتى أنّه سبحانه حكى عن قريش قولهم:(مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا).(الفرقان: ٧.)

وإلى هذه الشبهة يشير سبحانه بقوله:(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ) الوثنيين (أَنْ يُؤْمِنُوا) بنبوّتك وبما نزل عليك من الكتاب(إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى): أي الوحي المقرون بالحجج والبيّنات، وما منعهم (إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولاً): أي أنّ المسؤولية الإلهية أرقى من أن تكون على عاتق البشر، بل يجب أن تكون على عاتق مَلَك. وبهذه الشبهة الواهية أنكر الوثنيون رسالة السماء ومن ثمّ الشرائع الإلهية عامّة قائلين:(لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنْزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ).(فصّلت:١٤.)

ثمّ إنّه سبحانه يفنّد هذه الشبهة بالآية التالية:

٩٥. (قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً):

وحاصل الآية: (قُلْ) لهم يا محمّد(لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ): أي لو وُجد فيها، بدل البشر (مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ): أي متوطّنين مقيمين فيها (لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً) يأتيهم بالوحي.

وهنا كلام، وهو: هل الآية بصدد بيان أنّ القائد يجب أن يكون من جنس الأتباع، كما عليه أكثر المفسّرين؟ قائلين بأنّ الآية تشير إلى أنّ حكمته سبحانه شاءت أن يبعث رسله إلى خلقه من جنس المرسَل إليهم، فإنْ كانوا بشراً فرسولهم منهم وإليهم، وإنْ كانوا ملائكة فكذلك، لأنّ الجنس إلى الجنس أميل كما قال سبحانه:(لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)(آل عمران:١٦٤.)، والمشركون يعرفون ذلك ولكنّهم يمكرون ويخادعون...

وربّما يؤيّد هذا الوجه ما تقدّم من إنكار الوثنيّين أن يبعث اللهُ البشرَ برسالاته.

أو أنّ الآية بصدد بيان أمر آخر، وهو أنّ كلّ مَن يقطن في الأرض لا غنى له عن الوحي السماوي، وهذه خاصّة الحياة الأرضية والعيشة المادّية المفتقرة إلى هداية إلهية، ولا سبيل إليها إلاّ بنزول الوحي من السماء، حتى لو أنّ طائفة من الملائكة سكنوا الأرض وأخذوا يعيشون عيشة راضية مادّية (لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً) كما نزّل على البشر ملكاً رسولاً.(الميزان في تفسير القرآن:١٣/٢٠٥.)

وحاصل هذا القول: إنّ الحياة في الأرض بحاجة إلى رسالة السماء من غير فرق بين أن يكون القاطن فيها ملائكة أو بشراً، ففي كلتا الحالتين هم بحاجة إلى هداية سماوية يحملها مَلَك من الله تعالى. فقوله:(مَلَكًا رَسُولاً)كناية عن نزول الوحي من السماء بواسطة المَلَك. وأمّا حاجة الحياة الأرضية إلى الهداية السماوية فمضافاً إلى أنّ الحياة فيها لا تخلو من جدال وصراع، وهو بحاجة إلى قانون سماويّ يقضي بين المتخاصمين، فإنّ سبيل التكامل والتربية في المجالات المعنوية رهن قائد إلهي، فخرج القائل بهذه المقدمة إلى أنّ طبيعة الحياة المادّية على الأرض بحاجة إلى نبيّ يكون طرفاً للوحي الإلهي الذي ينزله المَلَك من غير فرق بين كون القاطن المطمئنّ بشراً أو مَلَكاً.

٩٦. (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا):

لمّا أبطل سبحانه أعذار المشركين وذرائعهم الواهية، أخذ يتحدّث في أمرين:

أحدهما: تسلية نفس النبيّ وتثبيته والتعهد له بالفصل بينه وبينهم، كما قال:(قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ) ونعم الحَكَم الله بيننا، وبذلك تتقوّى نفس النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في تبليغ الرسالة.

ثانيهما: تهديد المعاندين المتعصبين بأنّ الله خبير وبصير، يشهد أعمالنا وأعمالكم، فلا تظنّوا أنّكم خارجون عن علمه وقدرته، كما يقول: (إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا). ولعلّ في قوله: (خَبِيرًا) إشارة إلى نوايا الكافرين ومقاصدهم، وفي قوله: (بَصِيرًا) إشارة إلى علم الله بأعمالهم وسلوكيّاتهم.

٩٧.(وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا):

الآية عطف على قوله سبحانه: (قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)وكأنّها تسلية بعد تسلية للنبيّ، فقد سلاّه أوّلاً بكونه سبحانه شهيداً بينه(صلى الله عليه وآله وسلم)وبين المشركين، وأنّه خبير وبصير بعباده، فعاد هنا يسلّيه على ما يلقاه من جحود وعصيان بوجه آخر، وهو أنّ من يهتدي فإنّما هو بتوفيق من الله سبحانه، وأنّ من يضلّ فلحرمانه من توفيق الله سبحانه، كما قال:(وَ مَنْ يَهْدِ اللهُ

فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ): أي أنصاراً (مِنْ دُونِهِ) عزّ وجلّ يهدونه إلى طريق الحق، وإلى طريق النجاة من العذاب.

وربّما يُتوهَّم من قوله سبحانه:(وَ مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ)أنّ الهداية والضلالة بيد الله سبحانه وليس للعبد فيهما دور، فعندئذ يصبح الثواب والعقاب معلَّقين على أمرين خارجين عن اختيار العبد، وهو يناقض أُصول العدلية.

لكنّ الاستنتاج باطل نابع عن حصر النظر بآية واحدة وغضّه عن سائر الآيات. والآيات القرآنية يفسّر بعضها بعضاً، والمجموع يستهدف أمراً واحداً، وهو ما قاله سبحانه:(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا).(الإنسان:٣.)

نقد دلالة الآية على أنّ الإنسان مسيّر

إنّ مَنّ شملته هداية الله سبحانه فقد أعدّ نفسه لها وعرّضها لمهب ريحها، فعند ذلك تشمله هداية الله، فعلى هذا فالمراد من الموصول في قوله:(وَ مَنْ يَهْدِ اللّهُ): أي مَن استعدّ للاستنارة بنور الله، فهو الذي تشمله هداية الله، كما أنّ المراد من الموصول في قوله: (وَمَنْ يُضْلِلْ): أي مَنْ أعرض عن الاستنارة وعاند رسل الله سبحانه، فهو مَنْ يضلله الله إذ لا يشمله توفيقه سبحانه.

وسيوافيك فيما يأتي من تفسير السور التالية(مثل سورة النور: ٣٥، وسورة فاطر: ٨ .)، أنّ لله سبحانه هدايتين: هداية عامّة تشمل كلّ إنسان حتى الفراعنة والجبابرة وهي عبارة عن الدعوة العامّة عن طريق الرسل والعقول والفطرة، ففي هذه المرحلة هداية لا ضلالة. وهناك هداية خاصّة لمَن استجاب لدعوة الأنبياء والعقول والفطرة السليمة ففي هذه المرحلة هداية وضلالة، أمّا الأُولى فهي نصيب مَن استجاب لدعوته فيصل بتوفيق منه إلى السعادة الأبدية، وأمّا الضلالة فهي تصيب مَن أعرض عن دعوته فحُرِم من توفيق الله.

وعلى هذا فالمراد من الموصول في قوله: (وَ مَنْ يَهْدِ اللّهُ)وقوله: (وَمَنْ يُضْلِلْ)عبارة عن المهتدي والضّالّ في المرحلة الثانية.

ثمّ إنّ صاحب «الكشّاف» لمّا أحسّ بأنّ قوله سبحانه:(وَمَنْ يُضْلِلْ)بمعنى خلق الضلالة، يوهم الجَبْر، فسّره بقوله: ومَن يخذل فلن تجد لهم أولياء.(تفسير الكشّاف:٢/٤٢٧.) نعم الخذلان من نتائج الضلالة.

ثمّ إنّه سبحانه يجزي المخذولين الضالّين بالأُمور التالية:

١. (وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ): أي نجمعهم ونسوقهم يوم القيامة (عَلَى وُجُوهِهِمْ): أي مجرورين على وجوههم، كما قال في آية أُخرى: (يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ).(القمر:٤٨.)

٢. (عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا): أي نجمعهم في موقف الحساب عمياً وبكماً وصمّاً، كما كانوا في الدنيا كذلك حيث لا يستبصرون ولا ينطقون بالحقّ، ويتصامون عن استماعه، فهم في الآخرة لا يبصرون ما تقرّ به أعينهم، ولا يسمعون ما يلذّ لمسامعهم، ولا ينطقون بما يُقبَل منهم، قال سبحانه:(وَ مَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً)(الإسراء:٧٢)،(تفسير المراغي:١٥/٩٨ـ٩٩.) وقال سبحانه:(قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)(طه:١٢٥ـ ١٢٦.)، فكأنّ الحياة الأُخروية تجسيم للحياة الدنيوية، فالإنسان إذا تعامل مع الحقّ معاملة الأعمى والأبكم والأصمّ، أي يتعامى عن الحق ولا ينطق به ولا يصغي إليه، يكون سبباً لحشره يوم القيامة بهذه الصفات.

٣. (مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ) المأوى من الأُوِيّ بمعنى النزول، أي منزلهم ومقرّهم جهنم.

٤.(كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا): أي كلّما سكن لهبها زادها سعيراً.

فإن قلت: يظهر من قوله سبحانه:(لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ)(البقرة:٨٦.) أنّ عذاب الله مستمرّ عليهم لا يخفَّف منه شيء مع أنّ الخبو يستلزم التخفيف.

قلت: أجيب عن السؤال بأنّ قوله: (كُلَّمَا خَبَتْ) يقتضي سكون لهب النار ولا يدلّ على أنّه يخفف عنهم في ذلك الوقت، لأنّ العذاب

ليس منحصراً بالعذاب في النار والإيلام بحرارتها فيمكن أن يعوّض ما فات منه بسكون اللهب بنوع آخر من العذاب مما لا يعلمه إلاّ الله.(روح المعاني:١٥/١٧٧.)

ويمكن أن يقال: إنّ قوله سبحانه:(لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ) بمعنى أنّه لا ينتقل من هذه الدرجة من العذاب إلى درجة أخفّ منها طول خلوده في النار.

وأمّا تخفيف العذاب لحظة بخبوّ النار ثم عودته ثانياً فلا ينافي قوله سبحانه:(لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ)إذ المفروض أنّه محكوم بدرجة شديدة من العذاب مطلقاً، لا ينزل إلى درجة واطئة عبر وجوده في النار.

٩٨.(ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا):

لمّا أوعد الله سبحانه هؤلاء المعاندين بالعقاب الفظيع بأنّهم يحشرون على وجوههم إلى آخر ما ذكره، فربّما يطرأ على بعض الأذهان سؤال عن سبب هذا الجزاء الفظيع، فأجاب سبحانه بأنّه جزاء كفرهم بآياتنا، كما قال:(ذَلِكَ): أي العذاب الفظيع (جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ) الباء للسببية أي بسبب أنّهم (كَفَرُوا بِآيَاتِنَا)الآفاقية والقرآنية، وأنكروا أشدّ الإنكار الحياة الأُخروية (وَقَالُوا) منكرين أشدّ الإنكار (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا): أي رميماً (أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا): أي حياة غير هذه الحياة؟ترى أنّهم ينكرون الحياة الأُخروية بأشدّ الإنكار، وقد جاء إنكارهم في غير واحدة من السور، فإنّ المشركين كانوا يتحرّجون من أمرين:

١. توحيد الإله.

٢. وجود الحساب يوم القيامة.

والله سبحانه يجيبهم عن استبعادهم الأمر الثاني بالآية التالية:

٩٩.(أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا):

قوله:(أَوَ لَمْ يَرَوْا): أي أنّ ما ذكروه مجرّد استبعاد غير مبنيّ على دليل، أوَ لا يرون (أَنَّ اللهَ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ): أي مثل هؤلاء، لأنّ خلق السماوات والأرض أفضل دليل على قدرته، والضمير في قوله:(مِثْلَهُمْ) يرجع إلى المنكرين.

ثم إنّ قوله:(أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) يحتمل أمرين:

١. أي قادر على أن يخلق خلقاً آخر مثلهم، فإذا كان قادراً على خلق أُناس آخرين مثلهم، فيكون قادراً على إعادة المنكرين من جديد.

٢. أن يكون قادراً على خلق المنكرين من جديد ـ كما مرّ ـ وإنّما سمّاهم بالمثل للوجه التالي: وهو أنّ الإعادة بما أنّها إيجاد ثان يغاير الخلق الأوّل، فلأجل ذلك يطلق على المعاد مثل المبتدأ لا عينه.

ثمّ إنّه ربّما يثار سؤال: وهو أنّ القول بأنّ المعاد مثل المبتدأ لا عينه، يغاير قوله سبحانه:

(قُلْ يُحْيِيهَا الذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّة وَهُوَ بِكُلِّ خَلْق عَلِيمٌ)(يس:٧٩.).

وربّما يجاب بأنّ المراد من المثل في الآية هو النفس أي الشيء نفسه، بشهادة أنّه يقال: مثلك لا يفعل ذلك، يراد الشخص نفسه.

والأولى أن يجاب بأنّ المعاد مثل المبتدأ من جهة، وعينه من جهة أُخرى. أمّا الأوّل فقد ظهر وجهه فإنّ تعدّد الإيجاد يستلزم تعدّد الموجود، والتعدّد آية التغاير لا العينية، وأمّا الثاني فلأنّ شخصية الإنسان إنّما هي بنفسه وروحه، وحقيقة الإنسان محفوظة بها، فإذا كانت الروح في كلا البدنين شيئاً واحداً فيصدق أنّ المعاد عين المبتدأ. وسيوافيك شرح ذلك في تفسير سورة السجدة في قوله سبحانه:(وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْق جَدِيد بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ).(السجدة:١٠ و١١.)

قوله تعالى:(وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً) قد عرفت أنّ معنى الأجل الغاية التي يبلغها الشيء، فهل المراد أجل السماوات والأرض؟ فعندئذ ينطبق الأجل على قيام القيامة، أو أجل المشركين المنكرين للمعاد؟ وعندئذ يكون المراد من الأجل هو موتهم وانتقالهم من الدنيا.

الظاهر هو الثاني، لأنّ الحديث يدور حول المعاد، أي معاد الإنسان، ويصفه سبحانه بقوله:(لاَ رَيْبَ فِيهِ)ومن المعلوم أنّ الأجل الذي لا ريب فيه إنّما هو أجل الإنسان الذي هو بمعنى موته، وأمّا أجل الدنيا وقيام القيامة فليس ممّا لا ريب فيه عند المشركين.

ولك أن تجعل قوله سبحانه:(وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ) دليلاً آخر على وجود المعاد، وحاصله: إنّه سبحانه هو الذي أوجد الإنسان وتمدّح بخلقه، فقال:(فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)(المؤمنون:١٤.) ،فعندئذ يطرح هذا السؤال: لماذا يفنيهم ولا يحرص على بقائهم؟

وقد أُجيب بأنّ جعل الأجل للإنسان وتقدير عمر له، لغاية انتقاله من حياة دنيّة إلى حياة سامية، فليس الموت بمعنى الفناء التامّ، وإنّما هو نافذة للانتقال إلى حياة أُخرى.

ثمّ إنّه سبحانه يصف الكافرين بجحد النعمة ويقول:(فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا): أي مع أنّهم علموا بأنّ القادر على خلق السماوات والأرض قادر على إعادتهم يوم القيامة ومع ذلك جحدوا نعمة العلم أو نعمة العقيدة.

١٠٠.(قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا):

هذه الآية تحكي عن أوصاف الكافرين بآيات الله تعالى وأنّهم لو كانت في أيديهم خزائن رحمته لأمسكوا بخلاً بها مخافة نفادها أو مخافة الفقر، فعندئذ يقع الكلام في صلة الآية بما قبلها، فأي صلة بين بخلهم وشُحّهم وبين ما كانوا عليه من العقائد والأفعال؟

يمكن أن يجاب عن ذلك ـ والله العالم ـ بأنّهم اقترحوا على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يُخرج لهم عين ماء، كما حكى عنهم ذلك بقوله: (تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا)فلم يستجب لهم النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) لِما مرّ من أنّ سنّة الله جرت على الوصول إلى المسبّبات عن طريق أسبابها، ومقترحهم يخالف تلك السنّة، فجاءت الآية ردّاً على زعمهم (أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بخل بأن يقوم بهذا الأمر)، وأنّ المتّهمين أولى بهذه التُّهمة لا نبيّ الإسلام(صلى الله عليه وآله وسلم) بشهادة أنّه: (لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفَاقِ): أي النَّفاد أو الفقر، وأين فَجْر الينبوع من رحمة ربّي التي لاتتناهى؟! وأمّا وجه إمساكهم فهو لأجل أنّ الدنيا آخر مُناهم ولا يعتقدون بالجزاء في مقابل الإنفاق في يوم القيامة، ولذلك يمسكون ما يملكون ويقتّرون.

ثمّ إنّه سبحانه يعمّم الحُكم ويقول:(وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُورًا): أي بخيلاً مبالغاً في الإمساك. ومن المعلوم أنّ المراد من الإنسان في الآية، هو جنس الإنسان الذي لم يقع تحت تربية الأنبياء وتعاليمهم، ولم يعتقد بيوم الجزاء. وأمّا المتربّون على تعاليمهم فهم أسخياء، وكيف لا يكونون كذلك وقد يبذلون أنفسهم في سبيل الله سبحانه، يقول تعالى:(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).(التوبة:١١١.)

الآيات ١٠١ ـ ١٠٤ (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَات بَيِّنَات ... جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا).

الآيات: الحادية بعد المئة إلى الرابعة بعد المئة

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَات بَيِّنَات فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلاَءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا * فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا * وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا).

المفردات

تسع آيات: وهي المعاجز التي احتجّ بها موسى(عليه السلام) على فرعون، وأمّا ما صدر منه من المعاجز في غير هذا المجال فليس

منها كشف البحر، وإحياء المقتول بالضرب بالبقرة، واحياء من أخذته الصاعقة من قومه، ونتق الجبل فوقهم، فكلّها كرامات لكن لا في مقابل فرعون، بل صدرت عنه لغايات أُخرى.

مسحوراً: يحتمل أن يراد بالمفعول معنى الفاعل، أي ساحراً، كما في قول فرعون:(إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)(الشعراء:٣٤.)، أو أنّه بمعنى المفعول، أي مَنْ أثّر فيه السحر وأزيل عقله، ويؤيّده قول فرعون لموسى: (فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)(الذاريات:٣٩.). فقوله:(مَجْنُونٌ) يشير إلى كونه مسحوراً.

بصائر: واحدها بصيرة، أي حُججاً مبصرة ومبيّنة.

مثبوراً: هالكاً، بشهادة قوله: (دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا).(الفرقان:١٣.)

يستفزهم: يخرجهم من أرض مصر بالإزعاج. ويستعمل لفظ (فَزّ) بمعنى طيّر فؤاده وأفزعه وأزعجه، ومن ينهض مذعوراً وخائفاً يقال له: فزّ (في بعض اللّهجات).

لفيفاً: اللّفيف: الجمع العظيم من أخلاط شتّى.

التفسير

تتحدّث هذه المجموعة من الآيات الشريفة عمّا جرى بين موسى(عليه السلام)وفرعون من المحادثات والمناظرات، ومع كونها آيات مبصرة فإنّه وملأه قد جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم، فكانت النتيجة إغراق فرعون ومن معه من جنده وأتباعه، ونجاة بني إسرائيل من الفراعنة واستيطانهم في الأرض الموعودة.

ثمّ إنّه يقع الكلام في وجه الصلة بين هذه المجموعة وما تقدّمها من الآيات، ويمكن أن يقال بأنّ المجموعة تسلية للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وأنّ إنكار المشركين في مقابل معاجز النبيّ وكراماته ليس أمراً بديعاً، فقد أنكر فرعون وملَؤه معاجز موسى التسع، وكانت الآيات واضحة الدلالة على اتّصاله بالله سبحانه، ولذلك قال:

١٠١. (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَات بَيِّنَات فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا):

اللام في قوله: (وَلَقَدْ) موطّئة للقسم، والله سبحانه يحدّث عن إيتاء موسى آيات خارقات للمألوف، ويقول:(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَات بَيِّنَات): أي واضحات الدلالة على صدقه، فلا غَرو في أن لا يؤمن أئمّة مشركي مكّة بالآيات النازلة على النبيّ الأكرم(صلى الله عليه وآله وسلم).

وأمّا ما هي تلك الآيات التسع، فقد تقدّم منّا في المفردات أنّها عبارة عن المعاجز التي جاء بها موسى(عليه السلام) لفرعون مناظراً له، وهي عبارة عن: «العصا، واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدَّم، والسنين، ونقص الثمرات».

وقد جاء في سورة الأعراف قسم من هذه الآيات مجتمعاً، قال سبحانه:(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَات مُفَصَّلاَت فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ).(الأعراف:١٣٣.)

وأمّا الرّجز الذي جاء في قوله سبحانه:(وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى)(الأعراف:١٣٤.) فأُريد به العذاب الجامع بين هذه الأنواع وليس شيئاً مستقلاًّ، كما أنّ البحر وإن كان من معاجزه لكنّه لم يكن في مقابل فرعون احتجاجاً عليه، وبذلك يظهر ضعف كلام ابن عاشور حيث جعل الرّجز من التِّسع، كما يظهرالضعف في البيت الذي جمعه الفيروز آبادي، في قوله:

عصا، سنة، بحر، جراد، قمّل *** يد، ودم بعد الضفادع، طوفان

ثمّ إنّه سبحانه يأمر نبيّه بسؤال بني إسرائيل ويقول:(فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ) الضمير يرجع إلى بني إسرائيل وأُريد به آباءهم، ومعنى الفقرة: فأسألهم يخبرونك لأنّه جاءهم، أي جاء آباءهم موسى بهذه الآيات وأبلغها فرعون.

وأمّا وجه سؤاله بني إسرائيل فيقول صاحب الكشاف: ليزداد يقيناً وطمأنينة قلب، لأنّ الأدلّة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت، كقول إبراهيم(عليه السلام):(وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)(البقرة:٢٦٠).

ومع ذلك يمكن أن يكون إرشاداً للمشركين حتى يقوموا بسؤال اليهود الذين كانت لهم صلة بالمشركين في رحلتهم الصيفية حيث يمرّون بالمدينة، وأمّا ما هو المسؤول عنه؟ فهو مناظرة موسى(عليه السلام)مع فرعون وإجابة فرعون بقوله:(فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا): أي أثّر فيك السحر. وهذه هي شيمة العتاة والمترفين الفاسدين الذين يقفون ضد دعوات الإصلاح، ويلجأون إلى تشويه سمعة أصحابها ليحولوا دون إقبال الجماهير عليهم، فتارة يتهمونهم بأنّهم سَحَرة، وأُخرى بأنّهم مسحورون، وقد مرّ أنّ فرعون اتّهم موسى(عليه السلام)بالساحرية أيضاً، وأمّا ما أجاب به موسى(عليه السلام)فهو ما يأتي بيانه في الآية التالية:

١٠٢. (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا):

ثمّ إنّ موسى(عليه السلام) جَبَه فرعون بجواب مؤكّد بالقسم بأنّه قد علم وأيقن بأنّ ما جرى على يديه(عليه السلام) من الآيات ليس من صنعه وإنّما أنزلها رب السماوات والأرض، ولم تكن من مقولة السحر وإنّما هي بصائر، كما حكى عنه ذلك سبحانه (قَالَ) موسى:(لَقَدْ عَلِمْتَ) يا فرعون (مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ): أي الآيات التّسع(إِلاَّ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) أنزلها (بَصَائِرَ): أي حججاً مبيّنة تبصِّر الناس بقدرة الله تعالى ووحدانيّته. وقد جيء باسم إشارة العاقل(هَؤُلَاءِ) تكريماً للمنزَل، كما في قوله تعالى في رؤيا يوسف(عليه السلام): (يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ)(يوسف:٤).

ونسب(عليه السلام) إنزال الآيات إلى ربّ السماوات والأرض إعلاماً بأنّ خالق السماوات والأرض وربّهما قادر على أن ينزل هذه الآيات التسع. ولمّا وصف فرعون النبيَّ موسى(عليه السلام) بكونه مسحوراً قابله موسى بقوله:(وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا): أي هالكاً، فأخبر بذلك عن هلاكه في المستقبل، وعبّر عن علمه بالظنّ إمّا تأدّباً أمام الله سبحانه، فهو يعلم، أو أنّ الظن بمعنى العلم.

وهذه الفقرة دليل على جواز التعامل بالمثل، فهو قد وصف موسى(عليه السلام)بقوله مسحوراً، والنبيّ موسى وصفه بقوله:(مَثْبُورًا).

١٠٣.(فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا):

قد تقدّم منّا أنّ وجه الصلة بذكر هذه المجموعة هو تسلية النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)وبيان أنّ ما يواجهه من كبراء قومه من العناد والإيذاء ليس شيئاً جديداً، وإنّما هو شيمة الجبابرة العتاة، فموقف هؤلاء منه(صلى الله عليه وآله وسلم) ومن المؤمنين به يشبه موقف فرعون من موسى وقومه، فمشركو قريش أضمروا نيّة إبعاد النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) عن وطنه وإخراجه من مكة، كما مرّ في قوله سبحانه:(وَ إِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ)(الإسراء:٧٦)، والطاغيه فرعون قد عزم على استفزاز بني إسرائيل من قبل، كما قال سبحانه:(فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الأَرْضِ): أي يخرجهم من الأرض التي يسكنونها بالمزعجات والمخيفات.

ولكن قوبل عزمه هذا بإرادة إلهية شاءت أن تستأصله هو ومَن سارَ معه لملاحقة بني إسرائيل، بالإغراق كما يقول:(فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ) من الأتباع (جَمِيعًا) ولم ينج منهم أحد.

وفي الختام نشير إلى أنّ الجبابرة يحاولون جاهدين إسكات أصوات المصلحين بطريقين: بالاتّهام أوّلاً كما اتّهم فرعون موسى(عليه السلام)بكونه مسحوراً، فإذا لم يؤثّر هذا الطريق ينتقلون إلى الأُسلوب العملي وهو استئصالهم ومحوهم عن صفحة الوجود.

١٠٤. (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا):

لمّا أخبرت الآية السابقة عن إغراق فرعون ومَنْ تبعه وكانت هنا مظنَّة سؤال عن مصير بني إسرائيل، تكفّلت هذه الآية بالإجابة عنه، فالله سبحانه يخاطبهم بقوله: (وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ) بأمرين:

١.(اسْكُنُوا الأَرْضَ) أُريد بها أرض فلسطين.. الأرض التي وُعدوا السكنى بها، وقد حكى سبحانه عن موسى (عليه السلام)ذلك بقوله:

(يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)(المائدة:٢١.) إلى غير ذلك من الآيات التي تدلّ بوضوح على عدم عودتهم إلى مصر.(لاحظ: سورة البقرة: ٥٨، وسورة الأعراف: ١٦١.)

٢. (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا) يخبر سبحانه بأنّه يأتي ببني إسرائيل مجتمعين عندما يأتي وعد الآخرة، وأكثر المفسّرين على أنّ المراد قيام الساعة، والمعنى: جئنا بكم جماعات من أخلاط شتّى، ثم يحكم بينكم ويميّز سعداءكم من أشقيائكم. ويحتمل أن يراد به ما سبق في صدر السورة، حيث قال:(فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا)(الإسراء:٧.)، فينعطف بذلك ذيل الكلام في السورة إلى صدره، ويكون المراد: أنّا أمرناهم بعد غرق فرعون أن اسكنوا الأرض المقدّسة التي كان يمنعكم منها فرعون والبثوا فيها، حتى إذا جاء وعد الآخرة التي يلتفّ بكم فيها البلاء بالقتل والأسر والجلاء جمعناكم منها، وجئنا بكم لفيفاً، وذلك أسارتهم وإجلاؤهم إلى بابل.(الميزان في تفسير القرآن:١٣/٢١٩.)

الآيات ١٠٥ ـ ١٠٩ (وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ... يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا).

الآيات: الخامسة بعد المئة إلى التاسعة بعد المئة

(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْث وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً * قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا).

المفردات

بالحق: الحقّ، هو الثابت الذي لا يزول.

فرَقناه: أنزلناه متفرّقاً ولم ننزله مجتمعاً.

على مُكث: المُكث: التأنّي والتَّمهُّل.

يخرّون: يسقطون بسرعة.

للأذقان: الأذقان: جمع ذقن، وهو مجتمع اللّحيين. والمعنى: يسقطون على الأرض ساجدين ؛ لأنّ من يسجد يكون أقرب شيء منه للأرض ذقنه أو أوّل ما يلقى به الأرض من وجهه، الذقن.(تفسير الكشّاف:٢/٤٦٩.)

إن كان وعد ربنا: كلمة (إن) مخففة من المثقّلة، دخلت على (كان) الذي هو أحد النواسخ، وجاء خبرها مقروناً باللاّم للدّلالة على (أن) مخففة وليست بنافية.

مفعولاً: محقّقاً.

التفسير

١٠٥.(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا):

الآية تتضمّن أُموراً ثلاثة:

١. أنزل القرآن بالحقّ، كما يقول:(وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ).

٢. نزول القرآن مصحوباً بالحقّ، كما يقول:(وَبِالْحَقِّ نَزَلَ).

٣. وليس للمنزل عليه إلاّ التبشير والإنذار، كما يقول:(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا).

فالله سبحانه ذكر فعل النزول مرّتين تارة بقوله:(أَنْزَلْنَاهُ) وأُخرى بقوله:(نَزَلَ) ووصف كلاًّ بالحقّ، ومقتضى العطف هو تغاير مفاد المعطوف مع المعطوف عليه، بمعنى إنزاله بالحقّ، غير نزوله بالحقّ، وقد اختلف المفسّرون في تفسير الفعلين ووصفهما، ونحن

نقتصر على ما ذكره القرطبي في ذلك.

قال القرطبي: يجوز أن يكون معنى الأوّل أوجبنا إنزاله بالحقّ، ومعنى الثاني: ونزل وفيه الحقّ، كقوله: خرج بثيابه، أي وعليه ثيابه.(تفسير القرطبي:٣٣٩/١٠.) ولعلّه أراد من الفقرة الأُولى: قدّرنا إنزاله بالحقّ، ومن الفقرة الثانية: تحقّق هذا التقدير.(تفسير القرطبي:٣٣٩/١٠.)

والأَولى أن يقال: إنّ الفقرة الأُولى ناظرة إلى مادّة القرآن ومحتوياته، فإنّ محتواه من جميع الجوانب حقّ لا يشوبه باطل، من غير فرق بين معارفه، وأحكامه، وقصصه، فالجميع مصحوب بالحقّ الذي لا يتطرّق إليه الباطل.

وأمّا الفقرة الثانية، فهي ناظرة إلى نزول القرآن فقد تلقّاه أمين الوحي من الله سبحانه ونزل به على قلب سيد المرسلين وبلّغه حسب ما نزل، وهو في عامّة المراحل كان مصحوباً بالحقّ ومصوناً من التحريف والتزوير، لأنّ الله سبحانه تعهّد بحفظه وقال:(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).(الحجر:٩.)

فالقرآن كان مصحوباً بالحقّ قبل النزول بمحتواه ومادّته، وحين النزول وبعد النزول بمصونيّته من التحريف والتزوير، ولعلّه إلى ذلك يشير سبحانه بقوله:(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُول فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْء عَدَدًا).(الجن:٢٦ـ ٢٨.)

ومفاد الآيتين هو أنّ الله سبحانه بعد ما يسلّط رسوله على ما يشاء من غيبه ومنه الوحي والرسالة لا يترك الرسول بل يجعل من أمامه ومن خلفه رَصَداً وملائكة، يحفظون النبيّ من الاشتباه في تلقّي الوحي وحفظه ونقله إلى الغير، فقوله:(مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ) كناية عن الإحاطة المطلقة وكونه محاطاً من قبل الرَّصد، وستقرأ تفصيل ذلك في تفسير سورة الجنّ إن شاء الله تعالى. وقد أُشير إلى هذا في سورتنا بقوله: (وَبِالْحَقِّ نَزَلَ).

ولمّا تمّ كلامه سبحانه في كيفية نزول القرآن وصيانته من الباطل، ركّز على أنّه ليس للنبيّ أي تصرّف فيه، بل له إبلاغ ما نزل بصورة التبشير والإنذار، كما قال:(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) ولذلك كلّما اقترح الكفّار أن يبدّل القرآن أو يأتي بقرآن غيره قوبلوا بالردّ كما قال تعالى: (وَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآن غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ).(يونس:١٥.)

١٠٦. (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْث وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً):

سرّ نزول القرآن نجوماً

قد تقدّم في المجموعة السابقة أنّ المشركين اقترحوا على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)أن يأتي إليهم بكتاب من السماء مجتمعة فيه الآيات حتى يؤمنوا به، حيث قالوا:(وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ)(الإسراء:٩٣.).

أضف إلى ذلك: أنّ من مؤاخذات سائر المشركين على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)هو قوله:(لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً)(الفرقان:٣٢.)، حتى أنّ أهل الكتاب تذرّعوا بما تذرّع به المشركون، كما حكى عنهم سبحانه ذلك بقوله:(يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ)(النساء:١٥٣.)، فهؤلاء رأوا أن يكون القرآن كالتوراة نازلاً مرّة واحدة على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وصاروا متعجّبين أو معترضين على نزول القرآن تدريجاً.

ولأجل وجود هذا الاعتراض بين الوثنيّين وأهل الكتاب، جاء البيان القرآني لبيان أسراره في غير موضع من القرآن الكريم. أمّا المقام فجاء قوله سبحانه:(وَقُرْآنًا) وهو منصوب بفعل مقدّر أي: وفَرَقنا القرآن وجعلنا نزوله منجّماً مفرّقاً غير مجتمع، لماذا؟ هنا أسباب ودواع تأتي تباعاً:

١. (لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْث) أي ليقرأ النبيُّ القرآنَ على الناس على تمهُّل وبُطء ليكون أثبت في نفوس الناس، ليسهل فهمه وحفظه، فإنّ كثيراً من الناس لا يستطيعون فهم المعارف والأحكام مرّة واحدة.

والآية دليل على بطلان قول من قال:«نزل القرآن على محمد(صلى الله عليه وآله وسلم)جملة واحدة، وبلّغه هو على دفعات» نقل ذلك الشيخ مغنية في تفسيره، ولا أظن أنّ القائل من المسلمين، لأنّ نزول القرآن على النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)تدريجاً (منجّماً) أمر اتّفق عليه المسلمون، قال الشيخ المفيد: نزل القرآن على الأسباب الحادثة حالاً بعد حال، ويدلّ على ذلك ظاهر القرآن والتواتر من الأخبار(تصحيح الاعتقاد:٥٧). ولعلّ من قال بنزول القرآن دفعة قال بنزول مفاهيمه ومقاصده مرّة واحدة دون أن يكون مجتمعاً بألفاظه ونازلاً عليه بسوره وآياته. وهذا مراد من قال بنزول القرآن دفعتين.

ولأجل تلاوة القرآن على مكث يقول سبحانه:(وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً) كأنّه تفسير لقوله: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ).

هذا ما يذكره سبحانه في سورة الإسراء، وفي سورة الفرقان يذكر سرّاً آخر لنزوله تدريجاً، ويقول:

٢. (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً).(الفرقان:٣٢)

لقد بيّنت هذه الآية سرّاً من أسرار نزول القرآن نجوماً، وهو أنّ النبيّ الأكرم رغم كونه إنساناً معصوماً مؤيّداً بروح القدس ذا عقل كبير وصدر وسيع، واستعداد فائق للثبات أمام إيذاء المنكرين ومخططات المعاندين، ومع ذلك كله فإنّ المتاعب في طريق التبليغ إذا كثرت وتراكمت، فربما يجد في نفسه تعباً وانكساراً فنزول أمين الوحي من جانب ربِّ العالمين يثبّت قلبه ويزيل ما طرأ على قلبه، ولذلك يقول:(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ).

٣. إنّ قسماً من آيات الذكر الحكيم ترجع إلى أجوبة السائلين عن غير واحدة من المسائل والأحكام والمواضيع، كما أنّ قسماً منها يرجع إلى احتجاج اليهود والنصارى مع النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، وقسماً ثالثاً يرجع إلى الحوادث الناجمة عن الحروب والغزوات، أفيمكن ذكر جميع ذلك في كتاب قبل وجودها وتحقّقها؟

٤. من التُّهم التي يكيلها المشركون للنبيّ هو أنّه(صلى الله عليه وآله وسلم) تعلّم القرآن من غيره من البشر، كما قال:(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)(الفرقان:٤ و٥).

وهذه التهمة وإن كانت تهمة تافهة لا يؤمن بها من له أدنى معرفة بحياة النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)، إلاّ أن لها أثراً في نفوس الرَّعاع البسطاء، فنزول القرآن متفرّقاً للأسباب المتقدّمة كالإجابة عن الأسئلة بعد طرحها، وتبيين ما طرأ في المغازي أو ما جرى بينه وبين غيره من الاحتجاجات في كلّ فترة، أفضل دليل على أنّه لم يتعلّم من غيره، ولم يُعِينه عليه أي بشر، لأنّه بين ظهرانيهم لا يغيب عنهم ساعة ولا أقلّ.

هذه جملة من أسرار نزول القرآن نجوماً، ولعلّنا نستوفي الكلام عند تفسير الآية (٣٢) من سورة الفرقان.

١٠٧.(قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا):

لمّا اشترط كبراء قريش لكي يصدّقوا بالنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) أن يستجيب لاقتراحاتهم الدالّة على المكابرة والعناد، والتي تضمّنتها الآيات الأربع المتقدّمة (٩٠ـ٩٣)، جاء البيان القرآني ليعنّفهم ويقرّعهم على موقفهم المتعنّت هذا، وقال: (قُلْ) يا محمّد لهؤلاء الكفّار المعاندين (آمِنُوا بِهِ): أي بالقرآن (أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا)فإنّ إيمانكم لا ينفعنا ولا كفركم يضرّنا، بل إيمانكم ينفعكم وكفركم يضرّكم، فالآية تحقير لهم واستخفاف بهم، وتذكير للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بأن لا يكترث بهم، لا بإيمانهم ولا بامتناعهم، وأنّهم وإن لم يدخل الإيمان في قلوبهم ولم يصدّقوا بالقرآن فهم أهل جاهلية وشرك، لكن هناك جماعة أفضل منهم يؤمنون به

كما قال:(إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ)أراد بهم أهل الكتاب الذين قرأوا الكتب وعرفوا النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم)كما عرفوا أولادهم، فهؤلاء يصدّقونه كما يقول: (إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا) والأذقان جمع ذقن وهو مجمع اللّحيين، لأنّ الساجد أوّل ما يلقى به الأرض من وجهه الذقن، وإلاّ فالسجود على الأذقان غير معروف، ويحتمل أنّه أُطلق الجزء (أي الأذقان) وأريد الكلّ (أي مطلق الوجوه). وأمّا ما هو ذكرهم عند السجود فهذا ما تذكره الآية التالية.

١٠٨. (وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً):

يزيدهم القرآن إيماناً بالله وصفاته وصدق وعده، وهذا يدلّ على أنّ جمعاً من علماء اليهود والنصارى آمنوا بالله بعد ما سمعوا آيات القرآن وشاهدوا أنّ العلائم التي وردت في تعريف النبيّ في التوراة والإنجيل منطبقة على النبيّ العربيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) ولذلك نرى أنّه سبحانه يصفهم في موضع آخر ويقول:(لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ).(آل عمران:١١٣.)

قوله:(يَقُولُونَ) عطف على: (وَيَخِرُّونَ) وما جاء بعده مقول قولهم أعني:(سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً)، أي محققاً قطعاً لا تخلّف فيه.

١٠٩. (وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا):

ولعلّه سبحانه كرّر خرورهم للأذقان لاختلاف الحالين، فالآية الأولى ناظرة إلى خرورهم حال كونهم ساجدين، وهذه الآية ناظرة إلى خرورهم حال كونهم باكين، فالقرآن يزيدهم إيماناً واعتقاداً كما يزيدهم لين قلب ودموع عين.

ويمكن أن يقال إنّهم يجمعون بين الفعل الدالّ على الخضوع، كما في الآية الأُولى، والقول الدالّ على التنزيه والتعظيم، كما في الآية الثانية، نظير قوله سبحانه:(خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ).(السجدة: ١٥؛ لاحظ تفسير الكشّاف: ٢/٢٤٩، والتحرير والتنوير:١٤/١٨٤.)

وعلى كلّ تقدير فالآية تسلية للنبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) وتطييب لنفسه.

الآيتان ١١٠ ـ ١١١ (قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا ف ... وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا).

الآيتان: العاشرة والحادية عشرة بعد المئة

(قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا).

المفردات

ادعوا الله: أي سمّوه بأحد الاسمين.

تُخافت: يقال: تخافت القوم: تسارّوا فيما بينهم. واللغة الدارجة هي المخافتة، وأما أخفت فليس لغة دارجة، نعم هو كثير الورود في الكتب الفقهية.

أيّاً ما: أيّ: اسم استفهام في الأصل، فإذا اقترنت به (ما) الزائدة أفادت الشرط، ولذلك جُزم الفعل بعدها وهو (تَدْعُوا) شرطاً، وجيء لها بجواب مقترن بالفاء، وهو قوله:(فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى).

التفسير

إنّ المشركين كانوا ينزعجون من سماع كلمة الرحمن، وقد حكاه عنهم سبحانه في قوله:(وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا).(الفرقان:٦٠.)

وقد روى أهل السير أنّه لمّا جرى الصلح بين قريش المشركة وبين النبيّ، في الحديبية، دعا(صلى الله عليه وآله وسلم)عليّاً (عليه

السلام) ليكتب وثيقة الصلح، فلمّا أمره أن يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» قال سُهيل بن عمرو (مندوب قريش): لا نعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللّهم. (انظر:تاريخ الطبري:٢/٢٨١؛ الكامل في التاريخ:٢/٢٠٤).

وروي عن ابن عباس، قال: صلّى رسول الله بمكة ذات يوم فدعا الله فقال في دعائه: يا الله يا رحمن، فقال المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين، فأنزل الله:(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ). (تفسير الدر المنثور: ٥/٣٤٨).

لقد قادهم الجهل والسَّفه إلى الزعم بأنّ لفظ الجلالة اسم إله، والرحمن اسم لإله آخر، غافلين عن أنّ كلا الاسمين يشيران إلى ذات مستجمعة لجميع الصفات الكمالية، فلفظ الجلالة يشير إلى هذا المعنى، والرحمن يشير إلى الذات بما له صفة رحمانية، وهكذا سائر الصفات كالعالم والقادر، فكلّ واحد من هذه الأسماء يشير إلى ذات واحدة وإن كانت الأسماء مختلفة، كما يقول:

كيفية دعاء الله سبحانه

١١٠. (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنى وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً):

أي (قُلِ) يا محمد (ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ) فلا حرج في دعائه بأيّ اسم كان، ثم علّله بقوله: (أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنى) فكلٌّ يشير إلى كمال من كمالات الله سبحانه.

وأمّا كيفية الدعاء، فيذكره بقوله:(وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا)وبما أنّ هذه الفقرة جاءت بعد دعائه بأسمائه، فلا محيص من تفسير الصلاة بالمعنى اللُّغوي أي الدعاء لا الفريضة والعبادة المعروفة، فيأمر النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) في دعائه بأسماء الله أن يتخذ طريقاً وسطاً بين رفع الصوت بشدّة والمخافتة. ولو كانت الآية ناظرة إلى دعاء الله بأسمائه فيجب أن نتّبع مضمون الآية عندما ندعو الله سبحانه، فما ربما يشاهد من الجهر بالدُّعاء من على المنابر ليس منسجماً مع مضمون الآية.

قلنا: إنّ المراد من الجهر هو رفع الصوت بشدّة، وهذا هو الذي يرويه سَماعة مضمراً عن الإمام الصادق (عليه السلام)قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ:(وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا) قال:«المخافتة ما دون سمعك، والجهر أن ترفع صوتك شديداً». (تفسير نور الثقلين: ٣/٢٣٣).

لكن يظهر ممّا رواه علي بن إبراهيم بسند صحيح عن سماعة أنّ الصلاة الواردة في الآية تشمل العبادة المعروفة. قال: قلت لأبي عبد الله(عليه السلام): أعَلى الإمام أن يُسمع مَن خلفه وإن كثروا؟ قال:«ليقرأ قراءة وسطاً، يقول الله تبارك وتعالى:(وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا)». (تفسير نور الثقلين: ٣/٢٣٣).

وعلى هذا فيكون المراد هو اتخاذ الوسط في القراءة بين الجهر والإسرار.

وممّا ذكرنا يعلم أنّ كيفية صلاتنا في الظهرين لا تخالف الآية، فإنّ الكيفية وإن لم تكن جهراً ولكنّه ليس مخافتة لأنّها عبارة عمّا لا يسمعه القارئ نفسه، والرائج هو سماع نفسه وإن لم يسمع غيره.

١١١. (وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا):

قد أمر سبحانه النبيّ(صلى الله عليه وآله وسلم) بالتحميد لله وقال: (وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ) اللام للاختصاص، فالمحامد كلّها لله سبحانه، حتى ثناؤك للؤلؤ، وذلك لأنّ جماله وما هو السبب لثنائك هو من الله سبحانه، فعلى هذا فما يقوم به الشعراء والخطباء من الثناء على الصلحاء، هو في الحقيقة ثناء لله سبحانه.

ثم ذكرت الآية ثلاثة أوصاف لله سبحانه:

١. (الذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) لأنّ اتّخاذ الولد آية العجز.

٢. (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ): أي متوحّد في الخالقية والمدبِّرية.

٣. (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ) والذلّ عبارة عن العجز والافتقار، وهو تعالى غنيٌّ على الإطلاق. ثم أمره سبحانه بتعظيمه وقال: (وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا): أي عظّمه تعظيماً لا يساويه تعظيم.

بقي الكلام في صلة الآية بما قبلها، ويمكن أن يقال: إنّها جاءت لدفع توهُّم المشركين، وهو أنّ تعدّد الأسماء يلازم تعدد المسمّى، فأمر سبحانه نبيّه أن يصفه بصفات مختلفة بأن يقول:

الله الذي لم يتّخذ ولداً.

الله الذي لم يكن له شريك في المُلك.

الله الذي لم يكن له وليٌّ من الذلّ.

علماً بأنّ تعدّد الصفات لا يدلّ على تعدد المسمّى.

وفي الختام أمر بتعظيمه وتكريمه وقال:(وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا).

كلام في الأسماء الحسنى

تضافرت الآيات على أنّ لله سبحانه الأسماء الحسنى، قال سبحانه: (وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).(الأعراف: ١٨٠.)

وقال سبحانه: (فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى).(الإسراء: ١١٠.)

وقال سبحانه: (اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى).(طه:٨.)

وقال سبحانه:(هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى).(الحشر:٢٤.)

ثمّ إنّ اختلاف الفِرَق الإسلامية قد وقع في الأسماء لا في الذات، ولكنّ الإشارة إلى جميع جوانب المسألة يورث الخروج عن الإيجاز، وإنّما نشير إلى بعض الجوانب.

١. أسماء الله في القرآن الكريم والروايات

قد ورد في القرآن الكريم مئة واثنان وثلاثون اسماً لله سبحانه بين بسيط ومركّب، وروى الفريقان عن النبيّ أنّ رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) قال : إنّ لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً(مئة إلاّ واحد) مَن أحصاها دخل الجنّة.(انظر: التوحيد للصدوق:١٩٤، برقم ٨؛ وسنن الترمذي:٧/١٠٠٧ـ ١٠٠٨، كتاب الدعوات، برقم ٣٥١٨.)والمراد من إحصائها هو الوقوف على معانيها أو التمثّل والتشبّه بها مهما أمكن.

ويحتمل أن يكون المراد الاجتهاد في التقاطها من الكتاب والسنّة، وجمعها وحفظها، كما يحتمل أن يكون المراد عدّها والتلفّظ بها.

وفي القاموس: «أحصاه: عدّه أو حفظه أو عقله».

وسيوافيك ذكر أسمائه في القرآن الكريم وفي أحاديث أهل البيت(عليهم السلام) وما رواه أهل السنّة عند تفسيرالآية (٨) من سورة طه.

٢. هل الاسم نفس المسمّى أو غيره؟

قد شغلت بال القدماء والمتأخرين مسألة اتّحاد الاسم والمسمّى. ولا شكّ في أنّ الاسم أي ما هو الملفوظ والمكتوب والمتصوَّر غير المسمّى. وإنْ أُريد من الاسم ذات الشيء والمسمّى أيضاً ذات الشيء، يكون معنى قولهم إنّ ذات الشيء هو نفس ذات الشيء. ومن المعلوم أنّه قضية بديهية، ولكن إطلاق الاسم على المسمّى إطلاق غير صحيح، وهناك رواية عن أبي عبد الله(عليه السلام) رواها الكليني ننقلها بنصّها. قال الإمام الصادق(عليه السلام):«من عبد الله بالتوهُّم فقد كفر، ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر،

ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه، ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته، فأُولئك أصحاب أمير المؤمنين حقّاً».(الكافي:١/١١٢، باب حدوث الأسماء، الحديث٤؛ توحيد الصدوق:١٩٢، باب أسماء الله، الحديث٥)

٣. هل الأسماء الحسنى توقيفية أو لا؟

المراد من توقيفية الأسماء توقُّف إطلاقها على الإذن فيه، وليس الكلام في الأسماء الموضوعة له بين شعوب العالم حسب اختلاف ألسنتهم، حيث إنّ العرب تسميه(الله) والفرس (خدا) والترك (تاري) وقسم من الافرنج **(God)** وهكذا فكلّ أُمّة من الأُمم تسمّيه سبحانه باسم يشيرون به إلى ما يؤمنون به بالفطرة، إنّما النزاع في غير هذا القسم، كالذي يشعر بوصف من صفاته أو أفعاله كالعالم والقادر.

دليل القائل بعدم التوقيفية

قد ذهبت المعتزلة والكرّامية إلى أنّه إذا دلّ العقل على اتّصافه بصفة وجودية أو سلبية، جاز أن يطلق عليه اسم يدلّ على اتّصافه بها سواء ورد بذلك إذن شرعي أو لم يرد، وكذا الحال في الأفعال.

يلاحظ عليه: أنّه سبحانه وصف نفسه بالخدعة والمكر والاستهزاء، قال سبحانه: (يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)(النساء: ١٤٢.)، وقال سبحانه: (إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا)(الطارق: ١٥ ـ ١٧.)، وقال تعالى: (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)(البقرة:١٥.) فلا يصحّ في مقام الدُّعاء أن نقول: يا أيّها الخادع والكائد والمستهزئ اقضِ حاجتي، فإنّ الجري والنسبة غير التسمية، والأوّل خال عن الإيهام لأنّ اللفظ ورد من باب المشاكلة في الكلام، كما هو واضح لمن لاحظ الآيات بخلاف التسمية، فإنّها خالية عن القرينة.

دليل القائل بتوقيفية الأسماء

استدلّ القائل بالتوقيفية بقوله سبحانه:(وَللهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(الأعراف:١٨٠.).

والاستدلال مبنيّ على أمرين:

١. أنّ اللاّم في الأسماء الحسنى للعهد تشير إلى الأسماء الواردة في الكتاب والسنّة.

٢. أنّ الإلحاد هو التعدّي إلى غير ما ورد فيها.

أقول: لو سلّمنا المعنى الأوّل، فالأمر الثاني غير مسلّم، لأنّ الإلحاد هو الميل عن الوسط إلى أحد جانبين، وهو يتصوّر في أسمائه بوجوه:

الأوّل: إطلاق أسمائه على الأصنام بتغيير ما، كإطلاق «اللاّت» ـ المأخوذ من الإله بتغيير ـ على الصنم المعروف، وإطلاق «العُزّى» المأخوذ من العزيز، فكان المشركون يلحدون ويميلون عن الحقّ بسبب هذه الإطلاقات لإرادتهم التشريك والحطّ من مقامه سبحانه .

الثاني: تسميته بما لا يجوز وصفه به لما فيه من النقص، كوصفه سبحانه بأبيض الوجه وجعد الشعر، ومثله تسميته بالخادع والماكر والكائد.

الثالث: تسميته ببعض أسمائه دون بعض، حيث كان العرب يقولون: «يا الله و يا رحيم» ولا يقولون:«يا رحمن» ولدفع ذلك قال سبحانه:(قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)(الإسراء:١١٠.)، وقال سبحانه: (وَ إِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا

لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا)(الفرقان:٦٠.)، إلى غير ذلك من أقسام الإلحاد والعدول عن الحق في أسمائه. إذا وقفت على ضعف القولين، فالحقّ هو التفصيل وهو وصفه سبحانه بأوصاف تدلّ على الكمال وإن لم ترِدْ في الشَّرع، ولذلك يصحّ القول بوصفه بالواجب أو واجب الوجود، أو الصانع أو الأزليّ أو الأبديّ.

ثمّ إنّك عرفت أنّ الأسماء الواردة في الروايات لا تتجاوز تسعة وتسعين إسماً، مع أنّه ورد في الكتاب والسنّة أسماء خارجة عن التسعة والتسعين، كالبارئ والكافي والدائم والبصير والنور والمبين والصادق والمحيط، إلى غير ذلك من الأسماء، وقد شاع في عبارات العلماء: المريد، المتكلّم، الشيء، الموجود، الواجب. أضف إلى ذلك أنّ إثبات الشيء لا يدلّ على نفي ما عداه، فعدم ورود بعض الأسماء في الروايات لا يدلّ على تحريم تسميته به.

٤. بساطة الذات وكثرة الأسماء

دلّت البراهين العقلية على أنّه سبحانه بسيط غاية البساطة، فكيف تجتمع البساطة مع كثرة الصفات؟

ثمّ إنّ الإشكال إنّما هو في الصفات الخبرية التي يعبّر عنها بالصفات الثبوتية لكونها راجعة إلى صفات وجودية تختلف كلٌّ منها عن الأُخرى، فيُشكل الجمع بينها وبين القول بالوحدة والبساطة، وأمّا الصفات الجلاليّة أعني الصفات السلبية، مثل قولنا: ليس بجسم ولا عرض، فلا توجب كثرة السلوب، كثرة في الذات بشهادة أنّه يصحّ سلب كثير من الأُمور عن الجزء الذي لا يتجزّأ.

وحلّه: أنّ مبنى الإشكال هو أنّ مصداق العلم في ذاته سبحانه غير مصداق القدرة، ومصداق كليهما غير مصداق الحياة، فعندئذ يلزم التركيب، والحال أنّ الواقع ليس كذلك، بل أنّ هنا وجوداً واحداً كلّه علم وكلّه قدرة وكلّه حياة، لا أنّ بعضه علم وبعضه الآخر قدرة، وبعضه الثالث حياة، فالاختلاف في المفهوم لا يلازم الاختلاف في المصداق. وللحكيم السبزواري هنا كلام نأتي بنصّه، قال: اختلط عليهم المفهوم والمصداق فيرَون اختلاف المفاهيم ويتوهّمون اختلاف وجودها ومصداقها بحسبها، وكأنّهم لم يقرع أسماعهم جواز انتزاع مفاهيم مختلفة من مصداق واحد، وهذا نظير أنّه يصدق عليك أنّك مقدور لله ومعلوم، ومراد ومعلول له، وأنّك شخص واحد، ولا يمكنك أن تقول: أنّك مقدور من جهة، ومعلوم من جهة أُخرى مثلاً، إذ يلزم أن تكون حيثيّة مقدوريّتك غير معلومة له مع أنّه لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة، وحيثيّة معلوميّتك غير مقدورة له مع ثبوت عموم قدرته، فظهر أنّ اتّحاد مفاهيم كثيرة في الوجود والمصداق واقع.(شرح المنظومة للحكيم السبزواري: ١٥٤ ـ ١٥٥.)

تمّ تفسير سورة الإسراء

الفهرس